فتح القدير

الجامع
بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف
الإمام محمد بن علي الشوكاني
١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه
محمد صبحي بن حسن حلاق

راجعه وقابل أصوله وصنع فهارسه
د. عبد الرحمن بن محمد العيزري

الجزء الرابع

دار ابن الجوزي

فتح القدير

٤

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشوكاني، محمد علي
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير./ محمد علي الشوكاني؛ محمد صبحي حلاق؛ عبد الرحمن بن محمد العيزري.- الدمام، ١٤٤٢هـ
١٠مج.
ردمك: ٩ - ٧٤ - ٨٢٩٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٧ - ٧٨ - ٨٢٩٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٤)
١ - القرآن - تفسير أ. حلاق، محمد صبحي (محقق)
ب. العيزري، عبد الرحمن بن محمد (محقق) ج. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٢/٤٠٧٩

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ

الباركود الدولي: 9786038298749

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

فتح القدير

الجامع

بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي الشوكاني

١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق

راجعه وقابل أصوله وصنع فهارسه

د. عبد الرحمن بن محمد العيزري

الجزء الرابع

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأنفَال

صرّح كثير من المفسرين[١] بأنها مدنية ولم يستثنوا منها شيئاً، وبه قال[٢] الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء.

وقد رُوي مثل هذا عن ابن عباس، أخرجه النّحاس في «ناسخه»، وأبو الشيخ، وابن مُردويه[٣]، عنه، قال: سورة الأنفال نزلت بالمدينة.

وأخرجه ابن مردويه[٤]، عن عبد الله بن الزبير. وأخرجه ابن مردويه[٤] أيضاً عن زيد بن ثابت.

وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] أنه قال: نزلت في بدر. وفي لفظ: تلك سورة بدر.

قال القرطبي[٦]: قال ابن عباس: هي مدنية إلا سبع آيات من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠ ـ ٣٦] إلى آخر سبع آيات.

وجملة آيات هذه السورة ستّ وسبعون آية.

وقد كان النبيّ ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب، كما أخرجه الطبراني بسندٍ صحيح عن أبي أيوب[٧].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٤١)، و«المحرر الوجيز» (٧/ ٣).

(٢) ذكره عنهم القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٤١).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣).

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٩٨٤ ـ تفسير)، والبخاري رقم (٤٦٤٥، ٤٨٨٢)، ومسلم رقم (٣١)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٥٨).

(٦) في «تفسيره» (٩/ ٤٤١).

(٧) أخرجه الطبراني رقم (٣٨٩٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٢١): «رجاله رجال الصحيح».

وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت[١] عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال. [٢/١٦٧]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾.

الأنفال: جمع نَفَل محرّكاً، وهو الغنيمة، ومنه قول عنترة[٢]:

إنا إذا احمرّ الوغى نَروي القَنا ونعُفّ عند مقاسم الأنفالِ

أي: الغنائم، وأصل النّفْل[٣]: الزيادة، وسُميت الغنيمة به؛ لأنّها زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمة مما كان مُحرماً على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد. ويطلق النّفْل على معان أخر منها: اليمين، والابتغاء، ونبت معروف.

والنافلة: التطوّع لكونها زائدة على الواجب[٤]، والنافلة: ولد الولد؛ لأنه زيادة على الولد، وكان سبب نزول الآية: اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر، كما سيأتي بيانه، فنزع الله ما غنموه من أيديهم، وجعله لله والرسول، فقال: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾؛ أي: حكمها مختص بهما، يقسمها بينكم رسولُ الله عن أمر الله سبحانه، وليس لكم حكم في ذلك.

وقد ذهب جماعة[٥] من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصةً، ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١].

ثم أمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وترك الاختلاف الذي وقع بينهم.

---

(١) أخرجه الطبراني رقم (٤٨٢٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/١٢١): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) انظر: «ديوان عنترة» (ص١٩٤).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٢٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/٤٤٣).

(٥) «جامع البيان» (١١/١٠ ـ ١١).

ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله، وفيه من التهييّج[1]، والإلهاب ما لا يَخفى؛ مع كونهم في تلك الحال على الإيمان فكأنَه قال: إن كنتم مستمرّين على الإيمان بالله؛ لأن هذه الثلاثة الأمور التي هي: تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول، لا يكمل الإيمان بدونها؛ بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها، فإن مَنْ ليس بمتقٍ وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمنٍ.

وقد أخرج أحمد، وعبد بن حُميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سُننه»، عن أبي أُمامة[2]، قال: سألتُ عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحابَ بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النّفْل، وساءت فيه أخلاقُنا؛ فانتزعه الله مِنْ أيدينا وجعله إلى الرسول ﷺ؛ فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بَواء يقول: عن سواء.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبَّان، والحاكم وصحّحه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «سُننه»، عن عبادة بن الصامت[3] قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدتُ معه بدراً؛ فالتقى الناسُ، فهزم الله العدوَّ؛ فانطلقتْ طائفة في آثارهمَ يهزمون ويَقْتلون، وأكبّت طائفة على العسكر يَحُوزونه ويجمعونه، وأحدقتْ طائفة برسول الله ﷺ لا يُصيب العدوّ منه غِرّةً، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضُهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحدٍ فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدوّ: لستم بأحقَّ بها منا نحن نفينا عنه العدوّ وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحقَّ بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ. وخفنا أن يصيب العدوّ منه غرّة فاشتغلنا به. فنزلت: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٢٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٠).

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٢٧٥٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤، ١٥)، وفي «تاريخه» (٢/ ٤٥٨)، والحاكم (٢/ ١٣٦)، والبيهقي (٦/ ٢٩٢). وهو حديث حسن لغيره.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٩٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٣)، وابن حبان رقم (٤٨٥٥)، والحاكم (٢/ ١٣٥)، والبيهقي (٦/ ٢٩٢، ٩/ ٥٧)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٢٧٦٢). وهو حديث حسن لغيره.

قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسولُ الله ﷺ إذا أغار في أرض العدوّ نَفَّل الربعَ، وإذا أقبل راجعاً وكَلَّ الناس نَفَّل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «لِيَرُدَّ قويّ المسلمين على ضعيفهم».

وأخرج إسحاق بن راهويه في «مُسْنده»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أيوب الأنصاريّ[1] قال: بعث رسول الله سرية، فنصرها الله وفتح عليها، فكان مَنْ آتاه بشيءٍ نَفَّله مِنْ الخُمس، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون، وتركوا الغنائمَ خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً، فقالوا: يا رسولَ الله ما بالُ رجالٍ منا يستقدمون ويأسِرون، وتخلَّف رجال لم يَصِلوا بالقتال فنفّلتهم بالغنيمة؟ فسكت رسولُ الله ونزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال: «ردّوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسويّة فإن الله يأمركم بذلك، فقالوا: قد أنفقنا وأكلنا، فقال: احتسبوا بذلك».

وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم وصححّه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن سعد بن أبي وقاص[2]، قال: قلتُ: يا رسولَ الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيفَ، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضَعْه»، فوضعته، ثم رجعت قلت: عسى يُعطى هذا السيف اليوم مَنْ لا يبلى بلائي إذا رجل يدعوني من ورائي، قلت: قد أنزل الله فيّ شيئاً؟ قال: «كنت سألتني هذا السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

وفي لفظ لأحمد: أن سعداً قال: لما قتل أخي يوم بدر، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفَه وكان يُسمّى ذا الكُتيفة فأتيت به رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحو ما تقدّم، وقد روي هذا الحديث عن سعد من وجوه[3] أخر.

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» كما في «المطالب العالية» رقم (٣٩٨٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٥٣٨)، وأبو داود رقم (٢٧٤٠)، والترمذي رقم (٣٠٧٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١١٩٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨)، والحاكم (٢/ ١٣٢)، والبيهقي (٦/ ٢٩١). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٤)، ومسلم رقم (١٦٢٨، ١٧٤٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٩٣٢)، والطيالسي رقم (٢٠٥).

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جدّه[١]: أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

وأخرج ابن مردويه عنه قال: لم يُنفّل النبي ﷺ بعد إذْ نزلت عليه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إلا من الخُمس فإنه نفّل يوم خيبر من الخمس.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس[٢] قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: «مَنْ قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا»، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشُبّان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءاً، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية؛ فقسم النبي ﷺ الغنائم بينهم بالسوية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن ابن عباس[٣]، في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: الأنفال: المغانم، كانت لرسول الله ﷺ خالصةً ليس لأحد منها شيء، ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرةً أو سِلْكاً فهو غُلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾ لي [٢/١٦٨] جعلتها لرسولي ليس لكم فيها شيء ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم أنزل الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، ثم قسم ذلك الخُمس لرسول الله ﷺ، ولذي القُربى واليتامى، والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الناسُ فيه سواء، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وللراجل سهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٠) من طريق عبَّاد بن العوام، به.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/٣٥٦)، وأبو داود رقم (٢٧٣٧ ـ ٢٧٣٩)، والنسائي في الكبرى رقم (١١١٩٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢، ١٣)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/١٤٦)، وابن حبان رقم (٥٠٩٣)، والحاكم (٢/ ١٣١، ١٣٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٥، ١٣٦). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/١٩، ٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٩٣) بسند ضعيف.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: هي الغنائم، ثم نسخها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنفال: ٤١].

وأخرج مالك، وابنُ أبي شيبة، وأبو عُبيد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن القاسم بن محمد[٢] قال: سمعتُ رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل، والسلب من النّفل، فأعاد المسألة فقال ابن عباس: هذا مثل صَبيغ الذي ضربه عمر؛ وفي لفظ، فقال: ما أحوجك أن يُصنع بك كما صُنع عمر بَصبيغ[٣] العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماءُ على عَقِبيه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عنه[٤]، قال: الأنفال: المغانم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها، فيرد القويُّ على الضعيف.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، عن عطاء[٥]، في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: هو ما شذّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع، فذلك للنبي ﷺ، يصنع به ما شاء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن محمد بن عمرو[٦]، قال: أرسلْنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عَنْ الأنفال فقال: تسألوني عن الأنفال، وإنه لا نفلَ بعد رسول الله ﷺ.

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد[٧] أيضاً قال: ما كانوا يُنفّلون إلّا من الخمس.

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «ناسخه» (ص٣١١، ٣١٢).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٥٥)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٧)، وأبو عبيد في «الأموال» (٧٦٠، ٧٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨ ـ ٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥١)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٥٦ ـ ٤٥٧) بسند صحيح.

(٣) صبيغ بنِ عِسْل. «الإصابة» (٢/ ١٩٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٤٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨، ٩)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٦)، والنحاس (ص٤٥٧، ٤٥٨)، والطحاوي في «شرح معاني الاثار» (٣/ ٢٧٨) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٤)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٥٧) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٣٤) من طريق ابن جريج، به.

وروى عبد الرزاق[١] عنه أنه قال: لا نفل في غنائم المسلمين إلَّا في خُمس الخمس.

وأخرج عبد الرزاق[٢] عن أنس أن أميراً مِنْ الأمراء أراد أن ينفّله قبل أن يُخَمِّسه، فأبى أنس أن يقبله حتى يُخَمّسه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الشعبي[٣]، في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: ما أصابت السرايا.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والنحاس في «ناسخه»، عن مجاهد[٤]، وعكرمة، قال: كانت الأنفال لله والرسول، حتى نسخها آية الخمس ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنفال: ٤١].

وأخرج ابنُ أبي شيبة، والبخاري في «الأدب المفرد»، وابن مردويه، والبيهقي في «شُعب الإيمان»، عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ قال: هذا «تحريج» من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦]، عن مكحول، قال: كان صلاح ذات بينهم أن رُدّت الغنائم، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ، وبين مَنْ قاتل وغنم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧]، عن عطاء، في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ قال: طاعة الرسول اتباع الكتاب والسُّنَّة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٣٤١) من طريق ابن عون، به.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٣٤١) من طريق داود بن أبي عاصم، به.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٣) من طريق صالح بن حيٍّ بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢١)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٥٢، ٤٥٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧١)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٩٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١١٠٨٤). وهو أثر صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٤) من طريق سعيد بن عبد العزيز، به.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٤) من طريق يعلى بن عبيد، به.

[صفات لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلاً]:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

الوَجَلُ: الخوف والفَزَعُ، والمراد: أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله؛ فالحصرُ باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان.

قال جماعة مِنْ المفسّرين[(١)]: هذه الآية متضمنةٍ للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ، فيما أمر به مِنْ قسمة الغنائم، ولا يخفاك أنَّ هذا وإنْ صح إدراجه تحت معنى الآية، مِنْ جهة أن وجَلَ القلوب عند الذكر، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول، ولكن الظاهر أنّ مقصود الآية هو إثباتُ هذه المزية لمن كَمُل إيمانُه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة. والمراد من تلاوة آياته: تلاوةُ الآيات المنزّلة أو التعبير عَنْ بديع صنعته، وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون.

قيل: والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر[(٢)] وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات.

وقيل: المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره، والتوكل على الله: تفويضُ الأمر إليه في جميع الأمور، والموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في محل[(٣)]

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٧)، و«الوسيط» (٢/ ٤٤٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٤٨).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ١٣).
(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٥).

رفع على أنه وصف للموصول الذي قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه.

و«مِنْ» في ﴿وَمِمَّا﴾ للتبعيض.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدّمة، وهو مبتدأ وخبرُه ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إن هؤلاءِ هم الكاملون الإيمان، البالغون فيه إلى أعلا درجاته، وأقصى غاياته.

و﴿حَقًّا﴾ مصدر[1] مؤكَّد لمضمون جملة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: حق ذلك حقّاً، أو صفة مصدر محذوف؛ أي: هم المؤمنون إيماناً حقّاً، ثم ذكر ما أعدّ لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي: منازل خير وكرامة، وشَرفٌ في الجنّة كائنة (عند ربهم)، وفي كونها عنده سبحانه زيادةُ تشريفٍ لهم وتكريم، وتعظيم وتفخيم.

وجملة ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبر ثان[2] لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مُقدَّر، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوف على درجات؛ أي: مغفرة لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يكرمهم الله به مِنْ واسع فضله، وفائض جوده.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[3]، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: فرِقتْ قلوبهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه[4]، أيضاً في الآية قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يُصلّون إذا غابوا، ولا يؤدّون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدّوا فرائضه.

وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، وأبو الشيخ، من طريق شهر بن

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٧١).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٢٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٥) من طريق الضحاك بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧ ـ ١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٥، ١٦٥٦) بسند صحيح.

حوشب، عن [أمّ الدرداء[1]][2] قالت: إنما الوجَلُ في القلب كاحتراق [٢/١٦٩] السّعَفَة يا شهر بن حوشب، أما تجد قشعريرة؟ قلتُ: بلى، قالت: فادعُ عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي[3] عن ثابت البُناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يُستجاب لي؟ قالوا: ومِنْ أين لك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي، ووجِل قلبي، وفاضت عيناي، فذلك حين يُستجاب لي.

وأخرج[4] أيضاً، عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضَرْمة السّعَفَة، فإذا وجل أحدكم فليدعُ عند ذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[5] في الآية قال: هو الرجل يريد أن يَظلم أو يهمّ بمعصية، فيقال له: اتق الله فيوجل قلبهُ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[6]، في قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ قال: تصديقاً.

وأخرج[7] هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ قال: خشية.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[8]، في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢٩)، والحكيم الترمذي (١/٣٧٩) بسند حسن. شهر بن حوشب سمع من أُم الدرداء.

(٢) كذا في المخطوط والذي في «جامع البيان» (١١/٢٩): «أبي الدرداء».
• فيكون عنده سنده منقطع لأن شهر بن حوشب لم يسمع من أبي الدرداء وسمع من أُم الدرداء. انظر: «جامع التحصيل» (ص٢٤٠)، و«المراسيل» (ص٨٩).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي (١/٣٧٩).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي (١/٣٧٩).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٥٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٣٧) بسند رجاله ثقات.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢٧ ـ ٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٥٥، ١٦٥٦) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢٩ ـ ٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٥٦) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢٧ ـ ٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٥٥، ١٦٥٦) بسند صحيح.

وأخرجا[١] عنه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ قال: برئوا من الكفر.

وأخرج أبو الشيخ[٢] عنه ﴿حَقًّاۚ﴾ قال: خالصاً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾؛ يعني: فضائل ورحمة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٤]، في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ قال: أعمال رفيعة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن الضحاك[٥] في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ قال: أهل الجنة بعضُهم فوق بعض. فيرى الذي هو فوقَ فضله على الذي هو أسفل منه. ولا يرى الذي هو أسفل أنه فُضّل عليه أحد.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[٦]، في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ قال: بترك الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال: الأعمال الصالحة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي[٧]، قال: إذا سمعتم الله يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهي الجنّة.

[الخيرة فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال]:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٠ ـ ٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٦ ـ ١٦٥٧) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٨) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٨) من طريق إسرائيل، به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٨) بسند حسن.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٨) من طريق أصبغ، به.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٨) من طريق يحيى بن كثير، به.

قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قال الزجاج[(١)]: الكاف في موضع نصب؛ أي: الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق؛ أي: مثلَ إخراج ربك، والمعنى: امضِ لأمرك في الغنائم، ونَفِّل مَنْ شئتَ، وإن كَرِهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: «يبقى» أكثر الناس بغير شيء»[(٢)]، فموضع الكاف نصب كما ذكرنا، وبه قال الفراء[(٣)].

وقال أبو عُبيدة[(٤)]: هو قَسَمٌ؛ أي: والذي أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو، و«ما» بمعنى الذي.

وقال الأخفش[(٥)] سعيد بن مَسْعدة: المعنى: أولئك هم المؤمنون حقّاً كما أخرجك ربك.

وقال عكرمة[(٦)]: المعنى: أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك.

وقيل[(٧)]: كما أخرجك متعلق بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ [الأنفال: ٤]؛ أي: هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الواجب له، فأنجز وعدَك وظفرك بعدوّك وأوفى لك، ذكره النّحاس[(٨)] واختاره.

وقيل: الكاف في «كما» كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك، وسألتَ مدداً فأمددتُك وقوّيتك وأزحت علّتك، فخذهم الآن فعاقبهم.

وقيل: إنّ الكاف في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك؛ يعني: أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب، ذكره صاحب «الكشاف»[(٩)]، و﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف، والتقدير: إخراجاً مُتلّبساً بالحق الذي لا شبهة فيه.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٤٨٣).... محمد بن السائب الكلبي، متهم. «تقريب التهذيب» رقم (٥٩٣٨).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٠٣).

(٤) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٤٠).

(٥) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٤١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٣) بسند حسن.

(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

(٨) في «إعراب القرآن» (٢/ ١٧٧).

(٩) في «الكشاف» (٢/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤).

وجملة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في محل نصب[١] على الحال؛ أي: كما أخرجك في حال كراهتهم لذلك؛ لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين، إما العِيرُ أو النفير، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتي بيانه.

وجملة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ إمّا في محل نصب[٢] على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر، ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين، وفات العير وأمرهم بقتال النفير، ولم يكن معهم كثير أُهْبة، لذلك شق عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العُدّة وأكملنا الأُهْبة.

ومعنى ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: في القتال بعد ما تبين لهم أنّك لا تأمر بالشيء إلا بإذن الله، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدَهم بالظّفَر بإحدى الطائفتين، وأن العِير إذا فاتت ظفروا بالنفير، و«بعد» ظرف ليجادلونك و«ما» مصدرية؛ أي: يجادلونك[٣] بعد ما تبين الحق لهم.

قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الكاف[٤] في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال مَنْ يُساق ليقْتَل، وهو مشاهد لأسباب قتله، ناظر إليها لا يشك فيها.

قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر؛ أي: واذكروا وقت وعد الله إيّاكم إحدى الطائفتين، وأمرهم «بتذكر» الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة. والطائفتان: هما العِير والنفير، وإحدى هو: ثاني مفعولي يعد[٥]، و﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل منه بدل اشتمال، ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها، وتغنمون منها، وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة، لا يطيقون لكم دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضرّاً ولا نفعاً، وفي هذه الجملة تذكير لهم بنعمةٍ من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٦١٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٠ ـ ٣١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٧٦).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٢٧٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٧).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٣٦).
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٢٧٧)، و«التبيان» (٢/ ٦١٦).
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٣٤).

قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ معطوف على ﴿يَعِدُكُمُ﴾ من جملة الحوادث التي أمروا بذكر وقتها ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ من الطائفتين، وهي طائفة العِير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ دون ذات الشوكة، وهي طائفة النفير.

قال أبو عُبيدة[١]: أي: غير ذات الحدّ. والشوكة[٢]: السلاحُ، والشوكة: النبت الذي له حدّ. ومنه: رجل شائك السلاح؛ أي: حديد السلاح، ثم يقلب فيقال: شاكي السلاح؛ فالشوكة مستعارة مِنْ واحدة الشوك.

والمعنى: وتودّون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح، وهي طائفة العِير؛ لأنّها غنيمة صافية عن كدر القتال، إذ لم يكن معها مَنْ يقوم بالدفع عنها.

قولُه: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ معطوف على ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته؛ أي: ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحقّ الحقّ بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم [٢/١٧٠] من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها.

والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدكم[٣] منه بالظفر بها ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الدابر: الآخر، وقطعه عبارة عن الاستئصال. والمعنى: ويستأصلهم جميعاً.

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله؛ أي: أراد ذلك، أو يريد ذلك ليظهر الحق، ويرفعه ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ويضعه، أو اللّام متعلقة بمحذوف؛ أي: فعل ذلك ليحق الحق، وقيل: متعلق بيقطع، وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها؛ لأنّ الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين، وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له، والمصلحة المترتبة عليه.

وإحقاق[٤] الحق إظهاره، وإبطال الباطل إعدامه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ومفعول ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ محذوف؛ أي:

---

(١) في «مجاز القرآن» له (١/ ٢٤١).
(٢) «الصحاح» (٤/ ١٥٩٤)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٥٥)، و«جامع البيان» (١١/ ٤٩).
(٤) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٩ ـ ٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٥٥).

ولو كرهوا أَنْ يحق الحق، ويُبطل الباطل، والمجرمون هم المشركون من قريش، أَو جميع طوائف الكفار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن أبي أيوب الأنصاري[١] قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عيرَ أبي سفيان قد أقبلت فقال: «ما ترون فيها؟ لعلّ الله يغنّمناها ويُسلِّمنا». فخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثةَ عشر، فأخبرْنا النبيَّ ﷺ بعدّتنا، فسُرّ بذلك وحمد الله وقال: «عِدّة أصحاب طالوت»، فقال: «ما ترون في قتال القوم فإنّهم قد أُخبروا بمخرجكم»، فقلنا: يا رسول الله، لا واللهِ ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طابت أنفسُنا، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إني أنشُدك وعدَك»، فقال ابن رواحة: يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يُشير عليه، إن الله أجلّ وأعظم من أن تنشُده وعده، فقال: «يا ابن رواحة لأنشدنّ الله وعدَه، فإن الله لا يخلف الميعاد». فأخذ قبضةً من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم فانهزموا، فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فقتلنا وأسَرْنا، فقال عمر: يا رسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٧)، ومختصراً ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦١) من طريق عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن ابن أبي حبيب، عن أبي عمران، عن أبي أيوب. سنده حسن.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٨ ـ ٤٩) من طريق ابن المبارك، به. بسند حسن.
• وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٠)، والطبراني رقم (٤٠٥٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٧٣) بسند ضعيف؛ لضعف ابن لهيعة. ويقويه ما تقدم عند الطبراني من طريق ابن وهب وابن المبارك.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٤): «وإسناده حسن».

فإنما نحن داعون مؤلِّفون، فقلنا: يا معشر الأنصار إنما يَحمل عمر على ما قال حسدٌ لنا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال: «ادعوا لي عمر»، فدعي له فقال: «إن الله قد أنزل عليّ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية [الأنفال: ٦٧]» وفي إسناده ابن لَهِيعة، وفيه مقال معروف.

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عَنْ جدّه[١] قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالرَّوحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب النَّاس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعدُ بن معاذ: يا رسول الله إيّانا تُريد، فوالذي أكرمَك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قطُّ ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي بَرْك الغِمَاد من ذي يمنٍ، لنسيرنّ معك ولا نكونن كالذين قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمرٍ وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامضِ له، فصل حبال مَنْ شئت، واقطع حبال مَنْ شئت، وعادِ مَنْ شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبي سفيان، فأحدث الله إليه القتال.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: كذلك يجادلونك في خروج القتال.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٣]، في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: خروج النبي ﷺ إلى بدر ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٥، ٣٥٦) بسند حسن لغيره.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٤ ـ ٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٩) بسند حسن.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ قال: لطلب المشركين ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك[1]، في قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قال: هي عِير أبي سفيان، ودّ أصحاب محمد ﷺ أن العِيَر كانت لهم، وأن القتال صرف عنهم.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة[2]: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: شأفتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتاريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ الظرف[3] متعلق بمحذوف؛ أي: واذكروا وقتَ استغاثتكم.

وقيل: بدل من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٧] معمول لعامله.

وقيل: متعلق بقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ [الأنفال: ٨] والاستغاثة: طَلبُ الغوثِ، يقال: استغاثني فلان فأغثته، والاسم: الغِياث؛ والمعنى: أنّ المسلمين لما علموا أنه لا بدّ من قتال الطائفة ذات الشوكة، وهم النفير كما أمرهم الله بذلك، وأراده منهم، ورأوا كثرةَ عدد النفير وقلة عددهم، استغاثوا بالله سبحانه.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»[4] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبي ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللَّهُمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللَّهُمَّ آتني ما وعدتني، اللَّهُمَّ إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» الحديث.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦١) من طريق عبيد بن سليمان، به.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨).
(٣) «التبيان» (٢/ ٦١٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٨).
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٥٨/ ١٧٦٣).

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ عطف[١] على تستغيثون داخل معه في التذكير، وهو وإن كان مستقبلاً فهو [٢/١٧١] بمعنى الماضي، ولهذا عطف عليه استجاب.

قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: بأنيّ ممدكم، فحذف حرف الجرّ وأوصل الفعل إلى المفعول، وقرئ[٢] بكسر الهمزة على إرادة القول. أو على (أَنّ) في ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ معنى القول.

قوله: ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ قرأ نافع بفتح[٣] الدال اسم مفعول، وقرأ الباقون بكسرها[٤] اسم فاعل وانتصابه على الحال، والمعنى على القراءة الأولى: أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض، وعلى القراءة الثانية: أنهم جعلوا بعضهم تابعاً لبعض.

وقيل: إن ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ على القراءتين نعت لألْفٍ، وقيل: إنه على القراءة الأولى، حال من الضمير المنصوب في ﴿مُمِدُّكُم﴾؛ أي: ممددكم في حال إردافكم بألفٍ من الملائكة.

وقد قيل: إن ردف وأردف بمعنى واحد، وأنكره أبو عبيدة[٥] قال: لقوله تعالى: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٧] ولم يقل المردِفة.

قال سيبويه[٦]: وفي الآية قراءة ثالثة وهي «مرُدِّفين» بضم الراء وكسر الدال مشدّدة.

وقراءة رابعة بفتح[٧] الراء وتشديد الدال. وقرأ جعفر بن محمد[٨]، وعاصم الجحدري «بآلاف» جمع ألف، وهو الموافق لما تقدّم في آل عمران.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/١٧٨)، و«البحر المحيط» (٥/٢٧٩).

(٢) «التبيان» (٢/٦١٧)، و«حاشية الجمل» (٢/٢٣٠)، و«البحر المحيط» (٥/٢٧٩). وكسر «إني» قراءة شاذة.

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/١٧٨)، و«النشر» (٢/٢٧٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٤٨٩)، و«التبيان» (٢/٦١٧). القراءتان الأوليان متواترتان، ومع نافع أبو جعفر ويعقوب، والقراءات الثالثة والرابعة شاذتان! انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٤٦).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «مجاز القرآن» (١/٢٤١).

(٦) «الكتاب» (١/٤٤٤).

(٧) «الكشف عن وجوه القراءات» (١/٤٨٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/٤٥٧)، و«المحتسب» (١/٣٧٣)، و«البحر المحيط» (٥/٢٧٩).

(٨) «القراءات الشاذة» (ص٤٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/٤٥٧ ـ ٤٥٨). وهي قراءة شاذة.

والضمير في ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ راجعٌ إلى الإمداد المدلول عليه بقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾؛ أي: إلّا بشارة لكم بنصره، وهو استثناء[1] مفرّغ؛ أي: ما جعل إمدادكم لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾؛ أي: بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾، وفي هذا إشعار بأنّ الملائكة لم يقاتلوا؛ بل أمدّ الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمين قلوبهم وتثبيتها، واللّام في ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً؛ أي: ولتطمئن قلوبُكم فعل ذلك لا لشيء آخر ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند غيره، ليس للملائكة في ذلك أثر، فهو الناصر على الحقيقة، وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التي سبّبها الله لكم، وأمدكم بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله.

وقد أخرج ابن جرير[2]، عن عليّ رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألفٍ من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة.

وأخرج سُنيد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[3]، قال: ما أُمِدّ النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله في «الأنفال»، وما ذكَر الثلاثة الآلاف، والخمسة الآلاف إلا بُشرى.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[4]، في قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: متتابعين.

وأخرج ابن جرير، عنه[5]، في قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يقول: المددُ[6].

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه[7]، أيضاً في الآية قال: وراء كلِّ ملَكٍ ملَكٌ.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٤٦)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٨).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٨) بسند ضعيف جداً، عبد العزيز بن عمران، متروك.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٩) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤) بسند حسن.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣) بسند ضعيف.
(٦) الذي في «جامع البيان» (١١/ ٥٣) المزيد.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣) إلى ابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.
• أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤) بسند حسن.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الشعبي[١]، قال: كان ألف مردفين، وثلاثة آلاف مُنَزلين، فكانوا أربعة آلاف، وهم مدد المسلمين في ثغورهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: مُمدِّين.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة[٣] قال: متتابعين، أمدّهم[٤] الله بألف ثم بثلاثة، ثم أكملهم خمسة آلاف ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ قال: يعني: نزول الملائكة. قال: وذُكر لنا أَنَّ عمر قال: أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا، وأما بعد ذلك فالله أعلم.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[٥] ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ الظرف[٦] منصوب بفعل مقدّر كالذي قبله، أو بدل ثان من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ [الأنفال: ٧]، أو منصوب بالنصر المذكور قبله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٥) بسند ضعيف. ابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٥) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ٢٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٥) بسند صحيح.

(٦) «البحر المحيط» (٥/ ٢٨١)، و«التبيان» (٢/ ٦١٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٣).

وقيل غير ذلك مما لا وجه له، و«يُغْشِيكم» هي: قراءة نافع[١] وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه، وهذه القراءة هي المطابقة لما قبلها، أعني قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] ولما بعدها أعني: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم﴾ فيتشاكل الكلام ويتناسب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يَغْشَاكم»[٢] على أن الفاعل النعاس، وقرأ الباقون ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بفتح[٣] الغين وتشديد الشين، وهي كقراءة نافع وأهل المدينة في إسناد الفعل إلى الله، ونصب النعاس.

قال مكي[٤]: والاختيار ضم الياء والتشديد، ونصب النعاس لأن بعده ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ والهاء في منه لله، فهو الذي يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب ﴿أَمَنَةً﴾ على أنها مفعول له.

ولا يحتاج في ذلك إلى تأويل وتكلّف؛ لأن فاعل الفعل المعلل والعلة واحد بخلاف انتصابها على العلة، باعتبار القراءة الثانية، فإنه يحتاج إلى تكلف، وأما على جعل الأمنة[٥] مصدراً فلا إشكال، يقال: أمن أمنةً، وأمناً وأماناً.

وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أَنَّهم مع خوفهم من لقاء العدوّ والمهابة لجانبه سكّن الله قلوبَهم وأمّنَها حتى ناموا آمنين غير خائفين، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها، قيل: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان[٦]:

أحدهما: أنَّه قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أنه أَمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم.

وقيل: إن النوم غَشيهم في حال التقاء[٧] الصفّين، وقد مضى في يوم أُحد نحو مِنْ هذا في سورة آل عمران.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٦١)، و«النشر» (٢/ ٣٧٦)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٢٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٨٩). والقراءات الثلاث متواترة.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٢٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٥٨)، و«جامع البيان» (١١/ ٦١)، و«النشر» (٢/ ٣٧٦).

(٤) في «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

(٦) «النكت والعيون» (٢/ ٢٩٩).

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٥٩).

قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس، وقيل: قبل النعاس[١].

وحكى الزجاج[٢]: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فأنزل الله المطر ليلة بدر.

والذي في «سيرة ابن إسحاق»[٣] وغيره: أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر، وأنه منع قريشاً من السبق إلى الماء مطر عظيم، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شدّ لهم دَهْس الوادي، وأعانهم على المسير.

ومعنى ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾: ليرفع عنكم الأحداث ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: وسوسته لكم بما كان [٢/١٧٢] قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التي هي منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فيجعلها صابرةً قوية ثابتة في مواطن الحرب.

والضمير[٤] في ﴿بِهِ﴾ من قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ راجع إلى الماء الذي أنزله الله؛ أي: يثبت بهذا الماء الذي أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم في مواطن القتال؛ وقيل: الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل.

قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ الظرف منصوب[٥] بفعل محذوف خاص بالنبي ﷺ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه؛ أي: واذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة.

وقيل: هو بدل من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ [الأنفال: ٧] كما تقدّم، ولكنّه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون، فلا يكون مِنْ جملة النعم التي عدّدها الله عليهم.

وقيل: العامل فيه يُثبّت فيكون المعنى: يثبت الأقدام وقت الوحي، وليس لهذا التقييد معنى.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥) بسند صحيح.
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/٤٠٣ ـ ٤٠٤).
(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٦٠٧)، و«جامع البيان» (١١/٦١ ـ ٦٢).
(٤) «التبيان» (٢/٦١٩)، و«روح المعاني» (١٠/٤٥ ـ ٤٦).
(٥) «البحر المحيط» (٥/٢٨٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/١٨٠).

وقيل: العامل فيه: ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ ولا وجه لتقييد(١) الربط على القلوب بوقت الإيحاء، ومعنى الآية: أنّي معكم بالنصر والمعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿يُوحِي﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول.

ومعنى ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بشّروهم بالنصر، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، وتكثير سوادهم، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ قد تقدّم بيان معنى إلقاء الرعب في آل عمران، قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾.

قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قيل: المراد(٢) الأعناق أنفسها و﴿فَوْقَ﴾ زائدة: قاله الأخفش(٣) وغيره.

وقال محمد بن يزيد(٤): هذا خطأ؛ لأنّ ﴿فَوْقَ﴾ يفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى: أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها.

وقيل(٥): المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ وقيل: المراد بفوق الأعناق: أعاليها لأنها المفاصل الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. قيل: وهذا أمر للملائكة وقيل: للمؤمنين، وعلى الأوّل قيل: هو تفسير لقوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج(٦): واحد البَنان بَنانة، وهي هنا: الأصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم: أبَنّ الرجل بالمكان: إذا أقام به؛ لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة.

وقيل(٧): المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة

---

(١) «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٨٤).
(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٧٠).
(٣) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٤١ ـ ٥٤٢).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٨٠).
(٥) سيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٥).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٢٧ ـ ٢٨).

عن الثبات في الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة[١]:

وقد كان في الهيجاء يحمي ذِمارَها ويضرِب عند الكرْب كلَّ بنانِ

وقال عنترة[٢] أيضاً:

وإنّ الموتَ طوعُ يدي إذا ما وطِئتُ بَنانَها بالهُندواني

قال ابن فارس[٣]: البنان: الأصابع، ويقال: الأطراف.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل، ودخل في قلوبهم من الرعب، وهو مبتدأ[٤]، و﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ خبره؛ أي: ذلك بسبب مشاقتهم، والشقاق أصله: أَنْ يصير كل واحد من الخصمين في شق، وقد تقدّم تحقيق ذلك.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له يعاقبه بسبب، ما وقع منه من الشقاق.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من العقاب، أو الخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب.

قال الزجّاج[٥]: ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة؛ أي: الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه. قال: ويجوز أن يضمر واعلموا.

قال في «الكشّاف»[٦]: ويجوز أن يكون نصباً على عليكم: ذلكم فذوقوه، كقولك: زيداً فاضربه.

قال أبو حيان[٧]: لا يجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل، وأسماء الأفعال لا تضمر، وتشبيهه بزيداً فاضربه غير صحيح؛ لأنه لم يقدّر فيه عليك؛ بل هو من باب الاشتغال.

---

(١) انظر: «ديوان عنترة» (ص٧٠). (٢) انظر: «ديوان عنترة» (ص٧٢).
(٣) في «مجمل اللغة» (١/ ١١٤).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٠)، و«التبيان» (٢/ ٦١٩).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٧). (٦) (٢/ ٥٦٣).
(٧) في «البحر المحيط» (٥/ ٢٨٨).

وجملة[١] ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذي أصيبوا به ويكون ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل.

وقد أخرج أبو يعلى، والبيهقي في «الدلائل»، عن عليّ[٢] قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلا رسولُ الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن ابن شهاب في الآية قال: بلغنا أن هذه الآية أُنزلت في المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم الله مِنْ النعاس أمنةً منه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٤]، في قوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ قال: أمناً من الله.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، عن قتادة، في قوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ قال: رحمةً منه، أمنةً من العدو.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦]، عنه قال: النعاس في الرأس، والنومِ في القلب.

وأخرج عبد بن حميد[٧]، عنه أيضاً قال: كان النعاس أمنة من الله، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، ونعاس يوم أُحد.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيب[٨]، في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ قال: طَشٌّ كان يوم بدر.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/٢٨٨ ـ ٢٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٨/٢٩ ـ ٣٠).
(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٢٨٠، ٣٠٥)، والبيهقي في«الدلائل» (٣/٣٨، ٣٩)، وأحمد في «مسنده» (٢/٢٩٩، ٣٦٢، ٣٦٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٤) من طريق ابن وهب، به.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥) بسند ضعيف؛ لضعف سعيد بن بشير.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٤) بسند ضعيف كسابقه.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣١).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥)، وابن أبي شيبة (١٤/٣٥٩) بسند ضعيف.

وأخرج هؤلاء عن مجاهد(١) في الآية قال: المطر أنزله الله عليهم قبلَ النعاس فأطفأ بالمطر الغبارَ، والتبدتْ به الأرض، وطابت به أنفسُهم، وثبتت به أقدامهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن إسحاق، عن عروة بن الزبير(٢)، قال: بعث الله السماءَ وكان الوادي دَهْساً، وأصاب رسولَ الله ﷺ وأصحابه ما لبّد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٣) قال: إن المشركين غَلبوا المسلمين في أوّل أمرهم على الماء، فظمِيء المسلمون وصلّوا مُجْنبين مُحْدثين؛ فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن، وقال أتزعمون أن فيكم نبيّاً وأنكم أولياء الله، وتصلون مُجْنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماءً فسال عليهم الوادي ماءً، فشرب المسلمون وتطهّروا، وثبتت أقدامُهم، وذهبت وسوستُه.

وقد قدّمنا أن المشهور في كتب السير [٢/١٧٣] المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء.

وهذا المرويّ عن ابن عباس(٤) في إسناده العوفي، وهو ضعيف جدّاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٥)، في قوله: ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قال: وسوسته.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة(٦)، في قوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ قال: بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ قال: كان بطن الوادي دهاساً، فلما مُطروا اشتدت الرملة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٦١٩ ـ ٦٢٠).

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٣٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٤ ـ ٦٥) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٥) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٦٦، ١٦٦٧) بسند ضعيف؛ لضعف سعيد بن بشير.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[١] في قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ قال: حتى تشتدّ على الرمل، وهو كهيئة الأرض.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عليّ[٢] قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة ويقول: اللَّهُمَّ إن تَهلك هذه العصابةُ لا تُعبد» وأصابهم تلك الليلة مطر شديد، فذلك قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، عن مجاهد[٣]، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي أُمامة[٤] بن سهل بن حُنيف، قال: قال لي أبي: يا بنيّ لقد رأيتُنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضربٍ على الأعناق، وعلى البنان مثل سِمة النار قد احترق به.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عكرمة[٦]، في قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ يقول: الرؤوس.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عطية[٧] ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ قال: اضربوا الأعناق.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك[٨] ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ يقول: اضربوا الرقاب.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٧) بسند حسن.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢، ٦٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/ ٣٥٤).
(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٣).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٨) بسند حسن.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٧٠ ـ ٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٨).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٧٠) بسند حسن.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٨) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: يعني بالبنان: الأطراف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطية[٢] ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: كلَّ مَفْصِل.

[التولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

الزحفُ: الدنوّ[٣] قليلاً قليلاً، وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سُمي كلُّ ماشٍ في الحرب إلى آخر زاحفاً، والتزاحف: التداني والتقارب. تقول: زحف إلى العدوّ زحفاً، وازدحف القومُ؛ أي: مشى بعضُهم إلى بعض، وانتصاب[٤] زحفاً إما على أنّه مصدر لفعل محذوف؛ أي: تزحفون زحفاً، أو على أنه حال من المؤمنين؛ أي: حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا؛ أي: حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين؛ أي: متزاحفين.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم، وقد دبّ بعضُهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن، وعلى كل حال، إلا حالة التحرّف والتحيز.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٨) بسند حسن.

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٧٩)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٦٨).

(٤) «التبيان» (٢/ ٦٢٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٩٢).

وقد روي[1] عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، وعكرمة، ونافع، والحسن، وقتادة، وزيد بن أبي حبيب، والضحاك: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذْ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا لهم فئة إلَّا النبي ﷺ، فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض، وبه قال أبو حنيفة[2]، قالوا: ويؤيده قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ فإنه إشارة إلى يوم بدر.

وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الضِعْف[3].

وذهب جمهور العلماء[4] إلى أنّ هذه الآية محكمة عامة غير خاصة، وأن الفرار من الزحف محرّم، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر.

وأجيب عَنْ قول الأوّلين[5]: بأن الإشارة في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضِعْف؛ بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بيَّنه الله في آية الضعف.

ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج؛ لأنه ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنّه سيكون قتال.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٢).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٢)، و«النكت والعيون» (٢/ ٣٠٤).

• رجح ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨٢): قول من قال: «حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأنّ الله حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدوَّ أن يولُّوهم الدُّبر منهزمين إلا لتحرُّفٍ لقتال، أو لتحيُّز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولَّاهم الدُّبر بعد الزحف لقتالٍ، منهزماً بغير نية إحدى الخَلْتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٣٢).

(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٧٣).

ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرّحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث[(١)]: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وفيه: «والتولي يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث.

وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه، وهو مبيّن في مواطنه.

قال ابن عطية[(٢)]: والأدبار: جمع دُبُر، والعبارة بالدُبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفارّ والذمّ له.

قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾؛ التحرف: الزوال عن جهة الاستواء. والمراد[(٣)] به هنا: التحرّف مِنْ جانب إلى جانب في المعركة طلباً لمكائد الحرب، وخداعاً للعدوّ، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدوّ، فيكرّ عليه ويتمكن منه، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة.

قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ أي: إلى جماعة من المسلمين، غير الجماعة المقابلة للعدوّ وانتصاب[(٤)] ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ و﴿مُتَحَيِّزًا﴾ على الاستثناء من المولّين؛ أي: ومن يولهم دبره إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً، ويجوز انتصابهما على الحال، ويكون حرف الاستثناء لغواً لا عمل له.

وجُمْلة ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جزاء للشرط. والمعنى: مَنْ ينهزم ويفرّ مِنْ الزحف، فقد رجع بغضب كائن من الله إلّا المتحرّف والمتحيز ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: المكان الذي يأوي إليه هو النار، ففراره أوقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه وأعظم عقوبة. والمأوى: ما يأوى إليه الإنسان ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ما صار إليه من عذاب النار.

وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد[(٥)] لمن يفرّ عن الزحف، وفي ذلك دلالة على أنّه من الكبائر الموبقة.

قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ الفاء جواب شرط[(٦)] مقدّر؛ أي: إذا

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٧٦٦)، ومسلم رقم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٣١ ـ ٣٢).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥)، و«جامع البيان» (١١/ ٧٥).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٢٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨١).
(٥) «المحرر الوجيز» (٨/ ٣٢).
(٦) «البحر المحيط» (٥/ ٢٩٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٦٣).

عرفتم ما قصّه الله عليكم مِنْ إمداده لكم بالملائكة، وإيقاع الرعب في قلوبهم، فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر.

قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ اختلف المفسرون [٢/١٧٤] في هذا الرمي على أقوال: فروي عَنْ مالك[١] أن المراد به: ما كان منه ﷺ في يوم حنين[٢]، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي، فأصابت كل واحد منهم.

وقيل: المراد به: الرمية[٣] التي رمى رسول الله ﷺ أبيَّ بن خلف بالحربة في عنقه، فانهزم ومات منها.

وقيل: المراد به: السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق، وهو على فراشه.

وهذه الأقوال ضعيفة[٤]، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر.

وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق: أنه وقع على صورة غير هذه الصورة، والصحيح كما قال ابن إسحاق[٥] وغيره، أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو: ما كان منه ﷺ في يوم بدر، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين، فأصابت كلَّ واحد منهم ودخلت في عينيه ومنخريه وأنفه.

قال ثعلب[٦]: المعنى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾: الفزع والرعب في قلوبهم ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصباء فانهزموا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك؛ أي: أعانك وأظفرَك وصنع لك.

وقَدْ حكى مثل هذا أبو عبيدة في «كتاب المجاز»[٧]. وقال محمد بن يزيد[٨] المبرد: المعنى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ بقوّتك ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولكنك بقوّة الله رميت.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٣). (٢) وانظر: «النكت والعيون» (٢/ ٣٠٤).
(٣) «المحرر الوجيز» (٨/ ٣٣ ـ ٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٧٨).
(٤) «جامع البيان» (١١/ ٨٦).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٧٨).
(٦) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٧٧).
(٧) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٤٤).
(٨) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٧٧).

وقيل: المعنى: إنّ تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنّك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنّها كانت رمية الله، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدتْ منه، ونفاها عنه؛ لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله ﷻ، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً هكذا في «الكشاف»[1].

قولهُ: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ البلاء هاهنا: النعمة؛ والمعنى: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً. واللّام متعلقة بمحذوف؛ أي: وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها؛ أي: ولكن الله رمى، ليمحق الكافرين، وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً.

و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم؛ والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى البلاء الحسن، وهو في محل[2] رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الغرض.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: إنّ الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة، إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقيل: المشار إليه القتل والرمي، وقد قرئ بتشديد[3] الهاء وتخفيفها مع التنوين.

وقرأ الحسن بتخفيف[4] الهاء مع الإضافة، والكيد: المكر. وقد تقدّم بيانه.

وقد أخرج البخاري في «تاريخه»، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن نافع[5]، أنه سأل ابنَ عمر قال: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدوّنا، ولا ندري مَنْ الفئة أمامنا أو عسكرنا؟ فقال لي: الفئة رسول الله ﷺ فقلتُ: إن الله يقول: ﴿إِذَا

---

(١) (٢/٥٦٧).

(٢) «البحر المحيط» (٥/٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٠/٦٩).

(٣) «زاد المسير» (٣/ ٣٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٣٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٠). وفي «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٤٦): هي ثلاث قراءات متواترة فعن نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر (موَهّنٌ كَيدَ) بتشجيج الهاء بعد واو مفتوحة والتنوين، ونصب (كيدَ)، وعن حفص والحسن (مُوْهن كيدِ) بإسكان الواو وتخفيف الهاء، وخفض (كيد) على الإضافة، والباقون (مُوهِنٌ كيدَ) كقراءة حفص لكن مع التنوين ونصب (كيدَ).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٣/١٨٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١) بسند حسن.

﴿لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ قال: إنما نزلت هذه الآية في أهل بدر لا قبلها ولا بعدها.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه»، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري[(١)]، في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ الآية قال: إنها كانت لأهل بدرٍ خاصةً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عمر بن الخطاب[(٢)] قال: لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٣)]، في الآية قال: نزلت في أهل بدر خاصة ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه.

وقد روي اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم، وقد قدّمنا الإشارة إلى ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير[(٤)]، في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾؛ يعني: مستطرداً يريد الكرّةَ على المشركين ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ يعني: أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: استوجبوا سخطاً مِنْ الله ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فهذا يوم بدر خاصة، كان شديداً على المسلمين يومئذ، ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحاك[(٥)] قال: المتحرّف: المُتقدّم من أصحابه أن يرى عورةً من العدوّ فيصيبها. والمتحيز: الفارّ إلى رسول الله ﷺ، وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٢٦٤٨)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٠٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٠)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٢٧). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥٣٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١) بسند ضعيف. مجاهد لم يسمع عمر بن الخطاب.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٦).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٠، ١٦٧٢) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح[(١)]، في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ قال: هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٦].

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في «الأدب المفرد»، واللفظ له، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شُعب الإيمان»، عن ابن عمر[(٢)] قال: كنا في غَزاة فحاص الناس حيصةً، قلنا: كيف نلقى رسولَ الله ﷺ وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب، فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: «مَنْ القوم؟» «فقلنا» نحن الفرّارون، فقال: «لا؛ بل أنتم العَكّارون». فقبلنا يده فقال: «أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين»، ثم قرأ ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

وقد روي في تحريم الفرار من الزحف، وأنه من الكبائر أحاديث.

وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر، كما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس[(٣)].

وأخرجه ابن أبي شيبة[(٤)]، عن ابن عمر[(٥)].

وأخرجه ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨٠) بسند حسن.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٥٣٩ ـ تفسير)، وابن سعد (٤/ ١٤٥)، وابن أبي شيبة (١٢، ٥٣٥، ٥٣٦)، وأحمد رقم (٥٢٢٠، ٥٣٨٤)، والبخاري في «الأدب» رقم (٩٧٢)، وأبو داود رقم (٢٦٤٧، ٥٢٢٣)، والترمذي رقم (١٧١٦)، وابن ماجه رقم (٣٧٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٣١١). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨١)، والطبراني رقم (١٣٠٢٣)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٥٣٧)، وفي «الجهاد» رقم (١٥٥٣٩).

(٥) قال: الفرارُ من الزحف من الكبائر.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٥٣٧)، وفي «الجهاد» رقم (١٥٥٣٨).

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[١]، في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال: هذا قتلتُ. وهذا: قتلتُ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة[٢]، في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ قال: رماهم يوم بدر بالحَصْباء.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، [٢/١٧٥] عن حكيم بن حزام[٣] قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حَصاةٍ وقعت في طَسْتٍ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزمنا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ الآية.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مَردُويه، عن جابر[٤]، قال: سمعت صوتَ حصيات وقعن من السماء يوم بدر، كأنهنّ وقعن في طَسْت، فلما اصطفّ الناس أخذهنّ رسول الله ﷺ فرمى بهنّ في وجوه المشركين، فانهزموا. فذلك قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «ناولني قبضةً من حصباء»، فناوله فرمى بها في وجوه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٥٥، ٢٥٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨٤ ـ ٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٢)، والطبراني (ج٣ رقم ٣١٢٨) بسند ضعيف؛ لضعف عبد العزيز بن عمران.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٧): «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وإسناده حسن».

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٠).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١١٧٥٠).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٤): «رجاله رجال الصحيح».

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب[١]، قال: لما كان يوم أُحد أخذ أُبيّ بن خلف يركضُ فرسَه حتى دنا من رسول الله ﷺ، واعترض رجال من المسلمين لأُبيّ بن خلف ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «استأخروا». فاستأخروا فأخذ رسول الله ﷺ حربته في يده، فرمى بها أُبيَّ بن خلف، وكسر ضلعاً مِنْ أضلاعه، فرجع أُبيّ بن خلف إلى أصحابه ثقيلاً، فاحتملوه حين ولّوا قافلين، فطفقوا يقولون: لا بأس، فقال أُبيّ حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم، ألم يَقُل: إني أقتلُك إنْ شاء الله، فانطلق به أصحابه يُنْعِشونه حتى مات ببعض الطريق، فدفَنوه. قال ابن المسيب: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب[٢]، والزهري نحوه، وإسناده صحيح إليهما.

وقد أخرجه الحاكم[٣] في «المستدرك». قال ابن كثير[٤]: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جدّاً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمٰن بن جبير كما سيأتي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عبد الرحمٰن بن جبير[٥]: أن رسول الله ﷺ «يوم» ابن أبي الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن، فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير[٦]، في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: لم يكن ذلك برميتك لولا الذي جعل الله من نصرك وما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٧) وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٤) في «تفسيره» (٧/ ٤٣).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) مرسلاً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٤)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٦٨) بسند حسن.

ألقى في صدور عدوّك حتى هزمهم ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾؛ أي: ليُعرِّف المؤمنين مِنْ نعمته عليهم في إظهارهم على عدوّهم مع كثرة عدوّهم وقلة عددهم ليَعْرفوا بذلك حقَّه، ويشكروا بذلك نعمته.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾.

الاستفتاح: طلبُ النصر، وقد اختُلف[١] في المخاطبين بالآية مَنْ هم؟ فقيل: إنها خطاب للكفار تهكماً بهم، والمعنى: إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر، وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم الله بهم، وسمّى ما حلّ بهم من الهلاك نصراً؛ ومعنى بقية الآية على هذا القول:

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى ما كنتم عليه مِنْ الكفر والعداوة ﴿نَعُدْ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم، كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾؛ أي: جماعتكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾؛ أي: لا تغني عنكم في حال من الأحوال، ولو في حال كثرتها، ثم قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومَنْ كان الله معه فهو: المنصور، ومن كان الله عليه فهو: المخذول.

قُرِئ[٢] بكسر إن وفتحها؛ فالكسر على الاستئناف، والفتح على تقدير: ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك.

وقيل: إن الآية خطاب للمؤمنين[٣].

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ١٤٤ ـ ١٤٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٢) «النشر» (٢/ ٢٧٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩١)، و«جامع البيان» (١١/ ٩٧)، و«التيسير» (ص١٠٦). هما قراءتان متواترتان، فالفتح عن أهل المدينة وابن عامر وحفص والكسر عن الباقين.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٨٠).

والمعنى: إنْ تستنصروا اللهَ فقد جاءكم النصر في يوم بدر، وإنْ تنتهوا عن مثل ما فعلتموه مِنْ أخذ الغنائم، وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك، فهو خير لكم، وإنْ تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم، كما في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية [الأنفال: ٦٨]، ولا يخفى أنّه يأبى هذا القول معنى ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ ويأباه أيضاً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلّف وتعسف.

وقيل[١]: إن الخطاب في ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ للمؤمنين، وما بعده للكافرين، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم، وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن منده، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن شهاب، عن عبد الله بن ثعلبة بن «صُعير»[٢]، أن أبا جهلٍ قال حين التقى القوم: اللَّهُمَّ أقطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرفُ، فأحِنْه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عطية[٣]، قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللَّهُمَّ انصر أَهدى الفئتين، وأفضل الفئتين، وخير الفئتين، فنزلت الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٤]: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾؛ يعني: المشركين؛ أي: إن تستنصروا فقد جاءكم المدد.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن مجاهد[٥] ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٨٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، وأحمد رقم (٢٣٦٦١)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٠١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩١، ٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي (٣/ ٧٤). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٥) بسند صحيح.

﴿الْفَتْحُ﴾ قال: كفار قريش في قولهم: ربنّا افتحْ بيننا وبين محمد وأصحابه. ففتح بينهم يوم بدر.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة(١)، في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ قال: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السدي(٢)، في قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ قال: عن قتال محمد ﷺ، ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ قال: إن تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: مع محمد وأصحابه.

وأخرج عبد بن حميد(٣)، عن قتادة ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ يقول: نعد لكم بالأسر والقتل.

[لا مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عَنْ التولّي عن رسوله؛ فالضمير(٤) في: ﴿عَنْهُ﴾ عائدٌ إلى الرسول؛ لأنّ طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، و﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ويحتمل أَنْ يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقيل(٥): الضمير راجع إلى الأمر الذي دلّ عليه أَطيعوا، وأصل تولوا:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩٠) من طريق حمّاد بن زيد، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٦) بسند حسن.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣).

(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٧١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٩٨).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣١٢).

تتولوا، فطرحت إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين، وبه قال الجمهور[١].

وقيل: إنّه خطاب للمنافقين[٢].

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط.

قال ابن عطية[٣]: وهذا وإنْ كان محتملاً على بعد، فهو ضعيف جدّاً؛ لأن الله وصف مَنْ خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو: التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء، وأبعد من هذا من قال: الخطاب لبني إسرائيل، فإنه أجنبيّ من الآية، وجملة: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [٢/١٧٦] في محل نصب على الحال.

والمعنى: وأنتم تسمعون ما يُتلى عليكم مِنْ الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصمّ البكم ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء، فإنّهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لم يسمع أصلاً؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه.

ثم أخبر سبحانه بـ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ أي: ما دبّ على الأرض[٤] ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾؛ أي: الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق؛ لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شرّ الدوابّ عند الله؛ لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرّها ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾؛ أي: في هؤلاء الصمّ البكم ﴿خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين.

قال الزجاج[٥]: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ جواب كل ما سألوا عنه.

وقيل: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصيّ بن كلاب وغيره؛ ليشهدوا بنبوّة محمد ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لأنه

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٣٧)، و«جامع البيان» (١١/ ٩٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٨١). (٣) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٣٧).
(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣١٢).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٩).

قد سبق في علمه أَنَّهم لا يؤمنون. وجملة ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ في محل نصب[١] على الحال.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال: عاصون.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عليّ بن أبي طالب[٣]، في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية قال: إن هذه الآية نزلت في فلانٍ وأصحاب له.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال: هم نفر من قريش مِنْ بني عبد الدار.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، عنه، في قوله: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: لا يتبعون الحق.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج[٦]، قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وقومه، ولعلّه المُكْنى عنه بفلان فيما تقدّم من قول عليّ ﷺ.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير[٧]، في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي: لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بألسنتهم، ولكنّ القلوب خالفت ذلك منهم.

وأخرج أبو الشيخ[٨]، عن عكرمة، في الآية قال: قالوا: نحن صُمّ عما

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٠١).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٧) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٧) من طريق أبي عثمان بن سنة الخزاعي الكعبي، به.
(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٦٤٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٧).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٧) بسند ضعيف.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٨)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٠٣) بسند حسن.
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤).

يدعونا إليه محمد لا نسمعه، بُكْم لا نُجيبه فيه بتصديق، قُتلوا جميعاً بأُحد، وكانوا أصحاب اللِّواء يوم أُحد.

[دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معاني الحياة]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق مِنْ الأمر بالطاعة، ووحّد الضمير(١) هنا حيثُ قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ كما وحّده في قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] وقد قدّمنا الكلام في وجه ذلك، والاستجابة: الطاعة.

قال أبو عُبيدة(٢): معنى استجيبوا: أجيبوا، وإنْ كان استجاب يتعدّى باللام، وأجاب بنفسه كما في قوله: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقد يتعدّى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر(٣):

وداعٍ دعا يا مَن يُجيب إلى النّدى فلم يَستجبْه عند ذاك مُجيبُ

﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ اللّام متعلقة(٤) بقوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾؛ أي: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون متعلّقة بـ«دعا»؛ أي: إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم مِنْ علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت؛ فالحياة هنا مستعارة للعلم.

قال الجمهور(٥) من المفسرين: المعنى: استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٣٠١).

(٢) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٤٥).

(٣) هو: كعب بن سعد الغنوي.
«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٤٥)، و«الأصمعيات» (ص٩٦).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٣٠٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٨٣).

(٥) «المحرر الوجيز» (٨/ ٤٠)، و«جامع البيان» (١١/ ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٨٤).

وقيل: المراد بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: الجهاد، فإنَّه سبب الحياة في الظاهر؛ لأن العدوّ إذا لم يُغْزَ غزا، ويستدلّ بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال.

وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسُّنَّة كائناً ما كان.

قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قيل: معناه: بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم[١].

وقيل[٢]: معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمناً، ويبدل عدوّهم من الأمن خوفاً.

وقيل: هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد؛ كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قَ: ١٦] ومعناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب، لا تخفى عليه منها خافية.

واختار ابن جرير[٣] أن هذا من باب الإخبار من الله ﷻ بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته ﷻ، ولا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ أي: وأنكم محشورون إليه، وهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشرّ شرّاً.

قال الفراء[٤]: ولو استأنفت فكسرت همزة ﴿وَأَنَّهُ﴾ لكان صواباً، ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؛ أي: اتقوا فتنة تتعدّى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في ﴿تُصِيبَنَّ﴾ فقال الفراء:

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٥).
(٣) في «جامع البيان» (١١/ ١١٢).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٠٧).

هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنّك، فهو جواب الأمر بلفظ النهى؛ أي: إنْ تنزل عنها لا تطرحنك، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨] أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء.

وقال المبرّد(١): إنه نهى بعد أمر. والمعنى: النهي للظالمين؛ أي: لا يقربنّ الظلم، ومثله ما روي عن سيبويه(٢): لا أرينك ها هنا. فإن معناه: لا تكن هاهنا، فإن من كان ها هنا رأيته.

وقال الجرجاني(٣): إن ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نهي [٢/١٧٧] في موضع وصف لفتنة، وقرأ عليّ، وزيد بن ثابت، وأُبيّ، وابن مسعود: «لتصيبنّ»(٤) على أن اللام جواب لقسم محذوف، والتقدير: اتقوا فتنة واللهِ لتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصةً، فيكون معنى هذه القراءة مخالفاً لمعنى قراءة(٥) الجماعة؛ لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة، بخلاف قراءة الجماعة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ومن شدّة عقابه أنه يصيب بالعذاب مَنْ لم يباشر أسبابه.

وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه، ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، والله أعلم، ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب؛ كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الأسباب المتعدّية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٦)، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: للحق.

---

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٤١)، والقرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٨٩).
(٢) انظر: «البحر المحيط» (٥/ ٣٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٤١).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٨٩).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص٤٩)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٢١). وهي قراءة شاذة.
(٥) «البحر المحيط» (٥/ ٣٠٥)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٣٢)، و«جامع البيان» (١١/ ١١٦).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٩) بسند صحيح.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[1] في الآية؛ قال: هو هذا القرآن فيه الحياة، والثِّقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا والآخرة.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير[2]، في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: للحرب التي أعزّكم الله بها بعد الذلّ. وقوّاكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها مِنْ العذاب بعد القهر مِنْهم لكم.

وقد ثبت في «الصحيح»[3] من حديث أبي سعيد بن المعلّي، قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾». الحديث.

وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعمّ كل دعاء من الله أو من رسوله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه من طرق، عن ابن عباس[4]، في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله.

وأخرج ابن أبي حاتم[5]، عن الربيع بن أنس، في الآية قال: عِلْمه يحول بين المرء وقلبه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[6]، في الآية قال: يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٠) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» (١/ ٦٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨) بسند حسن.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٤٧٤، ٤٧٠٣)، وأبو داود رقم (١٤٥٨)، وابن ماجه رقم (٣٧٨٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٠٨ ـ ١١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٠)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٠) بسند حسن.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨١) بسند صحيح.

وأخرج عبد بن حميد[١]، عن الحسن، في الآية قال: في القُرْبِ منه.

وأخرج أحمد، والبزار، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن عساكر، عن مُطّرف[٢]، قال: قلت للزبير: يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قُتل، ثم جئتم تطلبون بدمه. قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلُها حتى وقعت فينا، حيث وقعت.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن[٣]، قال: قرأ الزبير: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ قال: البلاء والأمر الذي هو كائن.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن الحسن[٤]، في الآية قال: نزلت في عليّ وعثمان وطلحة والزبير.

وأخرج عبد بن حميد[٥]، عن الضحاك قال: نزلت في أصحاب النبيّ ﷺ خاصة.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن السديّ[٦] قال: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير، وهما من أهل بدر.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٧] في الآية قال[٨]: تصيب الظالم والصالح عامة.

وأخرج أبو الشيخ[٨] عن مجاهد مثله.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥) إلى ابن جرير وعبد بن حميد.
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٤١٤، ١٤٣٨)، والبزار في «مسنده» رقم (٩٧٦)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١٨/ ٤٠٥) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨١) من طريق إسرائيل بن موسى، به.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١١٣، ١١٤) من طريق داود بن أبي هند، به.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٦).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١١٥) بسند حسن.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢) عن السدي قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢) من طريق سفيان بن عيينة، عن الضحاك.

وأخرج أبو الشيخ[١] عن مجاهد في الآية قال: هي مثل ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ حتى يتركه لا يعقل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٢]، في الآية قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب.

وقد وردت الأحاديث الصحيحة[٣] الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر عمهم الله بعذاب من عنده.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

الخطاب بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ للمهاجرين؛ أي: اذكروا وقت قلّتكم، و﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ خبر ثان[٤] للمبتدأ، والأرض: هي أرض مكة، والخطف: الأخذ بسرعة، والمراد بالناس: مشركو قريش؛ وقيل: فارس والروم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ يقال: آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى: انضم إليه؛ فالمعنى: ضمّكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾؛ أي: قوّاكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قوّاكم بالملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي من جملتها الغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: إرادة أن تشكروا هذه النعم، التي أنعم بها عليكم.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢) بسند صحيح.

(٣) (منها): ما أخرجه أبو داود رقم (٤٣٣٨)، وابن ماجه رقم (٤٠٠٥)، والترمذي رقم (٢١٦٨، ٣٠٥٧). وهو حديث صحيح.

(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٨٥).

والخون: أصله كما في «الكشاف»[١]: النقص، كما أنّ الوفاء: التمام، ثم استُعملَ في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان.

وقيل[٢]: معناه: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] نهاهم الله عَنْ أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمّنهم عليه، أو بترك شيء مما سنَّه لهم، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي اؤتمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها مِنْ منع الحق، مأخوذة من الأمن.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب[٣] على الحال؛ أي: وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة، فتفعلون الخيانة عَنْ عمد، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنهم سبب الوقوع في كثير مِنْ الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم، ليحصل لكم ما عنده [٢/١٧٨] من الأجر المذكور.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة[٤]، في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ قال: كان هذا الحيّ من العرب أذلَّ الناس ذلّاً، أشقاه عَيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جُلوداً، وأبينه ضلالةً، من عاش عاش شقيّاً، ومن مات منهم رُدّيَ في النار يُؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضري الأرض يومئذ كان أشرّ منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن به في البلاد، ووسّع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُنعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله ﷻ.

---

(١) (٢/ ٥٧٣).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٩١).
(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٣٠٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٨٨).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١١٩) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر[١]، عن ابن جريج، في قوله: ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ قال: في الجاهلية بمكة ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى الإسلام.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ وهب[٢]، في قوله: ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ قال: الناس إذ ذاك فارسُ والروم.

وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم، والديلمي، في «مسند الفردوس»، عن ابن عباس[٣]، عن رسول الله ﷺ، في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ قيل: يا رسول الله ومَنْ الناس؟ قال: «أهلُ فارس».

وأخرجَ ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٤] في قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ قال: إلى الأنصار بالمدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ قال: يوم بدر.

وأخرجَ ابنُ جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن جابر بن عبد الله[٥]، أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إنَّ محمداً يريدكم فخذوا حذركم، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٣) من طريق إسماعيل بن عبد الكريم، به.

(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٧١٨٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٣) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢١) بسند ضعيف جدّاً فيه محمد بن المُحْرِمُ، منكر الحديث.
انظر: «الجرح والتعديل» (٨/ ١٩).
قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٥٦): «هذا حديث غريب جدّاً، وفي سنده وسياقه نظر».

الشيخ، عن عبد الله بن أبي قتادة[١]، قال: نزلت هذه الآية ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في أبي لُبابة بن عبد المنذر، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حَلْقه أنه الذبح فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قَدَماي حتى علمتُ أني خنت الله ورسوله.

وأخرج سنيد، وابن جرير، عن الزهري[٢] نحوه بأطول منه.

وأخرج عبد بن حميد[٣]، عن الكلبي أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأومأ بيده أنه الذبح، فنزلت.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن السديّ، في هذه الآية: أنها نزلت في أبي لبابة، ونسختها الآية التي في براءة ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال: بترك فرائضه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بترك سننه، وارتكاب معصيته ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ يقول: لا تنقصوها، والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد.

وأخرج ابن جرير[٦]، عن المغيرة بن شعبة، قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، ولعلّ مراده أن مِنْ جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان.

وأخرج أبو الشيخ[٧]، عن يزيد بن أبي حبيب، في الآية قال: هو الإخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مراده: أن هذا مما يندرج تحت عمومها.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٩٨٧ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٤) بسند صحيح ولكنه مرسل.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢١ ـ ١٢٢) بسند ضعيف؛ لضعف الحسين وهو ابن داود.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٣، ١٦٨٤) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٢) بسند ضعيف؛ لضعف يونس بن الحارث الطائفي.

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧).

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود[١]، قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة؛ لأن الله يقول: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فمن استعاذ منكم، فليستعذ بالله مِنْ مُضلّات الفتن.

وأخرج هؤلاء عَنْ ابن زيد[٢] في الآية قال: فتنة الإختبار؛ اختبرهم، وقرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجَعْل المذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً، والتقوى: اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه، والفرقان: ما يفرق به بين الحق والباطل.

والمعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، وثقوب البصائر، وحسن الهداية ما يُفرّقون به بينهما عند الالتباس.

وقيل[٣]: الفرقان: المخرج مِنْ الشبهات، والنجاة من كل ما يخافونه، ومنه قول الشاعر:

ما لك مِنْ طول الأسى فُرقانُ ... بعد قَطينٍ رحلوا وبانوا[٤]

ومنه قول الآخر:

وكيف أُرجّى الخلدَ والموتُ طالبي ... وما ليَ من كأس المنية فرقانُ[٥]

وقال الفرّاء[٦]: المراد بالفرقان: الفتح والنصر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٥) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٥) بسند صحيح.

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٩)، و«جامع البيان» (١١/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٩٣)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٤٧).

(٥) «الجامع لأحكم القرآن» (٩/ ٤٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٤٧).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٠٨).

قال ابن إسحاق[١]: الفرقان الفصل بين الحق والباطل، وبمثله قال ابن زيد[٢].

وقال السُديّ[٣]: الفرقان: النجاة، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] وبه قال مجاهد[٤] ومالك بن أنس[٥] ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ أي: يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما اقترفتم من الذنوب.

وقد قيل: إن المراد بالسيئات: الصغائر؛ وبالذنوب التي تغفر: الكبائر.

وقيل: المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدّم من الذنوب وما تأخر ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٦]، في قوله: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: هو المخرج.

وأخرج ابن جرير[٧] عنه، قال: هو: النجاة.

وأخرج ابن جرير[٨]، عن عكرمة، مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٩]، قال: هو النصر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» (١/ ٦٦٩) بسند ضعيف.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٤٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٨) بسند صحيح.

(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٣٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٠) بسند ضعيف.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٠) بسند ضعيف.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦) بسند ضعيف.

[ندوة قريش وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون والله من ورائهم محيط]:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

[حالة من العناد الجامع الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق]:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظرف معمول لفعل محذوف؛ أي: واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك، أو معطوف على ما تقدّم من قوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ [الأنفال: ٢٦] ذكَّر الله رسولَه هذه النعمة العظمى [٢/١٧٩] التي أنعم بها عليه، وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتي بيانه ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ أي: يثبتوك بالجراحات، كما قال [ثعلب[(١)]] وأبو حاتم، وغيرُهما، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

[فقلت ويحكمُ ما في صحيفتكم][(٣)] قالوا الخليفةُ أمسى مُثْبتاً وجِعا

وقيل: المعنى: ليحبسوك، يقال: أثبته: إذا حبسَه؛ وقيل: ليوثقوك، ومنه: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وقرأ الشعبي: «ليبيتوك» من البيات. وقرئ[(٤)]: «ليثبّتوك» بالتشديد ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي: يخرجوك من مكة التي هي بلدك وبلد

---

(١) كذا في المخطوط والذي في «روح المعاني» (١٠/ ٩٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٩٤) أبان بن تغلب.

(٢) نسب البيت في «الأغاني» (١٧/ ٢١٢) لمعاوية بن يزيد.
انظر: «ديوانه» (ص١٢).

(٣) كذا في المخطوط والذي في «الديوان»: قلنا لك: الويل، ماذا في صحيفتكم.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٩٥). القراءة المتواترة هي قراءة الجمهور وما عداها فهو شاذ وقراءة الجمهور في هذه الكلمة (لِيُثْبِتوك) بضم الياء، وسكون الثاء، وكسر الباء.

أهلك، وجملة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ مستأنفة، والمكر: التدبير في الأمر في خفية.

والمعنى: أنهم يخفون ما يعدّونه لرسول الله ﷺ من المكايد، فيجازيهم الله على ذلك ويردّ كيدهم في نحورهم. وسمى ما يقع منه تعالى مكراً مشاكلةً، كما في نظائره ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾؛ أي: المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشدّ ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾؛ أي: التي تأتيهم بها، وتتلوها عليهم ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً وتمرّداً وبُعداً عن الحق: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تتلوه علينا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ الذي تلوته علينا.

قيل: إنهم قالوا هذا توهماً[(١)] منهم أنَّهم يقدرون على ذلك، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه. ثم قالوا عناداً وتمرّداً: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما يسطّره الوراقون من أخبار الأوّلين، وقد تقدّم بيانه مستوفى.

﴿وَإِذْ قَالُوا﴾؛ أي: واذكر إذْ قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان، والضمير للفصل، ويجوز الرفع.

قال الزجاج[(٢)]: ولا أعلم أحداً قرأ بها، ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سُنَّة.

والمعنى: إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ قالوا هذه المقالة مبالغةً في الجحود والإنكار.

قال أبو عبيدة[(٣)]: يقال: أمطر: في العذاب، ومطر: في الرحمة.

وقال في «الكشّاف»[(٤)]: قد كثر الإمطار في معنى العذاب ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ﴾ يا محمد

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٩٥).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤١١).
(٣) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٤٥).
(٤) (٢/ ٥٧٧).

﴿فِيهِمْ﴾ موجود؛ فإنّك ما دمت فيهم فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ روي أَنَّهم كانوا يقولون في الطواف: غفرانك؛ أي: وما كان الله معذبهم في حال كونهم يستغفرونه.

وقيل[١]: المعنى: لو كانوا ممّن يؤمن بالله ويستغفره لم يعذبهم.

وقيل: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم؛ أي: وما كان الله ليعذبهم وفيهم مَنْ يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده.

وقيل: المعنى: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم مَنْ يستغفر الله.

وقد أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل»، والخطيب، عن ابن عباس[٢]، في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: تشاورت قريش ليلةً بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوَثاق، يريدون النبيَّ ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضُهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فبات عليّ على فراش النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه علياً ردّ الله مكرهم فقالوا: أين صاحبُك هذا؟ فقال: لا أدري، فاقتصوا أثرَه، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

وأخرج ابنُ إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، والبيهقي، عن ابن عباس[٣]، فذكر القصة بأطول مما هنا. وفيها ذكر الشيخ النجدي؛ أي: إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر

---

(١) سيأتي تخريج هذه الأقوال.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٧٤٣)، وفي «تفسيره» (١/ ٢٥٨)، وأحمد رقم (٣٢٥١)، والطبراني رقم (١٢١٥٥)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٥٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٩١) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٥٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٦٨) بسند حسن.

النبي ﷺ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً، ويعطوا كل واحد منهم سيفاً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، فتفرّقوا على ذلك.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبيد بن عمير[١]، قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمُّه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني، قال: من حدّثك بهذا؟ قال: ربي، قال: نعم الربّ ربك استوص به خيراً، قال: أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي.

وأخرجه ابن جرير[٢] مِنْ طريق أخرى عنه. وهذا لا يصح[٣]، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[٤]، في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: قال عكرمة: هي مكية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء[٥] في قوله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ يعني: ليُوثقوك.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير[٦]، قال: قتل النبيُّ ﷺ

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٣) بسند ضعيف.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٥٩): «وذكر أبي طالب في هذا غريب جدّاً؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إنّ هذه القصة، واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنَّما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه...».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤٠ ـ ١٤١) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨) بسند صحيح، عن مجاهد.

• وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨) بسند ضعيف، عن عطاء قال: يسجنوك.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤٣) مرسلاً بسند صحيح.

يوم بدر صبراً عُقبة بن أبي مُعَيط، وطُعَيمة بن عديّ، والنضر بن الحارث؛ وكان المقداد أسرَ النضرَ، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه كان يقول في كتاب الله ما يقول»، قال: وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ وهذا مرسل.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ(١): أنها نزلت في النضر بن الحارث.

وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، عن أنس بن مالك(٢) قال: قال أبو جهل بن هشام: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية فنزلت ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد(٣)، عن قتادة؛ أنها نزلت في أبي جهل.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير(٤)، في الآية؛ أنها نزلت في النضر بن الحارث.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد(٥) مثله.

وأخرج ابن جرير، عن عطاء(٦)، نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «سُننه»، عن ابن عباس(٧) قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لا شريك لك [٢/١٨٠] إلا شريك هو لك تملكه وما

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤٢ ـ ١٤٣) بسند حسن.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٦٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٧٥).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤٤) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٤٥) من طريق طلحة بن عمرو، به.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩١)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ٤٥) بسند صحيح.

ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس، كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار؛ فذهب النبيّ ﷺ، وبقي الاستغفار.

وأخرج الترمذي[١] وضعّفه، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار».

وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أبي هريرة[٢] قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر، قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[٣] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم، وابن عساكر، عن أبي موسى الأشعري[٤] نحوه أيضاً.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرةٌ جدّاً معروفة في كتب الحديث.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٨٢) وقال: «هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث». . . . ضعيف.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٥٤) بسند رجاله ثقات، وهو موقوف.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.
● أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢) من طريق النضر بن عزى، به. بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٥٢)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٣٣٤٦)، والحاكم (١/ ٥٤٢)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١٧/ ٤). وهو حديث ضعيف، وقد تقدم.

أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لما بيَّن سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان وجودُ رسول الله بين ظهورهم، ووقوعُ الاستغفار. ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار، أعني: كفار مكة، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح.

والمعنى: أيّ شيء لهم يمنع من تعذيبهم؟ قال الأخفش[(١)]: إن «أَنْ» زائدة. قال النحاس[(٢)]: لو كان كما قال لرفع يعذبهم.

وجملة ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في محل نصب[(٣)] على الحال؛ أي: وما يمنع من تعذيبهم؟ والحال أنهم يصدّون الناس عن المسجد الحرام، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت.

وجملة ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ في محل نصب[(٤)] على أنها حال من فاعل ﴿يَصُدُّونَ﴾، وهذا كالردّ لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت، وأن أمره مفوّض إليهم، ثم قال مبيناً لمن له ذلك: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: ما أولياؤه إلا من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ المكاء: الصفير[(٥)] من مَكَا يمكو مُكاءً، ومنه قول عنترة:

---

(١) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٤٥). (٢) في «إعراب القرآن» (٢/ ١٨٥).

(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٣١٣).

(٤) «روح المعاني» (١٠/ ١٠١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٥).

(٥) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٧٣)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٩٥).

وخـليـلِ غـانـيـةٍ تـركـتُ مُـجـنـدَلاً تـمـكـو فـريـصـتُه كـشِـدْق الأَعـلـمِ(١)

أي: تصوّت؛ ومنه: مكتِ استُ(٢) الدابة: إذا نُفخت بالريح، قيل: المكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له: المُكَّاء.

قال الشاعر:

إذا غـرّد الـمُـكّـاءُ فـي غـيـر دوحـةٍ فـويـلٌ لأهـل الـشـاءِ والـحُـمُـراتِ(٣)

والتصدية: التصفيق، يقال: صدّى يُصدّى تصديةً: إذا صفّق، ومنه قول عَمْرو بن الإطنابة(٤):

وظـلـوا جـمـيـعـاً لـهـم ضَـجّـةٌ مُـكـاءٌ لـدى الـبـيـتِ بـالـتـصـديَـهْ

أي: بالتصفيق؛ وقيل: المكاء: الضرب بالأيدي، والتصدية: الصياح؛ وقيل: المكاء(٥): إدخالهم أصابَعهم في أفواههم، والتصدية: الصفير.

وقيل(٦): التصدية: صدّهم عن البيت.

قيل: والأصل على هذا تَصْدِدة(٧) فأبدل مِنْ إحدى الدالين ياء.

ومعنى الآية: أنّ المشركين كانوا يُصفّرون ويُصفّقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، وقرئ بنصب(٨): «صلاتَهم» على أنها خبر كان، وما بعده اسمها.

قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ هذا التفات(٩) إلى مخاطبة الكفار

---

(١) انظر: «ديوان عنترة» (ص٢٤). (٢) انظر: «الصحاح» (٦/ ٢٤٩٦).

(٣) انظر في: «أدب الكاتب» (ص١٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٩٩).

(٤) ابن الإطنابة، رجل شاعر. والإطنابة المِظلّة. قاله الجوهري في «الصحاح» (١/ ١٧٢). وقال ابن منظور في «اللسان» (١/ ٥٦١): «ابن الإطنابة: رجل شاعر، والإطنابة أمُّه وهي امرأة من بني كنانة بن القيس بن جر بن قُضاعة، واسم أبيه: زيد مَناة».

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٥، ١٦٩٦) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٧) بسند ضعيف؛ لضعف طلحة بن عمرو.

(٧) «اللسان» (٣/ ٢٤٦).

(٨) «القراءات الشاذة» (ص٤٩)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٦). وهي قراءة شاذة.

(٩) «روح المعاني» (١٠/ ١٠٥)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣١٦).

تهديداً لهم، ومبالغة في إدخال الرّوعة في قلوبهم، والمراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية، أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية.

والمعنى: أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم[1] هو الصدّ عن سبيل الحق، بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا يُنفقون أموالهم على الجيش؛ ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرةً عليهم، وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندماً، ﴿ثُمَّ﴾ آخر الأمر ﴿يُغْلَبُونَ﴾ كما وعد الله به في مثل قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين: إمّا التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾؛ «إنْ» استمرّوا على الكفر؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه؛ أي: يساقون إليها لا إلى غيرها، ثم بيّن العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعله فقال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾؛ أي: الفريق الخبيث[2] من الكفار ﴿مِنَ﴾ الفريق ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ عبارة عن الجمع والضم؛ أي: يجمع بعضهم إلى بعض، ويضمّ بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم، يقال: ركم[3] الشيء يركمه: إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الخسران.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ١٦٩ ـ ١٧٠).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٥٠٠).
(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٦٥).

وقيل: الخبيث والطيب: صفة للمال، والتقدير[١]: يميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون، فيضمّ تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيه في جهنم [٢/١٨١] ويعذبهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

قال في «الكشاف»[٢]: واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، وعلى الأوّل بيحشرون، و﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا. انتهى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٣]: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير[٤]، في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ قال: عذابُهم: فتحُ مكة.

وأخرج ابن إسحاق، وأبو حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير[٥] ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ وهم يجحدون بآيات الله، ويكذّبون رسله.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير[٦]: في قوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: من آمن بالله وعبدَه، أنت ومن اتبعك ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده؛ أي: أنت ومَنْ آمن بك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٧]، في قوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: من كانوا حيث كانوا.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ١٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).
(٢) (٢/ ٥٧٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٣) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٤) بسند حسن.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٤) بسند حسن.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٤)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٠) بسند حسن.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٤) بسند صحيح.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير[١]، قال: كانت قريش يعارضون النبيّ ﷺ في الطواف، ويستهزئون ويُصفِّرون ويُصفِّقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء عن ابن عباس[٢]، قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تُصفِّر وتُصفِّق، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: والمكاء الصفير، إنما شُبهّوا بصفير الطير، وتصدية التصفيق، وأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٢].

وأخرج ابن المنذر[٣]، عن ابن عباس، نحوه.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر[٤]، عنه نحوه أيضاً.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر[٥] قال: المُكاء: الصفيرُ، والتصدية: التصفيق.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٦]، قال: المكاء: إدخال أصابعهم في أفواههم، والتصدية: الصفير، يُخلِّطون بذلك كلِّه على محمد ﷺ صلاته.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ[٧]: قال: المكاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له: المكاء يكون بأرض الحجاز، والتصدية: التصفيق.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٤) من طريق الحمَّاني، به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٦)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ١٧ رقم ١١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٤) بسند حسن.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٢) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٣) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٥، ١٦٩٦) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٥) بسند حسن.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير[١]، في قوله: ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ قال: كانوا يُشبِّكون أصابعَهم ويُصفِّرون فيهنّ ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال: صدّهم الناس.

وأخرج عبد بن حميد[٢]، عن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال. وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾؛ فالمكاء: مثل نفخ البوق، والتصدية: طوافهُم على الشمال.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحّاك[٣] في قوله: ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال: يعني: أهلَ بدر عذّبهم الله بالقتل والأسر.

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل»، كلهم من طريقه، قال: حدّثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبّان، وعاصم بن عُمر بن قتادة، و«الحُصين» بن عبد الرحمٰن بن عمرو[٤] قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم، فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العِير مِنْ قريش تجارةٌ فقالوا: يا معشر قريش إنّ محمداً قد وتَركم وقتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثاراً، ففعلوا، ففيهم ـ كما ذكر ابن عباس ـ أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وأخرج ابن مردويه[٥]، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٦) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٢٤) مرسلاً بسند حسن.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٤).

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[١] نحوه.

وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير[٢] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحكم بن عُتيبة[٣]، في الآية قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أُحد أربعين أوقيةً من ذهب، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من ذهب.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن شِمْر بن عطية[٤]، في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتُلقى في جهنّم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٥]، في قوله: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ قال: يجمعه جميعاً.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها.

قال ابن عطية[٦]: ولو كان كما قال الكسائي[٧]: إنه في مصحف عبد الله بن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٠ ـ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٢٣/ ٤٢٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧) من طريق خطّاب بن عثمان العصفري، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٩) من طريق حفص بن حميد، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٩) بسند صحيح.

(٦) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٦٤).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٥٠٠).

مسعود «قل للذين كفروا إن تنتهوا»[١]؛ يعني: بالتاء المثناة من فوق لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها.

وقال في «الكشّاف»[٢]: أي: قل لأجلهم هذا القول، وهو ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ ولو كان بمعنى خاطِبْهم، لقيل: إنْ تنتهوا يغفر لكم، وهي قراءة ابن مسعود، ونحوه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه؛ أي: إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة. انتهى.

وقيل: معناه: إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطية[٣]: والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنتهٍ عن الكفر.

وفي هذه الآية دليل على أن الإسلام يَجبُّ ما قبله ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذي هم عليه، ويكون العود بمعنى الاستمرار.

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذه العبارة مشتملة على الوعيد، والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله؛ أي: قد مضت سُنَّة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأوّلين من الأمم أن يصيبه بعذاب، فليتوقعوا مثل ذلك ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: كفر، وقد تقدّم تفسير هذا في البقرة مستوفى.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عما ذكر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم [٢/١٨٢] من الانتهاء ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عما أمروا به من الانتهاء ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾؛ أي: ناصركم عليهم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فمن والاه فاز، ومن نصره غَلَب.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٤]، في قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: في قريش وغيرها يوم بدر، والأمم قبل ذلك.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٥١)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٦٤). وهي قراءة شاذة

(٢) (٢/ ٥٨٠).

(٣) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٦٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٠) بسند صحيح.

وأخرج أحمد، ومسلم، عن عمرو بن العاص[(١)]، قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ، فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي، قال: «ما لك؟» قلتُ: أردتُ أن أشترط، قال: «تشترط ماذا؟» قلت: أن تستغفر لي، قال: «أما علمتَ أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحجّ يهدم ما كان قبله؟».

وقد ثبتَ في «الصحيح»[(٢)] مِنْ حديث ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة تجبّ ما قبلها».

وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بما مضى في الأمم المتقدّمة مِنْ عذاب مَنْ قاتل الأنبياء، وصمّم على الكفر.

وقال السديّ[(٣)] ومحمد بن إسحاق[(٤)]: المراد بالآية: يوم بدر.

وفسّر جمهور[(٥)] السلف الفتنة المذكورة هنا: بالكفر.

وقال مُحمّد بن إسحاق[(٦)]: بلغني عَنْ الزهري عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يفتن مُسلم عَنْ دينه.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٧٨٢٧)، ومسلم رقم (١٢١).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٨) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٧٨) بسند حسن.
(٥) «جامع البيان» (١١/ ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٦٥ ـ ٦٦).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠١) بسند ضعيف.

ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وكانت المقاتَلَة مظنة حصول الغنيمة؛ ذكر حكم الغنيمة، والغنيمة قد قدّمنا أن أصلها إصابة الغنم مِنْ العدوّ، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم، وقد تستعمل في كل ما ينال بسعي، ومنه قول الشاعر(١):

وقد طوّفتُ في الآفاق حتى رضِيتُ من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الآخر(٢):

ومطعَمُ الغُنْم يومَ الغُنم مُطْعَمُه أنَّى توجَّه والمحرومُ محرومُ

وأمّا معنى الغنيمة في الشرع؛ فحكى القرطبي(٣) الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر.

قال(٤): ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع.

وقد ادّعى ابن عبد البر(٥) الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، وأن قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ نزلت(٦) حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر على ما تقدّم أوّل السورة.

وقيل: إنها أعني قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ محكمة غير منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين، وكذلك لمن بعده من الأئمة،

---

(١) وهو: امرؤ القيس. انظر: «ديوانه» (ص٩٩).
(٢) وهو: علقمة الفحل. انظر: «ديوانه» (ص٦٦).
(٣) في «تفسيره» (١٠/٥).
(٤) أي: القرطبي في «تفسيره» (١٠/٥ ـ ٦).
(٥) في «التمهيد» (١٤/٤٩، ٦٣).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٦).

حكاه الماوردي[١] عَنْ كثير من المالكية.

قالوا[٢]: وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حُنين وكان أبو عُبيدة يقول: افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوةً ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً، وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين، وممن حكى ذلك ابن المنذر[٣]، وابن عبد البر[٤]، والدَّاوُديُّ[٥]، والمازري[٦]، والقاضي عياض[٧]، وابن العربي[٨]، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين الغانمين، وكيفيتها كثيرة جدّاً.

قال القرطبي[٩]: ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية [الأنفال: ١] ناسخ لقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية؛ بل قال الجمهور: إن قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله.

وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها، قال[١٠]: وأما قصة حُنين فقد عوّض الأنصار لمّا قالوا تعطى الغنائم قريشاً وتتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم نَفْسَه، فقال لهم: «أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم» كما في مسلم[١١] وغيره، وليس لغيره أن يقول هذا القول؛ بل ذلك خاص به.

قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة و﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيان «لما» الموصولة، وقد خصّص الإجماع من عموم الآية الأسارى، فإن

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/٧).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨٥١).
(٣) انظر: «فتح الباري» (٨/٣٩).
(٤) في «التمهيد» (١١/٩٢).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/٨)، والحافظ في «الفتح» (٨/٣٨).
(٦) في «المعلم بفوائد مسلم».
(٧) في «إكمال المعلم» (٦/٧٥).
(٨) في «أحكام القرآن» (٢/٨٥١).
(٩) في «تفسيره» (١٠/٨ ـ ٩).
(١٠) القرطبي في «تفسيره» (١٠/٩).
(١١) أخرجه مسلم رقم (١٠٥٩)، والبخاري رقم (٣٧٧٨)، وأحمد في «مسنده» رقم (١٢٧٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك سَلَب[١] المقتول إذا نادى به الإمام.

وقيل: كذلك الأرض المغنومة[٢]. وردّ بأنّه لا إجماع على الأرض.

قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قرأ النخعي «فإنّ لله» بكسر[٣]: إن.

وقرأ الباقون بفتحها[٣] على أن «أنّ» وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: فحقٌّ أو: فواجب أن لله خمسَه.

وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخُمس على أقوال ستة:

(الأوّل) قالت طائفة[٤]: يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله، والثاني لرسول الله، والثالث لذوي القربى، والرابع لليتامى، والخامس للمساكين، والسادس لابن السبيل.

(والقول الثاني): قاله أبو العالية[٥] والربيع: إنها تُقْسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغانمين، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله، فما قبضه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية.

(القول الثالث): روي عن زين العابدين[٦] علي بن الحسين أنه قال: إن

---

(١) «البيان» للعِمْراني (١٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«المغني» (١٣/ ٧٣ ـ ٧٤)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٤٧).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٢٥)، و«عيون المجالس» (٢/ ٧٣٨ ـ ٧٣٩)، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٩٢).

(٣) قرأ الجعفي وهارون واللؤلؤي وخارجة كلهم عن أبي عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وأبو هريرة: «فإِن لله» بكسر الهمزة على أن تكون (إنّ) وما عملت فيه مبتدأً وخبراً في موضع خبر الأولى. وهي رواية شاذة عن أبي عمرو وكذا رواية أبي بكرٍ عن عاصم شاذة عنه.
«القراءات الشاذة» (ص٤٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٨).
● وقرأ النخعي: «فللّه خُمُسُه». وذهب أبو حيان وغيره إلى أن هذه القراءة تقوي من قرأ بكسر (إنَّ).
«البحر المحيط» (٥/ ٣٢٦)، و«القراءات الشاذة» (ص٤٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ١١٩).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٣٢٦)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١١)، و«روح المعاني» (١٠/ ١١٩)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٢٧٥).

(٥) انظر: «الأوسط» لابن المنذر (١٠/ ٨٦)، و«جامع البيان» (١١/ ١٨٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٩٩) بسند ضعيف جدّاً، فيه عبد الغفار وهو ابن القاسم أبو مريم الغفاري، من رؤوس الشيعة، رافضي، يصنع الحديث. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦٤).

الخمس لنا، فقيل له: إن الله يقول: ﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا.

(القول الرابع): قول الشافعي[١]: إنّ الخمس يقسم على خمسة، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة في الآية.

(القول الخامس): قول أبي حنيفة[٢]: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكم سهمه، [٢/١٨٣] قال: ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند. وروي نحو هذا عن الشافعي[٣].

(القول السادس) قول مالك[٤]: إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه بغير تقدير، ويعطى مِنْه الغزاة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القرطبي[٥]: وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا، وعليه يدل قوله ﷺ: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، فإنه لم يقسمه أخماساً ولا أثلاثاً، وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم؛ لأنهم من أهم مَنْ يدفع إليه.

قال الزجّاج[٦] محتجّاً لهذا القول: قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٥] وجائز بإجماعٍ أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

قوله: ﴿وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ قيل: إعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم، لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ.

---

(١) «الأوسط» لابن المنذر (١١/ ٩٥)، و«البيان» للعمراني (١٢/ ٢١١).
(٢) «مختصر اختلاف العلماء» للطحاوي (٣/ ٥١٣ ـ ٥١٤)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣١٠).
(٣) «البيان» للعمراني (١٢/ ٢١١)، و«روضة الطالبين» (٦/ ٣٥٥).
(٤) «عيون المجالس» (٢/ ٧٤٥ ـ ٧٤٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٤٨).
(٥) في «المفهم» (٣/ ٥٥٦). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٠).
(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤١٥).

وقد اختلف[١] العلماء في القربى على أقوال: الأول: أنهم قريش كلها، روي ذلك عن بعض السلف، واستدلّ بما روي عن النبي ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلاً: يا بني فلان يا بني فلان.

وقال الشافعي، وأحمد، وأبو ثور، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، ومسلم بن خالد: هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبّك بين أصابعه» وهو في «الصحيح»[٢].

وقيل: هم بنو هاشم خاصةً، وبه قال مالك[٣]، والثوري، والأوزاعي، وغيرهم، وهو مروي عن علي بن الحسين، ومجاهد.

قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قال الزجاج[٤] عن فرقة: إن المعنى: فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله.

وقالت فرقة أخرى: إن ﴿إِنْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ قال ابن عطية[٥]: وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق «إن» بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ على هذا المعنى؛ أي: إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلّموا لأمر الله في الغنائم، فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

وقال[٦] في «الكشاف»: إنه متعلق بمحذوف يدلّ عليه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ بمعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنّ الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرّد، ولكن العلم المضمّن بالعمل والطاعة لأمر الله؛ لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر. انتهى.

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ معطوف على الاسم الجليل؛ أي: إن كنتم آمنتم

---

(١) انظر هذه الأقوال في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢١ ـ ٢٢).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣١٤٠)، وأحمد رقم (١٦٧٤١)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ١٣٠ ـ ١٣١) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.
(٣) «الاستذكار» (٤/ ١٨٧).
(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤١٦).
(٥) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٧٣).
(٦) الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٥٨٤).

بالله وبما أنزلنا، و﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يوم بدر؛ لأنه فرّق بين أهل الحق وأهل الباطل «والجَمعْان» الفريقان مِنْ المسلمين والكافرين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقلّ على الفريق الأكثر(١).

قوله: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر(٢) العين في العدوة في الموضعين، قرأ الباقون بالضم(٣) فيهما.

و﴿إِذۡ﴾ بدل(٤) من يوم الفرقان، ويجوز أن يكون العامل محذوفاً؛ أي: واذكروا إذ أنتم. والعدوة: جانب الوادي، والدنيا: تأنيث الأدنى، والقصوى: تأنيث الأقصى، من دنا يدنو، وقصا يقصو، ويقال: القصيا، والأصل الواو(٥)، وهي لغة أهل الحجاز، والعدوة الدنيا كانت مما يلي المدينة، والقصوى: كانت مما يلي مكة.

والمعنى: وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادي إلى جهة المدينة، وعدوّكم بالجانب الأقصى منه مما يلي مكة.

وجملة ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ في محل نصب(٦) على الحال، وانتصاب ﴿أَسۡفَلَ﴾ على الظرف(٧)، ومحله الرفع على الخبرية؛ أي: والحال أنّ الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه، وأجاز الأخفش(٨) والكسائي(٩) والفراء(١٠) رفع أسفل على معنى أشدّ سفلاً منكم.

والركب: جمع راكب، ولا تقول العرب ركب إلّا للجماعة الراكبي الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب، وكذا قال ابن فارس(١١)، وحكاه ابن السكيت(١٢) عن أكثر أهل اللغة.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٠٠).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٣٢٧)، و«النشر» (٢/ ٣٧٦)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٠٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩١). وهما قراءتان متواترتان.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «التبيان» (٢/ ٦٢٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٢٧).

(٥) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٢٨).

(٦) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٤٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٢٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٨).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٤٦).

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٨٨).

(١٠) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١١).

(١١) في «مجمل اللغة» (٢/ ٣٩٦).

(١٢) «الكشاف» (٢/ ٥٨٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

والمراد بالركب ها هنا: ركب أبي سفيان، وهي المراد بالعير، فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر.

قيل: وفائدة(١) ذكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوّهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم: الدلالة على قوّة شأن العدوّ وشوكته، وذلك لأن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا يابس بها.

وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدامُ ولا ماء بها، وكانت العير وراء ظهر العدوّ مع كثرة عددهم، فامتنّ الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه.

قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾؛ أي: لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال لخالف بعضُكم بعضاً. فثبطكم قلَّتكم وكثرتُهم عن الوفاء بالموعد، وثبّطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ ﴿وَلَكِن﴾ جمع الله بينكم في هذا الموطن ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ أي: حقيقاً بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها. ولم يكن في حساب الطائفتين أنْ يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة، واللام في ﴿لِّيَقْضِيَ﴾ متعلّقة بمحذوف، والتقدير: جمعهم ليقضي.

وجملة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ بدل(٢) من الجملة التي قبلها؛ أي: ليموت مَنْ يموت عن بيّنةٍ، ويعيش من يعيش عن بينة لئلا يبقى لأحد على الله حجة.

وقيل: الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام؛ أي: ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق؛ ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة.

قرأ نافع، وخلف، وسهل، ويعقوب، والبزي وأبو بكر: «من حيي»(٣) بياءين على الأصل.

---

(١) «الكشاف» (٢/ ٥٨٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٣٠)، و«التبيان» (٢/ ٦٢٥).

(٣) «النشر» (٢/ ٢٧٦)، و«التيسير» (ص١١٦)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٦٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٢٩).

وقرأ الباقون بياء[١] واحدة على الإدغام، وهي اختيار أبي عُبيد لأنها كذلك وقعت في المصحف ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع بكفر الكافرين [٢/١٨٤] عليم به، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به.

وقد أخرجَ ابن إسحاق، وابنُ أبي حاتم، عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير[٢] قال: ثم وضع مقاسم الفيء، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ بعد الذي كان مضى من بدر ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، عن قيس بن مسلم الجَدَلي[٣] قال: سألت الحسن بن محمد بن عليّ بن أبي طالب ابن الحنفية عن قول الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السَّهمين. قال قائل منهم: سهم ذي القربى لقرابة رسول الله ﷺ. وقال قائل منهم: سهم ذي القربى لقرابة الخليفة، وقال قائل منهم: سهم النبي ﷺ للخليفة من بعده؛ واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدّة في سبيل الله؛ فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر.

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[٤] قال: كانَ رسول الله ﷺ إذا بعثَ سريةً فغنموا خمَّس الغنيمة فضرب ذلك في خمسه، ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الآية، قال: قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مفتاح كلام، لله ما في السمٰوات وما في الأرض، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فجعل هذين السهمين قوّة في الخيل والسلاح، وجعل سهم اليتامى

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان، ومع نافع أبو جعفر ووجهٌ لقنبُل، والباقون بياء مشدّدة وهوالوجه الثاني لقنبل. «النشر» (٢/ ٢٧٦).

(٢) اخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٢) بسند حسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٩٤٨٢)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٣١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٩٦ ـ ١٩٧)، والحاكم (٢/ ١٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٢) من طريق سفيان، به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٨٨، ١٩٧)، والطبراني رقم (١٢٦٦٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٤٠): «وفيه نهشل بن سعيد، وهو متروك».

والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم، وجعل الأربعة الأسهم الباقية: للفرس سهماً ولراكبه سهماً، وللرّاجل سهماً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابنُ أبي حاتم، عنه(١)، قال: كانت الغنيمة تُقْسَم على خمسة أخماس: فأربعةٌ منها بين مَنْ قاتل عليها، وخُمُس واحد يُقْسَم على أربعة أخماس. فربع لله وللرسول ولذي القربى؛ يعني: قرابة رسول الله ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ مِنْ الخُمُس شيئاً؛ والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين؛ والربع الرابع لابن السبيل، وهو: الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية(٢)، في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية قال: كان يجاء بالغنيمة فَتُوضع، فيقسمها رسولُ الله ﷺ على خمسة أسهم، فيعزل سهماً منها، ويقسم أربعة أسهم بين الناس؛ يعني: لمن شهد الوقعة، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزلَه، فما قبض عليه مِنْ شيء جعله للكعبة، فهو الذي سمى الله لا تجعلوا لله نصيباً، فإن لله الدنيا والآخرة، ثم يَعمِد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم: سهمٌ للنبيِّ ﷺ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

وأخرج ابنُ المنذر(٣)، عن ابن عباس، قال: كان النبيُّ ﷺ يجعل سهم الله في السلاح والكُراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج إليه الكعبة، ويجعل سهم الرسول في الكُراع والسلاح ونفقة أهله، وسهم ذي القربى لقرابته، يضعه رسول الله ﷺ فَيُّهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم، يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء، ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة إلا سهم، ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام النّاس.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٩٠، ١٩١، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٣) بسند حسن ولكنه مرسل.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٧).

وأخرج ابن أبي حاتم(١) عن حُسين المُعلِّم قال: سألتُ عبد الله بن بريدة عن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: الذي لله لنبيِّه، والذي للرسول لأزواجه.

وأخرج الشافعي، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ومُسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابنُ مردويه، والبيهقي في «سُننه»، عن ابن عباس(٢)؛ أن نَجْدةَ كتب إليه يسأله عَنْ ذوي القربى الذين ذكر الله، فكتب إليه: إنّا كنا نرى أنّا هم فأبى ذلك علينا قومُنا» وقالوا: قريش كلُّها ذوو قربى، وزيادة قوله: «وقالوا: قريش كلّها» تفرّد بها أبو معشر، وفيه ضعف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، من وجه آخر عن ابن عباس(٣): أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عَنْ سهم ذي القربى، ويقول: لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ. وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقّنا فرددناه عليهم وأبينا أن نقبله، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم وأن يقضي عن غارمهم، وأن يعطي فقيرهم، وأَبى أَنْ يزيدهم على ذلك.

وأخرج ابنُ أبي حاتم(٤)، عن ابن عباس قال: «رغبت لكم عن غُسالة الأيدي؛ لأن لكم في خُمس الخمس ما يكفيكم أو يُغنيكم».

رواه ابن أبي حاتم(٥) عن إبراهيم بن مهدي المصيصي: حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عَنْ حنش عن عكرمة عنه مرفوعاً.

قال ابن كثير(٦): هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٤) من طريق أبي معمر المنقري.
(٢) أخرجه الشافعي في «مسنده» (٢/ ٢٤٥ رقم ٤٠٦ ـ شفاء العي)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٩٤٥٥)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٧٢)، ومسلم رقم (١٨١٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٤)، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٢٤٥) و(٩/ ٥٣). والزيادة ليست في «صحيح مسلم».
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٧١).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٥) بسند حسن.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥) بسندٍ ضعيف؛ لضعف حنش وهو الحسين بن قيس الرحبي، متروك.
(٦) في «تفسيره» (٧/ ٨٨).

وقال يحيى بن معين: يأتي بمناكير[١].

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر، عن جبير بن مطعم[٢]؛ أن النبيّ ﷺ قسم سهم ذوي القربى مِنْ خيبر على بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا نُنكر فضلهم لمكانك منهم، أرأيت إخواننا مِنْ بني المطلب أعطيتهم دوننا فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النَّسب؟ فقال: «إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام».

وقد أخرجه البخاري[٣] في «صحيحه».

وأخرج ابن مردويه[٤]، عَنْ زيد بن أرقم قال: آلُ محمدٍ الذين أعطوا الخُمُس: آل عليّ، وآل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل.

وأخرج ابن مردويه[٤]، عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ شيءٌ واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإمّا فرس، ثم يُصيب بعد ذلك من الخُمس.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن عليّ[٥] قال: قلت: يا رسول الله ألا وليتني ما خصنا الله به من الخمس؟ فولانيه.

وأخرج الحاكم[٦] وصحّحه عنه قال: ولّاني رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعته مواضعه [٢/١٨٥] حياة رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن

---

(١) «الميزان» (١/ ٥٤٦).

• ويغني عنه ما أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١٠٧٢) عن المطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «إنَّ هذه الصدقات إنَّما هي أوساخ الناس، وإنَّها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣١٤٠)، وأبو داود رقم (٢٩٧٨، ٢٩٧٩، ٢٩٨٠)، والنسائي رقم (٤١٣٦، ٤١٣٧)، وابن ماجه رقم (٣٨٨١)، وأحمد رقم (١٦٢٩٩).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ٤٧٠).

(٦) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٨، ٣/ ٢٩، ٤٠).

عباس[١]، في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر، وبدرٌ ما بين مكة والمدينة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس[٢]، في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ قال: هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل.

وأخرج ابن مردويه[٣]، عن عليّ بن أبي طالب، قال: كانت ليلةُ الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان. وأخرجه عنه ابن جرير[٤] أيضاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ قال: العدوة الدنيا شاطئ الوادي ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قال: أبو سفيان.

وأخرج ابن المنذر[٦] عَنْ عكرمة قال: العدوة الدنيا شفير الوادي الأدنى، والعدوة القصوى شفير الوادي الأقصى.

[مظاهر التدبير الإلٰهي في المعركة]:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٦) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٠٠، ٢٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٦)، والحاكم (٣/ ٢٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٢٠) بسند صحيح.
(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٩٠) وقال: «إسناده جيد قوي»، ثم قال ابن كثير بعد ذكره لرواية ابن مردويه: «وهو الصحيح عند أهل المغازي والسِّير».
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٠٢) بسند ضعيف؛ لضعف يحيى بن يعقوب وهو أبو طالب، منكر الحديث. «التاريخ الكبير» (٨/ ٣١٢)، وقد وثقه أبو حاتم كما في «الجرح والتعديل» (٨/ ١٩٨).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٧) بسند ضعيف.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٧٣).

«إذ» منصوب[١] بفعل مقدّر؛ أي: اذكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان. والمعنى: أن النبي ﷺ رآهم في منامه قليلاً فقصّ ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباتهم، ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا في الأمر، هل يلاقونهم أم لا؟ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ أي: سلّمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقلّلهم في عين رسول الله ﷺ في المنام؛ وقيل: عني بالمنام: محل النوم، وهو العين؛ أي: في موضع منامك وهو عينك، روي ذلك عن الحسن[٢].

قال الزجاج[٣]: هذا مذهب حسن ولكنّ الأوّل أسوغ في العربية لقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فدلّ بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم.

قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأوّل؛ أي: واذكروا[٤] وقتَ إراءتكم إيّاهم حال كونهم قليلاً، حتى قال القائل من المسلمين لآخر: أتراهم سبعين؟ قال: هم نحو المائة، وقلَّل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم أكلة جزور، وكان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثَّر الله المسلمين في أعين المشركين، كما قال في آل عمران: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو: أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونهم كثيراً فيفشلون، وتكون الدائرة عليهم، ويحلّ بهم عذاب الله وسوط عقابه، واللام في ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريباً، وإنما كرره لاختلاف[٥] المعلل به ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد، ويقضي في شأنها ما يشاء.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ١٣٢)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٤٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٣٠).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٥)، وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٧٩) وهذا القول ضعيف.
(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤١٩).
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٧٩ ـ ٨٠)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٠٥).
(٥) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ١٣٤).

مجاهد[١]، في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبيُّ ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتاً لهم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٢]، في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ يقول: لجبنتم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ قال: لاختلفتم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ أي: أتمَّ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه[٤] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ يقول: سلَّم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوّهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن مسعود[٥]، في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الآية قال: لقد قلّوا في أعيننا يوم بدر حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: تُراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه قال: كُنّا ألفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة[٦]، في الآية قال: حضّض بعضهم على بعض.

قال ابن كثير[٧]: إسناده صحيح.

وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير[٨] في قوله: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ أي: ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٥٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٩) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٩) من طريق شيبان بن عبد الرحمٰن، به.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٠٩) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢١١)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠) بسند منقطع، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود رضي الله عنه.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠) بسند صحيح.
(٧) في «تفسيره» (٧/ ٩٥).
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠) بسند حسن من طريق ابن إسحاق، به.

[من عوامل النصر وأسبابه الحقيقية]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ اللقاء: الحرب، والفئة: الجماعة؛ أي: إذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لهم، ولا تجبنوا عنهم، وهذا لا ينافي الرخصة المتقدّمة في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦] فإن الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة. وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرّف والتحيز.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: اذكروا الله عند جزع قلوبكم(١)، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد؛ وقيل: المعنى: اثبتوا بقلوبكم واذكروا(٢) بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء، ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان؛ قيل: وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٩).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٥٥)، و«جامع البيان» (١١/ ٢١٣ ـ ٢١٤).

التي ترجف فيها القلوب، وتزيغ عندها البصائر، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، ونهاهم عَنْ التنازع وهو الاختلاف في الرأي، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل، وهو الجبن في الحرب. والفاء جواب النهي[1]، والفعل منصوب بإضمار أن، [٢/١٨٦] ويجوز أن يكون الفعل معطوفاً على «تنازعوا» مجزوماً بجازمه.

[التنازع سبب الفشل والهزيمة]:

قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قرئ بنصب[2] الفعل، وجزمه عطفاً على تفشلوا على الوجهين.

والريح: القوّة والنصر، كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر.

وقيل: الريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها، ومنه قول الشاعر[3]:

إذا هبّت رياحُك فاغتنمْها ... فعُقبى كلِّ خافقةٍ سُكونُ

وقيل: المراد بالريح: ريح الصَّبا؛ لأن بها كان ينصر النبي ﷺ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم بأنّه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه، ويا حبّذا هذه المعية التي لا يُغلب مَنْ رُزقْها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرةً، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وهم قريش. فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت، فلم يرجعوا بل قالوا: لا بدّ لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر، وتغنّي لهم القِيان، وتَسمع العربُ بمخرجهم، فكان ذلك

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٩)، و«التبيان» (٢/ ٦٢٦).

(٢) «زاد المسير» (٣/ ٣٦٥)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٤٣)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٢٨٠). قراءة النصب متواترة عن العشرة وغيرهم، وقراءة الجزم شادة، وعزاها في «البحر» لعيسى بن عمر. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» ص(١٤٨).

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٢٧)، و(١٠/ ٤٠).

منهم بَطراً وأشراً وطلباً للثناء مِنْ الناس، وللتمدح إليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء[(١)].

وقيل: والبطر في اللغة[(٢)]: التقوّي بنعم الله على معاصيه، وهو مصدر في موضع الحال[(٣)]؛ أي: خرجوا بطرين مرائين؛ وقيل: هو مفعول له[(٤)] وكذا رياء؛ أي: خرجوا للبطر والرياء.

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوف على بطراً، والمعنى كما تقدّم؛ أي: خرجوا بطرين مرائين صادّين عن سبيل الله، أو للصدّ عن سبيل الله. والصدّ: إضلالُ الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية.

ويجوز أن يكون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾[(٥)] معطوفاً على يخرجون، والمعنى: يَجْمعون بين الخروج على تلك الصفة والصدّ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية، فهو مجازيهم عليها.

قولُه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الظرف متعلق بمحذوف؛ أي: واذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم، والتزيين: التحسين، وقد روي أن الشيطان تمثّل لهم وقال لهم تلك المقالة، وهي: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: مجُير لكم مِنْ كل عدوّ أو من بني كنانة، ومعنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر، كما يدفع الجار عن الجار، وكان في صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم[(٦)]، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أَنْ يأتوهم مِنْ ورائهم.

وقيل: المعنى: إنّه ألقى في روعهم هذه المقالة، وخيّل إليهم أنهم لا يُغْلبون ولا يطاقون ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾؛ أي: فئة المسلمين والمشركين ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: رجع القهقرى، ومنه قول الشاعر[(٧)]:

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢١٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٢).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٢).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٨٩)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٤٨).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٤٨). (٥) «التبيان» (٢/ ٦٤٨).
(٦) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٢).
(٧) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٨٧) ونسبه لتأبط شرّاً.

ليس النكُوصُ على الأعقاب مكرُمةً إنّ المكارمَ إقدامٌ على الأمل

وقولُ الآخر[١]:

وما نفَعَ المستأخِرين نكوصُهِم ولا ضرَّ أهلَ السابقات التقدّمُ

وقيل: معنى نكص ها هنا: بطل[٢] كيدُه، وذهب ما خيله ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾؛ يعني: الملائكة، ثم علّل بعلة أخرى فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ قيل: خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة.

وقيل: إن دعوى الخوف كذب منه، ولكنه رأى أنه لا قوّة[٣] له ولا للمشركين فاعتلّ بذلك.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه.

قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو: اذكر، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزيّن أو بشديد العقاب.

قيل[٤]: المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم الشاكون مِنْ غير نفاق؛ بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام، فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة، أعني: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: المسلمين ﴿دِينُهُمۡۗ﴾ حتى تكلّفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش.

وقيل: الذين[٥] في قلوبهم مرض هم المشركون، ولا يبعد أَنْ يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها، وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة، قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر؛ لما رأوهم في قلّة من العدد وضعف من العُدد، فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذلّ مَنْ توكّل عليه ﴿حَكِيمٞ﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٣).
(٢) «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢١)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٨٨).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٢٢٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢١).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٤). (٥) «جامع البيان» (١١/ ٢٢٦).

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(١)، في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون: عند الضِّراب بالسيوف.

وأخرج الحاكم وصححه، عَنْ سهل بن سعد(٢)، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا يردّان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يُلْحِم بعضُهم بعضاً».

وأخرج الحاكم(٣) وصححه، عن أبي موسى؛ أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(٤)، في قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ يقول: لا تختلفوا فتجبُنوا ويذهبَ نصركم.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٥) في قوله: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ قال: نصركم وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أُحد.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس(٦)، في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ الآية؛ يعني: المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وأخرج ابن جرير(٧)، عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقِيان والدُّفوف، فأنزل الله هذه الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن مجاهد(٨)، في الآية قال: أبو جهل وأصحابه يوم بدر.

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٧٥).
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٩٨). وهو حديث صحيح.
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١١٦). وهو حديث ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٢) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٢) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٣) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٠) من طريق أبي معشر، به.
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٧٧).

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(١)، في الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبيّ الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بَغْيٌ وفخر، وقد قيل لهم يومئذ: ارجعوا فقد انطلقت عِيرُكم وقد ظفرتم. فقالوا: لا والله حتى يتحدّث أهلُ الحجاز بمسيرنا وعددنا، وذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال يومئذ: «اللَّهُمَّ إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخُيلائها لتجادل رسولك» وذكر لنا أنه ﷺ قال يومئذ: «جاءت من مكة أفلاذها» [٢/١٨٧].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس(٢)، قال: جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مُدْلِج، والشيطان في صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، فقال الشيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ﴾ وأقبل جبريل على إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبراً وشيعتُه، فقال الرجل: يا سراقة إنِّك جار لنا فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ قال: ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلَّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلَّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: وما هؤلاء: غرّ هؤلاء دينهُم، وإنما قالوا ذلك من قلَّتهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

وأخرج الطبراني، وأبو نعيم، عن رفاعة بن رافع الأنصاري(٣)، قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يَخلُص القتلُ إليه فتشبَّث به الحارث بن هشام، وهو يظنّ أنّه سراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث؛ فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللَّهُمَّ إني أسألك نظرتَك إيايّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٧١٤) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٢٢١، ٢٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٧١٥، ١٧١٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/٧٨، ٧٩) بسند صحيح.
(٣) أخرجه الطبراني رقم (٤٥٥٠) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٧٧): «فيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف».

وأخرج الواقدي، وابن مردويه، عن ابن عباس[١] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٢]، في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ قال: ذُكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكةُ، فعلم عدوّ الله أنه لا يَدانِ له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ وكذب عدوّ الله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوّة له به ولا منعة له.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن معمر[٣] قال: ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك، فأنكر أنْ يكون قال شيئاً من ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ قال: وهم يومئذ في المسلمين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن[٥]، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسُمّوا منافقين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، عن الكلبي[٦] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هم قوم كانوا أقرّوا بالإسلام، وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الشعبي[٧] نحوه.

---

(١) أخرجه الواقدي في «مغازيه» (١/ ٧٠، ٧١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٠) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٦) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) بسند صحيح ولكنه مرسل.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦١).

(٧) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٨٠).

[حال الكفار عند الموت]:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له كما تقدّم تحقيقه في غير موضع. والمعنى: ولو رأيتَ؛ لأنّ «لو» تقلب المضارع[١] ماضياً، و﴿إِذْ﴾ ظرف لترى، والمفعول محذوف[٢]؛ أي: ولو ترى الكافرين وقتَ توفي الملائكة لهم.

قيل[٣]: أراد بالذين كفروا مَنْ لم يُقْتل يوم بدر؛ وقيل: هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف تقديره لرأيتَ أمراً عظيماً.

وجملة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ في محل نصب[٤] على الحال، والمراد بأدبارهم: أستاههم، كنى عنها بالأدبار.

وقيل: ظهورهم؛ قيل[٥]: هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفّي.

وقيل[٦]: هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النّار.

قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قاله: الفراء[٧]، المعنى: ويقولون: ذوقوا عذابَ الحريق، والجملة معطوفة على يضربون.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٣٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٤٩).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٣٦).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٠)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٤٨).
(٥) «جامع البيان» (١١/ ٢٢٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٠).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٩٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٥).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٣).

وقيل: إنّه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، والذوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله[١] من الذوق بالفم.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم من الضرب والعذاب، والباء في ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ سببية[٢]؛ أي: ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي، واقترفتم من الذنوب.

وجملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في محل رفع[٣] على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: والأمر أنَّه لا يظلمهم، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهي: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: ذلك العذاب بسبب المعاصي، وبسبب: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ لأنّه سبحانه قد أرسل إليهم رسلَه، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سُنَّته في فرق الكافرين، والدَأْبُ: العادة، والكاف[٤] في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوفٍ؛ أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمعنى: أنَّه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر.

وجملة قوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مفسّرة لدأب آل فرعون؛ أي: دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بذنوبهم: معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء في «بذنوبهم» للملابسة؛ أي: فأخذهم متلبّسين بذنوبهم غير تائبين[٥] عنها.

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ معترضة مقرّرة لمضمون ما قبلها،

---

(١) «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٦٣)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٧٩).

(٢) «روح المعاني» (١٠/ ١٥١).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٣٧).

(٤) «روح المعاني» (١٠/ ١٥٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٤٩).

(٥) «جامع البيان» (١١/ ٢٣٤).

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجملة جارية مجرى التعليل لما حلّ بهم من عذاب الله.

والمعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم[1] تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مِنْ الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله، وغمط إحسانه، وإهمال أوامره ونواهيه، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومَنْ يماثلهم من المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا، ومنّ عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر [٢/١٨٨] فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا، وما كان يجب عليهم سلوكه، والعمل به من شكرها وقبولها.

وجملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ داخلة معها في التعليل؛ أي: ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً... إلخ، وبسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه، ويعلم ما يفعلونه.

وقرئ بكسر[2] الهمزة على الاستئناف. ثم كرّر ما تقدّم، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق.

وقيل: إن الأوّل باعتبار[3] ما فعله آل فرعون ومَنْ شُبه بهم، والثاني: باعتبار ما فُعل بهم.

وقيل: المراد بالأوّل كفرهم بالله، وبالثاني تكذيبهم الأنبياء.

وقيل غير ذلك مما لا يخلو عَنْ تعسفٍ، والكلام في ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كالكلام المتقدّم في ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ معطوف على أهلكناهم، عطف الخاص على العام، لفظاعته وكونه من أشدّ أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله، وبالظلم لغيرهم، كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٤٦).

(٢) «النشر» (١/ ٢٩٠)، وقد تقدم ذكره. والقراءة بكسر الهمزة شاذة.

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩١).

وقد أخرج ابن أبي حاتم(١)، عن الضحاك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال: الذين قتلَهم اللهُ ببدر من المشركين.

وأخرج ابن جرير(٢)، عن الحسن، قال: قال رجل: يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال: «ذلك ضرب الملائكة». وهذا مرسل.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٣)، في قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال: وأستاههم، ولكن الله كريم يَكْنِي.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ(٤) في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ قال: نعمة الله: محمدٌ ﷺ أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار(٥).

[الوفاء بالعهود حتى مع الكفار، وإعداد العدّة للجهاد]:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٧) من طريق عبيد بن سليمان، به.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٠) بسند حسن ولكنه مرسل.
(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٩٩٧ ـ تفسير) بسند ضعيف، من طريق يحيى بن سليم، به. وقد توبع؛ فقد أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٨) من طريق سفيان، به. وسنده صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٣) بسند حسن.
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧).

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ أي: شرّ ما يدب على وجه الأرض ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: المصرّون على الكفر المتمادون في الضلال، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً، ولا يرجعون عن الغواية أصلاً، وجعلهم شرّ الدوابّ لا شرّ الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية، ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين كفروا، أو عطف[1] بيان، أو في محل نصب على الذمّ. والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين همّ شرّ الدوابّ عند الله هم هؤلاء الذين عاهدتَ منهم؛ أي: أخذت منهم عهدهم ﴿ثُمَّ﴾ هم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ الذي عاهدتم ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ مِنْ مرّات المعاهدة «و» الحال أنـ«ـهم لا يتقون» النقضَ، ولا يخافون عاقبتَه ولا يتجنبون أسبابَه.

وقيل: إن ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للتبعيض[2]، ومفعول عاهدت محذوف؛ أي: الذين عاهدتهم، وهم بعض أولئك الكفرة: يعني: الأشراف منهم، وعطف المستقبل وهو ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ﴾ على الماضي، وهو ﴿عَـٰهَدتَّ﴾ للدلالة على استمرار النقض منهم، وهؤلاء هم قريظة[3]، عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتي، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدّة والغلظة عليهم، فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: فإما تصادفنهم في ثقافٍ، وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها، وتتمكن مِنْ غلبهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: ففرّق بقتلهم[4] والتنكيل بهم مَنْ خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك، ويكفّوا عن حربك؛ مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء.

والثقاف في أصل اللغة[5]: ما يُشدّ به القناة أو نحوها ومنه قول النابغة[6]:

تدعو قَعيباً وقد غَضّ الحديدُ بها غَضَّ الثِّقاف على صُمّ الأنابيبِ

---

(١) «التبيان» (٢/٦٢٨)، و«روح المعاني» (١٠/١٥٩).
(٢) «روح المعاني» (١٠/١٥٩ ـ ١٦٠)، و«البحر المحيط» (٥/٣٣٩).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٢٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٣٤). (٥) «الصحاح» (٤/ ١٣٣٤).
(٦) «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٦).

يقال: ثقفته: وجدتُه، وفلان ثقِفُ: أي: سَريع الوجود لما يحاوله، والتشريد: التفريق مع الاضطراب.

وقال أبو عبيد(١): «شرد بهم»: سمِّع بهم.

وقال الزجاج(٢): افعل بهم فعلاً مِنْ القتل تفرّق به مَنْ خلفهم، يقال: شردت بني فلان: قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها. قال الشاعر(٣):

أطوّفُ في الأباطح كلَّ يوم ... مخافَة أن «يُشرّد بي» حكيمُ

ومنه: شرد البعير: إذا فارق صاحبه، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ «فشرذ(٤) بهم» بالذال المعجمة.

قال قُطْرب(٥): التشريذ بالذال المعجمة: هو التنكيل، وبالمهملة: هو التفريق.

وقال المهدوي(٦): الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلاً من الدال المهملة لتقاربهما، قال: ولا يعرف فشرّذ(٧) في اللغة، وقرئ ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بكسر(٨) الميم والفاء.

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾؛ أي: غشّاً ونقضاً للعهد من القوم المعاهدين ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: فاطرح إليهم العهد الذي بينك وبينهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على طريق مستوية.

والمعنى: أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتةً.

وقيل: معنى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على وجه يستوي [٢/١٨٩] في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم، أو تستوي أنت وهم فيه.

---

(١) في «الغريبين» (٣/ ٩٨٥). (٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٠).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٩).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠). وهي قراءة شاذة.
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٩١).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٩).
(٧) «المحتسب» (١/ ٢٨٠)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٠).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص٥٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٤٠)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ١٤٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٦١). وهي قراءة شاذة، وعزاها في «البحر» (٤/ ٥٠٩) لأبي حيوة والأعمش بخلافٍ عنه.

قال الكسائي(١): السواء: العدل، وقد يكون بمعنى: الوَسَط، ومنه قوله: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، ومنه قول حسّان(٢):

يا ويحَ أنصارِ النبيِّ ورهطِه بعد المُغيَّبِ في سَواء المَلْحَد(٣)

ومن الأوّل قول الشاعر(٤):

فاضربْ وجوهَ الغُدُرِ الأعداءِ حتى يجيبوك إلى سَواءِ

وقيل: معنى ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: على جهر لا على سرّ، والظاهر: أن هذه الآية عامة في كلِّ معاهد يخاف مِنْ وقوع النقض منه.

قال ابن عطية(٥): والذي يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقضى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع مَنْ يخاف منه خيانة.

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل لما قبلها، يحتمل أن تكون تحذيراً لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قرأ ابنُ عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية(٦)، وقرأ الباقون بالمثناة من فوق(٧).

فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا: فاعل الحسبان، ويكون مفعوله الأوّل محذوفاً؛ أي: لا يحسبنّ الذين كفروا أنفَسهم، ومفعوله الثاني سبقوا ومعناه: فاتوا وأفلتوا مِنْ أن يُظفَر بهم. وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ، ومفعوله الأول الذين كفروا، والثاني سبقوا.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٩٢).
(٢) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٥٨).
(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٨/ ٩٧). (٤) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٩٧).
(٥) «المحرّر الوجيز» (٨/ ٩٧).
(٦) «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٣)، و«التيسير» (ص١١٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٥٣)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٤١).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

وقرئ: «إِنَّهم[١] سبقوا» وقرئ «يحسبِنَّ» بكسر[٢] الباء.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم.

وقرأ ابنُ عامر «أَنَّهم» بفتح الهمزة[٣]، والباقون بكسرها[٤]، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية؛ وقيل: المراد بهذه الآية: مَنْ أفلت من وقعة بدر من المشركين.

والمعنى: أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون؛ بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة. وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم؛ أن قراءة من قرأ يحسبنّ بالتحتية لحن، لا تحلّ القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبنّ بمفعول، وهو يحتاج إلى مفعولين.

قال النحاس[٥]: وهذا تحاملٌ شديد. ومعنى هذه القراءة: ولا يحسبنّ من خلفهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدّم إلا أن القراءة بالتاء أبين.

وقال المهدوي[٦]: يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلاً، والمفعول الأوّل محذوف. والمعنى: ولا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم سبقوا.

قال مكي[٧]: ويجوز أنْ يضمر مع سبقوا «أن» فتسدّ مسد المفعولين، والتقدير: ولا يحسبنّ الذين كفروا أن سبقوا، فهو مثل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ٢] في سدّ أن مسدّ المفعولين، ثم أمر سبحانه بإعداد القوّة للأعداء، والقوّة كل ما يتقوّى به في الحرب، ومن ذلك السلاح والقسيّ. وقد ثبت في

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٣)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٤١ ـ ٢٤٤). وهي قراءة شاذة.

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٤٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٥٣).

(٣) «التيسير» (ص١١٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٢)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٢٨٧).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٣٤٢)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٧٤).

(٥) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٢). (٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٥٤).

(٧) في «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٥)، وفي «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٠).

«صحيح مسلم» وغيره من حديث عقبة بن عامر[١] قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة، ألا إنَّ القوّة الرمي، قالها ثلاث مرات».

وقيل: هي الحصونُ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعيّن.

قولهُ: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، قرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو حيوة «ومن رُبُط الخيل» بضم الراء والباء[٢] ككُتُب: جمع كتاب.

قال أبو حاتم[٣]: الرباط من الخيل الخَمْسُ فما فوقها، وهي الخيل التي تُرتبط بإزاء العدو. ومنه قول الشاعر[٤]:

أمر الإلٰهُ بربطها لعدوّه ... في الحرب إنّ اللّه خيرُ موفِّقِ

قال في «الكشّاف»[٥]: والرباط اسمٌ للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يُسمّى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة. ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. انتهى.

ومَنْ فسّر القوّة بكل ما يتقوّى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام.

وجملة ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ في محل نصب[٦] على الحال والترهيبُ: التخويف، والضمير في «به» عائد إلى «ما» في «ما استطعتم» أو إلى المصدر المفهوم من «وأعدّوا» وهو الإعداد.

والمراد بعدوّ الله وعدوهم: هم المشركون مِنْ أهل مكة، وغيرهم من مشركي العرب[٧].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٥٧)، ومسلم رقم (١٦٧/ ١٩١٧)، وأبو داود رقم (٢٥١٤)، والترمذي رقم (٣٠٤٣)، وابن ماجه رقم (٢٨١٣)، والدارمي (٢/ ٢٠٤).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٥٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٤٤). وهي قراءة شاذة.

(٣) انظر: «التمهيد» (٤/ ٢٠٥).

(٤) وهو: كعب بن مالك. انظر: «ديوانه» (ص١٩٦).

(٥) (٢/ ٥٩٤).

(٦) «البحر المحيط» (٥/ ٣٤٤).

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٦٤).

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ معطوف على عدوّ الله وعدوّكم. ومعنى ﴿مِن دُونِهِمْ﴾: من غيرهم.

قيل[١]: هم اليهودُ، وقيل: فارس والروم، وقيل: الجنّ، ورجّحه ابن جرير[٢].

وقيل: المراد بالآخرين مِنْ غيرهم: كلُّ من لا تُعرف عداوته. قاله السهيلي[٣].

وقيل[٤]: هم بنو قريظة خاصة، وقيل غير ذلك. والأَوْلى: الوقفُ في تعيينهم لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الجهاد وإن كان يسيراً حقيراً﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه في الآخرة. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قرّرناه سابقاً.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في شيءٍ من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله[٥]؛ أي: مِنْ ثوابها؛ بل يصير ذلك إليكم وافياً وافراً كاملاً ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وأخرج أبو الشيخ[٦] عن سعيد بن جبير قال: نزلت ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية في ستة رهطٍ من اليهود فيهم ابنُ تابوت.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٧]، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال: قريظة يوم الخندق مالئوا على رسول الله ﷺ أعداءَه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٨]، في قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قال: نكِّلْ بهم مَنْ بعدهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٤) بسند حسن.

(٢) في «جامع البيان» (١١/ ٢٤٩).

(٣) في «التعريف والإعلام» (ص٦٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٣) بسند صحيح.

(٥) «جامع البيان» (١١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٨١).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٩) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٩) بسند ضعيف.

وأخرج ابنُ جرير، عنه[١]، في الآية قال: نكل بهم مَنْ وراءهم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير[٢]، في الآية قال: أنذِرْ بهم.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٣] قال: عِظْ بهم مَن سِواهم من الناس.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٤]، قال: أخِفْهم بهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ[٥]، في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يقول: لعلهم يحذرون أن ينكُثوا فيُصنع بهم مثل ذلك.

وأخرج أبو الشيخِ[٦] عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال (٢/١٩٠): قد وضعْتَ السلاح وما زلنا في طلب القوم، فاخرجْ فإنّ الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباسٍ[٧]، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قال: لا يَفوتُونا.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباسٍ[٨]، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ قال: الرميُ والسيوفُ والسلاحُ.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله بن الزبير[٩]، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ قال: أمرهم بإعداد الخيل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٦) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٧) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٩، ١٧٢٠) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٨) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٠) بسند حسن.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٨٢).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢١) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٨٣).
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢١) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في «الشعب»، عن عكرمة[١] في الآية قال: القوّة ذكور الخيل، والرباط الإناثُ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد[٢] مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن المسيب[٣] في الآية قال: القوّة الفرسُ إلى السهم فما دونه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة[٤] قال: القوّة: الحُصون. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ قال: الإناث.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال: تُخزون به عدوّ الله وعدوّكم.

وقد ورد في استحباب الرمي، وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة، وكذلك ورد في استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها، وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها.

وقد أفرد ذلك جماعة مِنْ العلماء بمصنفات.

[حكم المهادنة والموادعة في الإسلام]:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

الجُنوح[٦]: الميل، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه؛ ومنه قيل

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٤٣٠٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٢) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ٤٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٢) من طرق الأوزاعي، به.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ٤٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٢) من طريق شعبة بن دينار، به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٣) من طريق وكيع، به. وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٤٦) من طريق ابن وكيع، به.

(٦) «الصحاح» (١/ ٣٦٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٠٦ ـ ٢٠٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٢).

للأضالع: جوانح لأنّها مالت إلى «الحشوة»، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قول ذي الرُمة[(١)]:

إذا مات فوق الرّحل أحييتُ روحَه بذكراكِ والعِيسُ المراسيل جُنَّحُ

ومثله قول عنترة[(٢)]:

جوانحُ قد أيقنّ أن قبيلَه إذا ما التقى الجمعانِ أوّلُ غالبِ

يعني: الطير، والسَّلْم: الصلح. قرأ الأعمش وأبو بكر، وابن محيصن، والمفضِّل بكسر[(٣)] السين، وقرأ الباقون بفتحها[(٤)].

وقرأ العقيلي[(٥)] ﴿فَٱجْنُحْ﴾ بضم النون، وقرأ الباقون[(٦)] بفتحها.

والأولى: لغة[(٧)] قيس، والثانية: لغة تميم.

قال ابن جني[(٨)]: ولغة قيس هي القياس، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هي مؤوّلة بالخصلة، أو الفعلة.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة؟ فقيل: هي منسوخة[(٩)] بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] وقيل: ليست بمنسوخة[(١٠)]؛ لأن

---

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٢/ ١٢١٥).

(٢) المحفوظ أن البيت من قصيدة مشهورة للنابغة الذبياني في بني غسان. مطلعها:

كليني لهم يا أميمةُ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بِفيء الكواكب

انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٠).

(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٣٤٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٨٧، ٤٩٤)، و«النشر» (٢/ ٢٢٧)، و«التيسير» (ص١١٧)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٥١).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة. فتح السين وكسرها قراءتان متواترتان.

(٥) «المحتسب» (١/ ٢٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٤٦)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٠).

(٦) «البحر المحيط» (٥/ ٣٤٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٨٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٧٦)، و«النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٧) وهي قراءة شاذة.

«المحتسب» (١/ ٢٨٠)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٠).

(٨) في «المحتسب» (١/ ٢٨٠).

(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦٣)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٥٢)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٨٥).

(١٠) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٦٤)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٤٤).

المراد بها قبول الجزية، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب.

وقيل: إنّ المشركين إنْ دعَوا إلى الصلح جاز أن يُجابوا إليه. وتمسّك المانعون مِنْ مصالحة المشركين بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزّة وقوّة، لا إذا لم يكونوا كذلك، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك.

وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرّر في مواطنه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جنوحك للسّلْم، ولا تخف مِنْ «مكرهم»، فـ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلون. ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح، وهم مُضمرون الغدر والخدع ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر.

وجملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلية؛ أي: لا تخف مِنْ خدعهم ومكرهم، فإنّ الله الذي قوّاك عليهم بالنصر فيما مضى، وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقوّيك عليهم عند حدوث الخدع والنكث.

والمراد بالمؤمنين: المهاجرون والأنصار. ثم بيَّن كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله.

وقال جمهور(١) المفسرين: المراد: الأوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة، وحروب عظيمة؛ فألّف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ.

وقيل(٢): أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والحملُ على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضاً، ولا يحترم ماله ولا دمه، حتّى جاء الإسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب ما كان بينهم من العصبية.

وجملة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦٧).
(٢) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

والمعنى: أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حدّ لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له ما طلبه من التأليف؛ لأنّ أمرهم في ذلك قد تفاقم جدّاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالبه مغالِبٌ، ولا يستعصي عليه أمر من الأمور ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره، ونفوذ نهيه وأمره.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[1]، في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾ قال: قُريظة.

وأخرج أبو الشيخ[2]، عن السديّ في الآية قال: نزلت في بني قريظة نسختها: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ [محمد: ٣٥] إلى آخر الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم[3]، عن ابن عباس، قال: السلم الطاعة.

وأخرج أبو الشيخ[4] عنه في الآية قال: إن رَضُوا فارضَ.

وأخرج ابن أبي حاتم[5]، عن السديّ في الآية قال: إن أرادوا الصلح، فأرِدْه.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[6]، في الآية قال: نَسَختها هذه الآية ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، والنحاس في «ناسخه»، وأبو الشيخ، عن قتادة[7]، قال: ثُمّ نسخ ذلك: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٥٥) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٥) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٩٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٥٣) بسند حسن.

(٦) أخرجه عبيد في «ناسخه» (ص٢٧٧) ، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٥).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦١)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٦٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٥٢) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[١]، في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ قال: قريظة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن السديّ، في قوله: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال: بالأنصار.

وأخرج ابن مردويه[٣]، عن النعمان بن بشير، نحوه.

وأخرج ابن مردويه[٣]، عن ابن عباس، نحوه أيضاً.

وأخرج ابن عساكر[٤]، عن أبي هريرة، قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا الله، أنا الله وحدي لا شريك لي، ومحمد عبدي ورسولي، أيّدته «بعليٍّ»، وذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، [٢/١٩١] عن ابن مسعود[٥]؛ أن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ الآية.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والبيهقي في «شعب الإيمان»، واللفظ له عن ابن عباس[٦] قال: قرابة الرحم تُقطع؛ ومِنّةُ المُنعِم تُكفر، ولم نر مثل تقارب القلوب، يقول الله: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ الآية.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١/ ٢٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٥٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١/ ١٧٢٦) بسند حسن.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٩٩).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٤٢/ ٣٦٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٧/ ١٩٦): إنّ هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث».

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٣٦٣)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢١٠)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٠٧٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٥٨، ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٧)، والحاكم (٢/ ٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٠٣١).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧، ٢٨): «رجاله رجال الصحيح غير جنادة بن سلم، وهو ثقة».

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٩٠٣٤).

وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، والبيهقي عنه[1] نحوه.

وليس في هذا عن ابن عباس ما يدلّ على أنَّه سبب النزول، ولكن الشأن في قول ابن مسعود رضي الله عنه: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله؛ مع أن الواقع قبلها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والواقع بعدها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] ومع كون الضمير في قوله: ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة، وكذلك الضمير في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فإنّ هذا يدلّ على أن التأليف المذكور وهو بين المؤمنين الذين أيد[2] الله بهم رسوله ﷺ.

[تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔانَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس هذا تكريراً لما قبله، فإنَّ الأوّل مقيد بإرادة الخدع ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢] فهذه كفاية خاصة[3]، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ كفاية عامة غير مقيّدة؛ أي: حسبك الله في كل حال، والواو في قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف.

والمعنى: حسبُك الله وحسبُك المؤمنون؛ أي: كافيك الله وكافيك المؤمنون.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٣٦٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٧)، والحاكم (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٠٣٢).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٢٥٦).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٦٧).

ويحتمل أَنْ تكون بمعنى مع كما تقول: حسبكَ وزيداً درهم، والمعنى: كافيك وكافي المؤمنين اللهُ؛ لأن عطف[(١)] الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرّر في علم النحو[(٢)]، وأجازه الكوفيون.

قال الفرّاء[(٣)]: ليس بكثير في كلامهم أن تقول: حسبك وأخيك؛ بل المستعمل أن يقال: حسبك وحسبُ أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مجروراً لقيل: حسبك الله وحسب مَنْ اتبعك، واختار النصب على المفعول معه النحاس[(٤)].

وقيل: يجوز أن يكون المعنى: ومَنْ اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر.

قوله: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾؛ أي: حُثّهم وحُضّهم، والتحريض في اللغة[(٥)]: المبالغة في الحثّ وهو كالتحضيض، مأخوذ مِنْ الحرض، وهو: أن ينهكه المرض، ويتبالغ فيه حتى يُشفي على الموت كأنّه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به، ثم بشّرهم تثبيتاً لقلوبهم، وتسكيناً لخواطرهم بأن الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾ ثم زاد هذا إيضاحاً مفيداً[(٦)] لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد؛ بل هي جارية في كل عدد فقال: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾.

وفي هذا دلالة على أنّ الجماعة مِنْ المؤمنين قليلاً كانوا أو كثيراً لا يغلبهم عشرة أمثالهم مِنْ الكفار بحال من الأحوال.

وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك، فكم مِنْ طائفة من طوائف الكفار يغلبون مَنْ هو مثل عُشْرِهم مِنْ المسلمين؛ بل مثل نصفهم بل مثلهم.

وأجيب عن ذلك: بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أنْ لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر.

وقيل: إن هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ فالمؤمنون كانوا

---

(١) «البحر المحيط» (٥/٣٤٨)، و«روح المعاني» (١٠/١٧٨ ـ ١٧٩).
(٢) «البيان» (٢/ ٦٣١)، و«الكتاب» (١/ ٤٩٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٧). (٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٥).
(٥) «تهذيب اللغة» (٤/ ٢٠٤)، و«الصحاح» (٣/ ١٠٧٠ ـ ١٠٧١).
(٦) «جامع البيان» (١١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٨١).

مأمورين من جهة الله سبحانه بأنْ تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم، واستعظموه خفّف عنهم، ورخّص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، فأوجب على الواحد أنْ يثبت لاثنين من الكفار.

وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ضَعْفًا﴾ بفتح[1] الضاد.

وقولُه: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَغْلِبُوا﴾؛ أي: إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم. وأنهم يقاتلون على غير بصيرة، ومَنْ كان هكذا فهو مغلوب في الغالب.

وقد قيل في نكتة التنصيصِ[2] على غلب العشرين للمائتين، والمائة للألف: أن سراياه التي كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عددُها عَنْ العشرين ولا يجاوز المائة.

وقيل في التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين، والألف للألفين: على أنّه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف.

ثم أَخبرهم بأن هذا الغَلَب هو بإذن الله وتسهيله، وتيسيره لا بقوّتهم وجلادتهم، ثم بشّرهم بأنّه مع الصابرين، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به، وأنّه مِنْ أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر؛ لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه.

وقد اختلفَ أهل العلم، هل هذا التخفيف[3] نُسخ أم لا؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

وقد أخرج البزار[4] عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القومُ منا اليوم، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٨٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٧٨)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٧٠). قال في «تخريج القراءات في «فتح القدير» (ص١٤٩) فتح الضاد وضمها قراءتان متواترتان فالفتح عن حمزة، وخلف وعاصم من رواية حفص، وكذلك من رواية أبي بكر والضم عن الباقين عدا أبي جعفر فقد قرأها: (ضُعفاء) بضم الضاد وفتح العين والألف الممدودة على الجمع.

(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٣٩)، و«الكشاف» (٢/ ٥٩٨).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٦٦)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٤٩٥ ـ كشف).

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[١] قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعةٌ وثلاثون رجلاً وامرأةٌ، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأخرج ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه، عن سعيد بن جبير[٢]، قال: لما أسلم مع النبيّ ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن الزهري[٣] في الآية قال: نزلت في الأنصار.

وأخرج البخاري في «تاريخه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي[٤] في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حَسْبُكَ الله، وحَسْبُ من اتّبعك.

وأخرج البخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، عن ابن عباس[٥] قال: لما نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ فكتبَ عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، وأن لا يفرّ عشرون من مائتين، ثم نزلت ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية، فكتب أن لا يفرّ مائة من مائتين قال سفيان [٢/١٩٢] وقال ابنُ شبرمة: وأُرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا، إن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثةً فهو في سعةٍ من تَرْكِهم.

وأخرج البخاري، والنحاس في «ناسخه»، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن ابن عباس[٦] قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ شق

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١٢٤٧٠) بسند ضعيف جدّاً.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٨/٥) مرسلاً.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٨/٥) مرسلاً.
(٤) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٢٦١/٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٧/٥) من طريق شوذب أبي معاذ، به.
(٥) أخرجه البخاري رقم (٤٦٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٨/٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٣١٠).
(٦) أخرجه البخاري رقم (٤٦٥٢)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٧٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٦/٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢٦٣/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» =

ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، فجاء التخفيف ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية قال: فلما خفّف الله عنهم من العدّة نقص من الصبر بقدر ما خفّف عَنْهم.

[بيان حكم الأسرى]:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

هذا حكم آخر مِنْ أحكام الجهاد. ومعنى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾: ما صح له وما استقام، قرأ أبو عَمرو، وسُهيل ويعقوب، ويَزيد، والمفضّل، «أن تكون» بالفوقية[١]، وقرأ الباقون بالتحتية[٢].

وقرأ أيضاً يزيد والمفضّل «أُسَارى»[٣] وقرأ الباقون «أَسْرى»[٤] والأسرى: جمع أَسير، مثل قَتْلى وقَتيل، وجَرْحى وجَريح.

ويقال في جمع أسير أيضاً: أُسارى بضم الهمزة وبفتحها، وهو مأخوذ من الأَسْر، وهو القدّ؛ لأنّهم كانوا يَشدّون به الأسير، فسمّي كل أَخيذ وإنْ لم يشدّ بالقدّ أسيراً، قال الأعشى[٥]:

وقـيّـدنـي الـشـعـرُ فـي بـيـتـه كـمـا قـيّـدَ الآسِـراتُ الـحـمـارا

وقال أبو عمرو بن العلاء[٦]: الأسرى: هم غير المُوثَقين عندما يؤخذون، والأسارى: هم الموثَقون ربطاً.

= (١٧٢٨/٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨١٠٧)، وإسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» رقم (٣٩٩٣، ٤٧٢٤/١).

(١) «التيسير» (ص١١٧)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٨٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٤١٨/١). وهما قراءتان متواترتان.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٣٥٢/٥)، و«النشر» (٢٧٧/٢)، و«التبيان» (٢/ ٦٣٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٤٩٥/١). وهما قراءتان متواترتان.

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) انظر: «ديوان الأعشى» (ص٥٣) القصيدة رقم (٥).

(٦) «المحرر الوجيز» (١١١/٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧١).

والإثخان: كثرةُ القتل[١] والمبالغة فيه؛ تقول العرب: أثخَن فلان في هذا الأمر؛ أي: بالغ فيه.

فالمعنى: ما كان لنبيٍّ أَنْ يكون له أسرى حتى يبالغ[٢] في قتل الكافرين ويستكثر مِنْ ذلك؛ وقيل: معنى الإثخان: التمكن، وقيل: هو القوّة[٣].

أخبر الله سبحانه أنَّ قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم، وفدائهم؛ ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله.

قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ﴾ الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: نفعَها ومتاعَها بما قبضتم من الفداء؛ وسُمّي عرضاً لأنّه سريعُ الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَۗ﴾؛ أي: يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب في الإثخان بالقتل.

وقرئ «يريد الآخرةِ» بالجر[٤] على تقدير مضاف وهو المذكور قبله؛ أي: والله يُريد عرض الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالَب ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله.

قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ اختلف[٥] المفسرّون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو؟ على أقوال:

(الأوّل): ما سبق في علم الله من أنه سيحلّ لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرّمة على سائر الأمم.

(والثاني): أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، كما في الحديث الصحيح[٦]: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢).
(٢) «جامع البيان» (١١/ ٢٧١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧٤). وهي قراءة شادة.
(٣) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٤٢٥).
(٤) «المحتسب» (١/ ٢٨٠)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٢٨٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٨٦).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٧١)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٢).
(٦) أخرجه البخاري رقم (٤٨٩٠)، ومسلم رقم (٢٤٩٤)، وأحمد رقم (٦٠٠)، والترمذي رقم (٣٣٠٥) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(القول الثالث) هو: أنَّه لا يعذبهم[١] ورسول الله ﷺ فيهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(القول الرابع): أنَّه لا يعذب أحداً بذنبٍ[٢] فعله جاهلاً لكونه ذنباً.

(القول الخامس): أنَّه ما قضاه الله مِنْ محو الصغائر باجتناب الكبائر[٣].

(القول السادس): أنه لا يُعذّب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي[٤]، ولم يتقدّم نهي عن ذلك.

وذهب ابن جرير[٥] الطبري إلى أنَّ هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ، وأنه يعمها.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾؛ أي: لحلّ بكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾؛ أي: لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والفاء في ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ لترتيب[٦] ما بعدها عن سبب محذوف؛ أي: قد أبحتُ لكم الغنائم، فكلوا مما غنمتم، ويجوز أَنْ تكون عاطفة على مقدّر محذوف؛ أي: اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم[٧] مِنْ غيره.

وقيل: إن ﴿مَا﴾ عبارة عَنْ الفداء؛ أي: كلوا من الفداء الذي غنمتم، فإنه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم و﴿حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المحذوف؛ أي: أكلاً حلالاً طيباً ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ فيما يُستقبَل، فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط منكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم، فلذلك رخّص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد[٨]، عن أنس قال: استشار النبيّ ﷺ الناس في الأسارى يوم

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧٩).
(٢) «جامع البيان» (١١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ١١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧٩).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) في «جامع البيان» (١١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٦) «روح المعاني» (١٠/ ١٩٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٥٥).
(٧) «جامع البيان» (١١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).
(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٣٥٥٥). وهو حديث حسن لغيره.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٩٠): «رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ، ولا يرجع إذا قيل له الصواب، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».

بدر فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم». فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اضربْ أعناقهم. فأعرض عنه النبيّ ﷺ. ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناسُ إن الله قد أمكنكم منهم؛ وإنما هم إخوانكم بالأمس»، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبيّ ﷺ ثم عاد فقال مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم. وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء، فأنزل الله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسّنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن مسعود(١) قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلك فاستبقِهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك قدّمهم فاضرب أعناقهم؛ وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأضرمْه عليهم ناراً، فقال العبَاس وهو يسمع: قطعتَ رحمك، فدخل النبي ﷺ ولم يردّ عليهم شيئاً، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: إنّ الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، [٢/١٩٣] مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ومثلك يا عمر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ٤١٧)، و(١٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٣)، والترمذي رقم (٣٠٨٤) وقال: «حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه»، والطبراني رقم (١٠٢٥٧ـ ١٠٢٥٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٩٠): «رواه الطبراني أيضاً وفيه أبو عبيدة لم يسمع من أبيه، ولكن رجاله ثقات، وفي رواية عند الطبراني، وهي متصلة وفيها موسى بن مطير وهو ضعيف».

وأخرجه الحاكم (٣/ ٢١، ٢٢) وصحّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٨، ١٣٩)، وفي «السنن» (٦/ ٣٢١). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

مثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق، فقال عبد الله: يا رسول الله إلّا سهيل ابن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلامَ، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتُني في يوم أخوف من أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «إلّا سهيل ابن بيضاء»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية.

وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن عليّ[1] قال: قال النبي ﷺ في الأُسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فادَيتم واستمتعتم بالفداء، واستُشهد منكم بعدّتهم». فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استُشهد باليمامة.

وأخرج عبد الرزاق في «مُصنفّه»، وابن أبي شيبة عن عبيدة[2] نحوه.

وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن ابن عمر[3]، قال: لما أُسر الأُسارى يوم بدر أُسِر العباس فيمن أُسر، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة مِنْ أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنّهم قاتلوه»، فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نُرسله. فقال لهم عمر: فإنْ كان لرسول الله ﷺ رضًا، قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضًا فخذْه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فواللهِ إنْ تسلم أحبّ إليّ من أن يُسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[4]، في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: حتى يظهروا على الأرض.

---

(١) أخرجه الحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٣٢١).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٤٠٢)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٦٨).
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٩) وصحّحه ووافقه الذهبي، وفي سنده إبراهيم بن مهاجر فيه مقال.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٢) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد[1]، قال: الإثخان هو: القتلُ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن مجاهد[2]، أيضاً في الآية قال: ثم نزلت الرخصة بعد، إن شئت فمُنّ، وإن شئت ففادِ.

وأخرج ابن المنذر[3] عن قتادة ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن عكرمة ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: الخراج.

وأخرج[5] ابن أبي حاتم، عن مجاهد، في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ قال: سبق لهم المغفرة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير[6]، قال: ما سبق لأهل بدر من السعادة.

وأخرج النسائي، وابن مردويه، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[7]، قال: سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية.

وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[8] قال: سبق أن لا يعذب أحداً حتى يبين له ويتقدّم إليه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٢٩) من طريق حبيب بن أبي عمرة، به.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٠٩).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٠٩).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٣) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٢) من طريق حبيب بن أبي العالية، به.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٥، ١٧٣٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٨٠) من طريق شريك، به.

(٧) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢١١).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٥) بسند صحيح.

﴿يَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

اختلاف القرّاء في الأَسْرى والأُسارى هو هنا كما سبق في الآية التي قبل هذه، خاطب اللهُ النبيَّ ﷺ بهذا؛ أي: قل لهؤلاء الأسرى الذين هم في أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ من حسن إيمان[(١)]، وصلاح نية، وخلوص طوية ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء؛ أي: يعوّضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم، أو في الآخرة بما يكتبه لكم مِنْ المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم.

[تسلية الرسول بطريق الوعد والوعيد لهم]:

ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً ذكر مَنْ هو على ضدّ ذلك منهم فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدّقوك، ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة[(٢)] ونية خالصة؛ بل هو مماكرة ومخادعة، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه، وهو أنّهم خانوا[(٣)] اللهَ من قبل أن تظفر بهم، فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ بأن نصرك عليهم في يوم بدر، فقتلتَ منهم مَنْ قتلتَ، وأسرتَ مَنْ أسرت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه»، عن عائشة[(٤)] قالت: لما بعث أهلُ مكة في فداء أسراهم، بعثت زينبُ بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادةٍ، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ رقة شديدةً وقال: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها»، وقال العباس: إني كنت مسلماً يا رسول الله، قال: «الله

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٨٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٩٣).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٤٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٩٤).
(٣) «المحرر الوجيز» (٨/ ١١٨).
(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٤، ٤/ ٤٥)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٣٢٢).

أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فالله يَجْزيك، فافد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث وعَقيل بن أبي طالب، وحليفك عُتبة بن عمرو»، قال: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: «فأين المال الذي دفنت أنت وأمّ الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت فهذا المال لبنيّ؟» فقال: والله يا رسول الله إن هذا لشيء ما علمه غيري وغيرها، فاحسب لي ما أصبتم مني عشرون أوقية من مال كان معي، قال: «لا أفعل»، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، ونزلت: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، فأعطاني مكان العشرين الأوقية في الإسلام، عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله.

وأخرج ابن سعد، والحاكم وصححه، عن أبي موسى أن العلاء بن الحضرمي[1] بعث إلى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفاً، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه، فنشر على حصير، وجاء الناس، فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم، وما كان يومئذ عدد ولا وزن، فجاء العباس فقال: يا رسول الله إني أَعطيتُ فدائي، وفداء عقيل يوم بدر، وأعطني من هذا المال، فقال: «خذ»، فحثا في خميصته ثم ذهب ينصرف فلم يستطع، فرفع رأسه وقال: يا رسول الله ارفع عليّ، فتبسم رسول الله وذهب وهو يقول: أَمَّا أحد اللذين وعد الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ فهذا خير مما أخذ مني، ولا أدري ما يصنع في المغفرة.

والروايات [٢/١٩٤] في هذا الباب كثيرة.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن ابن عباس[2]، في الآية قال: نزلت في الأسارى يوم بدر، منهم: العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ١٥، ١٦)، والحاكم (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠) وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ١٥)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٤١/ ١٣).

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عنه(١)، في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ إنْ كان قولُهم كذباً ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ فقد كفروا وقاتلوك ﴿فَأَمْكَنَ﴾ك الله ﴿مِنْهُمْ﴾.

[رابطة العقيدة تقوم مقام رابطة الدم والنسب]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾.

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة(٢) ليعلم كلُّ فريق وليَّه الذي يستعين به، وسمّى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم؛ لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله، وإجابةً لداعيه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول الأوّل والآخر، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده، ويجوز أن يكون ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، والخبر ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾؛ أي: بعضهم أولياء بعض في النُّصرة والمعونة.

وقيل: المعنى: إنّ بعضهم أولياء بعض في الميراث. وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، ثم نسخ(٣) ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

قرأ يحيى بن وثّاب والأعمش، وحمزة: «مِنْ وِلايتهم» بكسر(٤) الواو.

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١١٣).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٢٨٩).

(٣) «المحرر الوجيز» (٨/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٩)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٥٨).

وقرأ الباقون بفتحها[1]؛ أي: ما لكم مِنْ نصرتهم وإعانتهم، أو من ميراثهم، ولو كانوا مِنْ قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ۚ﴾ فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا، إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾؛ أي: فواجبٌ عليكم النصر ﴿إِلَّا﴾ أَنْ يستنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ فلا تنصروهم، ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم، حتى تنقضي مدته.

قال الزجّاج[2]: ويجوز فعليكم النصرَ بالنصب على الإغراء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ خبره[3] ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾؛ أي: بعضهم ينصر بعضاً ويتولّاه في أموره، أو يرثه إذا مات، وفيه تعريض للمسلمين بأنّهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم.

قولُه: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور، وترك موالاة الكافرين ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: مفسدة[4] كبيرة في الدين والدنيا.

ثم بيّن سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾؛ أي: الكاملون في الإيمان، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنّه وارد في الثناء على هؤلاء، والأوّل وارد في إيجاب الموالاة والنصرة، ثم أخبر سبحانه أن ﴿لَّهُم﴾ منه ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم في الآخرة ﴿وَ﴾ لهم في الدنيا ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ خالص عَنْ الكدر طيب مستلذ.

ثم أخبر سبحانه بأنّ مَنْ هاجر بعد هجرتهم، وجاهد مع المهاجرين الأوّلين والأنصار فهو من جملتهم؛ أي: من جملة المهاجرين الأوّلين والأنصار في

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٩٩). وهما قراءتان متواترتان.

(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٤) «جامع البيان» (١١/ ٢٩٧).

استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم.

ثم بيّن سبحانه بأنّ أولي الأرحام بعضُهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث، والمراد بهم: القرابات فيتناول كل قرابة.

وقيل[1]: المراد بهم هنا: العَصَبات، قالوا: ومنه قول العرب: وَصَلَتْك رَحِم فإنَّهم لا يريدون قرابة الأم.

قالوا: ومنه قول قتيلة[2]:

ظلّت سيوفُ بني أَبيه تنوشُه للّه أرحامٌ هناك تُشقَّقُ

ولا يخفاك أنَّه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي الأرحام، وهم مَنْ ليس بعصبة ولا ذي سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث، والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدّم من قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ وما بعده بالتوارث.

وأما مَنْ فسَّرها بالنُصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخباراً منه تعالى بأن القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: في حكمه، أو في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، ويدخل في هذه الأولوية الميراث دخولاً أوّليّاً لوجود سببه، ـ أعني ـ القرابة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[3]، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية قال: إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل، منهم المؤمن المهاجر المباينُ لقومه، وفي قوله: [٢/١٩٥] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ قال: آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهلُ الهجرة، وشهروا السيوف على من

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٨٩)، و«روح المعاني» (١٠/١٩٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/١٩٩).

(٢) قال ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/٤٢): «قُتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث». وقال السهيليُّ في «الروض الأنف» (٣/١٣٥): «الصحيح أنّها بنت النضر لا أخته».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٧٣٨، ١٧٤٠) بسند ضعيف.

كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضَهم أولياء بعض، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا تُوفي المؤمن المهاجر بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يَرِثُ مِنْ أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر، فبرّأ اللهُ المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ كان حقّاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدوّ الذي لا ميثاق لهم، ثم أنزل الله بعد ذلك أَنْ ألحقَ كل ذي رحم برحمه مِنْ المؤمنين الذين آمنوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ فجعل لكل إنسانٍ من المؤمنين نصيباً مفروضاً، لقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية.

وفي رواية لابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ قال: يعني في الميراث جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ما لكم[٢] من ميراثهم مِنْ شيء ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يعني: إن استنصر[٣] الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدوٍّ لهم، فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فنسخت الآية التي قبلها، وصارت المواريثُ لذوي الأرحام.

وأخرج أبو عبيد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه[٤] أيضاً في هذه الآيات قال: كان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرثه وهو مؤمن، ولا يرث الأعرابيُّ المهاجرَ، فنسختها هذه الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عنه[٥]، أيضاً

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٠) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٣)، وأبو عبيد في «ناسخه» (ص٣٢١) من طريق عطاء الخراساني، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤١) من طريق سفيان، به.

قال: قال رجل مِنْ المسلمين: لنُورثنّ ذوي القربى منّا من المشركين، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن جرير بن عبد الله(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثَقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة».

وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أسامة(٢)، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل مِلّتين، ولا يرثُ مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن الزبير بن العوام(٣) قال: أنزل الله فينا خاصةً معشر قريش ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوانُ. فواخيناهم ووارثناهم فآخونا، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلاناً، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زُريق بن أسعد الزُرقي، قال الزبير: وآخيت أنا كعب بن مالك، ووارثونا ووارثناهم، فلما كان يوم أُحد قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجئته فانتقلْتُه فوجدت السلاحَ قد ثقلته فيما يرى، فوالله يا بُنيّ لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أَنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار فرجعنا إلى مواريثنا.

وأخرج أبو داود الطيالسي، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس(٤) قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورّث بعضَهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٩٢١٥، ١٩٢١٨)، والحاكم (٤/ ٨١). وهو حديث حسن.
(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٠).
وأصل الحديث عند البخاري رقم (٦٧٦٤)، ومسلم رقم (١٦١٤).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٢)، والحاكم (٤/ ٣٤٥) صحّحه ووافقه الذهبي بسند صحيح.
(٤) أخرجه الطيالسي رقم (٢١٩٨)، والطبراني رقم (١١٧٤٨).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣١): «ورجاله رجال الصحيح».

سُورَةُ «براءة»

هي مائة وثلاثون آية، وقيل: مائة وسبع وعشرون آية.

[أسماء سورة التوبة]:

ولها أسماء[١]: منها: سورة التوبة؛ لأنَّ فيها التوبة على المؤمنين.

وتُسمّى: الفاضحة؛ لأنه ما زال ينزل فيها: ومِنْهم، ومنهم حتى كادت أن لا تدع أحداً.

وتُسمّى: البحوث؛ لأنَّها تبحث عَنْ أسرار المنافقين.

وتُسمّى: المبعثرة، والبعثرة: البحثُ.

وتُسمّى أيضاً بأسماء أخر؛ كالمُقَشْقِشة؛ لكونها تقشقش مِنْ النفاق؛ أي: تبرئ منه.

والمُخْزية؛ لكونها أخزت المنافقين.

والمُثيرة؛ لكونها تثير أسرارهم؛ والحافرة؛ لكونها تحفر عنها.

والمنكِّلة؛ لما فيها مِنْ التنكيل لهم؛ والمدمدمة؛ لأنها تدمدم عليهم.

وهي مدنية . قال القرطبي[٢]: باتفاق.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت براءة بعد فتح مكة.

وأخرج ابن مردويه[٣] عنه قال: نزلت سورة التوبة بالمدينة.

وأخرج ابن مردويه[٣]، عن عبد الله بن الزبير نحوه.

وأخرج ابن المنذر[٤]، عن قتادة نحوه أيضاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن الضريس، وابن المنذر، والنحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن البراء[٥] قال: آخر آية نزلت: [٢/١٩٦]

---

(١) سيأتي تخريج الأقوال في هذه الأسماء. (٢) في «تفسيره» (١٠/ ٩٣).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١١٩).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١١٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٥٠)، والبخاري رقم (٤٣٦٤، ٤٦٠٥، ٤٦٥٤، ٦٧٤٤)، =

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت تامة: براءة.

[من أسباب سقوط البسملة من أول سورة براءة]:

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أوّلها على أقوال: الأوّل عن المبرّد[(١)] وغيره: أنّه كان مِنْ شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضَه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، بعث بها النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب فقرأها عليهم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٢)] قال: سألتُ عليّ بن أبي طالب لِمَ لا تكتب في براءة بسم الله الرحمٰن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمٰن الرحيم أمان. وبراءة نزلت بالسيف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي وحسّنه، والنسائي، والحاكم وصححه، عن ابن عباس[(٣)] قال: قلتُ لعثمان بن عفان: ما حملَكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي مِنْ المثاني، وإلى براءة وهي مِنْ المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؛ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كانَ رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعضَ مَنْ كان يكتب فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة مِنْ آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتُها شبيهة بقصتها فظننتُ أنّها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطوال.

= والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢١٢)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (٢٠٠١٩)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(١) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ١٢٠)، وأحمد (١/ ٤٥٩، ٥٢٩)، وأبو داود رقم (٧٨٦، ٧٨٧)، والترمذي رقم (٣٠٨٦)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٠٠٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص٣١ ـ ٣٢)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٧٧ ـ ٤٧٨)، وابن حبان رقم (٤٣)، والحاكم (٢/ ٢٢١، ٣٣٠)، والبيهقي (٧/ ١٥٢). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

وأخرج أبو الشيخ[(١)]، عَنْ أبي رجاء قال: سألتُ الحسن عن الأنفال وبراءة أسورتان أو سورةٌ؟ قال: سورتان.

وأخرج أبو عُبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن حذيفة[(٢)] قال: يُسمّون هذه السورةُ سورة التوبة، وهي سورةُ العذاب.

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس[(٣)] قال في هذه السورة هي: الفاضحة ما زالت تنزل، «ومنْهم، ومنْهم» حتى ظننّا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذُكر فيها.

وأخرج أبو الشيخ[(٤)] عَنْ عمر نحوَه.

وأخرج أَبو الشيخ، وابن مردويه، عَنْ زيد بن أسلم[(٥)]؛ أنّ رجلاً قال لعبد الله بن عُمر: سورة التوبة؟ فقال ابن عمر: وأيتهنّ سورة التوبة؟ ثم قال: وهل فعل بالناس الأفاعيل إلَا هي؟ ما كنا ندعوها إلا المُقَشْقِشة.

وأخرج ابنُ مردويه[(٥)]، عن ابن مسعود، قال: يُسمّونها سورة التوبة، وإنها لسورةُ عذاب.

وأخرج ابن المنذر[(٥)]، عن ابن إسحاق، قال: كانت براءة تُسمّى في زمن النبي ﷺ وبعده: المبعثِرة، لما كشفت مِنْ سرائر الناس.

وأخرج أبو الشيخ[(٦)]، عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: كانت براءة تسمى: المُنقِّرة، نَقّرت عمّا في قلوب المشركين.

وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الشعب»، عن أبي عطية الهمداني[(٧)]، قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلموا سورة براءة وعلِّموا نساءكم سورة النور.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٢٠).
(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٠).
(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٣٠).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٢١).
(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٢١).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٢١).
(٧) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٢٩، ١٣٠)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٠٣ ـ تفسير)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٣٧، ٢٤٥٢).

[أقوال في أسباب سقوط البسملة من سورة التوبة]:

ومِنْ جملة الأقوال في حذف البسملة: أنَّها كانت تَعْدل سورة البقرة أو قريباً منها، وأنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روي هذا عن مالك[1] بن أنس، وابن عجلان.

ومِنْ جملة الأقوال في سقوط البسملة: أَنَّهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم: براءة والأنفال سورة واحدة[2].

وقال بعضُهم: هما سورتان، فتركت بينهما فُرْجة، لقول مَنْ قال: هما سورتان، وتُركت، بسم الله الرحمٰن الرحيم، لقول من قال: هما سورة واحدة، فرضي الفريقان. قاله خارجة[3] وأبو عصمة وغيرهما.

وقول مَنْ جعلهما سورة واحدةً أظهر؛ لأنّهما جميعاً في القتال، وتعدان جميعاً سابعة السبع الطوال.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾.

قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ برئتُ مِنْ الشيء أبرأ براءةً، وأنا منه بريء: إذا أزلتَه عَنْ نفسك، وقطعتَ سببَ ما بينَك وبينه، وبراءةٌ[4] مرتفعة على أَنَّها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه براءةٌ، ويجوز أَنْ ترتفع على الابتداء؛ لأنها نكرة موصوفة، والخبر: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٧٩ ـ ٨٨٠).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٩٥).
(٣) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٩٥).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٣٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠١)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٤).

وقرأ عيسى بن عمر ﴿بَرَآءَةً﴾ بالنصب[١] على تقدير: اسمعوا براءةً، أو على تقدير: التزموا براءةً؛ لأنَّ فيها معنى الإغراء.

و«من» في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لابتداء[٢] الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة؛ أي: واصلة مِنْ الله ورسولِهِ إلى الذين عاهدتم.

وقرأ رَوح وزيد بنصب[٣] ﴿وَرَسُولَهِ﴾ وقرأ الباقون[٤] بالرفع.

والعهدُ: العقد الموثق باليمين.

والخطاب في ﴿عَٰهَدتُّم﴾ للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول ﷺ، والمعنى: الإخبار للمسلمين بأن الله ورسولَه قد برئا مِنْ تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض، فصار النبذ إليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين، ومعنى براءة الله سبحانه: وقوع الإذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وفي ذلك من التفخيم[٥] لشأن البراءة، والتهويل لها، والتسجيل على المشركين بالذلّ والهوان ما لا يخفى.

قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذا أمر منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة، والسياحة: السير، يقال: سَاح فلان في الأرض يسيح سياحة وسُيوحاً وسَيَحاناً، ومِنْه: سيح الماء في الأرض وسيح الخيل، ومنه قول طَرَفة بن العبد[٦]:

لـو خـفـتُ هـذا مـنـك مـا نِـلْـتَـنـي حـتـى تـرى خـيـلاً أمـامـي تَـسـيـحْ

ومعنى الآية[٧]: أن الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٥١)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٠٦)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٩٢). وهي قراءة شاذة.

(٢) «التبيان» (٢/ ٦٣٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٠٦).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٥١). وهي قراءة شاذة.

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٣٦٧). (٥) «روح المعاني» (١٠/ ٢٠٧).

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ١٢٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٩٧).

(٧) «جامع البيان» (١١/ ٣١١).

للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيثُ يريدون، والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر، وليس المراد [٢/١٩٧] من الأمر بالسياحة تكليفهم بها.

قال محمد بن إسحاق[(١)] وغيره: إنّ المشركين صنفان: صنف كانت مدة عهده أقلّ من أربعة أشهر، فأمُهل تمام أربعة أشهر، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر، ليرتادَ لنفسه، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يُقتل حيث يوجد. وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر، فأمَّا مِنْ لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك خمسون يوماً: عشرون مِنْ ذي الحجة وشهر محرم.

وقال الكلبي[(٢)]: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، ومَنْ كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله أن يتمّ له عهده بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٤] ورجّح هذا ابن جرير[(٣)]، وغيره.

وسيأتي في آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: اعلموا أنّ هذا الإمهال ليس لعجز، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب، وفي ذلك ضرب مِنْ التهديد، كأنه قيل: افعلوا في هذه المدّة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات، فإنكم لا تفوتون الله وهو مخزيكم؛ أي: مذلّكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب، وفي وضع الظاهر موضع المضمر، إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو: الكفر، ويجوز أن يكون المراد: جنس الكافرين، فيدخل فيه المخاطبون دخولاً أوّليّاً.

قوله: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ ارتفاع أذان على أنه خبر[(٤)] مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعده على ما تقدّم في ارتفاع براءة.

---

(١) «السيرة النبوية» (٢/٥٤٣ ـ ٥٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٣١١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٢٦٥) من طريق معمر، به.

(٣) في «جامع البيان» (١١/٣١١ ـ ٣١٢).

(٤) «مشكل إعراب القرآن» (١/٣٥٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/٣٦٨).

والجملة هذه معطوفة على جملة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وقال الزجاج[١]: إن قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

واعتُرض[٢] عليه بأنَّ الأمر لو كان كذلك لكان ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ مخبَراً عنه بالخبر الأوّل، وهو ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وليس ذلك بصحيح؛ بل الخبر عنه هو ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ والأذان بمعنى: الإيذان، وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى: الإيمان والإعطاء.

ومعنى قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ التعميم[٣] في هذا؛ أي: أنّه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، و﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾، ووصفه بالأكبر لأنّه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية، فذهب[٤] جمع منهم: عليّ بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن أبي أوفى، والمغيرة بن شعبة، ومجاهد، أنّه: يوم النحر. ورجّحه ابن جرير[٥].

وذهب آخرون منهم: عمر، وابن عباس، وطاوس، أنه: يوم عرفة[٦].

والأوّل: أرجح؛ لأن النبيّ ﷺ أمر مَنْ بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر.

قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ قُرئ بفتح[٧] أنّ على تقدير بأن الله برئ مِنْ المشركين. فحذفت الياء تخفيفاً. وقرئ بكسرها[٨]؛ لأن في الإيذان معنى

---

(١) في «معاني القرآن» (٢/ ٤٩٢). (٢) «روح المعاني» (١٠/ ٢١٥).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢١٥).
(٤) «المجموع شرح المهذب» (٨/ ١٧٠)، و«التمهيد» (١/ ١٢٦).
(٥) في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٦).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٠٥)، و«جامع البيان» (١١/ ٣٢٥)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٨٦).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٠٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٦٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢٢). فتح الهمزة هو المتواتر، وكسر الهمزة شاذ.
(٨) «القراءات الشاذة» (ص٥١)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٢٩٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٩٦).

القول، وارتفاع ﴿رَسُولُهُ﴾ على أنه معطوف على موضع اسم أنّ، أو على الضمير في برئ، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، والتقدير: ورسولُه بريء منهم.

وقرأ الحسن وغيره ﴿وَرَسُولَهِ﴾ بالنصب[١] عطفاً على لفظ اسم ﴿أَنَّ﴾. وقرئ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ بالجرّ على أن الواو للقسم، روي ذلك عَنْ الحسن، وهي قراءة ضعيفة جدّاً، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ هاهنا، مع ما ثبت مَنْ النهي عن الحلف بغير الله؛ وقيل: إنه مجرور على الجوار.

قوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾؛ أي: من الكفر، وفيه التفات[٢] من الغيبة إلى الخطاب، قيل: وفائدة هذا الالتفات: زيادة التهديد[٣]، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم فيه من الكفر ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أعرضتم عن التوبة، وبقيتم على الكفر ﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ﴾؛ أي: غير فائتين عليه؛ بل هو مُدْرككم، فمجازيكم بأعمالكم.

قولُه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا تهكم بهم[٤]، وفيه من التهديد ما لا يخفى.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٥]، في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى أهل العهد خُزاعة ومُدْلِج، ومَنْ كان له عهد «أقبل» رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحجَّ، ثم قال: «إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراةً فلا أحبّ أن أحجّ حتى لا يكون ذلك»، فأرسل أبا بكر وعليّاً فطافا في الناس بذي المجَاز، وبأمكنتهم التي كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، وهي الأشهر الحرمُ المنسلِخات المتواليات عشرون مِنْ آخر ذي الحجة إلى عَشْرٍ تخلو مِنْ ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وآذن النّاسَ كلهم بالقتال إلى أن يموتوا.

---

(١) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨)، و«القراءات الشاذة» (ص٥١)، و«إعراب القرآن» (١/ ٣٢٥). (قراءة مَن نصب رسولَه) وكذا قراءة الجرِّ شاذتان والمتواتر هو «الرفعُ».

(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٢١٩).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٢٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٦) بسند صحيح ولكنه مرسل.

وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل، في «زوائد المسند»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عليّ[١] قال: لما نزلت عشر آيات من براءة علىٰ النبيّ ﷺ دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال لي: «أدرك أبا بكر، فحيثما لقيتَه فخذ الكتاب منه، فاقرأه على أهل مكة»، فلحقته فأخذت الكتابَ منه، ورجع أبو بكر وقال: يا رسولَ الله نزل فيّ شيء؟ قال «لا، ولكنَّ جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت، أو رجلٌ منك».

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسّنه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث أنس[٢] نحوه.

وأخرج ابنُ مردويه[٣]، من حديث سعد بن أبي وقاص، نحوه أيضاً.

وأخرج أحمد، والنّسائي، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي هريرة[٤]، قال: كنتُ مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة، فكنا ننادي إِنّه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومَنْ كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فإن أجله وأمَده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر، فإن الله بريء من المشركين ورسولُه، ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة[٥] قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أنْ لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب، فأمره أن يؤذِّن ببراءة، [٢/١٩٨] فأذّن علي في يوم النحر ببراءة: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وأخرج الترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه،

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد رقم (١٢٩٧) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٨٤، ٨٥)، وأحمد رقم (١٣٢١٤، ١٤٠١٩)، والترمذي رقم (٣٠٩٠) بسند حسن.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٢٣).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٧٩٧٧)، والنسائي رقم (٢٩٥٨)، وفي «السنن الكبرى» رقم (٣٩٤٩، ١١٢١٤). وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٣١٧٧، ٤٦٥٥، ٤٦٥٨)، ومسلم رقم (١٣٤٧)، والبيهقي (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس[١]؛ أَنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجّا، فقام عليّ في أيام التشريق فنادى: إن الله بريء مِنْ المشركين، ورسولُه، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحجنّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنةَ إلا مؤمن؛ فكان عليّ ينادي، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، وابن المنذر، والنحاس، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن زيد بن «يُثَيْع»[٢] قال: سألتُ علياً بأيّ شيء بعثت مع أبي بكر في الحج؟ قال: بعثتُ بأربعٍ: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة. ولا يطوف بالبيت عريان. ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا. ومَنْ كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مدّته، ومن لم يكن له عهد، فأجله أربعة أشهر.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٣]، في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ الآية قال: حدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاءوا، وحدّ أجل مَنْ ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم مِنْ يوم النحر؛ إلى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة. فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد، إنْ لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما سمّي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأوّل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ [التوبة: ٧] يعني: أهل مكة.

وأخرج النحاس[٤]، عنه، نحو هذا، وقال: ولم يعاهد رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً.

---

(١) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٣٠١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٥)، والحاكم (١/ ٥٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٩٦، ٢٩٧). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٠٥ ـ تفسير)، وابن أبي شيبة (ص٣٧٤ ـ القسم الأول من الجزء الرابع)، وأحمد (٢/ ٣٢)، والترمذي رقم (٨٧١، ٨٧٢، ٣٠٩٢)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٨٨)، والحاكم (٣/ ٥٢، ٤/ ١٧٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٩٧). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٦، ١٧٥١، ١٧٥٢٢، ١٧٥٧) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٤٨٦).

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والنحاس، عن الزهري[(١)] ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال: نزلتْ في شوّال فهي الأربعة أشهر: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن ابن زيد[(٢)]، في قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ قال: هو إعلام من الله ورسوله.

وأخرج الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عليّ[(٣)] قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن يوم الحجّ الأكبر؟ فقال: «يوم النحر».

وأخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي، وأبو الشيخ، عنه[(٤)]، من قوله.

وأخرج أَبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن قُرْط[(٥)]، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القرّ».

وأخرج ابن مردويه[(٦)]، عن ابن أبي أوفى، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يوم الأضحى هذا يومُ الحجِّ الأكبر».

وأخرج البخاري تعليقاً، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، عن ابن عمر[(٧)]؛ أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: «أيّ يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر، قال: «هذا يوم الحجّ الأكبر».

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٧)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٨٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٧). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (ص٤٣٩ ـ القسم الأول من الجزء الرابع)، والترمذي رقم (٣٠٨٩). وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه أبو داود رقم (١٧٦٥)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٤٠٩٨)، والحاكم (٤/ ٢٢١). وهو حديث صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٢٧).

(٧) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (١٧٤٢)، وأبو داود رقم (١٩٤٥)، وابن ماجه رقم (٣٠٥٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٤). وهو حديث صحيح.

وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن أبي هريرة[١] قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذِّن يوم النحر بمنى: أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر: يوم النحر، والحج الأكبر: الحجّ؛ وإنما قيل: الأكبر، مِنْ أجل قول الناس الحجُّ الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحجّ عام حجة الوداع التي حجّ فيها رسول الله ﷺ مشرك، وأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية [التوبة: ٢٨].

وأخرج الطبراني[٢]، عَنْ سمرة بن جندب؛ أَنّ رسول الله ﷺ قال زمن الفتح: «إنّ هذا عام الحج الأكبر، قال: اجتمع حجّ المسلمين وحجّ المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، واجتمع النصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعات؛ فاجتمع حجّ المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ستة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق السمٰوات والأرض كذلك قبل العام، ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة».

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن[٣]؛ أَنَّه سُئل عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حجّ فيه أبو بكر، استخلفه رسول الله ﷺ فحجّ بالناس، واجتمع فيه المسلمون والمشركون، فلذلك سمّي الحج الأكبر، ووافق عيد اليهود والنصارى.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤]، عن سعيد بن المسيب، قال: الحجّ الأكبر: اليوم الثاني مِنْ يوم النحر، ألم تر أن الإمام يخطب فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣١٧٧)، ومسلم رقم (١٣٤٧)، وأبو داود رقم (١٩٤٦)، والنسائي رقم (٢٩٥٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (٦٨٩٤).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٩): «رجاله رجال الصحيح إلا أن معاذ بن هشام قال: وجدت في كتاب أبي».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٨) بسند حسن، من طريق سهل السراج، به.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٧) من طريق معمر، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٨) بسند حسن، من طريق يحيى بن المعلى، به.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن المسور بن مَخْرمة[١]، أن رسول الله ﷺ قال: «يوم عرفة هذا يوم الحجّ الأكبر».

وأخرج ابنُ سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ عمر بن الخطاب[٢]، قال: الحج الأكبر يوم عرفة.

وأخرج ابنُ جرير[٣]، عن أبي الصهباء البكري قال: سألتُ عليّ بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: يومُ عرفة.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٤]، قال: إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر.

وأخرج ابن جرير[٥] عن الزبير نحوه.

ولا يخفاك أنّ الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هي ثابتةٌ في «الصحيحين»، وغيرهم مِنْ طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرّحة بأنه يوم عرفة.

وأخرج ابن أبي شيبة[٦]، عن الشعبي؛ [٢/١٩٩] أنه سئل: هذا الحج الأكبر، فما الحج الأصغر؟ قال: عمرةٌ في رمضان.

وأخرج ابن أبي شيبة[٧]، عن ابن إسحاق، قال: سألتُ عبد الله بن شدّاد عن الحج الأكبر؟ فقال: الحج الأكبر: يوم النحر، والحج الأصغر: العمرة.

وأخرج ابن أبي شيبة[٨]، عن مجاهد، نحوه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٤٨) مرسلاً.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/٣٨١، ٧/١٢٥)، وابن أبي شيبة (ص٤٣٩ ـ القسم الأول من الجزء الرابع)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/٣٢٢، ٣٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٤٨) بسند حسن، من طريق عمر بن الوليد الشَّنِّيِّ، به.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٣٢١ ـ ٣٢٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٤٨) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٣٢٣) من طريق عبد الصمد بن حبيب، به.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (ص١٢٨ ـ القسم الأول من الجزء الرابع).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (ص٢٢٢ ـ القسم الأول من الجزء الرابع).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (ص٢٢٢ ـ القسم الأول من الجزء الرابع).

وأخرج ابنُ أبي حاتم[١]، عَنْ محمد بن مسعر، قال: سُئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون في المكروه؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

[الوفاء بالعهد هي قاعدة الأخلاق في الإسلام]:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾. قال الزجّاج[٢]: إنه يعود إلى قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم.

وقال في «الكشّاف»[٣]: إنّه مستثنى مِنْ قوله: ﴿فَسِيحُوا۟﴾ [التوبة: ٢] والتقدير: فقولوا لهم: فسيحوا، إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم، فأتموا إليهم عهدهم.

قال[٤]: والاستثناء بمعنى: الاستدراك، كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدَهم، ولا تُجْروهم مَجْراهم.

وقد اعتُرِض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه، وهو: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣] إلخ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٩).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٠).
(٣) (٣/ ١٢).
(٤) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٢).

وأجيب[١] بأن ذلك لا يضرّ؛ لأنه ليس بأجنبي؛ وقيل[٢]: إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله، فيكون متصلاً وهو ضعيف.

قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم يقع منهم أيّ نقص. وإن كان يسيراً، وقرأ عكرمة، وعطاء بن يسار: «ينقضوكم» بالضاد[٣] المعجمة؛ أي: لم ينقضوا عهدكم، وفيه دليل على أنّه كان من أهل العهد[٤] من خاس بعهده. ومنهم من ثبت عليه، فأذن الله سبحانه لنبيِّه بنقض عهد من نقض، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته ﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ المظاهرة: المعاونة؛ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾؛ أي: أدّوا إليهم عهدَهم تامّاً غير ناقص ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ التي[٥] عاهدتموهم إليها، وإنْ كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين مِنْ القتال بعد مضي المدّة المذكورة سابقاً، وهي أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ انسلاخ الشهر: تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبّه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عَنْ مكانه، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت[٦] الشهر تَسْلَخُه سَلْخاً وسُلُوخاً بمعنى: خرجت منه، ومنه قول الشاعر[٧]:

إذا ما سلختُ الشهرَ أهللتُ مثلَه ... كفى قاتلاً سلخي الشهورَ وإهلالي

ويقال: سلختِ[٨] المرأةُ دِرعَها: نزعته، وفي التنزيل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧].

واختلف العلماء في تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا، فقيل: هي الأشهر

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٠٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٢٠).

(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٢٢٠ ـ ٢٢١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٧٠).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٥١)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٧١). وهي قراءة شاذة.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٠٧).

(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٨٨).

(٦) «تهذيب اللغة» (٧/ ١٧٠)، و«الصحاح» (١/ ٤٢٣)، و«مجمل اللغة» (٢/ ٤٧٠).

(٧) هو: عمرو بن الأهتم. انظر: «ديوانه» (ص٩٨).

(٨) «مجمل اللغة» (٢/ ٤٧٠)، و«الصحاح» (١/ ٤٢٣).

الحرم[1] المعروفة التي هي: ذو القعدة وذو الحجة، ومحرّم، ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد.

ومعنى الآية على هذا: وجوب الإمساك عَنْ قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الأشهر الحرم.

وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة، خمسين[2] يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فأمرهم الله بقتل المشركين حيثُ يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم: الضحاك والباقر.

وروي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير[3].

وقيل: المراد بها: شهور العهد المشار إليها بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ وسُمّيت حرماً؛ لأن الله سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرّض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة[4] من أهل العلم منهم: مجاهد، وابن إسحاق، وابن زيد، وعَمْرو بن شعيب.

وقيل: هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: ٢].

وقد روي ذلك عن ابن عباس[5] وجماعة، ورجّحه ابن كثير[6]، وحكاه عن مجاهد، وعَمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسُديّ، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إنْ شاء الله.

ومعنى ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾: في أيّ مكان وجدتموهم[7] مِنْ حلٍّ أو حرم. ومعنى: ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾: الأسر، فإنْ الأخيذ: هو الأسير.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/١٠٨ ـ ١٠٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٣٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٤٦، ١٧٥١، ١٧٥٢) عن ابن عباس بسند صحيح.
(٣) في «جامع البيان» (١١/٣١٨).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/١٠٩)، و«جامع البيان» (١١/٣٠٦ ـ ٣١٢).
(٥) سيأتي نصه وتخريجه.
(٦) في «تفسيره» (٧/١٤٧ ـ ١٤٨).
(٧) «جامع البيان» (١١/٣٤٣).

ومعنى الحصر: مِنْعهم من التصرّف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدوّ، يقال: رصدتُ فلاناً أرصده؛ «أي: رقبتُه» اقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها. قال عامر بن الطُفيل(١):

ولقد علمتَ وما إخالك عالماً ... أنّ المنيةَ للفتى بالمَرْصدِ

وقال النابغة(٢):

أعاذلُ إنَّ الجهلَ مِنْ لذة الفتى ... وإن المنايا للنفوس بمرصد

وكلَّ في ﴿كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج(٣)، وقيل: هو منتصب بنزع الخافض؛ أي: في كل مرصد، وخطّأ أبو عليّ(٤) الفارسي الزجاج في جعله ظرفاً.

وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامةً لكل مشرك، لا يخرج عنها إلا مَنْ خصته السُّنَّة، وهو: المرأة، والصبيّ، والعاجز الذي لا يُقاتِل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يُعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، وهذه الآية نسخت كلَّ آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم.

وقال الضحاك وعطاء والسديّ: هي منسوخة(٥) بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأن الأسير لا يقتل صبراً بل يمن عليه أو يفادي.

وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة(٦) لقوله: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل.

وقال ابن زيد(٧): الآيتان محكمتان.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١١١).
(٢) بل هو لعدي بن زيد العبادي. «جمهرة أشعار العرب» (١/ ٤٩٨).
(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣١).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١١١).
(٥) «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٩١)، و«الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» (ص٣٠٤).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) ذكره النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

قال القرطبي[١]: وهو الصحيح؛ لأن المنّ والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أوّل حرب جاء بهم وهو يوم [٢/٢٠٠] بدر.

قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل، وحققوا[٢] التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام، وهو إقامة الصلاة، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان مِنْ العبادات لكونه رأسها، واكتفى بالركن الآخر المالي، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات؛ لأنه أعظمها ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾؛ أي: اتركوهم وشأنهم، فلا تأسروهم، ولا تُحْصروهم، ولا تقتلوهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

قوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ﴾، يقال: استجرتُ فلاناً؛ أي: طلبتُ أَنْ يكون جاراً؛ أي: مُحامياً ومُحافظاً مِنْ أن يظلمني ظالم، أو يتعرّض لي متعرّض. و﴿أَحَدٌ﴾ مرتفع بفعل مقدّر يفسّره المذكور بعده؛ أي: وإنْ استجارك أحد استجارك، وكرهوا الجمع بين المفسَّر والمفسِّر.

والمعنى[٣]: وإنْ استجارك أحد من المشركين الذين أُمرتَ بقتالهم فأجره؛ أي: كنْ جاراً له مؤمِّناً مُحامياً ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ منك ويتدبّره حق تدبره، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه: ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾؛ أي: إلى الدار التي يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يُسلِم، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه مِنْ إباحة دمه، ووجوب قتله حيث يوجد، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة، وما بعده ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: بسبب فقدانهم للعلم النافع المميّز بين الخير والشر في الحال والمآل.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٤]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ قال: هم قريش.

---

(١) في «تفسيره» (١٠/ ١١٠).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٣٤٣)، و«أحكام القرآن» للكيا الطبري (٣/ ١٧٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١١٢).

(٣) «جامع البيان» (١١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٩١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥١) من طريق محمد بن عباد بن جعفر.

وأخرج[١] أيضاً عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبيُّ الله زمنَ الحديبية، وكان بقي من مدّتهم أربعةُ أشهر بعد يوم النحر، فأمر نبيّه أن يُوفي بعهدهم هذا إلى مدّتهم.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد[٢] بن عباد بن جعفر، في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ قال: هم بنو جَذيمةَ بن عامر من بني بكر بن كنانة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٣]، عَنْ مجاهد، في قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ قال: كان بقي لبني مذحج وخزاعة عهد، فهو الذي قال الله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن السديّ، في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قال: هؤلاء بنو ضمرة، وبنو مُدلج، من بني كنانة كانوا حلفاء للنبي ﷺ في غزوة «العُشيرة» من بطن ينبع ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ قال: لم يظاهروا عدوّكم عليكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ يقول: أجلهم الذي شرطتم لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يقول: الذين يتقون الله فيما حرّم عليهم، فيوفون بالعهد. قال: فلم يُعاهِدِ النبيَّ ﷺ بعد هؤلاء الآيات أحداً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، عن السديّ، في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ قال: هي الأربعة، عشرون مِنْ ذي الحجة والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من ربيع الآخر. قلتُ: مراد السديّ: أَنّ هذه الأشهر تُسمَّى حُرُماً لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال، لا أَنَّها الأشهر الحرم المعروفة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٠، ١٧٥٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٧، ٢٦٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٩) من طريق ابن جريج، به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٠) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣١).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ ٤٥) بسند حسن.

وأخرج ابن أبي حاتم(١)، عن الضحاك، في الآية قال: هي عشر من ذي القعدة، وذو الحجة، والمحرم، سبعون ليلة.

وأخرج أبو الشيخ(٢)، عَنْ مجاهد قال: هي الأربعة الأشهر التي قال: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢].

وأخرج ابن المنذر(٣)، عن قتادة، نحو قول السديّ السابق.

وأخرج أبو داود(٣) في «ناسخه»، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ ثم نَسخَ واستثنى. فقال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾. وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد(٤)، في قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ يقول: من جاءك واستمعَ ما تقول. واستمع ما أُنزل إليك، فهو آمنٌ «حتى» يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥)، عن ابن زيد، في قوله: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ قال: إن لم يوافقه ما يقُصّ عليه ويُخبر به فأبلغه مأمنه، وهذا ليس بمنسوخ.

وأخرج أبو الشيخ(٦)، عن قتادة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كتاب الله.

وأخرج أبو الشيخ(٦)، عن سعيد بن أبي عروبة، قال: كان الرجل يجيء إذا سمع كتاب الله، وأقرّ به، وأسلَم، فذاك الذي دُعي إليه، وإن أنكر ولم يُقرّ به، رُدّ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٢) من طريق بشر بن عمارة، به.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣١).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣١).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٤٧) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٦) من طريق أصبغ، عن ابن زيد.
• وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٤٨) بسند صحيح من طريق ابن وهب، به.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٤).

مأمنه، ثم نسخ ذلك، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

[تقرير الأحكام النهائية والأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين في الحزيرة]:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ الاستفهام(١) هنا للتعجب المتضمن للإنكار، وعهدٌ: اسم يكون. وفي خبره ثلاثة أوجه: الأوّل: أنه كيفَ، وقُدّم للاستفهام؛ والثاني: للمشركين، ﴿وَعِندَ﴾ على هذين ظرف للعهد، أو ليكون، أو صفة للعهد؛ والثالث: أَنَّ الخبر عندَ الله، وفي الآية إضمار.

والمعنى: كيفَ يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به مِنْ عذابه(٢)؛ وقيل: معنى الآية: محال أَنْ يثبت لهؤلاء عهد(٣)، وهم أضدادٌ لكم، مُضْمِرون للغدر، فلا يطمعوا في ذلك ولا يحدّثوا به أنفسهم، ثم استدرك، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، ولم يَنْقضوا ولم يَنكُثوا فلا تقاتلوهم، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ قيل: هم بنو بكر.

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٢٣٥)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٧٥).
(٢) «التبيان» (٢/ ٦٣٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٧٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٣).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

وقيل: بنو كِنانة وبنو ضَمْرة. وفي «ما» وجهان[1]: أحدهما: أنها مصدرية زمانية، والثاني: أنها شرطية.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه مِنْ أعمال المتقين، فيكون تعليلاً للأمر بالاستقامة.

قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أعاد الاستفهام[2] التعجيبي للتأكيد والتقرير، والتقدير: كيفَ يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلَبة لكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾؛ أي: لا يُراعوا فيكم ﴿إِلًّا﴾؛ أي: عهداً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾. [٢/٢٠١] قال في الصحاح[3]: الإلّ: العهد والقرابة، ومنه قول حسّان[4]:

لَعَمْرُك إن إِلَّكِ مِنْ قريشٍ ... كإلِّ السَّقْب من رِئْل النَّعامِ

قال الزجاج[5]: الإلّ عندي على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحِدّة، ومنه الإلّة للحَرْبة، ومنه أُذُن مؤلَّلة؛ أي: مُحدّدة. ومنه قول طَرفة بن العبد[6] يصف ناقته بالحِدّة والانتصاب:

مُؤَلَّلتانِ يُعرف العِتْقُ منهما ... كسامِعتي شاةٍ بحَومَلَ مُفْرَدِ

قال أبو عُبيدة[7]: الإلّ: العهد، والذمة والنديم.

وقال الأزهري[8]: هو اسم لله بالعبرانية، وأصله مِنْ الأَلِيْل، وهو البريق، يقال: ألّ لونُه يؤلّ إلًّا؛ أي: صَفا ولمَع، والذِّمة: العهدُ، وجمعها: ذِمَمٌ، فمن فسر الإلّ بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين.

وقال أبو عُبيدة[9]: الذمة: التذمم.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٣٧٦)، و«التبيان» (٢/ ٦٣٦).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١١٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٣٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٤).
(٣) في «الصحاح» (٤/ ١٦٢٦).
(٤) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٢١٦).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٣).
(٦) انظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص٢٨).
(٧) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٥٣).
(٨) في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٤٣٤ ـ ٤٣٦).
(٩) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٥٣).

وقال أبو عبيد[١]: الذِمّة: الأمان، كما في قوله: «ويسعى بذمتهم أدناهم» وروي عن أبي عُبيدة أيضاً أن الذمة ما يُتذمم به؛ أي: ما يُجتنب فيه الذمّ.

قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: يقولون بألسنتهم[٢] ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم؛ طلباً «لمرضاتكم» وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه، وتودّ ما فيه مساءتكم ومضرتكم، كما يفعله أهل النفّاق وذو الوجهين؛ ثم حكم عليهم بالفسق، وهو التمرّد والتجري، والخروج عَنْ الحق لنقضهم العهود، وعدم مراعاتهم للعقود.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمناً قليلاً حقيراً، وهو ما آثروه من حطام الدنيا ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا غيرهم عنه.

قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

قال النحاس[٣]: ليس هذا تكريراً، ولكن الأوّل: لجميع المشركين، والثاني: لليهود خاصة، والدليل على هذا: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: اليهود.

وقيل: هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، وفي الأوّل: المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾؛ أي: المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد، أو البالغون في الشرّ والتمرد إلى الغاية القصوى.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ أي في دين الإسلام ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: نبيّنها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها.

والمراد بالآيات: ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم.

وقد أخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: قريش.

---

(١) في «غريب الحديث» (١/ ٩٩). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٠).

(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠٤).

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٤).

• وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٩) =

وأخرج ابن أبي حاتم[١]، عن ابن زيد، نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل[٢] قال: كان النبي ﷺ عاهد أناساً من بني ضَمْرة بني بكر وكنانة خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام، وجعل مدتهم أربعة أشهر، وهم الذين ذكر الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ يقول: ما وفّوا لكم بالعهد ففوا لهم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن السديّ قال: هم بنو جذِيمة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٤]، في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: هو يوم الحديبية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال: الإلّ: القرابة، والذِّمة: العهد.

وأخرج الفريابي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٦] قال: الإلّ: الله ﷻ.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن عكرمة[٧] مثله.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنِ مجاهد[٨] في قوله: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ.

= بسند ضعيف، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٣) من أصبغ، عن ابن زيد.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٧) من طريق ابن وهب بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٦، ١٧٥٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٦) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٢) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٥) بسند صحيح.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٨) بسند ضعيف من طريق الضحاك، عن ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٨) من طريق معمر، به.

(٧) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٤).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦٠) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[١]، في قوله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ الآية يقول: إن تركوا اللّات والعزّى، وشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإخوانكم في الدين.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٢]، قال: حرّمت هذه الآية قتالَ أو دماء أَهل الصلاة.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾.

[من أسباب الحضّ على قتال المشركين]:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ معطوف على ﴿فَإِن تَابُوا﴾ [التوبة: ١١] والنكث[٣]: النقضُ، وأصله نَقْضُ الخيط بعد إبرامه، ثم استُعمل في كلِّ نقض، ومنه: نقض «الأيمان» والعهود على طريق الاستعارة.

ومعنى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾؛ أي: مِنْ بعد أن عاهدوكم. والمعنى: أَنّ الكفار إن نكثوا[٤] العهودَ التي عاهدوا بها المسلمين، ووثقوا لهم بها، وضمّوا إلى ذلك الطعن في دين الإسلام، والقدح فيه، فقد وجب على المسلمين قتالهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦١) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦٢) بسند ضعيف.
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٢٤٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٢).
(٤) «جامع البيان» (١١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

وأئمة الكفر: جمع إمام، والمراد: صناديدُ المشركين، وأهل الرئاسة فيهم على العموم. وقرأ حمزة «أإمة»[١]، وأكثر النحْويين يذهب إلى أَنّ هذا لحن؛ لأنّ فيه الجمع بين همزين في كلمة واحدة.

وقرأ الجمهورُ بجعل الهمزة الثانية بين بين؛ أي: بين مخرج الهمزة[٢] والياء.

وقُرئ بإخلاص[٣] الياء وهو لحن، كما قال الزمخشري[٤].

قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها، والأَيمان: جمع يمين في قراءة الجمهور[٥]. وقرأ ابن عامر «لا إِيمان لهم» بكسر الهمزة[٦]. والمعنى على قراءة الجمهور: أن أيمان الكافرين وإن كانت في الصورة يميناً، فهي في الحقيقة ليست بيمين.

وعلى القراءة الثانية: أن هؤلاء الناكثين للأَيمان الطاعنين في الدين، ليسوا من أهل الإِيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم، فقتالهم واجب على المسلمين.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: عَنْ كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام. والمعنى: أن قتالهم يكون إلى الغاية هي الانتهاء عن ذلك.

وقد استدلّ بهذه الآية على أن الذميَّ إذا طعن في الدين لا يُقتل حتى ينكث

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٣٨٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٩٨)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٠٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٤٤).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥١): هذه ثلاث قراءات متواترة، فالتحقيق عن ابن عامر والكوفيين وروح، والتسهيل والياء المحضة وجهان عن الباقين، ويكفي في الرد على مَنْ ردّ قراءة التحقيق تواترها وقراءة عموم المسلمين بها في زماننا، لأنها قراءة حفص، أما قراءة الياء المحضة فهي متواترة كذلك عن أبي عمرو وغيره وهو إمام في اللغة، راجع «النشر» (١/ ٣٧٨).

(٣) «النشر» (١/ ٣٧٩)، و«التبصرة» (ص٥٢٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠٥)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٨٥).

(٤) في «الكشاف» (٣/ ١٨).

(٥) «البحر المحيط» (٥/ ٣٨٦)، و«النشر» (٢/ ٢٧٨)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣٠٧).

(٦) «جامع البيان» (١١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٨٦).

العهدَ، كما قال أبو حنيفة[١]؛ لأنَّ الله إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، والثاني: الطعن في الدين.

وذهب مالك والشافعي وغيرهما[٢]، إلى أنَّه إذا طعن في الدين قُتل؛ لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: وكذلك إذا حَصل مِنْ الذميّ [٢/٢٠٢] مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين، فإنّه يُقتل.

قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام[٣] التوبيخي، مع ما يستفاد منها مِنْ التحضيض[٤] على القتال والمبالغة في تحققه.

والمعنى: أَنَّ من كان حاله كحال هؤلاء مِنْ نقض العهد، وإخراج الرسول من مكة، والبداءة بالقتال، فهو حقيق بأن لا يُترك قتاله، وأن يوبخ مَنْ فرط في ذلك.

ثم زاد في التوبيخ فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع؛ أي: تخشون أَنْ ينالَهم منهم مكروه؛ فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بيَّن ما يجب أن يكون الأمر عليه، فقال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: هو أحق بالخشية منكم، فإنّه الضارّ النافع بالحقيقة، ومِنْ خشيتكم له أن تقاتلوا مَنْ أمركم بقتاله، فإنّ قضية الإيمان توجب ذلك عليكم.

[من فوائد الحضّ على القتال]:

ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ ورتب على هذا الأمر[٥] فوائد:

(الأولى): تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر.

(والثانية): إخزاؤهم، قيل: بالأسر، وقيل: بما نزل بهم من الذلّ والهوان.

(والثالثة): نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم.

---

(١) «أحكام القرآن» للكيا الطبري (٣/ ١٨٣).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٩٣ ـ ٨٩٤).
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٢٤٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠٥).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(والرابعة): أن الله يُشْفي بالقتال صدوَر قومٍ مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره.

و**(الخامسة)**: أنّه سبحانه يُذْهب بالقتال غيظَ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ، وحرج الصدر.

فإن قيل: شفاء الصدور، وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكراراً.

قيل في الجواب: إنَّ القلب أخص من الصدر.

وقيل: إنّ شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، وأنّ إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، وقد وقعتَ للمؤمنين ولله الحمدُ هذه الأمور كلها.

ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره، كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح، فإنهم أسلموا وحَسُنَ إسلامهم، وهذا على قراءة[(١)] الرفع في «يتوب»، وهي قراءة الجمهور.

وقرئ بنصب[(٢)] «يتوبَ» بإضمار أنْ، ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى.

قرأ[(٣)] بذلك: ابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي، والأعرج. فإنْ قيل: كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟

وأجيبَ بأنَّ القتال قد يكون سبباً لها إذا كانت مِنْ جهة الكفار، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سبباً لخلوص النية والتوبة عن الذنوب.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾ (أمْ) هذه هي[(٤)] المنقطعة التي بمعنى: (بَلْ)،

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٣٨٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٥٢).

(٢) «المحتسب» (١/ ٢٨٤)، و«القراءات الشاذة» (ص٥١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٥٢).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

قال القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٣١): والرفعُ أحسن؛ لأنَّ التوبة لا يكون سببُها القتال، إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه في كل حال.

وانظر: «المحتسب» (١/ ٢٨٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠٦).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٩).

والهمزة[١] والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى: كيفَ يقع الحسبان منكم بأن تُتْركوا على ما أنتم عليه؟

وقولُه: ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾ في موضع[٢] مفعولي الحسبان عند سيبويه. وقال المبرِّد: إنّه حذف الثاني، والتقدير: أم حسبتم أن تُتْركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق؟! الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب.

وجملة: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ في محلّ نصب[٣] على الحال، والمراد مِنْ نفي العلم: نفي المعلوم، والمعنى: كيف تحسبون أنكم تُتْركون، ولما يتبين المخلص منكم في جهاده مِنْ غير المخلص.

وجملة: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ معطوفة على (جاهدوا) داخلة معه في حكم النفي واقعة في حيّز الصلة، والوليجة[٤]: مِنْ الولوج: وهو الدخول، ولَجَ يَلِجُ وُلُوجاً: إذا دخل، فالوليجة: الدخيلة.

قال أبو عُبيدة[٥]: كلُّ شيء أدخلته في شيء ليس منه، فهو وليجة. قال أبان بن «تغْلِب»:

فبئس الوليجةُ للهاربيـ ـنَ والمعتدينَ وأهلِ الريَبْ[٦]

وقال الفرّاء[٧]: الوليجة: البطانة مِنْ المشركين، والمعنى واحد؛ أي: كيف تتخذون دخيلةً أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم، وتُعْلمونهم أموركم من دون الله، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بجميع أعمالكم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عَنْ مجاهد[٨]، في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ قال: عهدهم.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٢٥٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٨٤).
(٢) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٨).
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٥٩).
(٤) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٩١ ـ ١٩٢)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٨٢ ـ ٨٨٣).
(٥) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٥٤).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٣٢).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٢٦).
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٦).

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[(١)]، في الآية قال: يقول الله لنبيِّه: وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتِلْهم إنّهم أئمةُ الكفر.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[(٢)] في قوله: ﴿أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قال: أبو سفيان بن حرب، وأميّة بن خلف، وعُتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله وهمّوا بإخراج الرسول من مكة.

وأخرج ابن عساكر[(٣)]، عَنْ مالك بن أنس مثله.

وأخرج أبو الشيخ[(٤)]، عن ابن عباس ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قال: رؤوس قريش.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عمر[(٥)] قال: أبو سفيان بن حرب منهم.

وأخرج أبو الشيخ[(٦)] عن الحسن، أنهم الديلم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن حذيفة[(٧)] أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال: ما قُوتل أهلُ هذه الآية بعد.

وأخرج ابن مردويه[(٦)]، عن عليّ نحوه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٠، ١٧٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «مختصر تاريخ مدينة دمشق» (١٢/ ٥١)، وفي «تاريخ مدينة دمشق» (٢٣/ ٤٣٨) من طريق الحكم، عن مجاهد، به. وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦٤) من طريق شعبة، عن أبي بشر، عن مجاهد، به.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٦).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦١) من طريق شعبة، عن أبي بشر، عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٦).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥/ ٢٢، ١٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦١) بسند صحيح، من طريق الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة، به.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن مردويه، عن حذيفة[١] قال: ما بقي مِنْ أهل هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلّا أربعة، فقال أعرابيّ: إنكم أصحاب محمد تُخْبروننا لا ندري فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلاقنا، قال: أولئك الفسّاق، أجلْ لم يبق منهم إلا أربعة. أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد بَرْدَه.

والأَوْلى: أنّ الآية عامة[٢] في كل رؤساء الكفار مِنْ غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابنُ أبي حاتم[٣]، عن عبد الرحمٰن بن جُبير بن نُفير؛ أنه كان في عهد أبي بكر الصديق إلى النّاس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً «مُحوّقة» رؤوسهم، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحبّ إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

وأخرج أَبو الشيخ[٤] [٢/٢٠٣] عن حذيفة ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ قال: لا عهودَ لهم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عمار[٥] مثلَه.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٦]، في قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ قال: قتال قريشٍ حلفاءَ النبيّ ﷺ وهمُّهم بإخراج الرسول. زعموا أن ذلك عام عمرة النبي ﷺ في العام التابع للحديبية، نكثت قريشٌ العهد عهدَ الحديبية، وجعلوا في أنفسهم: إذا دخلوا مكة أن يُخْرجوا منها؛ فذلك همهم بإخراجه، فلم تُتابعهم خزاعة على، ذلك فلما خرج النبيّ ﷺ مِنْ مكة، قالت قريش لخزاعة: عَمّيتمونا عن إخراجه، فقاتلوهم، فقتلوا منهم رجالاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ١٠٨)، والبخاري في «صحيحه» رقم (٤٦٥٨).

(٢) قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ١٥٥): «والصحيح أنَّ الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦١) بسند حسن من طريق الوليد بن مسلم، به.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٧).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٢) من طريق سفيان، عن أبي إسحاق، عن صلة، عن عمّار بن ياسر.

(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٧).

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ المنذر، وابنُ أَبي حاتم، وأَبو الشيخ، عن عكرمة[١] قال: نزلت في خزاعة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ الآية.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ مجاهد[٢] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٣] نحوه.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عَنْ قتادة، نحوه أيضاً.

وقد ساق القصة ابن إسحاق في «سيرته»[٥]، وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبيّ ﷺ، وأوّله:

يا ربِّ إنِّي ناشدٌ محمدا   حِلْفَ أَبينا وأبيه الأتلدا

وأخرج القصة البيهقي في «الدلائل»[٦].

وأخرجَ ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٧]، قال: الوليجة: البطانة مِنْ غير دينهم.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عَنْ قتادة[٨]، قال: ﴿وَلِيجَةً﴾؛ أي: خيانة.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٣) من حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٠) بسند حسن.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٨).
(٥) في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٨).
(٦) أخرجها البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٦، ٧).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٤) بسند ضعيف.
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣٩).

[القاعدة في استحقاق عمارة بيوت الله]:

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قرأ الجمهورُ: ﴿يَعْمُرُوا﴾ بفتح[١] حرف المضارعة، وضم الميم من عَمَر يَعمُر.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع بضم[٢] حرف المضارعة من أعمر يُعمِر؛ أي: يجعلون لها مَنْ يعمرها.

وقرأ ابنُ عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أَبي رباح، ومجاهد، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن «سَهْل» ويعقوب: «مَسْجَد الله»[٣] الإفراد.

وقرأ الباقون[٤]: «مساجد» بالجمع، واختارها أبو عُبيدة.

قال النّحاس[٥]: لأنها أعمّ، والخاص يدخل تحت العام، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة، وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال: فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً قال[٦]: وقد أجمعوا على الجمع في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وروي عن الحسن البصري أنه تعالى إنما قال: ﴿مَسَاجِدَ﴾ والمراد المسجد الحرام؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد.

قال الفراء[٧]: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع؛ كقولهم: فلان كثير

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٣٨٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٥٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٨)، و«التيسير» (ص١١٨).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءة شاذة.

(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٠)، و«النشر» (٢/ ٢٧٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٨٥)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٠٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٣٣).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ١٩١).

(٦) أي: النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ١٩١).

(٧) في «معاني القرآن» (١/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).

الدرهم وبالعكس؛ كقولهم: فلان يجالس الملوكَ ولعلّه لم يجالس إلا مَلِكاً واحداً، والمراد بالعمارة: إما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي، وهو ملازمته والتعبد فيه، وكلاهما ليس للمشركين، أما الأول: فلأنه يستلزم المنّة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثاني: فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عَنْ قربان المسجد الحرام.

ومعنى ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صحّ لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك. و﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ حال؛ أي: ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين[1] على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر مِنْ نَصْب الأوثان والعبادة لها، وجعلها آلهة؛ فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن مَنْ يتقرّب إلى الله بعمارة مساجده.

وقيل: المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريكَ لكْ إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك.

وقيل: شهادتهم[2] على أنفسهم بالكفر: إنّ[3] اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول: هو نصراني، والصابئ يقول هو صابئ، والمشرك يقول هو مشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها، ويظنون أنها من أعمال الخير؛ أي: بطلت ولم يبق لها أثر ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ وفي هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها.

ثم بيَّن سبحانه مَنْ هو حقيق بعمارة المساجد فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وفَعلَ ما هو مِنْ لوازم الإيمان مِنْ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فمن كان جامعاً[4] بين هذه الأوصاف، فهو الحقيق بعمارة المساجد. لا مَنْ كان خالياً منها أو من بعضها، واقتصر على ذكر

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٣٧٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٩٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٥).

(٤) «جامع البيان» (١١/ ٣٧٦).

الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدّم الكلام في وجه جمع المساجد، وفي بيان ماهية العمارة، ومَنْ جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما.

وفي قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ حسم لأطماع[1] الكفار في الانتفاع بأعمالهم، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوّاً فقط، فكيف بالكفّار الذين لم يتصفوا بشيء مِن تلك الصفات؛ وقيل: «عسى» من الله[2] واجبة.

وقيل: هي بمعنى: خَليق؛ أي: فخليق أَنْ يكونوا من المهتدين؛ وقيل: إنّ الرجاء راجعٌ إلى العباد، والاستفهام في ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ للإنكار، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية، وفي الكلام حذف، والتقدير: أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد، أو أهلهما ﴿كَمَنْ ءَامَنَ﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير في الخبر؛ أي: جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كعمل مَنْ آمن أو كإيمان من آمن.

وقرأ ابن أبي وَجْرة السعدي، وابن الزبير، وسعيد بن جبير: «أجعلتم[3] سُقَاةَ الحاج، وعَمَرةَ المسجد الحرام»، جمع ساقٍ وعامر. وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف.

والمعنى: أنّ الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون [٢/٢٠٥] بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين. فأنكر[4] الله عليهم ذلك، ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين

---

(١) «جامع البيان» (١١/٣٧٦)، و«روح المعاني» (١٠/٢٦٠).

(٢) «البحر المحيط» (٥/٣٨٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٣٦٣).

(٣) «المحتسب» (١/٢٨٥)، و«البحر المحيط» (٥/٣٨٨)، و«حاشية الجمل» (٢/٢٧١)، و«روح المعاني» (١٠/٢٦١). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» ص(١٥٢)، وهي وجه لابن وردان عن أبي جعفر فهي قراءة عشريّة.

(٤) «جامع البيان» (١١/٣٧٧).

الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوُنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تساوي[١] تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر، المجاهدة في سبيله، ودلّ سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة، التي يدّعيها المشركون؛ أي: إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيفَ تكون فاضلةً عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضول.

ثم صرّح بالفريق الفاضل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى آخره؛ أي: الجامعون بين الإيمان، والهجرة، والجهاد بالأموال والأنفس ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة الباطلة.

وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشريف عظيم للمؤمنين، والإشارة بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المتصفين بالصفات المذكورة ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾؛ أي: المختصون بالفوز عند الله، ثم فسّر الفوز بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ والتنكير[٢] في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم؛ والمعنى: أنها فوق وصف الواصفين، وتصوّر المتصوّرين.

والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مؤكِّدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل؛ أي: أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٣]، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ فنفى المشركين مِنْ المسجد ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ يقول: من وحّد الله وآمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/٣٦٣).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٣٩٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٧٢).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٦) بسند صحيح.

الخمس، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لم يُعبد إلا الله ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يقول: أولئك هم المهتدون؛ كقوله لنبيِّه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إنَّ ربك سيبعثك مقاماً محموداً، وهي الشفاعةُ، وكلُّ «عسى» في القرآن فهي واجبة.

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن المنذر، والبيهقي في «سننه»، عن أبي سعيد الخدري(١)، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾. وقد وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ في استحباب ملازمة المساجد، وعمارتها والتردّد إليها للطاعات.

وأخرجَ مسلم، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبّان، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن النُّعمان بن بشير(٢)، قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ في نفرٍ مِنْ أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقيَ الحاجّ، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل جهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس(٣)، في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١١٦٥١، ١١٧٢٥)، وعبد بن حميد رقم (٩٢١ ـ المنتخب)، والدارمي (١/ ٢٧٨)، والترمذي رقم (٢٦١٧، ٣٠٩٣)، وابن ماجه رقم (٨٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٦)، وابن خزيمة رقم (١٥٠٢)، وابن حبّان رقم (١٧٢١)، والحاكم (١/ ٢١٢، ٢١٣)، والبيهقي (٣/ ٦٦). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٧)، وابن حبان رقم (٤٥٩١)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٤٢٣)، وفي «الشاميين» رقم (٢٨٦٧)، والبيهقي (٩/ ١٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٧ ـ ١٧٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) بسند ضعيف.

سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية، وذلك أَنَّ المشركين قالوا: عمارةُ بيت الله، وقيام على السقاية، خيرٌ ممّن آمن وجاهد، فكانوا يفخرون بالحرم ويَسْتكبرون به من أجل أنّهم أهله وعمّاره، فذكر الله سبحانه استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعني: أَنّهم كانوا يستكبرون بالحرم. وقال: ﴿بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ كانوا به يسمرون ويهجرون بالقرآن والنبي ﷺ، فخيّر الإيمان بالله والجهاد مع نبيّ الله على عُمران المشركين البيت وقيامهم على السعاية، ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهلُ العمارة فسمّاهم ظالمين بشركهم، فلم تُغن عنهم العمارة شيئاً»، وفي إسناده العوفي[(١)] وهو ضَعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(٢)]، قال: قال العباس حين أُسِر يوم بدر: إنْ كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمّر المسجد الحرام، ونسقي الحاج ونفكّ العاني، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية: يعني: أنّ ذلك كان في الشرك، فلا أقبل ما كان في الشرك.

وأخرج ابن مردويه[(٣)]، عنه، أيضاً في الآية، قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب والعباس.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي[(٤)]، قال: تفاخر عليّ والعباس وشيبة في السِّقاية والحِجابة فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية.

---

(١) وهو كما قال.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٨) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٤٥).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٨٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٦٩)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٨١) مرسلاً.

[الأخوة الإيمانية مُقدمة على كل الروابط]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

الخطاب للمؤمنين(١) كافةً، وهو حكمٌ باقٍ إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين.

وقالت طائفة مِنْ أهل العلم: إنها نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا(٢) الآباء والإخوة، فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر إن استحبوا؛ أي: أحبّوا، كما يقال: استجاب بمعنى: أجاب، وهو في الأصل: طلبُ المحبة، وقد تقدّم تحقيق المقام في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

ثم حكم على من يتولى مَنْ استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم. فدلّ ذلك على أن تولي مَنْ كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها، ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول لهم: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ إلى آخره.

والعشيرة: الجماعة التي ترجع إلى عَقْدٍ(٣) واحد، وعشيرة الرجل قرابته الأدنون، وهم الذين يُعاشرونه وهي اسمُ جمع.

وقرأ أبو بكر وحمّاد: «عشيراتُكم» بالجمع(٤). قال الأخفش(٥): لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات. وإنما يجمعونها على عشائر.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٣٨٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٣٩).

(٢) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٥٢). (٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٩٦).

(٤) «زاد المسير» (٣/ ٤١٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٩١)، و«التيسير» (ص١١٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٠).

(٥) ذكره أبو حَيّان في «البحر المحيط» (٥/ ٣٩١).

وقرأ الحسن[1]: «عشائركم».

وقرأ الباقون [٢/٢٠٦]: «عشيرتكم».

والاقتراف: الاكتساب، وأصله: اقتطاعُ الشيء مِنْ مكانه، والتركيبُ يدور على الدنو.

والكاسب يدني الشيء مِنْ نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة: الأمتعةُ التي يشترونها ليربحوا فيها، والكساد عَدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة، ومفارقة الأوطان.

ومِنْ غرائب التفسير ما روي عَنْ ابن المبارك[2] أنّه قال: إنَّ المراد بالتجارة في هذه الآية: البناتُ والأخواتُ، إذا كَسَدْنَ في البيت لا يجدن لهنّ خاطباً، واستشهد لذلك بقول الشاعر[3]:

كسَدْن مِنْ الفقر في قومهنّ وقد زادهنَّ مُقامي كَسادا

وهذا البيت وإنْ كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ، فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة عليهنّ، والمراد بالمساكن التي يرضونها: المنازل التي تُعجبهم وتميل إليها أنفسهم، ويرون الإقامة فيها أحبّ إليهم مِنْ المهاجرة إلى الله ورسوله، و﴿أَحَبَّ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: كانت هذه الأشياء المذكورة في الآية أحبّ إليكم مِنْ الله ورسوله ومن الجهاد في سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ فيكم، وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم.

وقيل: المراد بأمر الله سبحانه: القتال.

وقيل: فتح مكة وفيه بُعدٌ، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح. وفي هذا وعيد شديد، ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به، لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردّد بين أنواع العقوبات.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٥٢)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣١٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١). قراءة الحسن شاذة، والقراءتان الأخريان متواترتان.

(٢) «التيسير» (ص١١٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٩١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٦٩).

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ١٥٣)، والقرطبي في «جامع البيان» (١٠/ ١٤١).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعته، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه.

وقد أخرج ابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، قال: أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبد المطلب: أنا أسقي الحاجّ.

وقال طلحة أخو بني عبد الدار: أنا أحجُب الكعبة فلا نُهاجر، فأُنزلت: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ﴾ الآية.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن مقاتل، في هذه الآية قال: هي الهجرة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ قال: أصبتموها.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ قال: بالفتح في أمره بالهجرة، هذا «كلّه» قبل فتح مكة.

وأخرجَ البيهقيُّ مِنْ حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أَبو أَبي عُبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجّراح قصده ابنُه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]، وهي تؤكد معنى هذه الآية، وقد تقدم بيان حكم الهجرة في سورة النساء.

[معركة حنين وحقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة]:

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾.

المواطن: جمع موطن، ومواطن الحرب: مقاماتها، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر، وما بعده مِنْ المواطن التي نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ معطوف[١] على مواطن بتقدير مضاف: إما في الأوّل وتقديره: في أيام مواطن، أو في الثاني، وتقديره: وموطن يوم حنين، لئلا يُعطف الزمان على المكان.

وردّ بأنّه لا استبعاد في عطف الزمان على المكان، فلا يحتاج إلى تقدير؛ وقيل: إنّ «يوم حنين» منصوب بفعل مقدّر معطوف على ﴿نَصَرَكُمُ﴾؛ أي: ونصركم يومَ حنين، ورجّح هذا صاحب «الكشّاف»[٢]، قال: وموجب ذلك أن قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بدل مِنْ يوم حنين[٣]، فلو جَعلت «ناصبَهُ» هذا الظاهر لم يصح؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها.

وردّ بأنّ العطف[٤] لا يجب فيه تشارك المتعاطفين في جميع ما ثبت للمعطوف، كما تقول: جاءني زيد، وعمرو، مع قومه، أو في ثيابه أو على فرسه.

وقيل: إنْ ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ليس ببدل مِنْ يوم حنين؛ بل منصوب بفعل مقدّر؛ أي: اذكروا «إذْ» أعجبتكم كثرتكم، وحُنين: واد بين مكة والطائف، وانصرف على أنّه اسم للمكان، ومِنْ العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة، ومنه قول الشاعر[٥]:

نصروا نبيَّهمُ وشدُّوا أزرَه ... بحنينَ يومَ تواكُلِ الأبطالِ

وإنما أُعجبَ مَنْ أُعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثني عشر[٦] ألفاً، وقيل: أحد عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً؛ فقال بعضهم: لن نُغْلبَ اليوم مِنْ قلّةٍ، فوكلوا إلى هذه الكلمة، فلم تغن الكثرة شيئاً عنهم، بل انهزموا وثبت رسول الله ﷺ، وثبت معه طائفة يسيرة منهم: عمّه العباس وأبو سفيان بن الحارث، ثم تراجع المسلمون، فكان النصر والظفَر.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٩٢)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٩).

(٢) في «الكشاف» (٣/ ٢٨).

(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٢٧٤)، و«التبيان» (٢/ ٦٣٩)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٥٩).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٣٩٢).

(٥) وهو: حسان بن ثابت. انظر: «ديوانه» (ص٣٩٣).

(٦) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٤٤)، و«دلائل النبوة» (٥/ ١٢٣)، و«الطبقات الكبرى» (٢/ ١٥٤).

والإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة؛ أي: لم تُعطكم الكثرة شيئاً يدفع حاجتكم، ولم تفدكم.

قوله: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ الرُّحب[1] بضم الراء: السعة، والرَحب بفتح الراء: المكان الواسع، والباء بمعنى[2] مع، وما مصدرية، ومحل الجار[3] والمجرور النصب على الحال.

والمعنى: أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم مِنْ الخوف والوجل.

وقيل[4]: إن الباء بمعنى «على»؛ أي: على رحبها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾؛ أي: انهزمتم حال كونكم مدبرين؛ أي: مولين أدباركم، جاعلين لها إلى جهة عدوّكم.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أنزل ما يسكّنهم، فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولّوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم ينهزموا.

وقيل: الذين انهزموا. والظاهر جميع مَنْ حضر منهم؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا. قوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: هم الملائكة.

وقد اختلف في عددهم على أقوال:

قيل: خمسة آلاف، [٢/٢٠٧].

وقيل: ثمانية آلاف.

وقيل: ستة عشر ألفاً.

وقيل غير ذلك، وهذا لا يعرف إلّا من طريق النبوّة.

واختلفوا أيضاً هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل[5] إلا يوم بدر، وأنهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين،

---

(١) «الصحاح» (١/ ١٣٤).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٣٩٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٢٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٦٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٣٩٣).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٥٠)، و«جامع البيان» (١١/ ٣٩٥).

وإدخال الرعب في قلوب المشركين ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية.

والإشارة بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذّبَ، وسمي ما حلّ بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كافٍ؛ بل لا بدّ من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ أي: مِنْ بعد هذا التعذيب على من يشاء ممّن هداه منهم إلى الإسلام ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يغفر لمن أذنب، فتاب ﴿رَّحِيمٞ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(١)، قال: حُنينٌ ما بين مكة والطائف، قاتل نبيُّ الله هوازنَ وثقيفَ، وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عبد ياليل بَن عَمْرو الثقفي.

وأخرج ابن المنذر(٢)، عن الحسن قال: لما اجتمع أهلُ مكة وأهلُ المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتمعنا. فكره رسول الله ﷺ ما قالوا، وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهُزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحدٍ، حتى جعل رسول الله ﷺ ينادي أحياء العرب: «إليَّ إليَّ»، فو الله ما يُعْرُج عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله، إليَّ عباد الله أنَا رسولُ الله، فجثوا يبكون، وقالوا: يا رسولَ الله وربِّ الكعبة إليك والله، فنكّسوا رؤوسهم يبكون، وقدّموا أسيافهم يضربون بين يدي رسول الله ﷺ، حتى فتح الله عليهم.

وأخرج البيهقي في «الدلائل»(٣)، عن الربيع أَنَّ رجلاً قال يوم حُنين: لن نُغْلَبَ مِنُ قلّة، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ قال الربيع: وكانوا اثني عشر ألفاً، منهم ألفان مِنْ أهل مكة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٨٧).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٥٨).
(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣).

وأخرج الطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن مسعود[١] قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فولّى عنه الناسُ، وبقيت معه في ثمانين رجلاً مِنْ المهاجرين والأنصار، فكنّا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولِّهم الدُّبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدُماً، فقال: «ناولني كَفّاً مِنْ تراب»، فناولته فضرَب به وجوهَهم فامتلأت أعينُهم تراباً، وولّى المشركون أدبارهم.

ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها، فلا نطول بذلك.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٢]، عَنْ السديّ، في قوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قال: هم الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: قَتَلهم بالسيف.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن سعيد بن جبير، قال: في يوم حنين أمدّ الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مُسوِّمين، ويومئذ سمّى الله الأنصار مؤمنين قال: فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين.

وأخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن جُبير بن مطعم[٤]، قال: رأيتُ قبل هزيمة القوم والنّاس يقتتلون مثل البِجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مَبْثوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنَّها الملائكة، ولم تكن إلا هزيمة القوم.

---

(١) أخرجه الطبراني رقم (١٠٣٥١)، والحاكم (٢/ ١١٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٤٢) بسند ضعيف. صحَّحه الحاكم وتعقبه الذهبيُّ بقول: الحارث وعبد الله ذوا مناكير هذا منها.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٩٦) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٤٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٤٦) من طريق يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، به. وسنده ضعيف لإيهام شيخ إسحاق بن يسار.

[الغاية في تحريم وجود المشركين بالمسجد الحرام]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

النَجَس[1]: مصدر لا يُثنّى ولا يُجْمع، يقال: رجل نَجَس، وامرأة نَجَس، ورجلان نَجَس، وامرأتان نَجَس، ورجال نَجَس، ونساء نَجَس؛ ويقال: نَجُس ونَجِس بكسر الجيم وضمها؛ ويقال: نِجْس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك.

قيل: لا تُستعمل إلّا إذا قيل معه رِجْس؛ وقيل: ذلك أكثريّ لا كليّ. و﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مبتدأ، وخبره[2] المصدر مبالغة في وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف؛ أي: ذوو نجس؛ لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس.

وقال قتادة[3] ومَعْمَر وغيرهما: إنّهم وصفوا بذلك لأنّهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يتجنبون النجاسات.

وقد استدل بالآية مَنْ قال بأنَّ المشرك نجس الذات، كما ذهب إليه بعض الظاهرية[4] والزيدية[5].

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٥٩٣)، و«الصحاح» (٣/ ٩٨١)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٩١).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٣٩٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٨٠).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٩٧) من طريق معمر، عن قتادة بسند صحيح.
(٤) انظر: «المحلى» (١١/ ١٨٤).
(٥) «البحر الزخار» (١/ ١٢ ـ ١٣).

وروي عن الحسن[(١)] البصري، وهو محكيّ عن ابن عباس[(٢)].

وذهبَ الجمهور[(٣)] مِنْ السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة: إلى أن الكافر ليس بنجس الذات؛ لأنّ الله سبحانه أحلّ طعامهم، وثبت عن النبيّ ﷺ في ذلك مِنْ فعله، وقوله، ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم[(٤)]، وشرب منها، وتوضأ فيها[(٥)]، وأنزلهم[(٦)] في مسجده.

قولُه: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ الفاء للتفريع[(٧)]، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم. والمراد بالمسجد الحرام: جَميعُ الحرم.

روي ذلك عن عطاء[(٨)]، فيمنعون عنده من جميع الحرم، وذهب[(٩)] غيره من أهل العلم: إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه، فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم.

وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كلِّ مشرك عن كل مسجد.

---

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٣) عن الحسن مرسلاً.

(٢) قال ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٩٨): وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركون إلا رجسُ خنزير أو كلب.
وهذا قول رُوِي عن ابن عباس من وجه غير حميد، فكرهنا ذكره.

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٤٩٩)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣١٢)، و«فتح الباري» (٨/ ٨٧)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠١)، و«التمهيد» (٤/ ٤٣).

(٤) أخرج أحمد في «مسنده» (٣/ ٢٥٢، ٢٨٩ ـ ٢٩٠) من حديث أنس ﷺ: «أنّ خياطاً بالمدينة دعا النبيَّ ﷺ لطعامه، قال: فإذا خبز شعير بإهالة سنخة، وإذا فيها قرع، قال: فرأيت النّبيَّ ﷺ يعجبه القرع، قال أنس: لم يزل القرع يعجبني منذ رأيت رسول الله ﷺ يعجبه».

(٥) وقد صح عَنْ النّبيّ ﷺ الوضوء مِنْ مزادة مشركةٍ وهو جزء من حديث طويل أخرجه البخاري رقم (٣٤٤) و(٣٤٨) و(٣٥٧١)، ومسلم رقم (٦٨٢) من حديث عمران بن حصين.

(٦) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٣) عن الحسن مرسلاً، وأنّه ﷺ أنزل وفد ثقيف المسجد.
• وربط ثمامة بن أثال وهو مشرك بسارية من سواري المسجد.
أخرجه البخاري رقم (٤٣٧٢)، ومسلم (١٢/ ٨٧ ـ نووي).

(٧) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٢٨١).

(٨) أخرجَه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٨٨٠، ٩٨٨١)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٤٢٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٦) من طريق ابن جريج، عَنْ عطاء بسند صحيح.

(٩) «زاد المعاد» (٣/ ٤٩٩)، و«فتح الباري» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

وقال الشافعي[١]: الآية عامة في سائر المشركين خاصةً في المسجد الحرام، فلا يمنعون مِنْ دخول غيره من المساجد.

قال ابن العربي[٢]: وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلّة بالشرك والنجاسة. ويجاب عنه بأن هذا القياس مردودٌ بربطه ﷺ لثمامة[٣] بن أثال في مسجده، وإنزال وفد[٤] ثقيف فيه.

وروي عَنْ أبي حنيفة[٥] مثل قول الشافعي، وزاد أَنَّه يجوز دخول الذميّ سائر المساجد من غير حاجة، وقيّده الشافعي بالحاجة.

وقال قتادة[٦]: إنّه يجوز ذلك للذميّ دونَ المشرك.

وروي عَنْ أبي حنيفة[٧] أيضاً أَنّه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد، ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهي للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك، فهو من باب [٢/٢٠٨] قولهم: لا أرينك هاهنا.

قولُه: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ فيه قولان[٨]:

أحدهما: أنه سنة تسع، وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم.

الثاني: أنه سنة عشر قاله قتادة، قال ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ، ومن العجب أن يقال: إنّه سنة تسع، وهو العام الذي وقع فيه الأذان، ولو دخل غلامُ رجلٍ داره يوماً فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه. انتهى.

ويجاب[٩] عنه بأنَّ الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمَه، فإن الإشارة بقوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء، وهكذا في المثال الذي ذكره، المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع

---

(١) «البيان» للعمراني (١/ ٨٧ ـ ٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ١٥٧).
(٢) في «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠١).
(٣) تقدم ذكره.	(٤) تقدم ذكره.
(٥) «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٨٨).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٧١) بسند صحيح.
(٧) «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٨٨).	(٨) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠١).
(٩) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، و«جامع القرآن» (١١/ ٣٩٩).

فيه الخطاب، والأمر ظاهر لا يخفى، ولعلّه أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنَّه عام عشر.

وأما تفسير العام المشار إليه بهذا، فلا شك ولا ريبَ أنَّه عام تسع، وعلى هذا يحمُل قول قتادة.

وقد استدلّ مَنْ قال بأنَّه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد، أعني: قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ قائلاً: إن النهي مختصّ بوقت الحج والعمرة، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط، لا عن مطلق الدخول.

ويجاب عَنْه بأن ظاهر النهي عَنْ القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كلّ وقتٍ من الأوقات الكائنة بعده، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص.

قولُه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ العَيْلة[1]: الفقر، يقال: عال الرجل يَعيل: إذا افتقر، قال الشاعر[2]:

وما يدري الفقيرُ متى غِناه ... وما يدري الغنيُّ متى يَعيلُ

وقرأ علقمة[3] وغيره مِنْ أصحاب ابن مسعود «عايلة» وهو مصدر: كالقايلة والعافية والعاقبة.

وقيل: معناه: خصلة شاقة، يقال[4]: عالني الأمر يعولني؛ أي: شقّ عليّ واشتدّ.

وحكى ابن جرير الطبري[5] أنه يقال: عال يعول: إذا افتقر.

وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات، قذف الشيطان في قلوبهم الخوفَ من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله.

قال الضحاك[6]: ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٩٧)، و«الصحاح» (١٧٧٩/٥).

(٢) هو: أُحيحة بن الجلاح. انظر: «ديوانه» (ص٧٤).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٥٢)، و«المحتسب» (٢٨٧/١)، و«روح المعاني» (٢٨٣/١٠). وهي قراءة شاذة، وفي كتاب «البحر المحيط» (٢٨/٥) بلفظ «عائلة».

(٤) «معاني القرآن» للنحاس (١٩٦/٣).

(٥) في «جامع البيان» (٣٩٩/١١ ـ ٤٠٠).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤٠٢/١١) بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

وقال عكرمة(١): أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به.

وقيل: أغناهم بالفيء.

وفائدة التقييد بالمشيئة(٢): التعليم للعباد بأنْ يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به، مما له تعلق بالزمن المستقبل، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرّع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إعطائه ومنعه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية، فيه الأمر بقتال مَنْ جمع بين هذه الأوصاف.

قال أبو الوفاء بن عقيل(٣): إن قوله: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ أمر بالعقوبة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فبيَّن الذنب الذي توجبه العقوبة، ثم قال: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فأكد الذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة، والأنَفَة عن الاستسلام، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تأكيد للحُجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ فبيّن الغاية التي تمتد إليها العقوبة. انتهى.

قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيان للموصول مع ما في حَيّزه وهم أهل التوراة والإنجيل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ الجزية وزنها فِعلة مِنْ جَزَى يَجْزي: إذا كافأ عمّا أُسدي إليه، فكأنهم أعطوها جزاءَ عَمّا مُنِحوا من الأمن.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠١١ ـ تفسير) بسند ضعيف.

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠٤).

(٣) الإمام البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله البغدادي الظَّفري، الحنبلي، المتكلم، صاحب تصانيف، ولد سنة إحدى وثلاثين وأربع مئة.
قال الحافظ ابن رجب: «وأكبر تصانيفه «الفنون» وهو كتاب كبير جدّاً، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأصلَيْن، والنحو، واللغة، والشعر والتاريخ والحكايات والمناظرات».
انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٤٣ رقم ٢٥٩)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ١٤٣ ـ ٣٤٤)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٤٠٣٥).

وقيل: سميت جزية لأنها طائفة ممّا على أهل الذمة أن يجزوه؛ أي: يقضوه، وهي في الشرع: ما يعطيه المعاهد على عهده، و﴿عَن يَدٍ﴾ في محل نصب[١] على الحال.

والمعنى: عَنْ يد مواتية غير ممتنعة.

وقيل: معناه: يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحداً؛ وقيل: معناه: نقد غير نسيئة.

وقيل: عَنْ قهر.

وقيل: معناه: عن إنعام منكم عليهم؛ لأنَّ أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم.

وقيل: معناه: مَذْمومونَ.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم: الشافعي[٢]، وأحمد[٣]، وأبو حنيفة[٤]، وأصحابه والثوري[٥]، وأبو ثور، إلى أنَّها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب.

وقال الأوزاعي ومالك[٦]: إنَّ الجزية تؤخذ مِنْ جميع أجناس الكفرة كائناً من كان، ويدخل في أهل الكتاب على القول الأوّل: المجوس.

قال ابن المنذر[٧]: لا أعلم خلافاً في أنَّ الجزية تؤخذ منهم.

وقد اختلف أهل العلم في مقدار الجزية.

فقال عطاء[٨]: لا مقدار لها. وإنما تؤخذ على ما صُولحوا عليه، وبه قال يحيى بن آدم، وأبو عُبيد، وابن جرير[٩] إلا أنه قال: أقلّها دينار، وأكثرها لا حدّ له.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤٠١).
(٢) «البيان» للعمراني (١٢/ ٢٥٠).
(٣) «المغني» (١٣/ ٢٠٥).
(٤) «مختصر اختلاف العلماء» (٣/ ٤٨٤)، و«شرح فتح القدير» (٦/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٥) «فتح الباري» (٦/ ٢٥٩)، و«المغني» (١٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(٦) «عيون المجالس» (٢/ ٧٥١ رقم ٤٨٥)، و«التمهيد» (٧/ ٩٩ ـ الفاروق).
(٧) «الإقناع» (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).
(٨) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).
(٩) في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨).

وقال الشافعي[١]: دينار على الغنيّ والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شيء، وبه قال أبو ثور[٢].

قال الشافعي[٣]: وإنْ صولحوا على أكثر من دينار جاز، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسُهم قُبل منهم.

وقال مالك[٤]: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الوَرِق، الغنيّ والفقير سواء، ولو كان مجوسيّاً لا يزيد ولا ينقص.

وقال أبو حنيفة[٥] وأصحابه، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل[٦]: اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وثمانية وأربعون.

والكلام في الجزية مقرّر في مواطنه، والحق مِنْ هذه الأقوال قد قرّرناه في شرحنا لـ«المنتقى»[٧] وغيره مِنْ مؤلفاتنا.

قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ في محل نصب[٨] على الحال، والصّغار: الذّلّ. والمعنى: إن الذميّ يعطى الجزية حال كونه صاغراً، قيل: وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم، والمتسلّم قاعد. وبالجملة ينبغي للقابض للجزية أَنْ يجعل المسلِّم لها [٢/٢٠٩] حال قبضها صاغراً ذليلاً.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله[٩]، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة.

وقد روي مرفوعاً من وجه آخر أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن

---

(١) «البيان» للعمراني (١٢/ ٢٥٧). (٢) «فتح الباري» (٦/ ٢٦٢).
(٣) «البيان» للعمراني (١٢/ ٢٦٤).
(٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠٩ ـ ٩١٠)، و«التمهيد» (٢/ ١٢٨).
(٥) «البناية في شرح الهداية» (٦/ ٦٧٠)، و«شرح فتح القدير» (٦/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٦) «المغني» (١٣/ ٢٠٩).
(٧) انظر: «نيل الأوطار» (١٤/ ٣٨٩ ـ ٤٢٣) ط. دار ابن الجوزي.
(٨) «روح المعاني» (١٠/ ٢٨٥)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٠).
(٩) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧١، ٢٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧) بسند صحيح.

جابر[١] قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمَكم».

قال ابنُ كثيرٍ[٢]: تفرّد به أحمد[٣] مرفوعاً. والموقوف: أصح.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٤]، قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يَتّجرون به، فلما نُهوا عن أن يأتوا البيت. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ قال: فأنزل الله عليهم المطرَ. وكَثُر خيرهم حينَ ذهب المشركون عنهم.

وأخرجَ ابنُ مردويه[٥]، عنه، قال: فأغناهم الله من فضله، وأمرهم بقتال أهل الكتاب.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة[٦]، في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قال: الفاقة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير[٧]، في قوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال: بالجزية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن الضحاك[٨] مثله.

وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة[٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧).
(٢) في «تفسيره» (٧/ ١٧٤).
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٩٢).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٠): «فيه أشعث بن سوار وفيه ضعف، وقد وثق».
(٤) أخرجه سعيد بن منصور في «السنن» رقم (١٠١١ ـ تفسير) بسند ضعيف من طريق سماك بن حرب، عن عكرمة.
• وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧) بسند ضعيف من طريق سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٦٥).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٧) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٢) بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٩) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٤) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ[١]، عن الحسن، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قال: قَذَر.

وأخرج أبو الشيخ عنه[١]، أيضاً قال: مَنْ صافحهم فليتوضأ. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيّه».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «سننه»، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ قال: نزلت هذه الآية حين أُمِر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك.

وأخرج ابنُ المنذر[٣]، عن ابن شهاب، قال: نزلت في كفار قريش والعرب ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وأنزلت في أهل الكتاب ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾، فكان أولَ مَنْ أعطى الجزية أهلُ نجران.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ سعيد بن جبير[٤]، في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يعني: الذين لا يصدّقون بتوحيد الله ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: الخمر والحرير ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: دين الإسلام ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ يعني: مذللون.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ قتادة[٥]، في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ قال: عن قَهْرٍ.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦]، عن سفيان بن عيينة، في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ قال: من يده ولا يَبعث بها غيره.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٦٥). وهو حديث موضوع.
انظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ٧٨)، و«الكامل» لابن عدي (١/ ٢٥٩)، و«اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٨)، والبيهقي (٩/ ١٨٥) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٦٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٨، ١٧٨٠) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٠) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٠) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي سنان(١) في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ قال: عَنْ قدرة.

وأخرج ابن المنذر(٢)، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ قال: يَمْشون بها مُتَلْتلين.

وأخرج ابن أبي حاتم(٣)، عنه، قال: يُلْكَزون.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سلمان(٤)، في الآية قال: غير محمودين.

[ضلال عقيدة أهل الكتاب وأنها تضاهي عقيدة المشركين من العرب والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم]:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، و«عزير» مبتدأ(٥) و«ابنُ الله» خبره، وقد قرأ عاصم والكسائي «عزيرٌ» بالتنوين(٦).

وقرأ الباقون بترك التنوين(٧) لاجتماع العُجْمة والعلَمية فيه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٠) من طريق عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل، به.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٠) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٠) من طريق عطاء بن السائب، به.

(٥) «التبيان» (٢/ ٦٤٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٩٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

(٦) «النشر» (٢/ ٢٧٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٠٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٩٢).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

ومَنْ قرأ بالتنوين(١) فقد جعله عربيّاً.

وقيل: إنّ سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعاً بل لاجتماع الساكنين(٢)، ومنه قراءة مَنْ قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]. قال أبو عليّ الفارسي(٣) وهو كثير في الشعر، وأنشد ابن جرير الطبري(٤):

لَتَجِدَنّي بالأمير بَرّا ... وبالقناة مِدْعساً مِكَرّا

إذا غُطيفُ السُّلَمِيُّ فرّا(٥)

وظاهر قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ إنّ هذه المقالة لجميعهم.

وقيل: هو لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم.

وقال النقاش(٦): لم يبق يهودي يقولها؟ بل قد انقرضوا.

وقيل: إنّه قال ذلك للنبي ﷺ جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عَنْ اليهود؛ لأن قول بعضهم لازم لجميعهم.

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه للموتىٰ مع كونه من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أَنْ يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون في «الإنجيل» وصفه تارة بابن الله، وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة مِنْ الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك مِنْ تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة.

قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة.

ووجه قوله ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ مع العلم بأن القول لا يكون إلا بالفم. بأن هذا

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٨٢). قراءة مَنْ قرأ: «قل هو اللهُ أحدُ الله الصمد». يعني «بترك تنوين. أحدُ». وهي قراءة شاذة.

(٣) في «الحجة» (٤/ ١٨٤).

(٤) في «جامع البيان» (١١/ ٤١٢).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٧٢)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣١).

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ١٥٦).

القول لما كان ساذجاً ليس[١] فيه بيان، ولا عضده برهان، كان مجرّد دعوى، لا معنى تحتها، فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتدّ بها.

وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد، كما في: كتبتُ بيدي، ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقوله: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال بعض[٢] أهل العلم: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن، إلا وكان قولاً زوراً كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

قوله: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المضاهاة[٣]: المشابهة، قيل: ومنه قول العرب: امرأة ضَهْياء، وهي التي لا تحيض لأنّها شابهت الرجال.

قال أبو عليّ الفارسي[٤]: مَنْ قال: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ مأخوذ من قولهم: امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ لأنَّ الهمزة في ضاهأ أصلية، وفي ضهياء زائدة كحمراء، وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء.

ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال[٥] لأهل العلم:

الأوّل: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدةَ الأوثان في قولهم: واللّات والعزى ومناة بنات الله.

القول الثاني: أنهم شابهوا [٢/٢١٠] قول مِنْ يقول من الكافرين: إن الملائكة بنات الله.

الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزير ابن الله، وأن المسيح ابن الله.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٧٤).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٧/ ١٧٨)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٥٠ ـ الراغب).
(٣) «الصحاح» (١/ ٦٠)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٣٦٠).
(٤) في «الحجة» (٤/ ١٨٧).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩١٤).

قوله: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاء عليهم بالهلاك؛ لأن مَنْ قاتله الله هلك، وقيل هو تعجب مِنْ شناعة قولهم.

وقيل: معنى قاتلهم الله: لعنَهم الله، ومنه قول أَبان بن ثعلب[1]:

قاتلها اللّهُ تلْحاني وقد علِمَتْ   أني لنفسيَ إفسادي وإصلاحي

وحكى النقاش[2] أنَّ أصل قاتل الله: الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشرّ وهم لا يريدون الدعاء، وأنشد الأصمعي:

يا قاتلَ اللّه ليلى كيف تُعْجبني   وأُخبرَ الناسَ أنّي لا أباليها[3]

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حَبْر، وهو الذي يُحسنُ القولَ، ومنه ثوب محبَّر.

وقيل: جمع حِبْر بكسر الحاء.

قال يونس[4]: لم أسمعه[5] إلا بكسر الحاء.

وقال الفرّاء[6]: الفتح والكسر لغتان.

وقال ابن السِّكِّيت[7]: الحِبر بالكسر العالِم، والحَبر بالفتح: العالَم.

والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرَّهبة، وهم علماء النصارى كما أن الأحبار علماء اليهود.

ومعنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به، وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً؛ لأنّهم أطاعوهم كما تُطاع الأرباب.

قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف[8] على رهبانهم؛ أي: اتخذه

---

(١) انظره في: «ديوان عبيد بن الأبرص» (ص٥٢). فقد نسب لعُبيد بن الأَبرص.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٧٦). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٧٦).
(٤) وهو: يونس النحوي، ابن حبيب.
(٥) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤١٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٧٧)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ١٦٦).
(٦) في «معاني القرآن» له (١/ ٤٣٣).
(٧) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ١٦٦).
(٨) «البحر المحيط» (٥/ ٤٠٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٧٨).

النصارى ربّاً معبوداً، وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عُزيراً ربّاً معبوداً، وفي هذه الآية ما يزجر مِنْ كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عَنْ التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستنّ بسُنَّته مِنْ علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم، وحرّموا ما حرّموا، وحلّلوا ما حللوا.

وهذا هو صنيع[١] المقلِّدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء، فيا عبادَ الله، ويا أتباعَ مُحمد بن عبد الله، ما بالكم تركتم الكتاب والسُّنَّة جانباً! وعَمدتم إلى رجالٍ هم مثلكُم في تعبّد الله لهم بهما، وطلبه مِنْهم للعمل بما دلّا عليه وأفاده، فَعلْتم بما جاءوا به مِنْ الآراء التي لم تُعمّد بعماد الحق، ولم تُعضَد بعضد الدين. ونصوص الكتاب والسُّنَّة، تنادي بأبلغ نداء، وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذاناً صمّاً، وقلوباً غُلْفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مَهيضة، وأذهاناً كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا مِن غَزيّةَ إن غَوتْ غَوَيتُ وإن ترشُدْ غَزيةُ أرشُدِ

فدعوا ـ أرشدكم الله وإيايّ ـ كتباً كتبها لكم الأمواتُ من أسلافكم، واستبدلوا بها كتابَ الله، خالقهم وخالقكم، ومتعبّدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال مَنْ تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأوّل: مُحمد بن عبد الله ﷺ.

دعُوا كلَّ قولٍ عند قولِ محمدٍ فما «آمِنٌ» في دينه كمخاطرِ

اللَّهُمَّ هادي الضالّ، مُرشد التائه، موضّح السبيل، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية.

قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذه الجملة[٢] في محل

---

(١) انظر: الرسالة رقم (٦٠) من الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني بعنوان: «القول المفيد في حكم التقليد» ط. الجيل الجديد، ناشرون، صنعاء.

(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٢٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٧٨).

نصب على الحال؛ أي: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، والحال: أنّهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده، أو ما أُمر الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهّلوهم له من اتخاذهم أرباباً.

قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ صفة ثانية[١] لقوله ﴿إِلَٰهًا﴾، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن الإشراك في طاعته وعبادته.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة، التي هي مجرّد كلمات ساذجة، ومجادلات زائفة.

وهذا تمثيل لحالهم، في محاولة إبطال دين الحق، ونبوّة نبيّ الصدق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم، قد أنارت به الدنيا، وانقشعت به الظُلمة، ليطفئَه ويذهب أضواءه ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ أي: دينه القويم.

وقد قيل: كيف دخلت «إلّا» الاستثنائية على «يأبى»، ولا يجوز كرهت أو بغضت إلّا زيداً.

قال الفرّاء[٢]: إنما دخلت لأنّ في الكلام طرفاً مِنْ الجحد.

وقال الزجّاج[٣]: إنّ العرب تحذف مع «أبى»، والتقدير: ويأبى الله كلَّ شيء إلّا أن يتم نوره.

وقال علي بن سُليمان[٤]: إنما جاز هذا في «أبىٰ»؛ لأنها منعٌ أو امتناع فضارعت النفي.

قال النحاس[٥]: وهذا أحسن، كما قال الشاعر:

وهل ليَ أمٌّ غيرُها إن تركتُها ... أبى اللّه إلّا أنْ أكونَ لها ابناً

وقال صاحب «الكشّاف»[٦]: إن «أبىٰ» قد أُجري مَجْرى لم يرد؛ أي: ولا يريد إلا أن يتمّ نوره.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٧٩).
(٢) «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣٣). (٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٤٤).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢١١).
(٥) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢١١). (٦) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣٦).

قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ معطوف[١] على جملة قبله مقدرة؛ أي: أبى اللهُ [٢/٢١١] إلا أن يتمّ نوره، ولو لم يكره الكافرون ذلك، ولو كرهوا. ثم أكد هذا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات، والأحكام التي شرعها الله لعباده، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو: الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليظهر رسولَه، أو دينَ الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين، وقد وقع ذلك ولله الحمد ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ كما قدّمنا ذلك.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[٢]، قال: أتى رسول الله ﷺ سلَّام بن مِشْكم، «نعمان بنِ أوفى وأبو أنس»، وشأس بن قيس، ومالك بن الصَّيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركتَ قبلتنا وأنت لا تزعمُ أَنَّ عزير ابن الله؟ فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، عنه[٣]، قال: كنّ نساءُ بني إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلّين ويعتزلن ويذكرن ما فضل الله به بني إسرائيل وما أعطاهم، ثم سلّط عليهم شرّ خلقه بختُنصَّر، فحرق التوراة وخرّب بيت المقدس، وعُزير يومئذ غلام، فقال عزير: أو كان هذا؟ فلحق بالجبال والوحش، فجعل يتعبّد فيها، وجعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهي تبكي، فقال: يا أمه اتقي اللهَ واحتسبي واصبري، أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزير، أتنهاني أَنْ أبكي، وأنت قد خلَّفت بني إسرائيل، ولحقت بالجبال والوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة ولكنّي الدنيا، وإنه سينبع في مصلَّاك عين وتنبت شجرة، فاشربْ من ماء العين، وكلْ مِنْ ثمر الشجرة، فإنّه سيأتيك ملَكان فاتركهما يَصْنعان ما أرادا؛ فلما كان من الغد نبعت العينُ ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور، فأوجراه ما فيها فألهمَه الله التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا: عزير ابن الله، تعالى الله عَنْ ذلك.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٠٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨١)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٧٠) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧١ ـ ١٧٢).

وأخرج ابنُ أبي حاتم(١)، عَنْه، أيضاً فذكر قصةً وفيها: أَنَّ عزُيَر سأل الله بعد ما أنسى بني إسرائيل التوراة ونسخها مِنْ صدورهم، أَن يردّ الذي نسخ من صدره، فبينما هو يصلي نزل نور من الله ﷻ فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة وردّها إليّ.

وأخرج أبو الشيخ، عن كعب، قال: دعا عزير ربَّه أن يلقي التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها الله عليه، فبعد ذلك قالوا: عزيرٌ ابن الله.

وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر، عن ابن عباس(٢)، قال: ثلاثٌ أشكُّ فيهن: فلا أدري عُزير كان نبيّاً أم لا؟ ولا أدري أُلعن تُبّع أم لا؟ قال: ونسيتُ الثالثة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه(٣)، في قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ قال: يُشْبِهون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه(٤)، في قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ قال: لعنَهم الله، وكلُّ شيء في القرآن قُتل فهو لعنٌ.

وأخرج ابنُ سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عَنْ عدي(٥) بن حاتم، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يَقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقال: «أما إنّهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنَّهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه».

وأخرجه أيضاً أَحمد وابن جرير(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١١/ ٥، ٤٠/ ٣١٧) من طريق حبان بن علي، به.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤١٥) بسند صحيح.
• وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٣) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٥) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والطبراني (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨)، والبيهقي (١٠/ ١١٦). وهو حديث حسن.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤١٨).

وأخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «سننه»، عن أبي البَخْتريّ[١] قال: سأل رجل حذيفة فقال: أرأيت قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، ولكنهَّم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، عن الضحّاك[٢]، قال: أحبارهم: قُرّاؤهم، ورهبانهم: علماؤهم.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج[٣]، قال: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عَنْ السديّ[٤] مثلَه.

وأخرج أيضاً عن الفضيل بن عياض[٥] قال: الأحبار: العلماء، والرهبان: العُبّاد.

وأخرج[٦] أيضاً عَنْ السديّ في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال: يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧]، عن الضحاك في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يقول: يريدون أن يَهلكَ مُحّمد وأصحابهُ.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة[٨]، في الآية قال: هم اليهود والنصارى.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤١٨) بسند منقطع.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤) من طريق سلمة بن نبيط، عن الضحاك.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٧) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٧) من طريق عمران بن موسى الطرسوسي، به.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٢٢) بسند حسن.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٥) بسند ضعيف من طريق محمد بن يزيد الواسطي، عن جويبر، عن الضحاك.

(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧٥).

وأخرج أبو الشيخ[1]، عن السُديّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني: بالتوحيد والإسلام والقرآن.

[بيان دور الأحبار والرهبان الذين اتخذهم أهل الكتاب أرباباً من دون الله]:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار[2] والرُّهبان المتخذين لهم أرباباً ذكر حال المتبوعين فقال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ إلى آخره، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل: أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة، وأثبت هذا للكثير منهم؛ لأنّ فيهم مَنْ لم يتلبس بذلك؛ بل بقي على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل، ولا ميل إلى حطام الدنيا، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان من علماء الإسلام مَنْ لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، فالله المستعان.

قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ﴾؛ أي: عن الطريق إليه، وهو دين الإسلام، أو عن ما كان حقّاً في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ قيل: هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار والرهبان، وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع.

وقيل: هم مَنْ يفعل ذلك من المسلمين، والأولى حمل الآية على عموم اللفظ، فهو أوسع مِنْ ذلك، وأصل الكنز في اللغة[3]: الضمُ والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة.

قال ابن جرير[4]: الكنز كلُّ شيء مجموع بعضُه إلى بعض في بطن الأرض

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧٥).
(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٨١).
(٣) «الصحاح» (٣/ ٨٩٣)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٢٧).
(٤) في «جامع البيان» (١١/ ٤٣٣).

كان أو على ظهرها. انتهى. ومنه ناقة كناز؛ أي: مكتنزة اللحم، واكتنز الشيء: اجتمع.

واختلف أهل العلم في المال الذي أُدّيت زكاتُه هل يسمى كنزاً أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز.

ومِنْ القائلين بالقول الأوّل: أبو ذر(١). وقيّده بما فضل عن الحاجة.

ومن القائلين(٢) بالقول الثاني: عمر بن الخطاب، وابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأبو هريرة، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم، وهو الحق لما سيأتي من الأدلة المُصّرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اختلف في وجه إفراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين، هما الذهب والفضة، فقال ابن الأنباري(٣): إنّه قصد إلى الأعمّ الأغلب، وهو الفضة قال: ومثله قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ، ومثله قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] أعاد الضمير إلى التجارة، [٢/٢١٢] لأنها الأهمّ؛ وقيل: إن الضمير(٤) راجع إلى الذهب، والفضة معطوفة عليه، والعرب تؤنث الذهب وتذكره؛ وقيل: إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله: ﴿يَكْنِزُونَ﴾.

وقيل: إلى الأموال، وقيل: للزكاة، وقيل: إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى، وهو كثير في كلام العرب، وأنشد سيبويه(٥):

نحنُ بما عندنا وأنت بما ... عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ(٦)

ولم يقل: راضون، ومثله قول الآخر:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٢١٣٨٤)، والبخاري في «صحيحه» رقم (١٤٠٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٩٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩١٩).

(٣) انظر: «البيان» لابن الأنباري (١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٤١٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٠٧)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦١).

(٥) في «الكتاب» (١/ ٧٥) ونسبه لقيس بن الخطيم.

(٦) هو: لعمرو بن امرئ القيس. «خزانة الأدب» (٤/ ٢٨٣).

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي   بريّاً ومن أجل الطَّوى رماني[١]

ولم يقل: بريّيْنِ، ومثله قول حسّان[٢]:

إنَّ شَرْخ الشّبابِ والشَّعَر الأسـ   ـود ما لم يُعاص كانَ جُنونا

ولم يقل: يُعاصا.

وقيل[٣]: إن إفراد الضمير مِنْ باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ؛ لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية، وعدّة كثيرة، ودنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء، وغالب ما يُكنز وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز.

قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو خبر الموصول[٤]، وهو من باب التهكم بهم كما في قوله:

تحية بينهم ضَرْبٌ وجَيعُ

وقيل: إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب، سواء كان مِنْ الفرح أو من الغمّ.

ومعنى ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: أن النّار تُوقد عليها وهي ذات حمَى وحرّ شديد. ولو قال: يوم تُحمّي؛ أي: الكنوز لم يعط هذا المعنى، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجارّ، كما تقول: رفعتُ القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت: رفُع إلى الأمير.

وقرأ ابن عامر «تَحمى» بالمثناة[٥] الفوقية.

وقرأ أبو حيوة «فَيكوى» بالتحتية[٦]. وخص الجباه والجنوب والظهور؛ لكون التألم بكيها أشدّ لما في داخلها من الأعضاء الشريفة.

---

(١) نسبه سيبويه في «الكتاب» (١/ ٧٥) لابن أحمر.
(٢) انظر: «ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه» (ص٢٥٢).
(٣) انظر: «البحر المحيط» (٥/ ٤١٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٠٧).
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٤١١)، و«التبيان» (٢/ ٦٤١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٠٦).
(٥) وهي قراءة الحسن وابن عامر في رواية. . . «البحر المحيط» (٥/ ٤١١)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٠٧).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص٥٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤١٢). وهي قراءة شاذة.

وقيل: ليكون الكيّ في الجهات الأربع: مِنْ قدّام، وخلف، وعن يمين، وعن يسار؛ وقيل: لأنّ الجمال: في الوجه، والقوّة: في الظهر والجنبين، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوّة؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف.

قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم لأنفسكم؛ أي: كنزتموه لتنْتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (ما) مصدرية أو موصولة[1]؛ أي: ذوقوا وباله، وسوء عاقبته، وقبح مغبته، وشؤم فائدته.

وقد أخرج أبو الشيخ[2]، عن الضحاك، في قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ يعني: علماء اليهود والنصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ والباطل: كُتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناسَ، وذلك قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

وأخرج ابن المنذر[3]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ قال: هؤلاء الذين لا يُؤدّون الزكاة من أموالهم، وكلٌّ ما لا تؤدّي زكاته كان على ظهر الأرض أو في بطنها فهو كنز، وكلُّ مال أدّيت زكاته، فليس بكنز، كان على ظهر الأرض أو في بطنها.

وأخرجه عنه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، مِنْ وجه آخر[4].

وأخرج مالك، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر[5]، نحوه.

وأخرج ابن مردويه[6]، عنه، نحوه مرفوعاً.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤١١)، و«التبيان» (٢/ ٦٤١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٠٩).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧٦).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٨) بسند ضعيف؛ لضعف عثمان أبي اليقظان.

(٥) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٥٦)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٨) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٧٧).

وأخرج ابن عديّ، والخطيب عن جابر[١]، نحوه مرفوعاً أيضاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة[٢]، عنه، موقوفاً.

وأخرج أحمد في «الزهد»، والبخاري، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي في «سُننه»، عن ابن عمر[٣]، في الآية قال: إنما كان هذا قبل أن تُنّزل الزكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طُهرة للأموال، ثُمّ قال: ما أبالي لو كان عندي مثل أُحدٍ ذهباً؛ أعلم عددَه وأزكيّه، وأعمل فيه بطاعات الله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن عمر بن الخطاب[٤] قال: ليس بكنز ما أدّى زكاته.

وأخرج ابن مردويه، والبيهقي عن أمّ سلمة[٥]، مرفوعاً نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، في «مسنده»، وأبو داود، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سُننه»، عن ابن عباس[٦] قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ كَبُر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحدٌ منّا لولده ما لا يبقى بعده، فقال عمر: أَنَا أفرج عنكم، فانطلق عمر واتبّعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبيّ الله إنّه قد كَبُر على أصحابك هذه الآية، فقال: «إنّ الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم»، فكبّر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حَفِظته».

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٤٧)، والخطيب في «تاريخه» (٨/ ١٢) عن أبي الزبير، عن جابر.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٩٠) عن أبي الزبير، عن جابر.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٩٥)، والبخاري رقم (٤٦٦١)، وابن ماجه رقم (١٧٨٧)، والبيهقي (٤/ ٨٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ١٩٠) من طريق سعيد بن أبي سعيد، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٨٣).

(٦) أخرجه أبو داود رقم (١٦٦٤)، وأبو يعلى رقم (٢٤٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٨)، والحاكم (٢/ ٣٣٣)، والبيهقي (٤/ ٨٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٠٤). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

وقد أخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، عن سالم بن أبي الجعد مِنْ غير وجه عن ثوبان[١].

وحكى البخاري أَنَّ سالماً لم يسمعه مِنْ ثوبان.

وأخرج ابن مردويه[٢]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، وقال: هي خاصة وعامة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عليّ بن أبي طالب[٣]، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما فوقها كَنزٌ.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، عَنْ أبي أمامة[٤] قال: حليةُ السيوف من الكنوز ما أحدّثكم إلَّا ما سمعت.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عراك بن مالك، وعمر بن عبد العزيز، أنهما قالا[٥] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾: إنها نسختها الآية الأخرى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ الآية [التوبة: ١٠٣].

وأخرجَ البخاريُّ ومسلم، وغيرهما عن أبي هريرة[٦] أن رسول الله ﷺ، قال: «ما مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فضة لا يؤدّي زكاتها إلَّا جعل لها يوم القيامة صفائح، ثم أُحمى عليها في نُار جهنّم، ثم يُكوى بها جنباه، وجبهته، وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين النّاس فيرى سبيله، إما إلى الجنّة، وإما إلى النار».

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٢٢٣٩٢)، والترمذي رقم (٣٠٩٤)، وابن ماجه رقم (١٨٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٨٢). وهو حديث صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/١٧٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٨) من طريق جعدة بن هبيرة، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٩)، والطبراني رقم (٧٥٣٨). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/٦٧): «وفيه بقية وهو ثقة ولكنه مدلس».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٩) من طريق راشد بن مسلم، به.

(٦) أخرجه البخاري رقم (١٤٠٢، ٣٠٧٣، ٦٩٥٦)، ومسلم رقم (٩٨٧)، وأبو داود رقم (١٦٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٩٠).

مردويه، عن زيد بن وهب[١]، قال: مررت على أبي ذرّ «الربذة»، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ فقال: كنّا بالشأم فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قلتُ: إنّها لفينا وفيهم.

[ذكر الأشهر الحرم، وحرمتهنّ]:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾ [٢/٢١٣].

قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار، وذلك أن الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص، غيّروا تلك[٢] الأوقات بالنسيء والكبيسة، فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾؛ أي: عدد شهور السنة عند الله في حكمه وقضائه وحكمته: اثنا عشر شهراً.

قولُه: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: فيما أثبته في كتابه.

قال أبو علي الفارسي[٣]: لا يجوز أن يتعلق ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾، للفصل بالأجنبي[٤] وهو الخبر: أعني: ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾.

فقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾ بدل[٥] من قوله من ﴿عِندَ اللَّهِ﴾، والتقدير: إن عدّة الشهور عند الله في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/٢٢٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/٢١٢، ١١/١١٠، ١١١)، والبخاري رقم (١٤٠٦، ٤٦٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢١٨).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤٤٠ ـ ٤٤١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٩٥ ـ ١٩٦).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٥/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

(٤) «التبيان» (٢/٦٤٢)، و«روح المعاني» (١٠/٣٠٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢١٣).

(٥) «روح المعاني» (١٠/٣١٤)، و«التبيان» (٢/٦٤٣).

وفائدة الإبدالين تقريرُ الكلام في الأذهان؛ لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند الله في كتاب الله، وثابت في علمه في أوّل ما خلق الله العالَم.

ويجوز أن يكون ﴿فِي كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ صفة اثنا عشر؛ أي: اثنا عشر مثبتة في كتاب الله، وهو اللّوح المحفوظ.

وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسمّاها بأسمائها على هذا الترتيب(١) المعروف يوم خلق السمٰوات والأرض، وأنّ هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتبُ، وأنّه لا اعتبار بما عند العجم، والروم، والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً، وبعضها أكثر، وبعضها أقلّ.

قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب: ثلاثةٌ سَرْد، وواحد فرد؛ كما ورد بيان ذلك في السُّنَّة(٢) المطهرة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾؛ أي: كون هذه الشهور كذلك، ومنها أربعة حرم هو: الدين المستقيم، والحسّاب(٣) الصحيح، والعدد المستوفى.

قوله ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾؛ أي: في هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها.

وقيل: إن الضمير يرجع(٤) إلى الشهور كلها الحرم وغيرها، وإن الله نهى عن الظلم فيها، والأوّل: أولى.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أنّ تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية، ولقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] ولقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ٥].

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. ويجاب عنه بأنّ الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم

---

(١) «أحكام القرآن» للكيا الطبري (٢/ ٢٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧)، والبخاري رقم (٣١٩٧، ٤٦٦٢)، ومسلم رقم (٢٩/ ١٦٧٩)، وأبو داود رقم (١٩٤٧) كلهم من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٤١٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣١٤ ـ ٣١٥)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٣).

كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مُقيّدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحَرَم للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه، وأمّا ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو: ذو القعدة، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، فقد أجيب عنه: أنَّه لم يبتدِ محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوّال، والمحرّمُ إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع.

قوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعاً. وهو مصدر في موضع[١] الحال.

قال الزجاج[٢]: مثل هذا من المصادر كعامّة وخاصّة لا يُثنى ولا يُجْمع.

﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛ أي: جَميعاً، وفيه دليل على وجوب قتال المشركين، وأنَّه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: ينصرهم ويثبتهم، ومَنْ كان الله معه فهو الغالب، وله العاقبة والغلبة.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قرأ نافع في رواية ورش عنه «النسيّ» بياء[٣] مشدّدة بدون همز.

وقرأ الباقون بياء[٤] بعدها همزة.

قال النحاس[٥]: ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده. وهو مشتق مِنْ نسأه وأنسأه: إذا أخرّه، حكى ذلك الكسائي[٦].

قال الجوهري[٧]: النسيء فَعْيل بمعنى مَفْعول من قولك: نسأتُ الشيء فهو مَنْسوء: إذا أخّرته، ثم تحوّل منسوء إلى نَسيء كما تحوّل مقتول إلى قتيل.

قال ابن جرير[٨]: في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال: نَسَأَ يَنْسأ: إذا زاد،

---

(١) «البحر المحيط» (٥/٤١٦)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/٣٦٢)، و«التبيان» (٢/٦٤٣)، و«الكشاف» (٣/٤٣)، و«روح المعاني» (١٠/٣١٧).

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/٤٤٦).

(٣) «النشر» (١/٤٠٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٥٠٢)، و«زاد المسير» (٣/٣٤٤)، و«البحر المحيط» (٥/٤١٦ ـ ٤١٧). ومع ورش أبو جعفر وحمزة إذا وقف عليها.

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢١٣).

(٦) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٢٠١)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢١٣).

(٧) في «الصحاح» (١/٧٧).

(٨) في «جامع البيان» (١١/٤٤٩ ـ ٤٥٠).

قال: ولا يكون بترك الهمزة إلا مِنْ النسيان، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧]، ورَدّ على نافع قراءته.

وكانت العرب تُحرّم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرّم، حرّموا بدله شهر صفر، وهكذا في غيره.

وكان الذي يحملهم(١) على هذا: أنّ كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضم البعض، ونهب ما يمكنهم نهبه مِنْ أموال مَنْ يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها، وتشتدّ حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرّمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم؛ فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه.

وقد وقع الخلاف في أوّل مَنْ فعل ذلك، فقيل: هو رجل(٢) من بني كنانة يقال له: حذيفة بن عبيد، ويلقب القَلَمّس، وإليه يشير الكُميَت بقوله:

ألسنا الناسِئينَ على مَعَدٍّ شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما(٣)

وفيه يقول قائلهم:

ومنّا ناسيءُ الشهرِ القَلَمَّسْ(٤)

وقيل(٥): هو عمرو بن لحيّ، وقيل: هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة. وسمّى الله سبحانه النسيء زيادةً في الكفر؛ لأنَّه نوع من أنواع كفرهم، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ أهلُ الحرمين(٦) وأبو عَمْرو وابن عامر: يَضلُّ على البناء للمعلوم.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٠٢). (٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٣١).

(٣) هو لعمير بن قيس الكناني.
انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٨٣)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٣٥).

(٤) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٦) ضمن أثر عن ابن زيد بسند صحيح.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٠٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٣٥).

(٦) «النشر» (٢/ ٢٧٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤١٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٤).

وقرأ الكوفيون[1] على البناء للمجهول.

ومعنى القراءة الأولى: أنَّ الكفار يَضلّون بما يفعلونه مِنْ النسيء، ومعنى القراءة الثانية: أن الذي سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السُّنَّة السيئة.

وقد اختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عُبيد.

وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب: ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياء وكسر الضاد على[2] أن فاعله الموصول، ومفعوله محذوف، ويجوز أَنْ يكون فاعله هو الله سبحانه، ومفعوله الموصول.

وقُرِئ[3] بفتح الياء والضاد مِنْ ضلّ يَضَلّ، وقرئ «نُضلّ» بالنون.

قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ الضمير[4] راجع إلى النسيء؛ أي: يُحلّون النسيء عاماً ويُحرّمونه عاماً، أَو إلى الشهر الذي يؤخرونه ويقاتلون فيه؛ أي: يحلونه عاماً بإبداله بشهر آخر من شهور الحل، ويحرّمون عاماً؛ أي: يحافظون عليه [٢/٢١٤] فلا يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمته.

قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لكي يواطئوا، والمواطأة: الموافقة، يقال: تواطأ القوم على كذا؛ أي: توافقوا عليه واجتمعوا.

والمعنى: إنهم لم يحلوا شهراً إلا حرّموا شهراً لتبقى الأشهر الحرم أربعة.

قال قُطْرب[5]: معناه: عمدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم، وقرنوه بالمحرّم في التحريم. وكذا قال الطبري[6].

قوله: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مِنْ الأشهر الحرم التي أبدلوها بغيرها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾؛ أي: زَيّن لهم الشيطانُ الأعمالَ السيئة التي يعملونها، ومن جملتها النسيء.

---

(١) «المحتسب» (١/ ٢٨٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٣٦).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٤١٦)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦٢)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٣)، و«جامع البيان» (١١/ ٤٥٠). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٣): هنا ثلاث قراءات متواترة (يُضَل) بضم الياء وفتح الضاد عن الكوفيين عدا شعبة ـ و(يَضِل) بفتح الياء وكسر الضاد عن الباقين عدا يعقوب فَعنه (يُضِل) بضم الياء وكسر الضاد ـ وغير هذا مما ذكره الإمام شاذ، وعزا قراءة يعقوب كذلك للحسن والمطوعي في «الإتحاف» (ص٢٤٢)، و«النشر» (٢/ ٢٧٩).

(٣) «المحتسب» (١/ ٢٨٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣١٧)، و«الكشاف» (٣/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٣٢٠).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٠٦).

(٦) في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٨).

وقرئ على البناء للفاعل[(١)] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المصرّين على كفرهم، المستمرين عليه فلا يهديهم هدايةً تُوصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق، والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

وقد أخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي بكرة[(٢)] أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمادى وشعبان».

وأخرج نحوه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من حديث ابن عمر[(٣)].

وأخرج نحوه ابنُ المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من حديث ابن عباس[(٤)].

وأخرج نحوه أيضاً البزار، وابن جرير، وابن مردويه، من حديث أبي هريرة[(٥)].

وأخرجه أحمد، وابن مردويه، مِنْ حديث أبي حُرة[(٦)] الرقاشي عن عمه مرفوعاً مطوّلاً.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٧)] ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ قال: المحرّم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٢٢)، و«الكشاف» (٣/ ٤٣ ـ ٤٤).
(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٠٣٨٦)، والبخاري رقم (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢) و(٥٥٥٠، ٧٤٤٧)، ومسلم رقم (١٦٧٩)، وأبو داود رقم (١٩٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٨٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٤١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩١) بسند ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة الرَّبذَي.
(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٣).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٤٠)، والبزار في «مسنده» رقم (١١٤٢ ـ كشف). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٧٨): «فيه أشعث بن سوّار، وهو ضعيف».
(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٢٠٦٩٥) بسند ضعيف. قال محققوه: «صحيح لغيره».
(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠١٤ ـ تفسير) وهو أثر موضوع؛ لأن محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النضر الكوفي، النسَّابة المفسِّر، متهم بالكذب ورمي بالرفض. وقد حكم جمع من الأئمة على رواياته عن أبي صالح باذام، عن ابن عباس بأنّها موضوعة. وقد قال سفيان الثوري: قال لنا الكلبي: «ما حدَّثت عن أبي صالح، عن ابن عباس فهو كذب فلا ترووه». =

وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك[١] قال: إنما سُمِّين حُرُماً لئلا يكون فيهنّ حَرْبٌ.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشُعب»، عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾: ثم اختصّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهنّ حُرُماً، وعظّم حُرُماتِهنّ، وجعل الذنبَ فيهنّ أعظم، والعمل الصالح والأجرَ أعظم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: في كلهنّ ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ يقول: جميعاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مقاتل[٣]، في قوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ قال: نسخت هذه الآية كلَّ آية فيها رخصة.

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمرو بن شعيب[٤]، عن أبيه، عن جدّه، قال: كانت العرب يُحلّون عاماً شهراً، وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل سنة، وعشرين سنة مرة، وهي النسيءُ الذي ذكره الله في كتابه، فلما كان عامُ حجِّ أبو بكر بالناس، وافق ذلك العام، فسمّاه الله الحجّ الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ مِنْ العام المقبل، واستقبل الناس الأهلّة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض».

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عمر[٥]، قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فقال: إنمّا النسيء من الشيطان زيادة في الكفر، يُضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً، فكانوا يُحرّمون المحرَّم عاماً ويستحلون صفر، ويُحرّمون صفر عاماً ويستحلون المحرّم، وهي: النسيء.

= «التقريب» رقم (٥٩٠١)، و«تهذيب الكمال» (٢٥/ ٢٤٦ ـ ٢٥٣).

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩١، ١٧٩٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٨٠٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٣) من طريق محمد بن مزاحم، به.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٢٩٠٩).
قال الهيثمي في«مجمع الزوائد» (٧/ ٢٩): «رجاله ثقات».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٣، ١٧٩٤) بسند ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة الربذيِّ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[١]، قال: كان جُنادة بن عوف الكناني يوافي الموسم كلَّ عام، وكان يُكْنى أبا ثُمامة، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب، ألا وإن صفر الأوّل العام حلال، فيحله للناس، فَيُحرّم صفر عاماً، ويُحرّم المحرّم عاماً. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عنه، في الآية قال: المحرّم كانوا يسمونه صفر، وصفر يقولون: صفران الأوّل والآخر، يحلّ لهم مرّة الأوّل، ومرّة الآخر.

وأخرج ابن مرديه[٣]، عنه، قال: كانت النساءة حيّاً من بني مالك من كنانة من بني فُقيم، فكان آخرهم رجلاً يقال له: القَلَمّس، وهو الذي أنسأ المحرّم.

[حثُّ الله المؤمنين على الجهاد]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما شرح معايب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٥١، ٤٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٣، ١٧٩٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩١) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٨).

المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في ﴿مَا لَكُمْ﴾ للإنكار[١] والتوبيخ؛ أي: أيّ شيء يمنعكم عَنْ ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام. والنَّفْر: هو الانتقال بسرعة مِنْ[٢] مكان إلى مكان، لأمرٍ يحدث.

قوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أصله تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، وجيء بألف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن، ومثله: ادّاركوا، واطيّرتم، واطيّروا، وأنشد الكسائي[٣]:

تُولي الضجيعَ إذا ما اسْتَاقها خَصِراً ... عذبُ المذاق إذا ما اتّابع القُبَلُ[٤]

وقرأ الأعمش[٥]: «تثاقلتم» على الأصل، ومعناه: تباطأتم، وعدي بإلى لتضّمنه معنى الميل والإخلاد.

وقيل: معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم، والبقاء فيها وقرئ: «آثاقلتم» على الاستفهام[٦]، ومعناه: التوبيخ، والعامل[٧] في الظرف «ما» في ﴿مَا لَكُمْ﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما يمنعكم، أو ما تصنعون إذا قيل لكم؟ و﴿إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ متعلق بـ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ وكما مرّ قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: بنعيمها بدلاً من الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]؛ أي: بدلاً مِنْكم، ومثله قول الشاعر[٨]:

فليتَ لنا من ماء زمزمَ شَربةً ... مُبّردةً باتتْ على طَهَيانِ

أي: بدلاً من ماء زمزم، والطّهيَان: عُودٌ ينصَب في ناحية الدار للهواء، يُعلّق عليه الماء ليبرد.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٣٢٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٠٦).
(٢) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٨٥). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٧).
(٤) انظره في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٠٧).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٥٣)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣٢٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٠٧). وهي قراءة شاذة.
(٦) «البحر المحيط» (٥/ ٤١٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٢٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٢٣). وهي كذلك قراءة شاذة.
(٧) «روح المعاني» (١٠/ ٣٢٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤١٩ ـ ٤٢٠).
(٨) هو: يعلى الأزدي. «خزانة الأدب» (٩/ ٤٥٣).

ومعنى: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: في جنب الآخرة، وفي مقابلتها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ أي: إلَّا متاع حقير لا يُعبأ به، ويجوز أن يراد بالقليل العدم، إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي.

والظاهر: أن هذا التثاقل لم يصدر مِنْ الكل، إذ مِنْ البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطئ والتثاقل، وإنما هو مِنْ باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، وهو كثير شائع.

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا تهديدٌ شديد[١]، ووعيد مؤكد لمن ترك النفير مع رسول الله ﷺ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: يهلككم بعذاب شديد مؤلم؛ قيل: في الدنيا فقط، وقيل: هو أعم من ذلك.

قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: يجعل لرسله بدلاً منكم ممّن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم.

واختُلف في هؤلاء[٢] القوم من هم؟ فقيل: أهل اليمن، وقيل: أهل فارس، ولا وجه للتعيين بدون دليل.

قولُه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ معطوف[٣] على ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾، والضمير قيل: لله.

وقيل: للنبي ﷺ؛ أي: ولا تضرّوا الله بترك امتثال أمره بالنفير شيئاً، أو لا تضرّوا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيئاً ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم.

قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: إن تركتم نصره فالله مُتكفّل به، فقد نصره في مواطن القلّة، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر؛ أو فسينصره مَنْ نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد، وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: أحد اثنين، وهما: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقُرئ بسكون[٤] الياء، قال ابن جني[٥]: حكاها أبو عَمْرو بن العلاء، ووجهها

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٣٧). (٢) «معالم التنزيل» (٢/ ٢٩٢).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٢٥).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢١٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٢١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٢٦).

(٥) في «المحتسب» (١/ ١٤١). وهي قراءة شاذة.

أن تسكن الياء تشبيهاً لها بالألف. قال ابن عطية[١] [٢/٢١٥]: فهي كقراءة الحسن[٢]: ﴿مَا بَقِىْ مِنَ ٱلرِّبَوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وكقول جرير[٣]:

هو الخليفةُ فارْضَوا ما رضِيْهِ لكم ماضي العزيمة ما في حُكْمه جَنَفَ

قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل[٤] من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ بدل بعض، والغار: ثُقْب في الجبل المُسمّى ثوراً، وهو: المشهور بغار ثور، وهو: جبل قريب من مكة، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث.

قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدل ثان[٥]؛ أي: وقت قوله لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ أي: دع الحزنَ، فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا، ومن كان الله مَعه فلن يُغْلَب، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن.

قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ السكينة: تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعُه، وحصل له الأمن، على أن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لأبي بكر.

وقيل: هو للنبي ﷺ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه: عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له، ويؤيد كون الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فإنّه للنبي ﷺ؛ لأنّه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة، كما كان في يوم بدر.

وقيل: إنَّه لا محذور في رجوع الضمير[٦] من ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى أبي بكر، ومن ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ إلى النبي ﷺ، فإن ذلك كثير في القرآن، وفي كلام العرب ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ أي: كلمة الشرك، وهي دعوتهم إليه. ونداؤهم للأصنام ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ قرأ الأعمش، ويعقوب بنصب[٧] «كلمةَ» حملاً

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٨/١٨٦).

(٢) «المحتسب» (١/١٤١). وهي قراءة شاذة.

(٣) انظر: «ديوان جرير» (ص٣٠٨).

(٤) «روح المعاني» (١٠/٣٢٧)، و«الكشاف» (٣/٤٥)، و«التبيان» (٢/٦٤٤)، و«البحر المحيط» (٥/٤٢١).

(٥) «البيتان» (٢/٦٤٤)، و«الكشاف» (٣/٤٥)، و«البحر المحيط» (٥/٤٢١).

(٦) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢١٥)، و«روح المعاني» (١٠/٣٠٣)، و«التبيان» (٢/٦٤٥).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص٥٢). وهي قراءة متواترة عَنْ يعقوب.

على جعل، وقرأ الباقون[١] برفعها على الاستئناف.

وقد ضعّف قراءة النصب الفرّاء[٢]، وأبو حاتم[٣].

وفي ضمير الفصل، أعني: ﴿هِيَ﴾ تأكيد[٤] لفضل كلمته في العلوّ، وأنها المختصة به دون غيرها، وكلمة الله هي كلمة التوحيد، والدعوة إلى الإسلام ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمةٌ وصواب. ثمّ لما توعد من لم ينفر مع الرسول ﷺ وضرب له من الأمثال ما ذكره عقّبه بالأمر الجزم فقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ أي: حال كونكم خفافاً وثقالاً، قيل: المراد: منفردين أو مجتمعين.

وقيل: نشاطاً وغير نشاط. وقيل: فقراء وأغنياء.

وقيل: شباباً وشيوخاً.

وقيل: رجالاً وفرساناً.

وقيل: من لا عيال له ومَنْ له عيال.

وقيل: مَنْ يسبق إلى الحرب كالطلائع، ومَنْ يتأخر كالجيش، وقيل غير ذلك[٥].

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني؛ لأن معنى الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت.

قيل: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١].

وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ الآية [التوبة: ١٢٢].

وقيل: هي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] وإخراج الضعيف والمريض

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤٢٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢١٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٣٠)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣٢٧).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢١٩).

(٤) «التبيان» (٢/ ٦٤٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٦)، و«الكشاف» (٣/ ٤٦).

(٥) سيأتي تخريج هذه الأقوال.

بقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١] مِنْ باب التخصيص، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ والظاهر: عدم دخولهم تَحت العموم.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فيه الأمر بالجهاد[1] بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم.

والجهادُ مِنْ آكد الفرائض وأعظمها، وهو فرضُ كفايةٍ مهما كان البعض يقوم بجهاد العدوّ وبدفعه، فإنْ كان لا يقوم بالعدوّ إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالنفير، والأمر بالجهاد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: خير عظيم في نفسه، وخير من السكون والدّعة ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة. قولُه: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

قال الزجّاج[2]: ﴿لَوۡ كَانَ﴾ المدعوّ إليه فحذف لدلالة ما تقدّم عليه، والعَرَضُ: ما يَعرضُ مِنْ منافع الدنيا.

والمعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ عطف على[3] ما قبله؛ أي: سفراً متوسطاً بين القُرب والبُعْد، وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ قال أبو عبيدة[4] وغيره: إن الشُقة السفر إلى أرض بعيدةٍ، يقال منه: شُقة شاقة.

قال الجوهري[5]: الشُّقة بالضم مِنْ الثياب، والشُّقة أيضاً: السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر، والمراد بهذا غزوة تبوك، فإنها كانت سفرة بعيدةً شاقة.

وقرأ عيسى بن عمر: «بَعِدت عَلَيْهِمْ الشِقّةُ» بكسر[6] العين والشين ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: المتخلّفون عَنْ غزوة تبوك حال كونهم قائلين: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٤٧٥).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٤٩).
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٣٤٩)، و«الكشاف» (٣/ ٤٧).
(٤) في «مجاز القرآن» (٢/ ٢١٧). (٥) «الصحاح» (٤/ ١٥٠٢).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص٥٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٤٩)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣٢٨). وهي قراءة شاذة.

﴿مَعَكُمْ﴾؛ أي: لو قدرنا على الخروج، ووجدنا ما نحتاج إليه فيه ممّا لا بدّ منه ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ هذه الجملة سادّة مَسدّ جواب القسم[(١)] والشرط.

قولُه: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ هو بدل مِنْ قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأن من حلف كاذباً فقد أهلك نفسه أو يكون حالاً؛ أي: مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم الذي سيحلفون به لكم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(٢)]، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ الآية، قال: هذا حين أُمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفير في الصيف وحين خُرِفت النخل، وطابت الثمارُ، واشتهَوا الظِّلال، وشق عليهم المخرجُ، فأنزل الله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن ابن عباس[(٣)]، في قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: إن رسول الله ﷺ استنفر حيّاً من أحياء العرب، فتثاقلوا عنه، فأنزل الله هذه الآية، فأُمسِك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)]، عن عكرمة، قال: لمَّا نزلت: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقد كان تخلف عنه أناس في البدو يُفقّهون قومهم، فقال المؤمنون: قد بقي ناس في البوادي، وقالوا: هلك أصحاب البوادي، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

وأخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والنحاس، والبيهقي في «سننه»، عن ابن

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٤٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٦١)، وعبد بن حميد رقم (٦٨٠)، وأبو داود رقم (٢٥٠٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٧)، والحاكم (٢/ ١١٨)، والبيهقي (٩/ ٤٨). وهو حديث ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٧، ١٧٩٨) من طريق سفيان بن عيينة، عن سلمان الأحول، عن عكرمة.

عباس[١]، في قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ الآية قال: نسختها: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ قال: ذكر ما كان مِن أوّل شأنه حين بُعث، يقول: فأنا فاعل ذلك به، وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثاني اثنين.

وأخرجَ أبو نُعيم، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن شهاب[٣] وعروة: أنّهم ركبوا في كلِّ وجه؛ يعني: المشركين يطلبون النبيَّ ﷺ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم ويجعلون لهم الجُعل العظيم، وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار، والذي فيه النبي ﷺ حتى طلعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر، وأقبل عليه الهمّ والخوف، فعند ذلك يقول له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ودعا رسول الله ﷺ، فنزلت عليه السكينة من الله، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية.

وأخرج ابن شاهين، وابن مردويه، وابن عساكر، عن حُبْشي بن جُنادة[٤]، قال أبو بكر: يا رسول الله، لو أنَّ أحداً من المشركين رفع قدمه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر لا تحزن إنّ الله معنا».

وأخرج عبد الرزاق، [٢/٢١٦] وابن المنذر، عن الزُّهري[٥]، في قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ قال: هو الغار الذي في الجبل الذي يسمى ثوراً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»،

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٢٥٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٩٨)، والنحاس في «ناسخه» (ص٥٠٣)، والبيهقي (٩/٤٧). وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٩٨). بسند ضعيف عطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (ص٢٣٢) عن ابن شهاب، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٧٨) عنهما.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٣٠/ ٨٥) من طريق أبي بكر الهذليّ، عن عكرمة، عن ابن عباس.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧٦) بسند صحيح.

وابن عساكر في «تاريخه»، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم تزل معه السكينة.

وأخرج ابن مردويه[٢]، عن أنس، قال: دخل النبيّ ﷺ وأبو بكر غار جراء، فقال أبو بكر للنبيّ ﷺ: لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإيّاك، فقال ﷺ: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر؟ إن الله أنزل سكينته عليك وأيدّني بجنودٍ لم يروها».

وأخرج الخطيب في «تاريخه»، عَنْ حبيب بن أبي[٣] ثابت ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ قال: على أبي بكر، فأما النبيّ ﷺ، فقد كانت عليه السكينة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ قال: هي الشرك بالله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ قال: لا إله إلا الله.

وأخرج الفريابي، وأبو الشيخ، عن أبي الضحى[٥] قال: أوّل ما أنزل من براءة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ ثم نزل أوّلها وآخرها.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، عن أبي مالك[٦]، نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٧]، في قوله: ﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ قال: نشاطاً وغيرَ نشاط.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحكم[٨] في الآية قال: مشاغيل وغيرَ مشاغيل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠١)، والبيهقي (٢/ ٤٨٢)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٣٠/ ٨٨).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠/ ٢٠٧) من طريق أشعث بن إسحاق القمّيِّ، به.

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٤٥)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٣٠/ ٨٨) من طريق أحمد بن الفرج الضرير.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٦).

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٠٨).

(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٠٨).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٢، ١٨٠٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٧١) بسند ضعيف.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٧١) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن[١]، قال: في العُسْر واليسر.

وأخرج ابن المنذر[٢]، عن زيد بن أسلم، قال: فتياناً وكهولاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن عكرمة[٣]، قال: شباباً وشيوخاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ مجاهد[٤]، قال: قالوا: إن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة، والشغل فأنزل الله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وعلى ما كان منهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٥] قال: جاء رجل زعموا أنه المِقداد، وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه، وسأله أن يأذنَ له فأبى، فنزلت يومئذٍ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنُها فنسخها الله، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾ الآية [التوبة: ٩١].

وأخرج ابنُ جرير، عن ابن عباس[٦]، قال: إنّ رسول الله ﷺ قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تُصيب ابنةَ عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمتَ يا رسولَ الله أنّ النساء فتنة فلا تفتنّا بهنّ فأذن لنا، فأذن لهما، فلما انطلقا قال أحدهما: إن هو إلا شَحمْة لأوّل آكل، فسار رسول الله ﷺ ولم ينزل عليه شيء في ذلك، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ونزل عليه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] ونزل عليه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥] ونزل عليه: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥].

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٧]: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال: غنيمة قريبة، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ قال: المسير.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٣) بسند صحيح من طريق منصور بن زاذان، عن الحسن.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣٠٦) من طريق أبي أُسامة، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٣) بسند حسن.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٩ ـ ٦٣١) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٤) بسند ضعيف.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عَنْ قتادة[١]، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قال: لقد كانوا يستطيعون الخروج، ولكن كان تَبْطئةً مِنْ عند أنفسهم، وزهادة في الجهاد.

[لطف الله برسوله، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب]:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٤٨ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾.

الاستفهام في ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله ﷺ حيث وقع منه الإذن لمّا استأذنه في القعود قبل أن يتبين مَنْ هو صادق منهم في عذره الذي أبداه، ومَنْ هو كاذب فيه.

وفي[٢] ذكر العفو عنه ﷺ ما يدلّ على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلافَ الأولى، وفي هذا عتابٌ لطيف من الله سبحانه.

وقيل: إن هذا عتاب له ﷺ في إذنه للمنافقين بالخروج معه، لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج. والأوّل: أولى.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٧٧) بسند صحيح. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٠) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٢٧)، و«جامع البيان» (١١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).

وقد رخّص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] ويمكن أَنْ يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الإستثبات، والله أعلم.

وقيل: إنَّ قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ هي افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله، وأعزّك ورحمَك، كيف فعلتَ كذا، وكذا، حكاه مَكّي(١)، والنحاس(٢)، والمهدوي(٣)، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك، وعلى التأويل الأوّل: لا يحسن.

ولا يخفاك أَنَّ التفسير الأوّل هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عَنْ معناه العربي.

وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه ﷺ، والمسألة مدوّنة في الأصول، وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عَنْ العجلة، والاغترار بظواهر الأمور.

و«حتّى» في ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ للغاية، كأنّه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم؛ وهلّا تأنيّت حتى يتبين لك صدق مَنْ هو صادق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب مَنْ هو كاذب منهم في ذلك؟

ثم ذكر سبحانه أَنّه ليس(٤) من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في القعود عَنْ الجهاد؛ بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك. فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ وهذا على أن معنى الآية: أن لا يجاهدوا على حذف حرف النفي.

وقيل: المعنى: لا يستأذنك المؤمنون في التخلّف كراهة الجهاد.

وقيل: إن معنى الاستئذان في الشيء: الكراهة له، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى: لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد؛ بل دأبهُم أن يبادروا إليه من غير توقّف ولا ارتقاب منهم، لوقوع الإذن منك فضلاً عَنْ أن يستأذنوك في التخلّف.

قال الزجّاج: ﴿أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ في موضع(٥) نصب بإضمار في؛ أي: في أن

---

(١) في «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦٤). (٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٧).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٢٧). (٤) «جامع البيان» (١١/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٨)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦٤).

يجاهدوا: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في القعود عَنْ الجهاد، والتخلف عنه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ وهم: المنافقون. وذكر الإيمان بالله أوّلاً، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين، لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله.

قولُه: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عطف[1] على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢/٢١٧] وجاء بالماضي للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم، وهو: الشك.

قوله: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ أي: في شكّهم الذي حلّ بقلوبهم يتحيرون، والتردّد: التحير.

والمعنى: فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين؛ بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب، ولا يعرفون الحق.

قولُه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾؛ أي: لو كانوا صادقين فيما يدّعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العدّة للجهاد ما يحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدّة وتحصيلها قبل وقت الجهاد، كما يستعدّ لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدّوا للغزو.

والعُدّة: ما يحتاج إليه المجاهد مِنْ الزاد والراحلة والسلاح.

قوله: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾؛ أي: ولكن كره اللهُ خروجَهم، فتثبطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا ولكن تثبطوا؛ لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عَنْ الخروج، والانبعاث: الخروج؛ أي: حبسَهم الله عَنْ الخروج معك وخذلهم؛ لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس، أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين.

وقيل: المعنى: لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له. قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾.

قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يُلْقيه إليهم مِنْ الوسوسة.

وقيل: قاله بعضُهم لبعض. وقيل: قاله رسول الله ﷺ غَضَباً عليهم، وقيل: هو عبارة عَنْ الخذلان؛ أي: أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/٣٥٨).

ومعنى: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ أي: مع أولي الضرر[١] من العميان، والمرضى، والنِّساء، والصبيان، وفيه مِنْ الذمّ لهم، والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى.

قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عَنْ تخلف المنافقين، والخَبَال: الفساد والنميمة، وإيقاع الاختلاف والأراجيف.

قيل: هذا الاستثناء[٢] منقطع؛ أي: ما زادوكم قوّةً، ولكن طلبوا الخبال.

وقيل: المعنى: لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأي إلا خَبالاً فيكون مُتصلاً؛ وقيل: هو استثناء مِنْ أعمّ العام؛ أي: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً.

فيكون الاستثناء مِنْ قسم المتصل؛ لأن الخَبَال من جملة ما يصدق عليه الشيء.

قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الإيضاع: سرعةُ السير، ومنه قول ورقة بن نوفل[٣]:

يا ليتني فيها جَذَعْ أخُبُّ فيها وأضَعْ[٤]

يقال: أوضع البعير: إذا أَسرعَ السيرُ، وقيل: الإيضاع: سير الخبَبَ. والخللُ[٥]: الفُرْجة بين الشيئين، والجمع الخِلال؛ أي: الفُرَج التي تكون بين الصفوف. والمعنى: لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف، والنمائم الموجبة لفساد ذات البين.

قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يقال: بَغَيته كذا: طلبته له، وأَبغيته كذا: أعنته على طلبه.

والمعنى: يطلبون لكم الفتنة في ذات بينكم بما يصنعونه مِنْ التحريش والإفساد.

وقيل: الفتنة هنا الشرك.

وجملة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ في محل نصب[٦] على الحال؛ أي: والحال أنّ

---

(١) «معالم التنزيل» (٢/ ٢٩٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٩).
(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤). (٣) انظر: «السيرة النبوية» (٢/ ٤٣٩).
(٤) قائله دريد بن الصمة. انظر: «ديوانه» (ص٩٣).
(٥) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٨٧ ـ ١٦٨٨).
(٦) «روح المعاني» (١٠/ ٣٦٢)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦٣).

فيكم مَنْ يستمع ما يقولونه مِنْ الكذب، فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، والفساد لإخوانكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم، فلذلك اقتضت حكمتهُ البالغة أن لا يخرجوا معكم، وكره انبعاثهم معكم؛ ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم في التخلف؛ لأنه سارع إلى الإذن لهم، ولم يكن قد علم مِنْ أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرّعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ الآية [التوبة: ٨٣]، وقال في سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥].

قوله: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: لقد طلبوا الإفساد[١] والخبال وتفريق كلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلّفوا عنك فيها. كما وقع مِنْ عبد الله بن أُبيّ وغيره ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾؛ أي: صرّفوها مِنْ أمر إلى أمر، ودبروا لك الحيل والمكائد، ومنه قول العرب: «حُوّل قُلّبٌ» إذا كان دائراً حول المكائد والحيل، يدير الرأي فيها ويتدبّره.

وقُرئ: «وقَلَبوا»[٢] بالتخفيف.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك، والتأييد ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه.

وقيل: الحقّ: القرآن. ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: والحال أنّهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم. ﴿وَمِنۡهُم﴾؛ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لرسول الله ﷺ: ﴿ٱئۡذَن لِّي﴾ في التخلّف عن الجهاد ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾؛ أي: لا توقعني في الفتنة؛ أي: الإثم، إذا لم تأذن لي فتخلفت بغير إذنك.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٤٨٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٣١).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٦٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٠ ـ ٤٣١). وهي قراءة شاذة.

وقيل: معناه: لا توقعني في الهلكة بالخروج ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾؛ أي: في نفس الفتنة سقطوا، وهي: فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل. والمعنى: أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون في الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة.

وفي التعبير[1] بالسقوط ما يشعر بأنّهم وقعوا فيها وقوع مَنْ يهوى من أعلى إلى أسفل، وذلك أشدّ مِنْ مجرّد الدخول في الفتنة، ثم توعّدهم على ذلك فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً[2]، ولا يتمكنون مِنْ الخروج منها بحال من الأحوال.

وقد أخرج عبد الرزاق في «المصنف»، وابن جرير عن عمرو بن ميمون[3]، قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عون بن عبد الله[4]، قال: سمعتم بمعاتبةٍ أحسنَ من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة. فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، [٢/٢١٨] عن مجاهد[5]، في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ الآية قال: ناس قالوا: استأذِنوا رسولَ الله ﷺ فإن أذن لكم، فاقعدوا؛ وإنْ لم يأذن لكم، فاقعدوا.

وأخرج النّحاس في «ناسخه»، عن ابن عباس[6] في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ١٩٨).

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤٩٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٧٩)، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٤٠٣)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠١٧ ـ تفسير) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٥)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠١٨ ـ تفسير) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٥) بسند صحيح.

(٦) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٠٥).

أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الثلاث الآيات، قال: نسخها: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنّحاس في «ناسخه»، عنه[١]، في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية قال: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد بغير عذرٍ، وعذَرَ الله المؤمنين فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

وأخرج أبو عبيدة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سُننِه»، عنه[٢]، أيضاً في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ الآيتين قال: نسختها الآية التي في سورة النور: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢] فجعل الله النبيَّ ﷺ بأعلى النظَرينِ في ذلك، مَنْ غزا غزا في فضيلة، ومَنْ قعد قعد في غير حرج إن شاء الله.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك[٣]، في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ قال: خروجهم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قال: حبسهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[٥]، في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٦]، في قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ قال: لأسرعوا بينكم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٦)، والنحاس في «ناسخه» (ص٥٠٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «ناسخه» (ص٢٧٤) بسند ضعيف، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٦) عن عثمان بن عطاء، عن أبيه عطاء.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٧) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٧) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٨٥) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٨٥) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(١)]، في قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ قال: لأرفضوا ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يُبطّئونكم: عبد الله بن نَبْتل، وعبد الله بن أُبيّ ابن سلول، ورفاعة بن تابوت، وأوس بن قَيظي ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ محدِّثون لهم بأحاديثكم غير منافقين، وهم عيونٌ للمنافقين.

وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في «المعرفة»، عن ابن عباس[(٢)]، قال: لما أراد النبي ﷺ أنْ يخرج إلى غزوة تبوك، قال لجدّ بن قيس: يا جدّ بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحبُ نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أَفْتتن، فأذن لي ولا تفتني، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر[(٣)] بن عبد الله، نحوه.

وأخرج ابن مردويه[(٤)]، عن عائشة، نحوه أيضاً.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(٥)]، في قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ قال: لا تحرجنى ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ يعني: في «الحرج».

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة[(٦)]، في قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ قال: لا تؤثمني ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ ألا في الإثم، وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٨، ١٨٠٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦)، بسند صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني رقم (٢٦٥٤)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ٥١٢ رقم ١٧٢٨).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٠): «وفيه يحيى الحِمّاني وهو ضعيف».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٩). وهو حديث ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٣).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٤) بسند صحيح.
وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٥) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن
قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ
أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢ قُلۡ
أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن
تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ
كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ
لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ۝٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ
مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾.

قوله: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ﴾؛ أيّ حسنةٍ كانت، بأيّ سببٍ اتفق، كما يفيده وقوعُها في حيّز الشرط، وكذلك القول في المصيبة، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيده السياق دخولاً أوّليّاً، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة(١) والظّفر.

ومِنْ جملة ما تصدق(٢) عليه المصيبة: الخيبة والانهزامُ، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين، وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عدوانهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإنّ المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدلّ على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية.

ومعنى ﴿تَوَلَّواْ﴾ [البقرة: ١١٥]: رجعوا إلى أهلهم عَنْ مقامات الاجتماع، ومواطن التحدّث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين، ومعنى قولهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: احتطْنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة، ثم لما قالوا هذا القول

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٣٤)، و«جامع البيان» (١١/ ٤٩٤).
(٢) «المحرر الوجيز» (٨/ ١٩٨).

أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ أي: في اللوح[1] المحفوظ، أو في كتابه المنزّل علينا.

وفائدة هذا الجواب: أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن، وأن كل ما ناله مِنْ خير أو شرّ إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفّي الحسدة ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي: ناصرُنا، وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان، والتوكل[2] على الله تفويض الأمور إليه.

والمعنى: أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصّاً بالله سبحانه، لا يتوكلون على غيره.

وقرأ طلحة بن مُصّرف: «يُصِيّبَا» بتشديد الياء[3].

وقرأ أعين قاضي الري: «يُصيبنّا» بنون[4] مشدّدة. وهو لحن لأن الخبر لا يؤكد. وردّ بمثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

[إنّها الحسنى على كل حال: النصر أو الشهادة]:

وقال الزجاج[5]: معناه: لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة. وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ تكريراً لغرض التأكيد، والأوّل: أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسولَه بأن يجيب عليهم بهما مفيداً لفائدة غير فائدة الآخر، والتأسيس خير من التأكيد.

ومعنى[6]: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخَصْلتين الحسنيين: إما النصرة أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسنى

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٣٤)، و«جامع البيان» (١١/ ٤٩٥).

(٢) «الجامع لأحكم القرآن» (١٠/ ٢٣٤).

(٣) «المحتسب» (٢/ ٣٩٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٦٨).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٦٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢٠). وهما قرءاتان شاذتان.

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٤٥٢).

(٦) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٣٩٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٦٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

تأنيث الأحسن، ومعنى الاستفهام: التقريع[١] والتوبيخ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى المساءتين لكم: إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾؛ أي: قارعة نازلة من السماء، فيسحتكم بعذابه، ﴿أَوْ﴾ بعذاب لكم ﴿بِأَيْدِينَا﴾؛ أي: بإظهار الله لنا عليكم بالقتل، والأسر، والنهب، والسبي.

والفاء في فتربصوا فصيحة[٢]، والأمر للتهديد كما في قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ أي: تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم، فستنظرون عند ذلك ما يسرّنا ويسوؤكم. [٢/٢١٩] وقرأ البزي وابن فليح: «هلْ تّربصون» بإظهار اللام[٣] وتشديد التاء.

وقرأ الكوفيون بإدغام[٤] اللام في التاء.

وقرأ الباقون[٥] بإظهار اللام وتخفيف التاء.

[صورة المنافقين في كل آن، خوف ومداراة، وقلب منحرف وضمير مدخول]:

قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء؛ لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم. والتقدير: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يُتقبل منكم.

وقيل: هو أمر في معنى الخبر؛ أي: أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم، فهو كقوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول، وانتصاب طوعاً أو كرهاً على الحال، فهما مصدران في موقع المشتقين؛ أي: أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله، أو مكرهين بأمر منهما. وسمي الأمر منهما: إكراهاً لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر. فكانوا بأمرهم الذي لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٣٦٩).
(٣) «النشر» (٢/ ٢٣٢)، و«المبسوط» (ص١٥٢). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٤): قراءة البزي متواترة عنه في وجه، والآخر كالجمهور بتخفيف التاء وهي مطردة له في كل فعلٍ حذف منه تاء المضارعة السابقة للتاء، وصواب عزو إدغام اللام في التاء هو قراءة حمزة والكسائي وهشام بخلافٍ عنه بإدغام اللّام في التاء، وقرأ الباقون بإظهار اللّام.
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٤٦).
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٣٦٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٦).

وجملة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾[(١)] تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق: التمرّد والعتوّ، وقد سبق بيانه لغة وشرعاً؛ ثم بيَّن سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: كفرهم بالله وبرسوله جعل المانع من القبول ثلاثة[(٢)] أمور:

الأوّل: الكفر.

الثاني: أنهم لا يُصلّون في حال من الأحوال إلا في حال الكسل والتثاقل؛ لأنهم لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً؛ فصلاتُهم ليست إلا رياءً للناس وتظاهراً بالإسلام الذي يبطنون خلافه.

والثالث: أنهم لا يُنفقون أموالهم إلا وهم كارهون، ولا ينفقونها طوعاً لأنهم يعدّون إنفاقها وضعاً لها في مضيعة؛ لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله.

قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ الإعجاب بالشيء: أن يسرّ به سروراً راضٍ به، متعجب مِنْ حسنه.

قيل: مع نوع من الافتخار، واعتقاد أنّه ليس لغيره ما يساويه.

والمعنى: لا تستحسن[(٣)] ما معهم من الأموال والأولاد: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يحصل معهم من الغمّ والحزن عند أن يغنمها المسلمون، ويأخذوها قسراً من أيديهم؛ مع كونها زينةَ حياتِهم، وقرّة أعينهم، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق التصدق به.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير.

والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنَّهم منافقون، فهم ينفقون كارهين، فَيُعذبون بما ينفقون.

قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ الزهوق: الخروج[(٤)] بصعوبة، والمعنى: أنَّ الله يريد أن تزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم؛ لعدم قبولهم لما جاءت

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٧١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٠١).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٣٩).

(٣) قال القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٣٩): «أي: لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تمِلْ إليه، فإنه استدراج ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾».

(٤) «الصحاح» (٤/ ١٤٩٣)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٨٤).

به الأنبياء، وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة.

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾؛ أي: من جملتكم في دين الإسلام، والانقياد لرسول الله ﷺ، ولكتاب الله سبحانه: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في ذلك إلا بمجرّد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾؛ أي: يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي، فيظهرون لكم الإسلام تقيةً منهم لا عن حقيقة ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مغارة مِنْ غار يَغير.

قال الأخفش[1]: ويجوز أن يكون مِنْ أغار يُغير، والمغارات: الغيران والسراديب، وهي: المواضع التي يستتر فيها، ومنه غار الماء وغارت العين.

والمعنى: لو وجدوا أمكنةً يغيبون فيها أشخاصهم هرباً منكم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ من الدخول؛ أي: مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات.

قال النحاس[2]: الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالاً.

وقيل: أصله مدتخل.

وقرأ أُبيّ: «متدخلاً»[3] وروي عنه أنه قرأ: «مندخلاً»[4] بالنون.

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، وابن محيصن: «أو مدخلاً» بفتح الميم[5] وإسكان الدال.

قال الزجاج[6]: ويقرأ: «أو مُدْخلاً» بضم الميم وإسكان الدال.

وقرأ الباقون بتشديد[6] الدال مع ضم الميم ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾؛ أي: لالتجئوا إليه

---

(١) «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٥). (٢) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢١).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٥٣)، و«روح المعاني»، و(١٠/ ٣٧٦).

(٤) «المحتسب» (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٥)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٤٢). المتواتر في هذه اللفظة (مَدْخلاً) بفتح الميم وسكون الدال عن يعقوب ومعه الحسن وابن محيض و(مُدَّخلاً) بضم الميم وفتح الدال مُشدّدة عن الباقين من العشرة وغير هذا ممّا ذكره المؤلف شاذ. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٤).

(٥) «النشر» (٢/ ٢٧٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٧٦).

(٦) في «معاني القرآن» له (٢/ ٤٥٥).

وأدخلوا أنفسهم فيه ﴿و﴾ الحال ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء، من جمح الفرس: إذا لم يردّه اللجام، ومنه قول الشاعر(١):

سَبوحٌ جَموحٌ وإحضارُها كمعمعة السَّعَفِ الموقَدِ

والمعنى: لو وجدوا شيئاً مِنْ هذه الأشياء المذكورة لولّوا إليه مسرعين؛ هرباً من المسلمين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم(٢)، عن جابر بن عبد الله، قال: جعل المنافقون الذين تخلّفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيبُ حديثهم، وعافية النبيّ وأصحابه، فساءهم ذلك فأنزل الله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية.

وأخرج سُنَيد، وابن جرير، عن ابن عباس(٣) ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ يقول: إن تصبك في سفرك هذه «لغزوة» تبوك حسنةٌ تسؤهم قال: الجدُّ وأصحابه، يعني: الجد بن قيس.

وأخرج أبو الشيخ(٤)، عن السديّ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ قال: إلا ما قضَى الله لنا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس(٥)، قال: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ قال: فَتْح أو شهادة.

وأخرج ابن المنذر(٦)، عن ابن جريج، في قوله: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ قال: القتل بالسيوف.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس(٧)، قال: قال الجَدّ بن قيس: إني إذا رأيت

---

(١) لامرئ القيس. انظر: «ديوانه» (ص١٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٠) من طريق الحسن بن عطية العوفي، به.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥) بسند ضعيف، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٢) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٧).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٩) بسند ضعيف. ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

النساء لم أصبر حتى أفتتن، ولكن أعينُك بمالي، قال: ففيه نزلت: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(١)، في قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ قال: هذه من تقاديم الكلام، يقول: لا تُعجبْك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس(٢)، قال: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ(٣)، في قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قال: تزهق أنفسهم في الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير [٢/٢٢٠].

وأخرج أبو حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك(٤)، في قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ يقول: لا يَغْررك ﴿وَتَزْهَقَ﴾ قال: تخرج أنفسهم، قال في الدنيا وهم كافرون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٥)، في قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ الآية قال: الملجأ: الحِرزُ في الجبال، والمغارات: الغيران، والمُدَّخل: السَّرَب.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ(٦) ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ قال: يُسْرعون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٠٠) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٨).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٤) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٣، ١٨١٥) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٤، ١٨١٥) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٥) بسند حسن.

عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم، يقال: لَمَزَه يلمِزه: إذا عابَه.

قال الجوهري[١]: اللّمز: العيبُ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وقد لمزه يلْمُزه ويلمِزه، ورجل لمَّاز، ولُمَزة؛ أي: عَيّاب.

قال الزجاج[٢]: لمزتُ الرجلَ ألمِزه وألمُزه، بكسر الميم وضمها: إذا عبته، وكذا همزته.

ومعنى الآية: ومن المنافقين مَنْ يعيبك في الصدقات؛ أي: في تفريقها وقسمتها.

وروي عن مجاهد أنه قال: معنى ﴿يَلْمِزُكَ﴾: يرزؤك ويسألك، والقول عند أهل اللغة هو الأوّل، كما قال النحاس[٣].

وقرئ «يلمُزك» بضم الميم[٤]، و«يلَمِّزك» بكسرها[٥] مع التشديد.

وقرأ الجمهور بكسرها[٦] مخففة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾؛ أي: من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿رَضُوا﴾ بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وليسوا من الدين في شيء ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾؛ أي: من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾؛ أي: وإن لم يُعطوا «فاجأوا» السخط، وفائدة إذا الفجائية أنّ الشرط مفاجئ للجزاء وهاجمٌ عليه.

---

(١) في «الصحاح» (٣/ ٨٩٥).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٥٥).
(٣) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢٢).
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٤٣٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٥٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٧٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٧).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة (يَلمِزك) بكسر الميم عَنْ العشرة إلّا يعقوب فعنه (يَلمُزك) وأمّا (يُلَمِّزك) بضم الياء وفتح اللام وتشد الميم مكسورة فشاذ.
(٦) «البحر المحيط» (٥/ ٤٣٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٧٧)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٠٥).

وقد نابت إذا الفجائية[١] مناب فاء الجزاء ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: ما فرضه الله لهم، وما أعطاهم رسول الله ﷺ من الصدقات، وجواب «لو» محذوف[٢]؛ أي: لكان خيراً لهم، فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ أي: قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله ﷺ ما هو لهم؛ أي: كفانا الله، سيعطينا مِنْ فضله، ويعطينا رسولهُ بعد هذا ما نرجوه ونؤمّله ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يعطينا من فضله ما نرجوه.

قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ لمّا لمَزَ المنافقون رسولَ الله ﷺ في قسمة الصدقات بيّن الله لهم مصرفها دفعاً لطعنهم، وقطعاً لشغبهم، و﴿إِنَّمَا﴾ من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس؛ أي: جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها؛ بل هي لهم لا لغيرهم.

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟

فذهب إلى الأوّل: الشافعي[٣] وجماعة[٤] مِنْ أهل العلم.

وذهب إلى الثاني: مالك وأبو حنيفة[٥]، وبه قال عمر[٦]، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران.

قال ابن جرير[٧] وهو قول عامة أهل العلم: احتج الأوّلون بما في الآية من القصر، وبحديث[٨] زياد بن الحارث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزّأها ثمانيةَ أصنافٍ، فإن كنتَ مِنْ تلك الأجزاء أعطيتك».

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤٤٠)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٠٢).
(٢) «الكشاف» (٣/ ٥٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).
(٣) «المجموع شرح المهذب» (٦/ ١٦٦). (٤) «فتح الباري» (٣/ ٣٥٥).
(٥) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٣٨)، و«حاشية ابن عابدين» (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).
(٦) انظر: «فتح الباري» (٣/ ٣٥٥)، و«المجموع شرح المهذب» (٣/ ٥٣٨).
(٧) في «جامع البيان» (١١/ ٥١٤ ـ ٥١٥).
(٨) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (١٦٣٠). وهو حديث ضعيف.

وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف، لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبأن في إسناد الحديث عبد الرحمن(١) بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف.

ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] والصدقة تطلق على الواجبة(٢) كما تطلق على المندوبة.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «أمرتُ أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في فقرائكم». وقد ادّعى مالك الإجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البرّ(٣): يريد إجماع الصحابة، فإنّه لا يعلم له مخالفاً منهم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ قدمهم لأنهم أحوج مِنْ البقية على المشهور لشدّة فاقتهم وحاجتهم.

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال: فقال(٤) يعقوب بن السكّيت، والقتيبي، ويونس بن حبيب: إنَّ الفقير أحسن حالاً من المسكين، قالوا: لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه. والمسكين: الذي لا شيء له، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة(٥).

وقال آخرون بالعكس، فجعلوا(٦) المسكين أحسن حالاً من الفقير.

واحتجوا(٧) بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩] فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر. وربما ساوت جملة مِنْ المال، ويؤيده تعوّذ النبيّ ﷺ من الفقر مع قوله: «اللَّهُمَّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً»(٨) وإلى هذا ذهب الأصمعي

---

(١) «التقريب» (١/ ٤٨٠)، و«الميزان» (٢/ ٥٦١)، و«الجرح والتعديل» (٥/ ٢٣٤).
(٢) «المغني» (٤/ ١٢٨)، و«بدائع الصنائع» (٢/ ٤٣)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٤٧).
(٣) «الاستذكار» (٩/ ٢٠٤).
(٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٤٧)، و«الاستذكار» (٩/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٥) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٢٦).
(٦) «المجموع شرح المهذب» (٦/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، و«المغني» (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، و«فتح الباري» (٢/ ٣٤٣).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٥٢) من حديث أنس. وهو حديث صحيح.

وغيره من أهل اللغة[١]. وحكاه الطحاوي[٢] عن الكوفيين، وهو أحد قولي الشافعي[٣] وأكثر أصحابه.

وقال قوم: إنّ الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي[٤]، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك[٥]، وبه قال أبو يوسف[٦].

وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفّف، والمسكين السائل. قاله[٧] الزُّهري، واختاره ابن شعبان، وهو مرويّ عن ابن عباس.

وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتدّ بها.

والأولى في بيان ماهية المسكين: ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي هريرة[٨]، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فتردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدّق عليه. ولا يسأل الناس شيئاً».

قوله: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾؛ أي: السُّعاة والجُباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة، فإنّهم يستحقون منها قسطاً.

وقد اختلف في القدر الذي يأخذونه منها، فقيل: الثُمن. روي ذلك عن مجاهد[٩] والشافعي.

وقيل: على قدر أعمالهم مِنْ الأجرة، روي ذلك عن أبي حنيفة[١٠] وأصحابه.

= وأخرجه ابن ماجه رقم (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري. وهو حديث صحيح.

(١) «الصحاح» (٢/ ٧٨٢)، و«القاموس المحيط» (ص٥٨٨).

(٢) في «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٤).

(٣) «المجموع شرح المهذب» (٦/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٤) انظر: المصدر المتقدم.

(٥) «الاستذكار» (٩/ ٢١٠)، و«المفهم» (٣/ ٨٤).

(٦) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٢٦).

(٧) ذكره عنهم ابن الأعرابي في «أحكام القرآن» (٢/ ٩٤٩).

(٨) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٥)، والبخاري رقم (٤٥٣٩)، ومسلم رقم (١٠٢/ ١٠٣٩).

(٩) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٦٠).

(١٠) «بدائع الصنائع» (٢/ ٤٦٨)، و«البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٢٩).

وقيل: يعطون مِنْ بيت المال قدر أجرتهم. روي ذلك عن مالك(١)، ولا وجه لهذا، فإنَّ الله قد أخبر بأنّ لهم نصيباً مِنْ الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها؟

واختلفوا هل يجوز أن يكونَ العامل هاشميّاً أم لا؟ فمنعه(٢) قوم، وأجازه(٣) آخرون.

قالوا: ويُعطى مِنْ غير الصدقة.

قوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم قومٌ كانوا في صدر الإسلام، فقيل: هم الكفار الذين كان النبيّ ﷺ يتألّفهم ليسلموا.

وكانوا لا يدخلون(٤) في الإسلام بالقهر والسيف؛ بل بالعطاء.

وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم يحسن إسلامهم، فكان رسول الله ﷺ يتألّفهم بالعطاء؛ وقيل: هم مَنْ أسلم من اليهود والنصارى.

وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع، أعطاهم النبي ﷺ ليتألفوا أتباعهم على الإسلام [٢٢١].

وقد أعطى(٥) النبيّ ﷺ جماعةً ممّن أسلم ظاهراً كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وحُويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة مِن الإبل تألّفهم بذلك، وأعطى آخرين دونهم.

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا؟

فقال عمر، والحسن، والشعبي: قد انقطع(٦) هذا الصنف بعزّة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور من مذهب مالك(٧) وأصحاب(٨) الرأي.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٥٠). (٢) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٢٩).

(٣) «المجموع شرح المهذب» (٦/ ٢٢٠)، و«المغني» (٤/ ١١٧)، و«المفهم» (٤/ ١١٢)، و«البحر الزخار» (٢/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

(٤) «جامع البيان» (١١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٦٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٩٣).

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٩٣). (٦) «الأم» للشافعي (٤/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٧) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٥٤).

(٨) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٢٢)، و«بدائع الصنائع» (٢/ ٤٧٠).

وقد ادّعى بعض الحنفية[١] أن الصحابة أجمعت على ذلك.

وقال جماعة[٢] من العلماء: سهمُهم باق؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يتألّف على الإسلام، وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين.

قال يونس[٣]: سألتُ الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخ ذلك، وعلى القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف.

قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾؛ أي: في فك الرقاب بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها. روي ذلك[٤] عن ابن عباس، وابن عمر، وبه قال مالك[٥]، وأحمد بن حنبل[٦]، وإسحاق وأبو عبيد[٧].

وقال الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، وابن زيد[٨]: إنَّهم المكاتَبون يُعانون من الصدقة على مال الكتابة، وهو قول الشافعي[٩] وأصحاب الرأي[١٠]، ورواية عن مالك[١١].

والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً؛ لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة.

قوله: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ هم: الذين ركبتهم الديونُ ولا وفاء عندهم بها، ولا خلاف في ذلك إلَّا مَنْ لزمه دين في سفاهة فإنَّه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أَنْ يتوب.

وقد أعان النبيّ ﷺ مِنْ الصدقة مَنْ تحمّل[١٢] حمالةً وأرشد إلى إعانته منها.

---

(١) انظر: «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣).

(٢) قال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٨/ ١٦٣) ط. ابن الجوزي: والظاهر جواز التأليف عند الحاجة إليه، وإذا كان في زمن الإمام قوم لا يطيعونه إلا للدنيا ولا يقدر على إدخالهم تحت طاعته بالقسر والقلب فله أن يتألفهم ولا يكون لفشوّ الإسلام تأثير لأنه لم ينفع في خصوص هذه الواقعة. وكذلك رجحه الشوكاني في «السيل الجرار» (١/ ٨٠١ ـ ٨٠٢) ط. ابن كثير.

(٣) ذكره ابن قدامة في «المغني» (٤/ ١٢٥).

(٤) ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٩٥٤).

(٥) «الاستذكار» (٩/ ٢٢٠)، و«التسهيل» (٣/ ٧٥٣).

(٦) «المغني» (٤/ ١٢٥)، و«الإنصاف» (٣/ ٢٢٨).

(٧) «الأموال» لأبي عبيد (ص٥٣٩).

(٨) «المجموع» (٦/ ٢١١).

(٩) «المجموع» (٦/ ٢١١).

(١٠) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٣١).

(١١) «الاستذكار» (٩/ ٢٢٠).

(١٢) يشير إلى حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: «تحملت حمالة، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها...». =

قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة والمرابطون، يُعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر[1] العلماء. وقال ابن عمر[2]: هم الحجّاج والعمّار.

وروي عَنْ أحمد[3] وإسحاق أنّهما جعلا الحج من سبيل الله.

وقال أبو حنيفة[4] وصاحباه: لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعاً به.

قوله: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو: المسافر، والسبيل: الطريق، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها، والمراد: الذي انقطعت به الأسبابُ في سفره عن بلده ومستقرّه، فإنه يُعطى منها وإنْ كان غنيّاً في بلده، وإن وجد مَنْ يسلفه. وقال مالك[5]: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى. قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر[6] مؤكد؛ لأن قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم.

والمعنى: أنَّ كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضَه الله على عباده، ونهاهم عن مجاوزته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله؛ وقيل: إن «فريضةً» منتصبة[7] بفعل مقدّر؛ أي: فرض اللهُ ذلك فريضةً. قال في «الكشَّاف»[8]: فإن قلتَ: لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الآخرة؟ قلتُ: للإيذان بأنّها أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممّن سبق ذكره.

وقيل: النكتة في العدول: أنَّ الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى «يتصرفوا» به كما شاءوا، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم؛ بل يصرف إلى

= [أخرجه أحمد (٥/ ٦٠)، ومسلم في «صحيحه» رقم (١٠٩/ ١٠٤٤)، والنسائي رقم (٢٥٨٠)، وأبو داود رقم (١٦٤٠)، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٢٠٠٨)، والطبراني في «الكبير» (ج١٨ رقم ٩٤٦)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» رقم (١٦٢٥)، والحميدي رقم (٨١٩)، والدارمي (١/ ٣٩٦)، وابن خزيمة رقم (٢٣٦٠)، وابن حبان رقم (٣٢٩١) وغيرهم].

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٧٢).
(٢) انظر: «الكافي» (١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣)، و«عيون المجالس» (٢/ ٥٩٧).
(٣) «المغني» (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، و«الإنصاف» (٣/ ٢٢٨).
(٤) «البناية في شرح الهداية» (٣/ ٥٣٤).
(٥) «التسهيل» (٣/ ٧٥٦)، و«التمهيد» (٥/ ٩٨ ـ ٩٩).
(٦) «روح المعاني» (١٠/ ٣٩١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٤٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢٣).
(٧) «روح المعاني» (١٠/ ٣٩١)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٧).
(٨) (٣/ ٦٠ ـ ٦١).

جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة، كذا قيل.

وقد أخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخُدْري[١] قال: «بينما رسول الله ﷺ يقسم قَسْماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدلْ يا رسولَ الله، فقال: «ويحك، ومَنْ يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضربَ عنقه، فقال النبي ﷺ: «دَعْه فإن له أصحاباً يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرّميَّة» الحديث حتى قال: وفيهم نزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ قال: يرزؤك، ويسألك.

وأخرج ابن المنذر، عن قتادة[٣] قال: يطعنُ عليك.

وأخرج ابن مردويه[٤]، عن ابن مسعود قال: لما قسم النبيّ ﷺ غنائم حنين، سمعتُ رجلاً يقول: إن هذه لقسمة ما أريدُ بها الله، فأتيت النبيّ ﷺ، وذكرت ذلك له، فقال: «رحمةُ الله على موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر، ونزل ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾».

وأخرج ابن مردويه[٥]، عن ابن عباس، قال: نسخت هذه الآيةُ كلَّ صدقة في القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر[٥]، عن ابن جريج، نحوه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦١٠، ٦٩٣٣)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٢٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٠٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٠٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧٧) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٢٠).

● وأخرجه البخاري رقم (٣١٥٠، ٤٣٣٥، ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩١)، ومسلم رقم (١٠٦٢) دون ذكر الآية.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٢١).

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن حذيفة[(١)]، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية قال: إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية التي سمّى الله أو صنفين أو ثلاثة.

وأخرج ابن أبي شيبة، عن أبي العالية[(٢)]، والحسن[(٣)]، وعطاء[(٤)]، وإبراهيم[(٥)]، وسعيد بن جبير[(٦)]، نحوه.

وأخرج ابن المنذر، والنحاس، عن ابن عباس[(٧)]، قال: الفقراء: فقراء المسلمين. والمساكين: الطوّافون.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، وأبو الشيخ، عن قتادة[(٨)]، قال: الفقير الذي به زَمانة، والمسكين: المحتاج الذي ليس به زمانة.

وأخرج ابن أبي شيبة[(٩)]، عن عمر، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قال: هم زَمْنىٰ أهل الكتاب.

وأخرج ابن أبي حاتم[(١٠)]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ قال: السُّعاة أصحاب الصدقة.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس[(١١)]، في قوله: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ١٨٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣١)، وأبو عبيد في الأموال رقم (١٨٣٦)، والبيهقي (٧/ ٧) من طرق بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٨٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٨٢).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٨٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣٢) من طريق عبد الملك بن نمير، به.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٨٢) من طرق يقوي بعضها بعضاً.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٨٣) من طرق يقوي بعضها بعضاً.
(٧) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥١٠).
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٩، ١٨٢٠)، والنحاس في «ناسخه» (ص٥٠٧، ٥٠٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٧٨) بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٧٨).
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢١) بسند ضعيف.
(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥١٩) بسند ضعيف.

قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا، وكان يُرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه.

وأخرج البخاري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي سعيد(١)، قال: بعث عليّ بن أبي طالب من اليمن إلى النبيّ ﷺ بذُهَيبة فيها تربتُها، فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلي، وعلقمة بن عُلاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزَاري، وزيد الخيل الطائي؛ فقالت قريش والأنصار: يقسم بين صناديد أهل نجدٍ ويدعُنا؟ فقال النبيّ ﷺ: «إنما أتألّفهم».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الزهري(٢) أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال: مَنْ أسلم من يهوديٍ أو نصرانيّ، قلت: وإن كان موسراً؟ قال: وإنْ كان موسراً.

وأخرج(٣) هؤلاء عن أبي جعفر قال: ليس اليوم مؤلّفة قلوبهم.

وأخرج(٤) هؤلاء أيضاً عن الشعبي مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥)، عن مقاتل، في قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ قال: هم المكاتبون.

وأخرج ابن المنذر(٦)، عن النخعي، نحوه.

وأخرج(٦) أيضاً عن عمر بن عبد الله قال: سهم الرقاب نصفان: نصف لكل مُكاتَب ممن يدّعي الإسلام، والنصف الآخر «يُشْترىٰ» به رقابٌ ممن صلى وصام، وقدم إسلامه من ذكر وأنثى، يُعْتقون لله.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٣٤٤، ٧٤٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٣) عن معقل بن عبيد الله، عن الزهري.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٢٣) بلفظ: «اليوم مؤلفة قلوبهم».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٢٢) من طرق يقوي بعضها بعضاً.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٣).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٢٤).

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو عبيد، وابن المنذر، عن ابن عباس[١]، أنه كان لا يرى بأساً أَنْ يعطى الرجل مِنْ زكاته في الحج، وأن يعتق منها رقبة.

وأخرج ابن أبي شيبة[٢]، عن الزهري، أنه سئل عن الغارمين قال: أصحاب الدَّين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي جعفر[٣]، في قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ قال: هو الذي يسأل في دمٍ أو جائحة تصيبه ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: هم المجاهدون ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: المنقطع به، يُعطى قدر ما يبلّغه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤]، عن ابن عباس قال: ابن السبيل هو الضيفُ الفقير الذي ينزل بالمسلمين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري[٥]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحِلّ الصدقة لغنيّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو الرجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تُصدّق عليه فأهدى منها لغنيّ».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، [٢/٢٢٢] والترمذي، عن عبد الله[٦] بن عمر، عَنْ النبي ﷺ، قال: «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّةٍ سوِيّ».

وأخرج أحمد[٧]، عن رجل من بني هلال، قال: سمعت رسول الله ﷺ، فذكر مثله.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ١٧٩، ١٨٠).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٢٠٧).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٤، ١٨٢٥).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٥) بسند صحيح.
(٥) أخرجه أبو داود رقم (١٦٣٦)، وابن ماجه رقم (١٨٤١)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢١٠). وهو حديث صحيح.
(٦) أخرجه أحمد (١/ ١٩٢)، والترمذي رقم (٦٥٢)، وأبو داود رقم (١٦٣٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٧١٥٥)، والطيالسي رقم (٢٢٧١)، والدارمي (٣/ ٣٨٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٤)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٣٦٣)، والدارقطني (٣/ ١١٩)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» رقم (١٥٩٩)، والبيهقي (٧/ ١٣) كلهم من حديث عبد الله بن عمرو.
(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٢٣١٨٣) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي عن عبد الله بن عدي[١] بن الخيار، قال: أخبرني رجلان أَنَّهما أتيا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو يقسم الصدقة فسألاه منها، فرفع فينا البصر وخَفَضَه فرآنا جَلْدين، فقال: إنْ شئتُما أعطيتكُما ولا حظّ فيها لغنيّ ولا لقويّ مكتسِب.

[سوء أدب المنافقين في حق الرسول عليه الصلاة والسلام والرد عليهم]:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

[حذر المنافقين أن ينزل الله قرآناً يكشف خبيئتهم]:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قولُه: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ هذا نوعٌ آخر بما حكاه الله مِنْ فضائح المنافقين وقبائحهم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبيّ ﷺ، على وجه الطعن والذم ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾. قال الجوهري[٢]: يقال: رجل أُذُن: إذا كان يسمع مقالَ كل أحدٍ، يستوي فيه الواحد والجمع، ومرادُهم، ـ أقمأهم اللهُ ـ، أَنَّهم إذا آذوا النبيَّ وبسطوا فيه ألسنهم وبلغه ذلك اعتذروا له، وقَبل ذلك منهم؛ لأنّه يسمع كل ما يقال له، فيصدّقه، وإنما أطلقت العرب على مَنْ يسمع ما

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٤) و(٥/ ٣٦٢)، وأبو داود رقم (١٦٣٣)، والنسائي رقم (٢٥٩٨)، والدارقطني (٢/ ١١٩ رقم ٧)، والبيهقي (٧/ ١٤). وهو حديث صحيح.

(٢) في «الصحاح» (٥/ ٢٠٦٩).

يقال له فيصدّقه أنَّه أُذن مبالغةً[1]؛ لأنَّهم سمّوه بالجارحة التي هي آلة السماع، حتّى كأن جملته أُذن سامعة، ونظيره قولهم: للربيئة: عين، وإيذاؤهم له هو قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ لأنّهم نسبوه إلى أنه يُصدّق كل ما يقال له، ولا يُفرّق بين الصحيح والباطل، اغتراراً منهم بحلمه عنهم، وصفحه عَنْ جناياتهم كرماً وحِلْماً وتغاضياً، ثم أجاب الله عن قولهم هذا، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ بالإضافة[2] على قراءة الجمهور. وقرأ الحسن بالتنوين[3]، وكذا قرأ عاصم في رواية أَبي بكر عنه، كأنّه قيل: نعم هو أُذن، ولكن نِعْم الأذنُ هو، لكونه أذن خير لكم، وليس بأذن في غير ذلك. كقولهم رجل صدق، يريدون الجودة والصلاح. والمعنى: أنّه يسمع الخير ولا يسمع الشرّ.

وقُرِئ[4]: «أُذْن» بسكون الذال وضمها.

ثم فسّر كونه أذن خير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يصدّق بالله ويصدّق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان. فتكون اللام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتقوية[5]، كما قال الكوفيون، أو متعلّقة بمصدر محذوف، كما قال المبِّرد[6]. وقرأ الجمهور[7]: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع عطف على أُذُن.

وقرأ حمزة بالخفض[8] عطفاً على خير.

والمعنى على القراءة الأولى: هو أنّه أذن خير، وأنه هو رحمة للمؤمنين، وعلى القراءة الثانية: أنه أذن خير وأُذُن رحمةٍ. قال النحاس[9]: وهذا عند أهل العربية بعيد،

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٩٥).
(٢) «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٣)، و«النشر» (٢/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٩٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٨٣).
(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٤٤٨)، و«التيسير» (ص١١٨)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٣٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٩٤). التنوين فيهما قراءة شادة، وروايتها عن عاصمٍ شاذة، السكون في الذال قراءة نافع، ومنها قراءة باقي العشرة وهما متواترتان.
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٩٤)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٨٣).
(٥) «التبيان» (٢/ ٦٤٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٩٥).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢٣).
(٧) «زاد المسير» (٣/ ٤٦١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٨٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩)، و«التيسير» (ص١١٨).
(٨) انظر: المصادر المتقدمة.
(٩) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢٣).

يعني: قراءة الجر لأنّه قد تباعد بين الاسمين، وهذا يقبح في المخفوض.

والمعنى: أن النبيّ ﷺ أذن خير للمنافقين ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم، فكأنّه قال: هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسّره بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته.

ومعنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾؛ أي: الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقةً ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بما تقدّم من قولهم: هو أذن، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله ﷺ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد الألم. وقرأ ابن أبي عَبْلة «ورحمةً للمؤمنين» بالنصب[1] على أنّها علة لمعلل[2] محذوف؛ أي: ورحمةٌ لكم يأذن لكم. ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين.

وذلك أنّ المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين، وعلى النبي ﷺ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم؛ قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة: أَنْ يُرضوا رسولَ الله ومَنْ معه من المؤمنين، فنعى الله ذلك عليهم.

وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ أي: هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة، فإنّهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم، وإفراد الضمير[3] في يُرضوه إما للتعظيم للجناب الإلٰهيّ بإفراده بالذكر، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله.

فإرضاء الله إرضاءٌ لرسوله؛ أو المراد: الله أحق أَنْ يرضوه ورسوله كذلك، كما قال سيبويه[4]، ورجّحه النحاس[5]؛ أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدّد؛ أو الضمير راجع إلى المذكور. وهو يصدق عليهما.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٣٩٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٤٩)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٨). وهي قراءة شاذة.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٦٢).

(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٣٩٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٩)، و«الكشاف» (٣/ ٦٢).

(٤) في «الكتاب» (١/ ٧٥).

(٥) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢٤).

وقال الفراء[١]: المعنى: ورسوله أحق أنْ يُرضوه. والله افتتاح كلام، كما تقول: ما شاء الله وشئت، وهذه الجملة أعني: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ في محل نصب[٢] على الحال، وجواب ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ محذوف؛ أي: إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسولَه.

قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾. قرأ الحسن، وابن هُرْمز، ألم تعلموا بالفوقية[٣]. وقرأ الباقون[٤] بالتحتية. والمحاددة: وقوع هذا في حدٍ، وذلك في حدٍ كالمشاققة: يقال: حادّ فلان فلاناً؛ أي: صار في حدّ غير حدِّه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف[٥]؛ أي: فحق أن له نارَ جهنّم.

وقال الخليل[٦] وسيبويه[٧]: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى، وزعم المبرد[٨] أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قال الجَرْمي[٩] أن الثانية مكرّرة للتوكيد لما طال الكلام.

وقال الأخفش[١٠] المعنى: فوجوب النار له، وأنكره المبِّرد[١٠] وقال: هذا خطأ من أجل أن «أنّ» المفتوحة المشدّدة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر. وقرئ بكسر[١١] الهمزة. قال سيبويه[١٢]: وهي قراءة جيدة، وأنشد:

وإنّي إذا ملّتْ رِكابي مُناخَها ... فإنِّي على حظي مِنْ الأمر جامحُ

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٤٥).
(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٣٩٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٥٠)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٨ ـ ٦٤٩).
(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٤٥١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٠١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٠). والقراءة بالتاء الفوقية في كلمة «يعلموا» قراءة شاذة.
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٤٠٠)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٤٩).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢٤).
(٧) في «الكتاب» (٣/ ١٣٣).
(٨) انظر: «المقتضب» (٢/ ٣٥٢).
(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢٤).
(١٠) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢٤)، و«المقتضب» (٢/ ٣٥٧).
(١١) «روح المعاني» (١٠/ ٤٠٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٨٦). وهي قراءة شاذة عند القرّاء.
(١٢) «الكتاب» (٣/ ١٣٤).

وانتصاب ﴿خَٰلِدًا﴾ على الحال[١]. والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر من العذاب. وهو مبتدأ وخبره ﴿ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: الخزي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره، وهو الذلّ والهوان.

قولُه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ قيل: هو خبر وليس بأمر. [٢/٢٢٣] وقال الزجّاج[٢]: معناه: ليحذر. فالمعنى على القول الأوّل: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم. وعلى الثاني: الأمر لهم بأن يحذروا ذلك، وأن «تُنزّل» في موضع نصب؛ أي: مِنْ أَنْ تنزّل، ويجوز على قول سيبويه أن يكون في موضع خفض على تقدير (من) وإعمالها. ويجوز أن يكون النصب على المفعولية. وقد أجاز سيبويه[٣] حذرتُ زيداً، وأنشد:

حَذِرٌ أموراً لا تَضير وآمِنٌ ... ما ليس ينجيه من الأقدارِ

ومنع من النصب على المفعولية المبرِّد[٤]. ومعنى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المؤمنين في شأن المنافقين، على أنّ الضمير[٥] للمؤمنين، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين؛ أي: في شأنهم ﴿تُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: المنافقين ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مما يسرّونه فضلاً عمّا يظهرونه، وهم وإنْ كانوا عالمين بما في قلوبهم، فالمراد من إنباء السورة لهم: إطلاعُهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم. ثم أمر الله رسوله بأن يُجيب عليهم، فقال: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ هو أمر تهديدٍ[٦]؛ أي: افعلوا الاستهزاء، إنّ الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون، إما بإنزال سورة، أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك.

قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: ولئن سألتهم عما قالوه مِنْ الطعن في الدين، وثَلْب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك، ويطلعك الله عليه، ليقولنّ: إنما كنا نخوض ونلعب، ولم نكن في شيء مِنْ أمرك ولا أمر المؤمنين.

ثم أمره اللهُ أَنْ يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾

---

(١) «روح المعاني» (١٠/٤٠١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٤٠٦).

(٢) في «معاني القرآن» (٢/٤٥٩). (٣) في «الكتاب» (١/١١٣).

(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٢٦)، و«المقتضب» (٢/١١٥ ـ ١١٧).

(٥) «روح المعاني» (١٠/٤٠٢)، و«الكشاف» (٣/٦٣).

(٦) «روح المعاني» (١٠/٤٠٣)، و«البحر المحيط» (٥/٤٥١).

والاستفهام[(١)]: للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم، ولم يعبأ بإنكارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار؛ بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيثُ جعلَ المستهزأ به، «والياً» لحرف النفي، فإنّ ذلك إنّما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته.

ثم قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ نهياً لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة، فإنّ ذلك غير مقبول منهم. وقد نقل الواحدي[(٢)] عن أئمة اللغة: أن معنى الاعتذار: محو أثر الذنْب وقطعه، مِنْ قولهم: اعتذر المنزل: إذا دَرَس، واعتذرت المياه: إذا انقطعت ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾؛ أي: أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛ أي: بعد إظهاركم الإيمان، مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وهم من أخلصَ الإيمانَ، وتركَ النفاق، وتاب عنه.

قال الزجاج[(٣)]: الطائفة في اللغة الجماعة.

قال ابن الأنباري[(٤)]: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ﴾ بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على النفاق، لم يتوبوا منه، قرئ: نُعذب بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه.

وقد أَخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(٥)]، قال: كان نَبْتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنما محمد أُذُن، مَنْ حدّثه بشيءٍ صدّقه، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ الآية.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/٤٠٦). ومن الغرائب أنَّ جميع طبعات الكتاب تتابعت على هذا الخطأ وهو كتابة هذه الجملة (حيث جعل المستهزأ به، والباء الحرف النفي) والصواب ما ضبطناه (حيثُ جَعل المستهزأ به والياً لحرف النفي) كما في «النسخة الأم» والحمد لله على توفيقه.

(٢) انظر: «الوسيط» (٢/٥٠٨)، و«تفسير الرازي» (١٦/٩٨ ـ ٩٩)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٥٥ ـ الراغب).

(٣) في «معاني القرآن» (٢/ ٤٦٠).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/٢٩٢). وما ذكره المؤلف من القراءات في كلمة «نعذب» فعند عاصم بالنون مضمومة وكسر الذال، ونصب طائفة، والقراءة عن باقي العشرة (يُعفَ) بضم الياء وفتح الفاء و(تُعذَبُ طائفةٌ) بالتاء المضمومة، وفتح الذال ورفع طائفة (نائب فاعل)، فهاتان قراءتان متواترتان، وأما (يعذبُ) بالباء المضمومة وكسر الذال فشاذ.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٢٦)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٢١) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم(١)، عن السديّ، قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم: جلَّاسُ بنِ سويدِ بنِ صامتٍ، ومخْشيُّ بنُ حِمْير، ووديعةُ بنُ ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبيّ ﷺ، فنهى بعضُهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أنْ يبلغَ محمداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أُذُن، نحلف له فيصدِّقنا، فنزل: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس(٢)، في قوله: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ يعني: أنّه يَسمع مِنْ كلِّ أحد.

قال الله تعالى: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: يصدّق بالله ويُصدّق المؤمنين.

وأخرج الطبراني، وابن عساكر، وابن مردويه، عن عُمير(٣) بن سعد، قال: فيّ أنزلت هذه الآية ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ وذلك أنّ عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة، فيأتي النبي ﷺ، فيسارّه حتى كانوا يتأذون بعُمير بن سعد، وكرهوا مجالسته، وقال: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ فأنزلت فيه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة(٤)، قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارُنا وأشرافنا، ولئن كان ما يقول محمد حقّاً لهم شرّ مِنْ الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شرّ مِنْ الحمار، فسعى بها الرجل إلى نبيّ الله ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلتَ؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللَّهُمَّ صدِّق الصادق، وكذِّب الكاذب، فأنزل الله في ذلك: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ(٥) مثله، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٤٦/ ٤٨٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٠) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) بسند حسن.

وأخرج أبو الشيخ[١]، عن الضحاك ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يقول: يُعادي اللهَ ورسولَه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية قال: يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون: عسى اللهُ أَنْ لا يُفشَى علينا هذا.

وأخرج أبو نعيم في «الحلية»[٣]، عن شريح بن عبيد، أن رجلاً قال لأبي الدرداء: يا معشر القرّاء ما بالكم أجبنُ منّا وأبخل إذا سُئلتم، وأعظم لَقْماً إذا أكلتم؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يردّ عليه بشيء، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك، فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبيّ ﷺ، فقال الرجل: إنما كنّا نخوض ونلعب، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن عمر[٤]، قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنَّك منافق؛ لأخبرنّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكُبه وهو يقول: يا رسولَ الله إنما كنا نخوض ونلعب، والنبيّ ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في «الضعفاء»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، في رواية مالك عن ابن عمر[٥]، فقال: رأيت عبد الله بن أُبيّ وهو يشتد قدّام النبي ﷺ والأحجار تنكبه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤١ ـ ٥٤٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٠)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٩٤). قال ابن عطية (٤/ ٣٥٦) وذلك خطأ لأنه (ابن أُبّي) «لم يشهد بتول».

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[١]، في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوة إلى تبوك وبين يديه أناسٌ من المنافقين، فقالوا؛ «أيرجو» هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهاتَ هيهاتَ! فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبيّ الله ﷺ: «احبسوا عليَّ هؤلاء الركب»، فأتاهم فقال: «قلتم كذا»؟ قالوا: يا نبيّ الله إنما كنا نخوضُ ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وقد روي نحو هذا مِنْ طرق عن جماعة من الصحابة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ﴾ قال: الطائفة: الرجل والنفر.

[سماتُ المنافقين الأصلية في كلِّ زمان وفي كل مكان]:

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ [٢/٢٢٤] وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾.

قوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين[٣]، وأن ذكورهم في ذلك كإناثهم، وأنهم متناهون في النفاق والبُعدِ عن الإيمان، وفيه إشارة إلى نفي أنْ يكونوا من المؤمنين، وردّ لقولهم ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ١٨٣٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣١) بسند ضعيف.

(٣) «جامع البيان» (١١/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٩٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨).

﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، ثم فصّل ذلك المجمل ببيان مضادّة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو كلُّ حسنٍ عقلاً أو شرعاً.

قال الزجّاج(١): هذا متصل بقوله ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]؛ أي: ليسوا مِنْ المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض؛ أي: متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: يشحّون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصدقة، والصلة، والجهاد، فالقبض كناية عن الشحّ، كما أن البسط كناية عن الكرم.

والنسيان: الترك؛ أي: تركوا ما أمرهم به، فتركَهم مِنْ رحمته وفضله؛ لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة(٢) المعروفة في علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق؛ أي: الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه، وهذا التركيب يفيد أنَّهم هم الكاملون في الفسق.

ثم بيَّن مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال(٣) مقدّرة؛ أي: مقدّرين الخلود؛ وفي هذه الآية دليل على أنَّ وعد يقال في الشر، كما يقال في الخير. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، ﴿و﴾ مع ذلك فقد ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: طرَدهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم.

قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ شبّه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً مِنْ الغيبة إلى الخطاب، والكاف محلها رفع على(٤) خبرية مبتدأ محذوف؛ أي: أنتم مثل الذين من قبلكم، أو محلها نصب؛ أي: فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم.

وقال الزجاج(٥): التقدير وعد الله الكفارَ نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلكم.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٠).
(٢) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٣/ ٤٠٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٠٨).
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٤٠٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٥٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٠٦).
(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٤١٠)، و«الكشاف» (٣/ ٦٥ ـ ٦٦).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٠).

وقيل: المعنى: فعلتم كأفعال الذين مِنْ قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحذف المضاف. ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم، وبيَّن وجه تشبيههم بهم، وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشدّ من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي ﷺ ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا﴾؛ أي: تمتعوا ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾؛ أي: نصيبهم الذي قدّره الله لهم من ملاذ الدنيا، ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم﴾ أنتم ﴿بِخَلَاقِكُمْ﴾؛ أي: نصيبكم الذي قدّره الله لكم ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾؛ أي: انتفعتم به كما انتفعوا به، والغرض[1] مِنْ هذا التمثيل ذمّ هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار، في الاستمتاع بما رزقهم الله.

وقد قيل: ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حقّ الأولين مرّة، ثم في حقّ المنافقين ثانياً، ثم تكريره في حقّ الأوّلين ثالثاً؟ وأجيب: بأنّه تعالى ذمّ[2] الأوّلين بالاستمتاع بما أوتُوا مِنْ حظوظ الدنيا، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ، فلما قرّر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك نهاية في المبالغة.

قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ معطوف على[3] ما قبله؛ أي: كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوا؛ وقيل: أصله كالذين فحذفت النون، والأولى أن يقال: إن الذي اسم موصول مثل مَنْ وما، يُعبر به عن الواحد والجمع، يقال: خضت[4] الماء: أخوضه خوضاً وخياضاً، والموضع مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مُشاةً وركباناً، وجمعها المخاض والمخاوض؛ ويقال منه: خاض القوم في الحديث، وتخاوضوا فيه؛ أي: تفاوضوا فيه.

والمعنى: خضتم في أسباب الدنيا، واللهو واللعب؛ وقيل: في أمر محمد ﷺ بالتكذيب؛ أي: دخلتم في ذلك.

الإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى[5] المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين،

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٥٥٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤١٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٠٩).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤١٠).
(٣) «الكشاف» (٣/ ٦٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤١١).
(٤) «الصحاح» (٣/ ١٠٧٥)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٠٢).
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٤١٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٠٩).

والمشبه بهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: بطلت، والمراد بالأعمال: ما عملوه مما هو في صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنّها من المعاصي.

ومعنى ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾: أنها باطلة[١] على كل حال: أما بطلانها في الدنيا فلأنّ ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً، ومِنْ العزّ ذلّاً، ومن القوّة ضعفاً.

وأما في الآخرة فلأنّهم يصيرون إلى عذاب النار، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: المتمكنون في الخسران، الكاملون فيه في الدنيا والآخرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؛ أي: المنافقين ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه وما فُعل بهم، ولمّا شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال في المشبه بهم، ذكر منهم هاهنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم، لأن بلادهم وهي الشام قريبة مِنْ بلاد العرب، فالاستفهام[٢] للتقرير.

(وأوّلهم)[٣]: قوم نوح، وقد أُهلكوا بالإغراق.

(وثانيهم): قوم عاد، وقد أُهلكوا بالريح العقيم.

(وثالثهم): قوم ثمود، وقد أُخذوا بالصيحة.

(ورابعهم): قوم إبراهيم، وقد سلّط الله عليهم البعوض.

(وخامسهم): أصحاب مدين، وهم قوم شعيب، وقد أخذتهم الرجفةُ.

(وسادسهم): [٢/٢٢٥] أصحاب المؤتفكات، وهي قُرى قوم لوط، وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة؛ وسُمّيت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، والائتفاك[٤]: الانقلاب.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: رسل هذه الطوائف الست.

وقيل: رسل أصحاب المؤتفكات؛ لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية

---

(١) «المحرر الوجيز» (٨/٢٢٧ ـ ٢٢٨)، و«روح المعاني» (١٠/٤١٢).
(٢) «البحر المحيط» (٥/٤٥٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٤١٠).
(٣) «المحرر الوجيز» (٨/٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٤) ذكره أبو حيان عن الواحدي. «البحر المحيط» (٥/٤٥٨).

من قراهم رسولاً، والفاء في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للعطف[١] على مقدّر يدل عليه الكلام؛ أي: فكذبوهم، فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك؛ لأنه قد بعث إليهم رُسلَه فأنذروهم وحذّروهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله، وعدم الانقياد لأنبيائه، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ قال: هو التكذيب، قال: وهو أنكر المنكر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله، وهو أعظم المعروف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٣]، في قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قال: لا يبسطونها بنفقة في حق.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قال: تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة[٥]، في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال: صَنيعُ الكفار، كالكفار.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٦]، قال: ما أشبه الليلةَ بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم، والذي نفسي بيده لتتبعنّهم حتى لو دخل رجل جُحر ضبٍ لدخلتموه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه[٧]، في قوله: ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ قال: بدينهم.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤١٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٨) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٢) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٤) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٤) بسند ضعيف؛ لضعف عمر بن عطاء.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٥) بسند ضعيف.

وأخرجا أيضاً عن أبي هريرة[١] قال: الخلاق: الدين.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ[٢]، في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ قال: بنصيبهم في الدنيا.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة[٣]، في قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ قال: لعبتم كالذي لعبوا.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾ قال: قومُ لوط، ائْتفكت بهم أرضُهم، فجُعل عاليها سافلها.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: قلوبهم[٥] متحدة في التوادد، والتحابب، والتعاطف، بسبب ما جمعهم من أمر الدين، وضمهم من الإيمان بالله، ثم بيّن أوصافهم الحميدة كما بيّن أوصاف مَنْ قبلهم من المنافقين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: عما هو منكر في الدين غير معروف، وخصّص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الرُكنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال، وقد تقدّم معنى هذا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٤) بسند ضعيف؛ لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمٰن السندي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٤) بسند حسن.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٣).

(٥) «جامع البيان» (١١/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٩٨).

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ في صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه، والإشارة بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف، والسين في ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ للمبالغة[١] في إنجاز الوعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة في الدار الآخرة، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ والإظهار[٢] في موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ ومعنى جري الأنهار من تحت الجنات: أنّها تجري تحت أشجارها وغُرفها، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾؛ أي: منازل يسكنون فيها مِن الدرّ والياقوت، و﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ يقال: عَدَنَ[٣] بالمكان: إذا أقام به، ومنه المَعْدِن؛ قيل: هي أعلى الجنّة، وقيل: أوسطها.

وقيل: قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبيّ، أو صدّيق، أو شهيد. وصف الجنة بأوصاف:

(الأوّل): جري الأنهار من تحتها.

(والثاني): أنهم فيها خالدون.

(والثالث): طيب مساكنها.

(والرابع): أنها دار عدن؛ أي: إقامة غير منقطعة، هذا على ما هو معنى عدن لغة.

وقيل: هو عَلَمٌ، والتنكير[٤] في رضوان للتحقير؛ أي: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ حقير يسير ﴿مِّنَ﴾ رضوان ﴿ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ من ذلك كله الذي أعطاهم الله إياه، وفيه دليل على أنه لا شيءَ مِنْ النعم، وإن جلّت وعظمت، يماثل رضوان الله سبحانه، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللَّهُمَّ ارضِ عنّا، رضاً لا يشوبه سخط، ولا يكدّره نكد، يا مَنْ بيده الخير كلُّه دقه وجلُّه.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ دون كل فوز مما يعدّه الناس فوزاً.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٦٧).
(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٤١٥)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٦٠).
(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٩٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٩٩).
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٤٦٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤١١).

وقد أخرج أبو الشيخ(١)، عن الضحاك، في قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال: يَدعون إلى الإيمان بالله ورسوله، والنفقات في سبيل الله، وما كان من طاعة الله ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والكفر قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة مِنْ فرائض الله كتبها الله على المؤمنين.

وأخرج أبو الشيخ(١)، عن ابن عباس، في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ قال: إخاؤهم في الله يتحابّون بجلال الله والولاية لله. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن الحسن(٢) قال: سألت عمران بن حصين، وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ قالا: على الخبير سقطتَ، سألنا عنها رسولَ الله ﷺ فقال: قصرٌ من لؤلؤة في الجنّة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زُمرّدة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة مِنْ الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، في كل مائدة سبعون لوناً مِنْ كل طعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة، فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كلِّه.

وأخرج ابنُ جرير، عن ابن عباس(٣)، في قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ قال: مَعِدنُ الرجل الذي يكون فيه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عنه(٤)، قال: معدنهم فيها أبداً.

وأخرج أبو الشيخ، عن سعيد بن جبير(٥)، في قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٢٨١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٥٢)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (١٥٧٧)، والطبراني في «الكبير» (ج١٨ رقم ٣٥٣)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٢١٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٦١١) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٠) من طريق عتَّاب بن بشير، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٠) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٣٨).

﴿أَكْبَرُ﴾ يعني: إذا أخبروا أَنَّ الله عنهم راض، فهو أكبر عندهم من التحف والتسنيم.

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، من حديث أبي سعيد[١]، قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل مِنْ ذلك؟ قالوا: يا ربنا وأيّ شيء أفضل مِنْ ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

[إنّ للين مواضعه وللشدة مواضعها]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

الأمر للنبي ﷺ بهذا الجهاد أمرٌ لأمته مِنْ بعده، وجهاد[٢] الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يُسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم، حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله.

وقال الحسن[٣]: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، واختاره [٢/٢٢٦] قتادة[٤].

قيل في توجيهه[٥]: إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٥٤٩)، ومسلم رقم (٢٨٢٩)، والترمذي رقم (٢٥٥٥)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٧٧٤٩)، وأحمد رقم (١١٨٣٥)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٤٩٠)، وفي «الأسماء والصفات» (١٠٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٤٢)، وابن منده في «الإيمان» رقم (٨٠٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠١)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٦٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٦٧) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٦٧) بسند صحيح.

(٥) ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٩٦٦).

قال ابن العربي[(١)]: إن هذه دعوى لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائماً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحدودين تشهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين.

قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ الغِلَظ: نقيضُ الرأفة، وهو شدّة القلب[(٢)] وخشونة الجانب؛ قيل: وهذه الآية نسخت كلَّ شيء مِنْ العفو والصلح والصفح، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾.

وقد اختلف أئمة التفسير[(٣)] في سبب نزول هذه الآية، فقيل: نزلت في الجُلَاس بن سويد بن الصامت، ووديعة بن ثابت، وذلك أنّه كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم، فقالا: لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شرّ مِنْ الحمير، فقال له عامر بن قيس: أجل، والله إنَّ محمداً لصادق مصدّق، وإنّك لشرّ مِنْ الحمار، وأخبر عامر بذلك النبي ﷺ، وجاء الجُلاس فحلف بالله أنّ عامراً لكاذب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللَّهُمَّ أنزل على نبيك شيئاً فنزلت.

وقيل: إنّ الذي سمع ذلك عاصم بن عدي[(٤)]، وقيل: حذيفة، وقيل[(٥)]: بل سمعه ولد امرأته؛ أي: امرأة الجُلاس، واسمه عُمير بن سعد، فهمَّ الجلاس بقتله لئلّا يُخبِر بخبره.

وقيل: إن هذه الآية نزلت[(٦)] في عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين لما قال: ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمّن كلبَك يأكلْك»[(٧)]، و﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فأخبر النبي ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أُبيّ، فحلف أنّه لم يقله.

---

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ٩٦٦).
(٢) «جامع البيان» (١١/ ٥٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٠١).
(٣) «زاد المسير» (٣/ ٤٧٠)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٦٩)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣١١).
(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٠٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥١٩).
(٥) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٦) «جامع البيان» (١١/ ٥٧٢).
(٧) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٩٠٥)، ومسلم رقم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٩٠٣)، ومسلم رقم (٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وقيل: إنّه قول[١] جميع المنافقين، وأنَّ الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة مَنْ لم يقل، ولم يحلف مِنْ المنافقين لمن قد قال وحلف.

ثم ردّ الله على المنافقين وكذّبهم وبيّن أنهم حلفوا كذباً، فقال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهي ما تقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾؛ أي: كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن.

والمعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

قوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قيل: هو همّهم بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك؛ وقيل: همّوا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أُبيّ، وقيل: هو همّ الجُلاس بقتل مَنْ سمعه يقول تلك المقالة، فأخُبر رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم مِنْ فضله، والاستثناء مفرّغ من أعمّ العامّ، وهو مِنْ باب قول النابغة[٢]:

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم ... بهنّ فُلولٌ من قراع الكتائبِ

ومن باب قول الشاعر:

ما نقَموا مِنْ بني أمية إلّا ... أنهمْ يحلُمون إنْ غضِبوا[٣]

فهو من تأكيد المدح بما يُشبه الذم.

وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق مِنْ العيش، فلما قدم النبي ﷺ المدينة اتسعت معيشتُهم، وكثرت أموالهم.

قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: فإنْ تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذي فعلوه من التوبة خيراً لهم في الدين والدنيا، وقد تاب الجُلاس بن سويد، وحَسنُ إسلامُه، وفي ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٦٧). (٢) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١١).

(٣) هو لعبد الله بن قيس الرقيات. انظر: «ديوانه» (ص٤).

وقد اختلفَ العلماء[١] في قبولها مِنْ الزنديق، فمنع من قبولها مالك وأتباعه؛ لأنَّه لا يعلم صحة توبته إذْ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾؛ أي: يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر، ونهب الأموال ﴿وَ﴾ في ﴿الأَخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ﴾ يواليهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن كعب[٢] بن مالك، قال: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجُلَّاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شرّ مِنْ الحمير، فسمعها عُمير بن سعد، فقال: والله يا جُلاس إنّك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي أثراً، وأعزّهم عليّ أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلتَ مقالةً لئن ذكرتها لتفضحنك، ولئن سكتُّ عنها لتهلكني، ولإحداهما أشدّ عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجُلاس، فحلف بالله ما قال ولكن كذب عليّ عُمير، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن ابن عباس، نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن أنس[٤] بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً مِنْ المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب: إنْ كان هذا صادقاً لنحن شرّ مِنْ الحمير؛ قال زيد: هو والله صادق، وأنت شرّ مِنْ الحمار، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فجحد القائل، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[٥]، قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظلّ شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلّموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥١٩ ـ ٥٢٠) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٢ ـ ١٨٤٣)، والبيهقي (٤/ ٥٧) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٧١)، والطبراني رقم (١٢٣٠٧)، وأحمد رقم (٢١٤٧) بسند حسن.

رسول الله ﷺ فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، وأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عَنْ قتادة[١] قال: ذُكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جُهينة والآخر من غِفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغِفاري على الجُهني، فقال عبد الله بن أُبيّ للأوس: انصروا أخاكم، والله، ما مثلنا ومثل محمد إلَّا كما قال القائل: «سمّن كلبَك يأكلْك» والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية، وفيما ذكرناه كفاية.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[٢]، في قوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قال: همّ رجل يقال له: الأسود بقتل النبي ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٣]، في قوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قال: أرادوا أن يُتوّجوا عبد الله بن أُبيّ بتاج.

وأخرج ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن ابن عباس[٤]، قال: قُتل رجل على عهد رسول الله ﷺ فجعل ديته اثني عشر ألفاً، وذلك قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال: بأخذهم الدية.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٥)، والطبراني في «الأوسط» رقم (١٧٥٩) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٥) من طريق إسماعيل بن إبراهيم الواسطي.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٧٤)، وابن ماجه رقم (٢٦٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٥)، والبيهقي (٨/ ٧٨). وهو حديث ضعيف.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾. [٢/٢٢٧]

اللام الأولى، وهي ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ الله ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ لام القسم[١]، واللام الثانية، وهي ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لام الجواب للقسَم والشرط. ومعنى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنخرج الصدقة، وهي أعمّ مِنَ المفروضة وغيرها ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: من جملة أهل الصلاح مِنَ المؤمنين القائمين بواجبات الدّين، التاركين لمحرّماته ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به؛ أي: بما آتاهم مِنْ فضله، فلم يتصدّقوا بشيء منه كما حلفوا به ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾؛ أي: أَعْرضوا عَنْ طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله مِنْ فضله، ﴿و﴾ الحال ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم مِنَ الرزق وبعده.

قولُه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ الفاعل[٢] هو الله سبحانه؛ أي: فأعقبهم الله بسبب البخل الذي وقع منهم والإعراض، نفاقاً كائناً في قلوبهم، متمكناً منها، مستمراً فيها إِلَى يَوْمَ يَلْقونَ الله ﷻ، وقيل: إنّ الضمير يرجع إلى البخل؛ أي: فأعقبهم البخلُ بما عاهدوا الله عليه نفاقاً كائناً في قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم؛ أي: جزاء بخلهم.

ومعنى ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أن الله سبحانه جعل النِّفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع مِنْهم من البخل، والباء[٣] في ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾

(١) «البحر المحيط» (٥/٤٦٦)، و«التبيان» (٢/٦٥٢).
(٢) «روح المعاني» (١٠/٤٣٣ ـ ٤٣٤)، و«البحر المحيط» (٥/٤٦٧).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٣/٤١٦)، و«روح المعاني» (١٠/٤٣٣).

للسببية؛ أي: بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدّق والصلاح، وكذلك الباء في ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ أي: وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ، ثم أنكر عليهم فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾؛ أي: المنافقون، وقرئ[1] بالفوقية خطاباً للمؤمنين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾؛ أي: جميع ما يسرونه مِنْ النفاق، وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي ﷺ، وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء مِنْ الأشياء المغيبة كائناً ما كان، ومِنْ جملة ذلك ما يصدر عَنْ المنافقين.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الموصول[2] محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ بدلاً من الضمير في سرّهم ونجواهم، ومعنى ﴿يَلْمِزُونَ﴾: يعيبون.

وقد تقدّم تحقيقه، والمطوّعين؛ أي: المتطوّعين، والتطوّع: التبرّع. والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى الله عَنْ هذا، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، ولم يكن لله خالصاً، و﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ متعلق بيلمزون؛ أي: يعيبونهم في شأنها.

قولُه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ معطوف على المطوّعين[3]؛ أي: يلمزون المتطوّعين، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم؛ وقيل: معطوف على المؤمنين؛ أي: يلمزون المتطوّعين مِنْ المؤمنين، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم، وقرئ «جَهدهم» بفتح الجيم، والجهد بالضم الطاقة، وبالفتح المشقة، وقيل: هما لغتان ومعناهما واحد، وقد تقدّم بيان ذلك.

والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدّقون بما فضل عن كفايتهم.

قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ معطوف على يلمزون[4]؛ أي: يستهزءون بهم لحقارة ما

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٥٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٦٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٤٦٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧). القراءة بالتاء الفوقية قراءة شاذة.

(٣) «التبيان» (٢/ ٦٥٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٦٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٣٩). وقراءة «جَهدهم» بفتح الجيم هي للأعرج وهي قراءة شاذة «البحر» (٥/ ٧٥).

(٤) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٦٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٦٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٤٠).

يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقلّ، وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه، قوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره، وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: ثابت مستمر شديد الألم.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في «الأمثال»، والطبراني، وابن منده، والباورديّ، وأبو نعيم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، عن أبي أُمامة[1] الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «ويلك يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه». قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «ويحك يا ثعلبة: أما تحبّ أن تكون مثلي، فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت» فقال: يا رسول الله، ادع الله أَنْ يرزقني مالاً، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالاً لأعطي كلَّ ذي حق حقه، قال: «ويحك يا ثعلبة، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه»، قال: يا رسول الله، ادع الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارزقه مالاً»؛ قال: فاتخذ غنماً فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فتنحَّى بها، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ، ولا يشهدها بالليل، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحّى بها، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه، فتنحّى بها، فكان لا يشهد جمعةً ولا جنازة مع رسول الله ﷺ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عَنْ الأخبار، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنه اشترى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٧)، والطبراني رقم (٧٨٧٣)، والبيهقي (٥/ ٢٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١٢/ ٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» رقم (١٣٧٥).
• قال ابن حجر في «الإصابة» (١/ ٤٠٠): «وفي كون صاحب هذه القصة ـ إن صح الخبر ـ ولا أظنه يصح ـ هو البدري المذكور قبله ـ فيه نظر، وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي: إنَّ البدري استشهد بأحد. . . . وقد ثبت أنه ﷺ قال: لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية، وحكى عن ربه أنّه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه. . .».
وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤/ ١١٤): «وهذا حديث منكر على شهرته».

غنماً، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ: «وَيْحَ ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب»؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات، وأنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجلاً مِنْ جهينة ورجلاً من بني سَلِمة يأخذان الصدقات، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها ووجوهها، وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب، وبرجل من بني سليم، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة، فقال: أرياني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلَّا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مرا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله، فقالا: إنما عليك دون هذا، فقال: ما كنتُ أتقرب إلى الله إلَّا بخير ما لي، فقبلا، فلما فرغا مرَّا بثعلبة، فقال: أرياني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى قدما المدينة، فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: «وَيْحَ ثعلبة بن حاطب»، ودعا للسلميّ بالبركة، وأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الثلاث الآيات، قال: فسمع بعض أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد منعني أن أقبل منك»، فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني»، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى؛ ثم أتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر: اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر؛ ثم ولي عمر بن الخطاب، فأتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي، قال: ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي ﷺ، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها؛ ثم ولي عثمان فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك في خلافة عثمان، وفيه نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ قال: وذلك في الصدقة.

وهذا الحديث هو مرويّ من حديث معاذ بن رفاعة، عن عليّ بن زيد، عن أبي عبد الرحمٰن [٢/٢٢٨] القاسم بن عبد الرحمٰن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية، وذلك أَنْ رجلاً كان يقال له: ثعلبة مِنْ الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله؛ آتيت كلَّ ذي حق حقه، وتصدّقت منه، وجعلت منه للقرابة؛ فابتلاه الله فآتاه من فضله، فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده، فقص الله شأنه في القرآن.

وأخرج أبو الشيخ[٢]، عن الحسن، أن رجلاً من الأنصار هو الذي قال هذا، فمات ابنُ عمٍّ له، فورث منه مالاً، فبخل به، ولم يف بما عاهد الله عليه، فأعقبه بذلك نفاقاً في قلبه إلى أن يلقاه. قال ذلك: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عن أبي مسعود[٣]، قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير، فقالوا: مُراء؛ وجاء أبو عَقِيل بنصف صاع، فقال المنافقون: إن الله لغنيّ عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية، وفي الباب روايات كثيرة.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن قتادة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾؛ أي: يطعنون على المطوّعين.

[قصة المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك]:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٩)، والبيهقي (٥/ ٢٨٩) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (١٤١٥، ٤٦٦٨)، ومسلم رقم (١٠١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٠)، وأبو نعيم في «المعرفة» رقم (٢٢٨٣).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٥٢).

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أخبر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ بأنّ صدور[(١)] الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء، وذلك لأنّهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ، ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ﴾ [التوبة: ٥٣]، ثم قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين، وإنْ أكثر النبي ﷺ من الاستغفار لهم، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مَقْبولاً، كما في سائر مفاهيم الأعداد؛ بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول. فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير.

والمعنى: أنّه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة، غاية المبالغ.

وقد ذهب بعضُ الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، ويدل لذلك ما سيأتي عن النبي ﷺ أنَّه قال: لأزيدنّ على السبعين[(٢)].

وذكر بعضُهم لتخصيص السبعين وجهاً فقال: إن السبعة عدد شريف؛ لأنها عدد السمٰوات، والأرضين، والبحار، والأقاليم، والنجوم السيارة، والأعضاء، وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها.

وقيل: خُصت السبعون[(٣)] بالذكر لأنه ﷺ كبّر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة، فكأنَّه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة. وانتصاب سبعين على المصدر كقولهم: ضربته عشرين ضربةً. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ﴾؛ أي: ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾؛ أيْ: المتمرّدين الخارجين عَنْ الطاعة المتجاوزين لحدودها، والمراد هُنا: الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٢١)، و«جامع البيان» (١١/ ٥٩٨).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٤٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٧٢).

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر مِنْ قبائح المنافقين، فقال: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ المخلّفون: المتروكون، وهم الذين استأذنوا رسولَ الله ﷺ من المنافقين، فأذن لهم وخلّفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلّفهم الله وثبّطهم، أو الشيطان، أو كسلُهم، أو المؤمنون، ومعنى ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم[1] يقال: قعد قعوداً ومقعداً؛ أي: جَلَس، وأقعده غيرَه، ذكر معناه الجوهري فهو متعلّق بفرح؛ أي: فرح المخلّفون بقعودهم، وخلاف رسول الله منتصب على أنّه ظرف لمقعدهم.

قال الأخفش[2] ويونس: الخلاف بمعنى الخَلْف؛ أي: بعد رسول الله ﷺ، وذلك أَنّ جهة الإمام التي يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف. وقال قطرب والزجاج[3]: معنى خلاف رسول الله: مخالفة الرسول حين سار وأقاموا، فانتصابه على أنّه مفعول له؛ أي: قعدوا لأجل المخالفة، أو على الحال مثل وأرسلَها العراكَ؛ أي: مخالفين له، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أَبي حيوة: «خَلْف رسول الله».

قوله: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبب ذلك الشحّ بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان، وداعي الإخلاص، ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم، وانتفاء الصارف عنهم ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾؛ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم، وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقول لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ والمعنى: إنكم أيها المنافقون كيف[4] تفرّون من هذا الحرّ اليسير؟!، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشدّ حرّاً مما فررتم منه فإنكم إنما فررتم من حرٍّ يسير في زمن قصير، ووقعتم في حرّ كثير في زمن كبير، بل غير متناهٍ أبد الآبدين، ودهر الداهرين.

فكنتَ كالساعي إلى مَثْعَبٍ مُوائِلاً من سَبَلِ الراعِدِ

وجواب «لو»[5] في ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ مقدّر؛ أي: لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا. قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ هذان الأمران

---

(١) في «الصحاح» (٢/ ٥٢٥).
(٢) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٨).
(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٣).
(٤) انظر: «روح المعاني» (١٠/ ٤٤٩).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٤٩).

معناهما الخبر، والمعنى: فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، وإنما جيء بهما على لفظ الأمر، للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، وقليلاً وكثيراً منصوبان[١] على المصدرية أو الظرفية؛ أي: ضحكاً قليلاً، وبكاءً كثيراً، أو زماناً قليلاً، وزماناً كثيراً ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصي، وانتصاب[٢] جزاء على المصدرية؛ أي: يجزون جزاءً ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ الرجع متعدّ كالردّ، والرجوع: لازم، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ﴾؛ لأن جميع مَنْ أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ، وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خُلِّفوا، وسيأتي بيان ذلك.

وقيل: إنما قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ﴾؛ لأن منهم مَنْ تاب عن النفاق، وندم على التخلف ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾؛ أي: قل لهم ذلك عقوبةً لهم، ولما في استصحابهم من المفاسد، كما تقدم [٢/٢٢٩] في قوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [التوبة: ٤٧]، وقرئ بفتح الياء[٣] مِنْ (معيَ) في الموضعين، وقرئ بسكونها[٤] فيهما.

وجملة: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[٥] للتعليل؛ أي: لن تخرجوا معي، ولن تقاتلوا؛ لأنّكم رضيتم بالقعود والتخلف أوّل مرّة، وهي غزوة تبوك، والفاء في ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والخالفين جمع خالف؛ كأنهم خلفوا الخارجين، والمراد بهم: من تخلف عن الخروج.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٥٠).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٤٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٠).

(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١١)، و«النشر» (٢/ ٢٨١)، و«التبصرة» (ص٥٣٢). الإسكان في «معيْ أبداً» عن يعقوب والكوفيين عدا حفصاً، والباقون بالفتح. الإسكان في «مَعيْ عدواً» عن العشرة عدا حفصاً فبالفتح، والقراءاتان متواترتان. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٦).

(٤) «التيسير» (ص١٢٠)، و«النشر» (٢/ ٢٨١).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٥٣).

وقيل: المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين، مِنْ قولهم: فلان خالفَ أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم، مِنْ قولك[١]: خَلَفَ اللبن؛ أي: فسد بطول المكث في السقاء. ذكر معناه الأصمعي[٢]، وقرئ: «فَاقْعُدُوا مَعَ الخَلِفِين»[٣] وقال الفرّاء[٤]: معناه: المخالفين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عروة أن عبد الله[٥] بن أُبيّ قال: لولا أنّكم تُنفقون على محمد وأصحابه لانفضّوا من حوله، وهو القائل: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فأنزل الله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فقال النبي ﷺ: لأزيدنّ على السبعين. فأنزل الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد[٦] نحوه.

وأخرج ابن جرير[٧]، عن ابن عباس، نحوه.

وأخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، عن ابن عباس[٨] قال: سمعت عمر يقول: لما تُوفّي عبد الله بن أُبيّ دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه، فلما وقف قلت: أعلى عدوّ الله عبد الله بن أُبيّ القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ أُعدّد أيامه، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت قال: «يا عمر أَخِّر عني، إنِّي قد خُيِّرت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤١).
(٢) ذكره الجوهري في «الصحاح» (٤/ ١٣٥٧).
(٣) «المحتسب» (١/ ٢٩٨)، و«القراءات الشاذة» (٥٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٧٦). وهي قراءة شاذة.
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٤٧).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٥٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٤) من طريق عبدة بن سليمان، به.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠٠) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠١) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٤)، والبخاري رقم (١٣٦٦، ٤٦٧١)، والترمذي رقم (٣٠٩٧)، والنسائي في «المجتبى» رقم (١٩٦٥)، وفي «الكبرى» رقم (١١٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٣)، والنحاس في «ناسخه» (ص٥٢٣، ٥٢٤)، وابن حبان رقم (٣١٧٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٣ ـ ٤٤).

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فلو أعلم أني إن زدتُ على السبعين غفر له، لزدتُ عليها»، ثم صلّى عليه رسول الله ﷺ، ومشى معه حتى قام على قبره، حتى فرغ منه، فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلمُ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله ﷻ.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(١)، في قوله: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية قال: عن غزوة تبوك.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس(٢)، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله الحرُّ شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحرّ، فقال الله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ فأمره بالخروج.

وأخرج ابن مردويه(٣)، عن جابر بن عبد الله، نحوه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس(٤)، في قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ قال: هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، يقول الله: فليضحكوا قليلاً في الدنيا، وليبكوا كثيراً في الآخرة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(٥)، في قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال: ذُكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، وفيهم قيل ما قيل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٥) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠٩) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال: هم الرجال الذين تخلّفوا عن الغزو.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿مَّاتَ﴾ صفة لأحدٍ[٢]، و ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لتأييد[٣] النفي. قال الزجاج[٤]: معنى قوله: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ أن رسول الله ﷺ كان إذا دفن الميت وقف على قبره، ودعا له فمُنع ها هنا منه.

وقيل: معناه: لا تقم بمهمات إصلاح قبره.

وجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ تعليل للنهي[٥]. وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، والكذبُ، والنفاق، والخداع، والجبن، والخبث، مستقبحة في كلِّ دين. ثم نهى رسوله عَنْ أن تُعجبه أموالهم وأولادهم.

وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه.

وقيل: إن الآية المتقدّمة في قوم، وهذه في آخرين.

وقيل: هذه في اليهود، والأولى: في المنافقين.

وقيل غير ذلك.

وقد تقدّم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية، ثم عاد الله

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٠٩) بسند صحيح.
(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٤٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٧٧).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٥٥).
(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٤).
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٤٥٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٧٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢١).

سبحانه إلى توبيخ المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: مِنْ القرآن، ويجوز أن يراد بعض السورة، وأن يراد تمامها.

وقيل: هي هذه السورة؛ أي: سورة براءة، و «أن»[١] في ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ مفسِّرة لما في الإنزال من معنى القول؛ أو مصدرية حذف منها الجارّ؛ أي: بأن آمنوا، وإنما قدّم الأمر بالإيمان؛ لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ذوو الفضل والسَّعة[٢]، من طال عليه طولاً، كذا قال ابن عباس[٣] والحسن.

وقال الأصمّ: الرؤساء والكبراء المنظور إليهم، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم، إذ لا عذر لهم في القعود ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا﴾؛ أي: اتركنا ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ أي: المتخلفين عنِ الغزو من المعذورين، كالضعفاء والزمْنَى، والخوالف: النساء اللّاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، جمع خالِفة.

وجوّز بعضهم أن يكون جمع خالِف، وهو مَنْ لا خير فيه: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هو كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقد مرّ تفسيره ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم، بل هم كالأنعام.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن ابن عمر[٤] قال: لما توفي عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، أتى ابنهُ عبدُ الله رسولَ الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسولَ الله ﷺ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسولَ الله أتصلي عليه، وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «إنَّ ربي خيّرني وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيد على السبعين» فقال: إنِّه منافق، فصلى عليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية، فترك الصلاة عليهم.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٢)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٥٩).
(٢) «معالم التنزيل» (٤/ ٨٢).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٦١٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٥٩).
(٤) أخرجه البخاري رقم (١٢٦٩، ٤٦٧٠، ٥٧٩٦)، ومسلم رقم (٢٤٠٠، ٢٧٧٤)، وابن ماجه رقم (١٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٧)، والبيهقي (٥/ ٢٨٧).

وأخرج ابن ماجه، والبزار، وابن جرير، وابن مردويه، عن جابر(١)، قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبيّ ﷺ، وأن يكفنه في قميصه، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك. فصلى عليه، وألبسه قميصه، وقام على قبره، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس(٢)، في قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ قال: أهل الغنى.

وأخرج هؤلاء، عن ابن عباس(٣)، في قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ قال: مع النساء.

وأخرج ابن أبي حاتم(٤)، عن السديّ، في الآية قال: رضوا بأَنْ يقعدوا كما قعدت النساء.

وأخرج أبو الشيخ(٥)، عن قتادة، قال: الخوالف النساء. [٢/٢٣٠]

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٨٩﴾.

المقصود من الاستدراك(٦) بقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى آخره: الإشعار بأن

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (١٥٢٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦١١، ٦١٢). وهو حديث منكر.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦١٦) بسند صحيح، من طريق علي، عن ابن عباس.
● وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٨) بسند ضعيف، من طريق الضحاك، عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٩) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٩) من طريق أسباط، عن السُّدي.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٠).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦١٧ ـ ٦١٨) بسند صحيح.

(٦) «روح المعاني» (١٠/ ٤٦٠).

تخلّف هؤلاء غير ضائر، فإنّه قد قام بفريضة الجهاد مَنْ هو خير منهم، وأخلص نية كما في قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقد تقدّم بيان الجهاد بالأموال والأنفس، ثم ذكر منافع الجهاد فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ وهي: جمع خير، فيشمل منافع الدنيا والدّين.

وقيل: المراد به: النِّساء[1] الحسان كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧٠] ومفرده خَيِّرة بالتشديد ثم خفّفت مثل هيِّنة وهيْنة: وقد تقدّم معنى الفلاح، والمراد به هنا: الفائزون بالمطلوب، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم، والجنّات: البساتين.

وقد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها، وبيان الخلود والفوز.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم مِنْ الخيرات والفلاح، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة، ووصف الفوز بكونه عظيماً يدلّ على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز.

وقد أخرج القرطبي في «تفسيره»[2]، عن الحسن أنه قال: الخيرات: هنّ النِّساء الحسان.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

قرأ الأعرج والضحاك ﴿المُعْذِرُون﴾ بالتخفيف[2]، مِنْ أعذر، ورواها أبو كريب عَنْ أبي بكر عَنْ عاصم، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس.

قال في الصحاح[3]: وكان ابن عباس[4] يقرأ: وَجَآءَ المُعْذِرُون مخففة من أعذر، ويقول: واللهِ هكذا أنزلت.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٢٨).

(٢) «النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦١)، و«المحتسب» (١/ ٦٠)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٤).

(٣) الجوهري في «الصحاح» (٢/ ٧٤١).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٠).

قال النّحاس[1]: إلا أن مدارها على الكلْبي، وهي مِنْ أعذر: إذا بالغ في العذر، ومنه: «مَنْ أنذر فقد أعذر»؛ أي: بالغ في العذر.

وقرأ الجمهور[2] المُعَذِّرون بالتشديد ففيه وجهان، أحدهما: أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء في الذال، وهم: الذين لهم عذر، ومنه قول لبيد[3]:

إلى الحَولِ ثُم اسمُ السلام عليكما ... ومَنْ يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذْر

فالمعذِّرون على هذا: هم المحقون في اعتذارهم.

وقد روي هذا عَنْ الفراء[4]، والزجاج[5]، وابن الأنباري[6]؛ وقيل: هو من عذّر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له، يقال: عذّر في الأمر: إذا قصّر واعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهري وصاحب[7] «الكشّاف»؛ فالمعذِّرون على هذا: هم المبْطلون؛ لأنهم اعتذروا بأعذارٍ باطلةٍ لا أصل لها.

وروي عَنْ الأخفش[8]، والفرّاء[9]، وأبي حاتم[10]، وأبي عُبيد، أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع.

والمعنى: أنَّه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين؛ لأجل أنْ يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلّف عن الغزو، وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عَنْ الغزو لغير عذرٍ، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسولَه، ولم يؤمنوا ولا صدّقوا، ثم توعدهم الله سبحانه، فقال:

---

(١) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٢٠).
(٢) «النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨١)، و«جامع البيان» (١١/ ٦٢٠). قراءة (المُعْذِرون) بضم الميم وسكون العين وكسر الذال خفيفة، هي قراءة يعقوب. و(المُعَذِّرون) بضم الميم وفتح العين وكسر الذال مشدّدة قراءة باقي العشرة، وهما متواترتان وما ذكره عن الأخفس ومَنْ معه هو من باب الجواز اللُّغوي. والقراءة المشهورة عن أبي بكر عن عاصم بالتشديد. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٦).
(٣) انظر: «ديوان لبيد» (ص٧٩).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٤٦٤).
(٦) في كتاب «الأضداد» (ص٣٢٠ ـ ٣٢١).
(٧) في «الكشاف» (٣/ ٨٠).
(٨) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩).
(٩) في «معاني القرآن» (١/ ٤٤٨).
(١٠) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٩).

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: مِنْ الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا؛ بل كذبوا بالله ورسوله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: كثير الألم، فيصدق على عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

وقد أخرج ابن المنذر[١]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ أي: أهل العُذْر منهم.

وروى ابن أبي حاتم[٢]، عنه، نحو ذلك.

وأخرج ابن الأنباري في كتاب «الأضداد»[٣] عنه أيضاً أنه كان يقول: «لعن الله المُعذِّرين» ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذِّر بالتشديد: هو المظهر للعذر اعتلالاً مِنْ غير حقيقة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن إسحاق[٤]، في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال: ذُكر لي أنهم نفر من بني غِفار، جاءوا فاعتذروا، منهم: خُفاف بن إيماء؛ وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا، ومواشينا.

[الإسلام دين اليسر لا يكلف الله نفساً إلا وسعها]:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٠).
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٠) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٠).

(٣) أخرجه ابن الأنباري في كتاب «الأضداد» (ص٣٢١) بسند ضعيف، من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأبو حفص الخزاز، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وسنده ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٣) بسند صحيح.

[الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو]:

لما ذكر سبحانه المُعَذِّرون، ذكر بعدهم أهل الأعذار[1] الصحيحة المسقطة للغزو، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة. فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ وهم: أرباب الزَّمانة، والهَرَم، والعَمَى، والعرج، ونحو ذلك، ثم ذكر العذر العارض، فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ والمراد بالمرضى: كلّ ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً؛ وقيل: إنّه يدخل في المرضى: الأعمى والأعرج ونحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال، لا إلى البدن فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾؛ أي: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرَج، وأبان أنّ الجهاد مع هذه الأعذار [٢/٢٣١] ساقط عنهم غير واجب عليهم، مقيداً بقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وأصل النُّصح: إخلاصُ العمل مِنْ الغش، ومنه التوبة النصوح.

قال نفطويه[2] نصَحَ الشيء: إذا خَلَص، ونصح له القول؛ أي: أَخْلَصه له. والنصحُ لله: الإيمان به، والعمل بشريعته. وترك ما يخالفها كائناً ما كان، ويدخل تحته دخولاً أوّليّاً نصح عباده. ومحبة المجاهدين في سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد.

وترك المعاونة لأعدائهم بوجه مِنْ الوجوه؛ ونصيحة الرسول ﷺ: التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به، أو ينهي عنه، وموالاة مَنْ والاه، ومعاداة مَنْ عاداه، ومحبته وتعظيم سُنَّته، وإحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة.

وقد ثبت في الحديث الصحيح[3] أنَّ النبيّ ﷺ قال: «الدين النصيحة ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٣١).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه البخاري، ضمن ترجمة باب ولم يخرجه مسنداً رقم (٥٧)، ومسلم رقم (٩٥/ ٥٥)، وأبو داود رقم (٤٩٤٤)، والترمذي رقم (١٩٢٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٥١، ٢/ ٢٩٧).

وجملةُ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ مقرّرة لمضمون[(١)] ما سبق؛ أي: ليس على المَعْذورين الناصحين مِنْ سبيل؛ أي: طريق عقاب، ومؤاخذة. و(من) مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ موضوعاً في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً. أو يكون المراد: ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً مِنْ جملتهم، فتكون الجملة تعليلية[(٢)].

وجملة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلية[(٣)]. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين، لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه، مع رغبتهم إليه لولا حَبَسهم العذرُ عنه، ومنه حديث أنس[(٤)] عند أبي داود وأحمد، وأصله في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم من مسيرٍ، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً إلَّا وهم معكم فيه». قالوا: يارسولَ الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: «حبسهم العذرُ».

وأخرجه أحمد، ومسلم، من حديث جابر[(٥)]. ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين مَنْ تضمنه قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ والعطف على جملة[(٦)] ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل. ويجوز أن تكون عطفاً على الضعفاء؛ أي: ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج.

والمعنى: أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو، فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك. قيل: وجملة ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٤٦٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٤).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٤٨٣).
(٣) «روح المعاني» (١/ ٤٦٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٤).
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٣، ١٦٠، ١٨٢، ٢١٤)، والبخاري رقم (٤٤٢٣)، وأبو داود رقم (٢٥٠٨)، وابن ماجه رقم (٢٧٦٤).
(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٠٠، ٣٤١).
(٦) «التبيان» (٢/ ٦٥٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦٤)، و«البحر المحيط» (٣/ ٤٢٥).

﴿عَلَيْهِ﴾ في محل نصب[١] على الحال من الكاف في أتوك بإضمار قد؛ أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد؛ وقيل: هي بدل من أتوك؛ وقيل: جملة معترضة بين الشرط والجزاء، والأوّل: أولى.

وقوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب[٢] إذا، وجملة: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ في محل نصب[٣] على الحال؛ أي: تولّوا عنك لمّا قلتَ لهم: لا أجدُ ما أحملكم عليه، حال كونهم باكين، و﴿حَزَنًا﴾ منصوب على المصدرية[٤]، أو على العِلِّية، أو الحالية، و﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ مفعول[٥] له، وناصبه ﴿حَزَنًا﴾ وقال الفراء[٦]: «أن» (لا) بمعنى ليس؛ أي: حزناً أنْ ليس يجدوا؛ وقيل: المعنى: حزناً على أن لا يجدوا.

وقيل: المعنى: حزناً أنهم ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ ما ينفقون لا عند أنفسهم ولا عندك. ثم ذكر الله سبحانه مَنْ عليه السبيل من المتخلفين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: طريق العقوبة والمؤاخذة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلّف عن الغزو، ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم أغنياء﴾؛ أي: يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به.

وجملة: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مستأنفة[٧] كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء. وقد تقدّم تفسير الخوالف قريباً.

وجملة: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوفة[٨] على ﴿رَضُواْ﴾؛ أي: سبب[٩] الاستئذان مع الغنى أمران:

(أحدهما): الرضا بالصفقة الخاسرة، وهي أن يكونوا مع الخوالف.

(والثاني): الطبع مِنْ الله على قلوبهم ﴿فَهُمْ﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه الربح لهم، حتى يختاروه على ما فيه الخسر.

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٨١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٥).
(٢) «التبيان» (٢/ ٦٥٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦٦)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٥٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨٤).
(٥) «الكشاف» (٣/ ٨١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٨٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦٨).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٤٨).
(٧) «البحر المحيط» (٥/ ٤٨٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦٨).
(٨) «البحر المحيط» (٥/ ٤٨٩).
(٩) «روح المعاني» (١٠/ ٤٦٤)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والدارقطني في الإفراد، وابن مردويه، عن زيد بن ثابت[(١)]، قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة، فكنت أكتب ما أنزل عليه، فإنّي لواضع القلم على أُذني إذ أُمِرْنا بالقتال، فجعل رسولُ الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[(٢)]، قال: أُنزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد[(٣)]، قال: نزل من عند قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] إلى قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في المنافقين.

وأخرج أبو الشيخ[(٤)]، عن الضحاك، في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ قال: ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطيقوا الجهاد، فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين، ألم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] فجعل الله للذين عذر من الضعفاء، وأولي الضرر، والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين.

وأخرج أبو الشيخ[(٥)]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ لأهل الإساءة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأخرج ابن مردويه[(٦)]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ الآية، قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، [٢/٢٣٢] فقالوا: يا رسول الله احملنا،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦١) بسند حسن.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦١) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٢).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٢).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٤) بسند ضعيف.

فقال: والله ما أجدُ ما أحملكم عليه، فتولّوا ولهم بكاء، وعَزيز عليهم أَنْ يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فأنزل الله عذرهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن عبد الله بن مُغفّل[١]، قال: إني لا أجد الرهط الذين ذكر الله ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[٢]، عن محمد بن كعب، قال: هم سبعة نفر من بني: عمرو بن عوف سالم بن عمير، ومِنْ بني واقف حرميّ بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمٰن بن كعب يكنى أبا ليلى، ومن بني المعلّى سلمان بن صخر، ومن بني حارثة عبد الرحمٰن بن زيد أبو عبلة، ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عَمرو المُزنّي.

وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة. واختلفوا في البعض، ولا يأتي التطويل في ذلك بكثير فائدة.

وأخرج ابنُ إسحاق[٣]، وابنُ المنذر، وأبو الشيخ، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمر بن قتادة، وغيرهم أن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم: البكّاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، ثم ذكروا أسماءهم، وفيه، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة. قال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن الحسن[٤]، قال: كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه سعد في «الطبقات» (١/ ١٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٦ ـ ٦٢٧) بسند ضعيف؛ لضعف أبي معشر وهو نجيح.

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٢٧) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٤).

وأخرج ابن أبي حاتم(١)، عن أنس بن مالك، في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ قال: الماء والزاد.

وأخرج ابن المنذر(٢)، عن عليّ بن صالح، قال: حدّثني مشيخة من جُهينة، قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحُمْلان، فقالوا: ما سألناه إلا الحُمْلان على النِّعال.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن إبراهيم بن أدهم(٣)، عمن حدّثه في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ قال: ما سألوه الدوابّ ما سألوه إلا النِّعال.

وأخرج ابن أبي حاتم(٤)، عَنْ الحسن بن صالح، في الآية قال: استحملوه النِّعال.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، عَنْ مجاهد(٥)، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ قال: هي وما بعدها إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦] في المنافقين.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٣) من طريق عبد الرحمٰن بن إسحاق، به.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٥).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٣) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٠) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٥) بسند صحيح.

[تقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب]:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ إخبار[1] من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل، بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو، وهذا كلام مُسْتأنَف، وإنما قال: ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى المعتذرين بالباطل، ولم يقل إلى المدينة؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها، ثم أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يجيب به عليهم، فقال: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ فنهاهم أوّلاً عَنْ الاعتذار بالباطل، ثم علّله بقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: لن نصدقكم، كأنهم ادّعوا أنهم صادقون في اعتذارهم؛ لأن غرض المعتذر أن يُصدّق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنّه لا يُصدّق ترك الاعتذار، وجملة ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليلية[2] للتي قبلها؛ أي: لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنَا بالوحي ما هو منافٍ لصدق اعتذاركم، وإنما خصّ الرسول ﷺ بالجواب عليهم، فقال: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين؛ لأنه ﷺ رأسُهم، والمتولّي لما يرد عليهم من جهة الغير، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير في قوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ هو الرسول ﷺ على التأويل المشهور في مثل هذا.

قوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾؛ أي: ما ستفعلونه مِنْ الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن مِنْ الشرّ أم تبقون عليه؟

---

(١) «جامع البيان» (١١/٦٢٩ ـ ٦٣٠)، و«روح المعاني» (١٠/٤٧١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٣٣٦ ـ ٣٣٧).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/٤٢٧)، و«روح المعاني» (١٠/٤٦٩).

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف[١] على الاسم الشريف، ووسّط مفعول الرؤية إيذاناً، بأنّ رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه مِنْ خير أو شرّ هي التي يدور عليها الإِثابة أو العقوبة.

وفي جملة: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخرها تخويف شديد، لما هي مشتملة عليه من التهديد، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر، لإِشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه، ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحَلْف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو، وغرضهم من هذا التأكيد هو: أَنْ يُعْرض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلّف، ويُظهرون الرضا عنهم، كما يفيده ذكر الرضا من بعد، وحذف [٢/٢٣٣] المحلوف عليه لكون الكلام يدلّ عليه، وهو اعتذارهم الباطل، وأمر المؤمنين بالإِعراض عنهم المراد به: تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم، كما تفيده جملة ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ الواقعة علّةً للأمر[٢] بالإِعراض.

والمعنى: أنهم في أنفسهم رجْسٌ لكون جميع أعمالهم نجسة، فكأنها قد صيرت ذواتهم رجساً، أو أنهم ذوو رجس؛ أي: ذوو أعمال قبيحة، ومثله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإِرشاد إلى الخير، والتحذير مِنْ الشرّ، فليس لهم إلا الترك.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مِنْ تمام التعليل[٣]؛ فإن مَنْ كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير، والمأوى: كلُّ مكان يأوي إليه الشيء، ليلاً أو نهاراً. وقد أَوَى فلانٌ إلى منزله، يأوي أُويّاً وإيواءً. و﴿جَزَآءًۢ﴾ منصوب[٤] على المصدرية، أو على العلّية، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ للسببية[٥]، وجملة ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ بدل[٦] مما تقدّم. وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق، والمحلوف عليه

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٧).
(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٤٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٨).
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٤٧٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٨).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٥٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٧٢).
(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٤٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٢٨).
(٦) انظر: المصدرين المتقدمين.

لمثل ما تقدّم، وبيَّن سبحانه أن مقصدهم بهذا الحَلْف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد أنّه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغي لكم أيها المؤمنون أنْ لا تفعلوا خلاف ذلك؛ بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم؛ على أنَّ رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتدّ به، ولا مفيد لهم. والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضائه عنهم، نهيُ المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على مَنْ لا يرضى الله عليه ممّا لا يفعله مؤمن.

قولُه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة، ذكر حال مَنْ كان خارجاً عنها من الأعراب، وبيَّن أن كفرهم ونفاقهم أشدّ من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم؛ لأنّهم أقسى قلباً، وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً، وأبعد عَنْ سماع كتب الله، وما جاءت به رسله.

والأعراب: هم مَنْ سكن البوادي بخلاف العرب، فإنّه عام لهذا النوع من بني آدم، سواء سكنوا البوادي أو القرى، هكذا قال أهل اللغة[(١)]، ولهذا قال سيبويه[(٢)]: إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب.

قال النيسابوري[(٣)]: قال أهلُ اللغة: رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً، وجمعه عَرْبٌ، كالمجوسيّ والمجوسِ، واليهوديّ واليهود؛ فالأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح، وإذا قيل للعربي: يا أعرابي غضب، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربي، ومَنْ نزل البادية فهو أعرابي، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار: أعراب، وإنما هم عرب.

قال[(٤)]: قيل: إنما سُمّي العرب عرباً لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشئوا بالعرب، وهي مِنْ تهامة فنسبوا إلى بلدهم، وكل مَنْ يسكن جزيرة العرب، وينطق بلسانهم فهو منهم.

---

(١) «الصحاح» (١/ ١٧٨)، و«تهذيب اللغة» (٢/ ٣٦٦).
(٢) في «الكتاب» (٣/ ٣٧٩).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٤١) عن القشيري. وانظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ٣٦٦).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٤١).

وقيل: لأن ألسنهم مُعْرِبة عمَّا في ضمائرهم، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة. انتهى. ﴿وَأَجْدَرُ﴾ معطوف[١] على أشد، ومعناه أَخْلَق، يقال: فلان جدير بكذا؛ أي: خَليق به، وأنت جَدير أن تفعل كذا، والجمع: جدر، أو جديرون، وأصله مِنْ جذْر الحائط، وهو رفعه بالبناء.

والمعنى: أنهم أحق وأخلق بـ﴿أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الشرائع والأحكام، لبعدهم عن مواطن الأنبياء، وديار التنزيل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم، وهؤلاء منهم: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به من خير وشرّ.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ هذا تنويع لجنسٍ إلى نوعين، الأوّل: هؤلاء، والثاني: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ والمغرم الغرامة والخسران، وهو ثاني[٢] مفعولي يتخذ؛ لأنَّه بمعنى الجعل.

والمعنى: اعتقدَ أنّ الذي ينفقه في سبيل الله غرامةً وخسران، وأصل الغُرْم[٣] والغَرامة: ما ينفقه الرجل وليس بلازمٍ له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرياء والتقية.

وقيل: أصل الغرم: اللزوم، كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس.

و﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾ جمع دائرة، وهي الحالة المنقلبة عَنْ النعمة إلى البلية، وأصلها: ما يحيط بالشيء، ودوائر الزمان: نُوَبُه وتصاريفه، ودُوله، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلاً لما أرادوه بالمسلمين.

و«السَوءَ» بالفتح[٤] عند جمهور القرّاء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة؛ كقولك رجلُ صدقٍ.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، بضم السين[٥]، وهو المكروه. قال الأخفش[٦]؛ أي: عليهم دائرة الهزيمة والشرّ.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣١).

(٢) «التبيان» (٢/ ٦٥٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٤١).

(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٤٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٨٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٢).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. (٦) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٥٩).

وقال الفراء[(١)]: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ العذاب والبلاء.

قال[(٢)]: والسَوء بالفتح مصدر سؤته سوءاً ومساءة، وبالضم اسم لا مصدر، وهو كقولك: دائرةُ البلاء والمكروه ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدّم؛ أي: يصدّق بهما ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾؛ أي: يجعل ما ينفقه في سبيل الله.

﴿قُرُبَٰتٍ﴾ وهي: جمع قُرْبة، وهي ما يُتقرّب به إلى الله سبحانه، تقول منه: قَرّبت لله قرباناً، والجمع: قُرَب وقُرْبات.

والمعنى: أنّه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات ﴿عند الله و﴾ سبباً لـ﴿صلوات الرسول﴾؛ أي: لدعوات الرسول لهم؛ [٢/٢٣٤] لأنَّه ﷺ كان يدعو للمتصدقين، ومنه قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ صلّ على آل أَبي أوفى»[(٣)] ثم إنّه سبحانه بيَّن بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقرّباً إلى الله مقبول واقعٌ على الوجه الذي أرادوه، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ فأخبر سبحانه بقبولها خبراً مؤكداً[(٤)] باسمية الجملة، وحرفي التنبيه والتحقيق، وفي هذا من التطييب لخواطرهم والتطمين لقلوبهم ما لا يُقادر قدره، مع ما يتضمنه من النعي على مَنْ يتخذ ما ينفق مغرماً، والتوبيخ له أبلغ وجه، والضمير في «إنها»[(٥)] راجع إلى «ما» في ﴿مَا يُنفِقُ﴾ وتأنيثه باعتبار الخبر.

وقرأ نافع، في رواية عنه «قُرُبة» بضم الراء[(٦)]، وقرأ الباقون[(٧)]: بسكونها تخفيفاً، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ والسين لتحقيق الوعد.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٠). (٢) أي: الفراء، كما في المصدر المتقدم.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٥)، والبخاري رقم (١٤٩٧)، ومسلم رقم (١٠٧٨/١٧٦)، وأبو داود رقم (١٥٩٠)، والنسائي رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه رقم (١٧٩٦).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣١)، و«الكشاف» (٣/ ٨٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٣).

(٥) «روح المعاني» (١٠/ ٤٨٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٣).

(٦) «التيسير» (ص١١٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٥)، و«حاشية الشهاب» (٣/ ٣٥٨). قراءة ورش عن نافع بضم الراء من كلمته (قرُبة)، وأما قالون عن نافع وبقية العشرة فبسكون الراء.

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[١] في قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ قال: أخبرنا أنّكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالاً، وفي قوله: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ قال: لما رجع النبي ﷺ، قال للمؤمنين: لا تكلموهم ولا تُجالسوهم، فأعرضوا عنهم كما أمر الله.

وأخرج أبو الشيخ[٢]، عن الضحّاك، في قوله: ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ قال: لتجاوزوا عنهم.

وأخرج أبو الشيخ[٢]، عنه، في قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ قال: من منافقي المدينة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يعني: الفرائض، وما أمر به من الجهاد.

وأخرج أبو الشيخ[٣]، عَنْ الكلبي، أن هذه الآية نزلت في أسَد وغَطَفان. وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن ابن عباس[٤]، عَنْ النبي ﷺ، قال: «مَنْ سكن البادية جفا، ومن اتّبع الصيد غَفَل، ومَنْ أتى السلطان افتتن» وإسناد أحمد هكذا: حدّثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، حدّثنا سفيان عن أبي موسى، عَنْ وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، فذكره.

قال في «التقريب»[٥]: وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة، ووهم مَنْ قال: إنه إسرائيل بن موسى، وقال الترمذي بعد إخراجه: حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث الثوري.

وأخرج أبو داود، والبيهقي، من حديث أبي هريرة[٦]، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بدا جفا، ومن اتبّع الصيد غَفَل، ومن أتى أبواب السلطان افتتَنَ، وما ازداد أحد مِنْ سلطانه قرباً إلا ازداد من الله بُعْداً».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٥) بسند حسن.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٦).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٦).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦١)، وأبو داود رقم (٢٨٥٩)، والترمذي رقم (٢٢٥٦)، والنسائي رقم (٤٣٢٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٣٢٠). وهو حديث صحيح.
(٥) في «التقريب» رقم (٨٤٧٠).
(٦) أخرجه أبو داود رقم (٢٨٦٠)، والبيهقي رقم (٣٤٠٣). وهو حديث ضعيف.

وأخرج أبو الشيخ[١]، عِن الضحّاك، في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ قال: يعني بالمغرم: أنّه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة، وإنما يُعطي مَنْ يعطي مِنْ الصدقات كرهاً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ «الهلكاتُ».

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن ابن زيد، في الآية قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتقاءً على أَنْ يغزوا ويُحاربوا، ويُقاتلوا، ويرون نفقاتهم مغرماً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٣]، في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ قال: هم بنو مُقرّن مِنْ مُزينة، وهم الذين قال الله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٩٢].

وأخرجَ ابن جرير، وأبو الشيخ، عن عبد الرحمٰن بن معقل[٤]، قال: كنا عشرةً ولدَ مُقرّن، فنزلت فينا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية.

وأخرجَ ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: استغفارَ النبيِّ ﷺ.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٧).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٦) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٧) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٣٦) من طريق البختريِّ بن المختار العبدي.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٧) بسند صحيح.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار، وبيَّن أن منهم السابقين إلى الهجرة، وأن منهم التابعين لهم.

وروي عَنْ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ ﴿وَالأَنصَارُ﴾ بالرفع[١] عطفاً على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وقرأ سائر القرّاء من الصحابة فمن بعدهم بالجرّ[٢]. قال الأخفش[٣]: الخفض في الأنصار الوجه؛ لأن السابقين منهم يدخلون في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وفي الآية تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين صلّوا[٤] القبلتين في قول سعيد بن المسيّب[٥] وطائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان؛ وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي[٦]، أو أهل بدر في قول محمد بن كعب[٧]، وعطاء بن يسار[٨].

ولا مانع مِنْ حمل الآية على هذه الأصناف كلها.

قال أبو منصور البغدادي[٩]: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤٩٤)، و«جامع البيان» (١١/ ٦٤٢)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٩١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٥). وهي قراءة يعقوب، وباقي العشرة فبالخفض، وهما قراءتان متواترتان. اهـ.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٦٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٥) عن قتادة بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠) بسند حسن.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٣٨) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٤١) بسند ضعيف؛ لضعف أبي معشر، وهو نجيح.

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٤).

(٩) في «أُصول الدين» (ص٣٠٤).

الأربعة، ثم الستة الباقونَ، ثم البَدْريون، ثم أصحاب أُحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه «الذين اتبعوهم» محذوف[١] الواو وصفاً للأنصار على قراءته برفع الأنصار، فراجعه في ذلك زيد بن ثابت، فسأل أُبيَّ بن كعب فصدّق زيداً، فرجع عمر عَنْ القراءة المذكورة كما رواه أبو عُبيد[٢]، وابن جرير[٣]، وابن المنذر[٤]، وابن مردويه[٥].

ومعنى الذين اتبعوهم بإحسان: الذين اتبعوا السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، وهم المتأخرون عنهم من الصحابة [٢/٢٣٥] فمن بعدهم إلى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً، وهم: كلُّ مَنْ أدرك الصحابة ولم يدرك النبي ﷺ؛ بل هم مِنْ جملة مَنْ يدخل تحت الآية، فتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ على هذا للتبعيض[٦]، وقيل: إنّها للبيان، فيتناول المدح جميع الصحابة، ويكون المراد بالتابعين: مَنْ بعدهم مِنْ الأمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ قيد للتابعين؛ أي: والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء مِنْهم بالسابقين الأوّلين.

قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خبر للمبتدأ وما عُطف عليه[٧]، ومعنى رضائه سبحانه عنهم: أنَّه قبل طاعاتهم، وتجاوز عنهم، ولم يَسْخط عليهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم مِن فضله، ومع رضائه عنهم فقد ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في الدار الآخرة.

وقرأ ابنُ كثير «تَجري مِنْ تحتها الأنهار» بزيادة «من»[٨].

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٥٤). وهي قراءة شاذة.

(٢) في «فضائل القرآن» (ص١٧٣). (٣) في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٢).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٩)، وذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٤٨٣).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٩)، وذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٤٨٣).

(٦) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٨١).

(٧) انظر: المصدرين المتقدمين.

(٨) «الكشف عن وجوه القراءات» (٣/ ٤٩١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٥). وهما قراءتان متواترتان.

وقرأ الباقون[1] بحذفها والنصب على الظرفية.

وقد تقدّم تفسير جري الأنهار من تحت الجنات، وتفسير الخلود والفوز.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة، ومن يقرب منها من الأعراب. ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ خبر مقدّم، ومن الأعراب بيان، وهو في محل[2] نصب على الحال، و﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ هو المبتدأ[3].

وقيل: وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم: جُهينة ومزينة، وأشجع، وغفار.

وجملة: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ معطوفة على الجملة الأولى[4]، عطف جملة على جملة.

وقيل: إن من أهل المدينة عطف على الخبر في الجملة الأولى، فعلى الأول: يكون المبتدأ مقدّراً؛ أي: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وعلى الثاني: يكون التقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ مردوا، ولكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة[5] لا محل لها.

وأصل: مرد وتمرّد: اللين والملاسة والتجرّد، فكأنهم تجرّدوا للنفاق، ومنه: غصن أمرد: لا ورق عليه، وفرس أمْرد: لا شَعَرَ فيه. وغلام أَمْرد: لا شعر بوجهه، وأرض مرداء: لا نبات فيها، وصَرْح مُمرّد: مجرّد؛ فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه.

قال ابن زيد: معناه: لجوا فيه وأتوا غيره.

وجملة: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مبينة للجملة الأولى[6]، وهي مردوا على النفاق؛ أي: ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً، ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فكيف

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «روح المعاني» (١٠/ ٤٨٦).

(٣) «التبيان» (٢/ ٦٥٧).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٨٦)، و«الكشاف» (٣/ ٨٦).

(٥) «البحر المحيط» (٥/ ٤٩٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٨٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٢).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

سائر المؤمنين؟ والمراد: عدم علمه ﷺ بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه ﷺ.

جملة: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ مقرّرة لما قبلها[(١)] لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى، وما تجنّه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر. ثم تواعدهم سبحانه فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قيل: المراد بالمرّتين: عذاب الدنيا بالقتل[(٢)] والسبي، وعذاب الآخرة.

وقيل: الفضيحة[(٣)] بانكشاف نفاقهم، والعذاب في الآخرة.

وقيل: المصائب في أموالهم وأولادهم، وعذاب القبر[(٤)].

وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه. والظاهر: أن هذا العذاب المكرّر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب، وأنهم يعذبون مرّة بعد مرّة، ثم يُردّون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[(٥)].

ومن قال: إن العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة، قال معنى قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: أنهم يردّون بعد عذابهم في النار، كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها؛ أو أنهم يعذبون في النار عذاباً خاصّاً بهم دون سائر الكفار، ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار.

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المُخلِّطون في دينهم فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وهو معطوف[(٦)] على قوله ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: وممّن حولكم مِنْ الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون، ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ، واعترفوا

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٤٨٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٦) عن مجاهد بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٤) بسند صحيح، عن ابن عباس.

(٤) «جامع البيان» (١١/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧).

(٥) «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٥٢)، و«جامع البيان» (١١/ ٦٥٠).

(٦) «التبيان» (٢/ ٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٩١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٤).

بذنوبهم صفته، و﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ خبره[١].

والمعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلّفوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون؛ بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورجوا أَنْ يتوب الله عليهم.

والمراد[٢] بالعمل الصالح: ما تقدّم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن. والمراد بالعمل السيىء: هو تخلّفهم عن هذه الغزوة، وقد أَتْبَعوا هذا العملَ السيىء عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف: الإمرارُ بالشيء. ومُجرّد الإقرار[٣] لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ومعنى الخلط: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء. ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء[٤]؛ كقولك: بعت الشاة شاة ودرهماً؛ أي: بدرهم.

وفي قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دليل على أنّه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو أن مقدّمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة، وحرف الترجي وهو عسى، هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده. [٢/٢٣٦]

قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها، فقيل: هي صدقة الفرض، وقيل: هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عَرَضوا أموالَهم على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، و﴿مِنۡ﴾ للتبعيض على التفسيرين، والآية مطلقة مبينة بالسُّنَّة المطهرة، والصدقة مأخوذة مِنْ الصدق، إذ هي دليلٌ على صدق مُخْرجها في إيمانه.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «التبيان» (٢/٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/٤٩١).

(٣) «جامع البيان» (١١/٦٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٣٥٤).

(٤) «جامع البيان» (١١/٦٥٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٦٢)، و«الكتاب» (١/٣٩٣).

قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الضمير[١] في الفعلين للنبي ﷺ؛ أي: تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم. وقيل: الضمير في تطهرهم للصدقة؛ أي: تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم، والضمير في تزكيهم للنبي ﷺ؛ أي: تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة، والأوّل: أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين[٢] المتعاطفين؛ وعلى الأوّل: فالفعلان منتصبان على الحال، وعلى الثاني: فالفعل الأوّل صفة لصدقة، والثاني: حال منه ﷺ.

ومعنى التطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية: المبالغة في التطهير.

قال الزجاج[٣]: والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ؛ أي: فإنك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف، ويجوز الجزم على جواب الأمر.

والمعنى: إنْ تأخذْ من أموالهم صدقةً تطهْرهم.

وقد قرأ الحسن[٤] بجزم تطهْرهم. وعلى هذه القراءة فيكون ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ على تقدير مبتدأ؛ أي: وأنت تزكيهم بها.

قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم.

قال النحاس[٥]. وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه، أن الصلاة في كلام العرب الدعاء، ثم علل سبحانه أمره لرسوله بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي ﴿صَلَوٰتَكَ﴾ بالتوحيد[٦].

وقرأ الباقون[٧] بالجمع.

والسكن ما تسكن إليه النفس وتطمئن به.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٤٩٩)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٩٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٧).

(٤) «المحتسب» (١/ ٣٠١)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٤ ـ ٥٥). وهي قراءة شاذة.

(٥) في «إعراب القرآن» للنحاس(٢/ ٢٣٣).

(٦) «جامع البيان» (١١/ ٦٦٣)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٥). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٧): هما قراءتان متواترتان كما ذكر الإمام (الشوكاني) وقرأ كذلك بالإفراد خلف. وعلى قراءة الإفراد التاء مفتوحة، وعلى قراءة الجمع تكون منصوبة بالكسرة.اهـ.

(٧) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً. قال الله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: غير التائبين، أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين، وعدم مبالاته بمعصية العاصين. وقرئ: «ألم تعلموا» بالفوقية، وهو إما خطاب للتائبين، أو لجماعة من المؤمنين، ومعنى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يتقبلها منهم، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة، ولمن فعلها.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه؛ أي: أن هذا شأنه[2] سبحانه.

وفي صيغة المبالغة في التوّاب، وفي الرحيم مع توسيط ضمير الفصل. والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يَخْفى.

قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه تخويف وتهديد؛ أي: إن عملكم لا يخفى على الله، ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله ﷻ، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شرّاً رغب إلى أعمال الخير، وتجنّب أعمال الشرّ، وما أحسن قول زهير[3]:

ومهما تكنْ عند امرئ من خليقة ... وإنْ خالها تخفى على النّاس تُعلَمِ

والمراد بالرؤية[4] هنا: العلم بما يصدر منهم مِنْ الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: وستُردّون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما تسرّونه وما تعلنونه، وما تخفونه وما تبدونه.

وفي تقديم الغيب على الشهادة: إشعار بسعة علمه ﷻ، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردّهم إليه فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويتفضّل على من يشاء من عباده.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٥٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٦).
(٢) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٦٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٦٦).
(٣) انظر: «شرح شعر زهير بن أبي سلمى» (ص٣٧).
(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٥٠١).

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام(١) في المتخلفين:

الأوّل: المنافقون الذين مردوا على النفاق.

والثاني: التائبون المعترفون بذنوبهم.

الثالث: الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال، وهم المرجون لأمر الله، من أرجيته وأرجأته: إذا أخّرته.

قرأ حمزة والكسائي، ونافع وحفص ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بالواو(٢) مِنْ غير همز. وقرأ الباقون(٣) بالهمزة المضمومة بعد الجيم.

والمعنى: أنهم مؤخّرون في تلك الحال، لا يُقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن بقوا على ما هم عليه، ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إنْ تابوا توبةً صحيحة، وأخلصوا إخلاصاً تامّاً، والجملة في محل(٤) نصب على الحال، والتقدير ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ حال كونهم، إما معذبين، وإما متوباً عليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شرّ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو نعيم في «المعرفة»، عَنْ أبي موسى(٤)، أنه سئل عن قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فقال: هم الذين صلّوا القبلتين جميعاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، عن سعيد بن المسيب(٥)، مثله.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٣١٨ ـ ٣١٩)، و«جامع البيان» (١١/٦٦٨).

(٢) «جامع البيان» (١١/٦٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٣٦٩)، و«النشر» (١/٤٠٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٥٠٦). هما قراءتان متواترتان، ومع مَنْ يقرأ بالواو أبو جعفر وخلف، ومع مَنْ يقرأ بالجيم مفتوحة بعدها همزة مضمومة يعقوب. اهـ. «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٨).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/٦٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٦٨)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/٣٤ رقم ٨) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٦٨)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/٣٣ رقم ٣) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر، وأبو نعيم، عن الحسن، ومحمد بن سيرين[١]، مثله أيضاً.

وأخرج ابنُ مردويه، عن ابن عباس[٢]، قال: هم أبو بكر، [٢/٢٣٧] وعمر، وعليّ، وسلمان، وعمار بن ياسر.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في «المعرفة»، عن الشعبي[٣] قال: هم مَنْ أدرك بيعة الرضوان.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال: التابعون.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٥]، قال: هم مَنْ بقي من أهل الإسلام، إلى أن تقوم الساعة.

وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر، عن أبي صخر[٦] حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القُرظي: أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما أريد الفتن، قال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلتُ له: وفي أيّ موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال: ألا تقرؤون قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطاً لم يشرطه فيهم. قلتُ: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم في غير ذلك.

قال أبو صخر: فوالله لكأنّي لم أقرأها قبل ذلك، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ محمد بن كعب.

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٩).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٠٤، ١٤/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٨)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ٣٣، ٣٤ رقم ٥، ٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٥٥/ ١٤٧).

وأخرج ابن مردويه[١] من طريق الأوزاعي قال: حدّثني يحيى بن أبي كثير، والقاسم ومكحول، وعبدة بن أبي لُبابة، وحسّان بن عطية، أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي ﷺ يقولون لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**هذا لأمتي كلِّهم، وليس بعد الرضا سخط**».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية، قال: قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيباً، فقال: قم يا فلان فاخرجْ، فإنك منافق، اخرج يا فلان، فإنّك منافق، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجةٍ كانت له، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياءً أنَّه لم يشهد الجمعة، وظن الناس قد انصرفوا، واختبأوا هم من عمر، وظنّوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد، فإذا الناس لم ينصرفوا، فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم، فهو: العذاب الأوّل، والعذاب الثاني: عذاب القبر.

وأخرج ابنُ المنذر[٣] عن عكرمة في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال: جُهينة ومزينة، وأشجع وأسلم وغفار.

وأخرج ابنُ أُبي حاتم[٤]، عن ابن زيد، في قوله: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ قال: أقاموا عليه، ولم يتوبوا كما تاب آخرون.

وأخرج ابن المنذر[٣]، عن ابن جريج، في الآية قال: ماتوا عليه: عبد الله بن أبيّ، وأبو عامر الراهب، والجدّ بن قيس.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٥]، في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: بالجوع والقتل.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٧٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٧٩٢).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): «فيه الحسين بن محمد العنقزي، وهو ضعيف».
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٧٣).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٩) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٦) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي مالك(١)، قال: بالجوع وعذاب القبر.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن قتادة(٢) قال: عذاب في القبر، وعذاب في النار.

وقد روي عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين، والظاهر ما قدّمنا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس(٣)، في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ قال: كانوا عشرةَ رهطٍ تخلّفوا عَنْ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممرّ النبيّ ﷺ إذا رجع عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء المُوثِقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة، وأصحاب له تخلّفوا عنك يا رسول الله ﷺ حتى تطلقهم وتعذرهم، قال: وأنا أقسم بالله، لا أُطلقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فنزلت: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى مِنْ الله واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا، واستغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ أموالكم، فأنزل الله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: استغفر لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يقول: رحمة لهم، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] يعني: إن استقاموا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧١) من طريق يحيى بن يمان، به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٥١ ـ ٦٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٢، ١٨٧٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٧١) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ(١)، عن الضحاك، مثلَه سواء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل»، عن مجاهد(٢) في قوله: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ قال: هو أبو لُبابة إذ قال لقريظة ما قال، وأشار إلى حلقه بأنَّ محمداً يذبحكم إن نزلتم على حكمه.

والقصة مذكورة في كتب السير.

وأخرج ابن أبي حاتم(٣)، عن السديّ، في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ قال: غزوهم مع رسول الله ﷺ ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ قال: تخلّفهم عنه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٤)، في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [٢/٢٣٨] قال: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ قال: رحمة لهم.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عبد الله بن أبي أوفى(٥) قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال: «اللَّهُمَّ صلّ على آل فلان، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٦)، في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ قال: هذا وعيدٌ من الله ﷻ.

وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في «الشعب»، وابن أبي الدنيا، والضياء في «المختارة»، عن أبي سعيد(٧)، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب ولا كُوّة، لأخرج الله عملَه للنّاس كائناً ما كان».

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٧١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٤) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣) بسند صحيح.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٦٨) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨)، وأبو يعلى رقم (١٣٧٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٩٤٠).

وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة[1]، في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: هم الثلاثة الذين خُلِّفوا.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[2]، في الآية قال: هم هلال بن أُميّة، ومُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، مِنْ الأوس والخزرج.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[3]، في قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ يقول: يُميتهم على معصية ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

[حكم مساجد الضرار وما الواجب نحوها]:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

لما ذكر الله أصناف المنافقين، وبيَّن طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، فيكون التقدير: ومنهم الذين اتخذوا، على أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ[4]، وخبره «منهم» المحذوف، والجملة معطوفة على ما تقدّمها، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصبٍ على الذمّ.

وقرأ المدنيون وابن عامر: «الذين اتخذوا» بغير واو[5]، فتكون قصة مستقلة،

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٨) بسند حسن.

(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٥٠٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٣).

(٥) «النشر» (٣/ ٢٨١)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٧)، و«التيسير» (ص١١٩). وهما قراءتان متواترتان.

الموصول مبتدأ، وخبره: ﴿لَا تَقُمْ﴾ قاله الكسائي[١]، وقال النحاس[٢]: إن الخبر هو ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ وقيل: الخبر محذوف، والتقدير يعذبون، وسيأتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار، و﴿ضِرَارًا﴾ منصوب على المصدرية[٣]، أو على العِلِّية ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا﴾ ﴿وَإِرْصَادًا﴾ معطوفة[٤] على ﴿ضِرَارًا﴾ فقد أخبر الله سبحانه أنَّ الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة:

(الأوّل): الضرار لغيرهم، وهو المضارّة.

(الثاني): الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام؛ لأنّهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

(الثالث): التفريق بين المؤمنين؛ لأنّهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقلّ جماعة المسلمين، وفي ذلك مِنْ اختلاف الكلمة، وبطلان الأُلْفة ما لا يخفى.

(الرابع): الإرصاد لمن حارب الله ورسولَه؛ أي: الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله.

قال الزجّاج[٥]: الإرصاد الانتظار. وقال ابن قتيبة[٦]: الإرصاد الانتظار مع العداوة.

وقال الأكثرون: هو الإعداد، والمعنى متقارب؛ يقال: أرصدتُ لكذا: إذا أعددته مرتقباً له به.

وقال أبو زيد[٧]: يقال: رصدتُه وأرصدتُه في الخير، وأرصدتُ له في الشرّ. وقال ابن الأعرابي[٨]: لا يقال إلا أرصدتُ، ومعناه: ارتقبت. والمراد بمن حارب الله ورسولَه: المنافقون، ومنهم أبو عامر الراهب؛ أي: أعدّوه لهؤلاء، وارتقبوا به وصولَهم، وانتظروهم ليصلّوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٣٥)، والجوهري في «الصحاح» (٢/ ٤٧٤).
(٢) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٣٥).
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٥٠٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٣٨).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٥).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٦٨).
(٦) في «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص١٩٢).
(٧) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٣).
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٧٦)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٣٦).

وقوله: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ متعلق باتخذوا؛ أي: اتخذوا مسجداً مِنْ قبل أن ينافق هؤلاء، ويبنوا مسجدَ الضرار، أو متعلّق بحارَبَ؛ أي: لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله مِنْ قبل بناء مسجد الضرار.

قوله: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾؛ أي: ما أردنا إلا الخصلة الحُسْنَى، وهي: الرفق بالمسلمين، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما حلفوا عليه، ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، فقال: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾؛ أي: في وقتٍ من الأوقات، والنهي عن القيام فيه، يستلزم النهي[١] عَنْ الصلاة فيه.

وقد يُعبّر عن الصلاة بالقيام، يقال: فلان يقوم الليل؛ أي: يصلي، ومنه الحديث الصحيح[٢]: «مَنْ قام رمضان إيماناً به واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه». ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام فيه بقوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ واللّام في ﴿لَّمَسۡجِدٌ﴾ لام القسَم[٣].

وقيل: لام الابتداء، وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة، وتأسيس البناء: تثبيته ورفعه.

ومعنى تأسيسه على التقوى: تأسيسه على الخصال التي تتقي بها العقوبة.

واختلف العلماءُ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قُبَاء، كما روي[٤] عن ابن عباس والضحّاك، والحسن، والشعبي، وغيرهم.

وذهب آخرون إلى أنّه مسجد النبي ﷺ. والأول: أرجح لما سيأتي قريباً إنْ شاء الله.

و﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ متعلق بأُسِّس؛ أي: أُسِّس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه، قال بعض النحاة: إن ﴿مِنۡ﴾ هنا بمعنى[٥] منذُ؛ أي: منذ أوّل يوم ابتدئ بنائه، [٢/٢٣٩].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٧٧)، و«جامع البيان» (١١/ ٦٧٣ ـ ٦٧٤).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٧)، ومسلم رقم (٧٥٩)، وأحمد رقم (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) «روح المعاني» (١٠/ ٥٠٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٤٠)، و«التبيان» (٢/ ٦٦٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٥).
(٤) سيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٥) «التبيان» (٩/ ٦٦٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٠٧).

وقوله: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ خبر المبتدأ[١]، والمعنى: لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله، لكونه أُسّس على التقوى من أوّل يوم، ولكون ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان[٢] أحقية قيامه ﷺ فيه؛ أي: كما أَنّ هذا المسجد أولى مِنْ جهة المحل، فهو أولى من جهة الحالّ فيه، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال؛ أي: حال كون فيه رجال يُحبّون أن يتطهروا، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد.

ومعنى محبتهم للتطهر: أَنَّهم يؤثرونَه ويحرصون عليه عند عروض موجبه؛ وقيل: معناه: يحبون التطهر[٣] مِنْ الذنوب بالتوبة والاستغفار. والأوّل: أولى. وقيل: يحبون أَنْ يتطهروا بالحُمّى المُطهِّرة من الذنوب فحمّوا جميعاً، وهذا ضعيف جدّاً.

ومعنى محبة الله لهم: الرِّضا عنهم، والإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه. ثم بيّن سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً. فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ والهمزة للإنكار[٤] التقريري، والبُنْيان مصدر كالغُفْران، وأريد به المبنيّ، والجملة مستأنفة.

والمعنى: أَنَّ مَنْ أسس بناء دينِه على قاعدةٍ قوية محكمة، وهي تقوى الله ورضوانه، خير ممن أسّس دينَه على ضدّ ذلك، وهو الباطل والنفاق. والموصول مبتدأٌ، وخبره[٥] ﴿خَيْرٌ﴾.

وقرئ: «أَسّسَ بنيانَه» على بناء الفعل[٦] للفاعل، ونصب بنيانه، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[٧]، وقُرئ على البناء[٨] للمجهول، وقُرئ: «أساسُ بنيانِه» بإضافة[٩]

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٤٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٠٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٦٠).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٥٠٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٤٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥١٣).
(٣) «جامع البيان» (١١/ ٦٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).
(٤) «روح المعاني» (١٠/ ٥١٣ـ٥١٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٤١).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٦).
(٦) «التيسير» (ص١١٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٨٤)، و«جامع البيان» (١١/ ٦٩٤). القراءة بالبناء للفاعل (أَسّسَ بنيانَه) بفتح الهمزة وفتح السين ونصب بنيانه الجمهور، وقرأ نافع وابن عامر (أُسِس بنيانُه) بضم الهمزة وكسر السين ورفع (بنيانُه) وما عدا هذا فشاذ.
(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٣٦).
(٨) «جامع البيان» (١١/ ٦٩٤)، و«التيسير» (ص١١٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨١).
(٩) «المحتسب» (١/ ٣٠٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٨٥).

أساس إلى بنيانه، وقرئ: «أُسُّ بنيانه»[١] والمراد: أصول البناء.

وحكى أبو حاتم[٢] قراءةً أخرى، وهي «آساسُ بنيانِه» على الجمع، ومنه:

أصبح المُلك ثابتَ الآساس ... بالبهاليل مِنْ بني العبّاسِ[٣]

والشفا: الشفير، والجُرفُ: ما يتجرف السيول، وهي: الجوانب التي تَنْجرف بالماء، والاجتراف: اقتلاع الشيء مِنْ أصله.

وقرئ بضم الراء[٤] من جُرُف وبإسكانها.

والهار: الساقط، يقال: هار البناء: إذا سقط، وأصله هائر، كما قالوا: شاك السلاح، وشائك كذا. قال الزجّاج[٥]. وقال أبو حاتم[٦]: إن أصله: هاور. قال في «شمس العلوم»[٧]: الجرفُ: ما جرفَ السيلُ أصله، وأشرف أعلاه فإنْ انصدع أعلاه فهو الهار. ا.هـ.

جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحلّ بسرعة، ثم قال: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وفاعل فانهار[٨]، ضمير يعود إلى الجُرف؛ أي: فانهار الجرف بالبنيان في النار، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى مَنْ، وهو الباني.

والمعنى: أنه «طاح» الباطل بالبناء، أو الباني في نار جهنم، وجاء بالانهيار الذي هو للجُرف ترشيحاً للمجاز، وسبحانَ الله! ما أبلغَ هذا الكلام، وأقوى تراكيبه، وأوقع معناه، وأفصحَ مبناه.

---

(١) «المحتسب» (١/ ٣٠٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٨٥).

(٢) ذكره النحاس في«إعراب القرآن» (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، وانظر: «القراءات الشاذة» (ص٥٥).

(٣) قيل: هو لشبل بن عبد الله مولى بني هاشم. «العقد الفريد» (٤/ ٤٦٨)، و«الكامل» (٣/ ١٣٦٧).

(٤) «التيسير» (ص١١٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٨٦). قراءة (جرُف) بضم الراء هي قراءة الجمهور وقراءة (جُرْف) بإسكان الراء هي قراءة حمزة وخلف ورواية عن أبي بكر عن عاصم، وابن ذكوات عن ابن عامر، وكذلك هشام عنه بخلاف».اهـ. «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٥٨).

(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٧٠).

(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٣٧).

(٧) «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم»، تأليف: نشوان بن سعيد الحميري (ت٥٧٣هـ) (٢/ ١٠٤٥).

(٨) «روح المعاني» (١٠/ ٥١٥)، و«التبيان» (٢/ ٦٦١).

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجبٌ لمزيد ريبهم، واستمرار تردّدهم وشكهم فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: شكّاً في قلوبهم، ونفاقاً، ومِنْه قول النابغة[1]:

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسك رِيبةً وليس وراءَ اللّه للمرء مَذْهبُ

وقيل: معنى الريبة[2]: الحَسْرة والندامة؛ لأنهم ندموا على بنيانه.

وقال المبِّرد[3]: أي: «حَزَازةً» وغيظاً.

وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله ﷺ نفاقاً وتصميماً على الكفر، ومقتاً للإسلام، لما أصابهم من الغيظ الشديد، والغضب العظيم بهدمه، ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على استمرار هذه الريبة ودوامها، وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: لا يزال هذا إلّا أن تتقطع[4] قلوبهم قطعاً، وتتفرّق أجزاء: إما بالموت أو بالسيف، والمقصود: أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة.

وقيل: معناه: إلّا أن يتوبوا توبةً تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

وقرأ ابنُ عامر، وحمزة، وحفص، ويعقوب، وأبو جعفر، بفتح[5] حرف المضارعة. وقرأ الجمهور[6] بضمها.

وروي عن يعقوب أنه قرأ «تُقْطَع»[7] بالتخفيف.

والخطاب للنبي ﷺ؛ أي: إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم.

وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود: «ولو تقطعت قلوبهم»[8].

---

(١) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٧). (٢) «الصحاح» (١/ ١٤١).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٨). (٤) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

(٥) «جامع البيان» (١١/ ٧٠٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٨)، و«النشر» (٢/ ٢٨١)، و«زاد المسير» (٣/ ٥٠٣)، و«البحر» (٥/ ٥٠٨). هما قراءتان متواترتان.

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

(٧) «القراءات الشاذة» (ص٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٨٩)، و«حاشية الجمل» (٢/ ٣٢٠). هي رواية شاذة عن يعقوب، وهي بالبناء للمجهول «تُقطع» وروى عن ابن كثير إلّا أنْ تَقْطع» بالتخفيف والنباء للمعلوم.

(٨) «جامع البيان» (١١/ ٧٠٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٠٨). هي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

وقرأ الحسن، ويعقوب، وأبو حاتم: «إلى أَنْ تَقَطَّع»[١] على الغاية؛ أي: لا يزالون كذلك إلى أَنْ يموتوا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس[٢]، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ قال: هم أناسٌ من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدَكم واستمدّوا بما استطعتم من قوّة وسلاح، فإنّي ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِج محمداً وأصحابَه؛ فلما فرغوا مِنْ مسجدهم، أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا «فنحبُّ» أن تصلي فيه، وتدعو بالبركة، فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عنه[٣]، قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قُباء، خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد الله بن حُنَيف، ووديعة بن حزام، ومُجمِّع بن جارية الأنصاري، فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول الله ﷺ لبجدح: «ويلك يا بجدح ما أردت إلى ما أرى»، فقال: يا رسول الله والله [٢/٢٤٠] ما أردت إلا الحُسْنى وهو كاذب، فصدّقه رسولُ الله ﷺ وأراد أن يعذره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: رجلاً يقال له: أبو عامر، كان محارباً لرسول الله ﷺ، وكان قد انطلق إلى هِرَقْل، وكانوا يرصدون إذا قدم أَبو عامر أَنْ يصلي فيه، وكان قد خرج مِنْ المدينة محارباً لله ولرسوله.

وأخرج ابن إسحاق، وابن مردويه، عنه[٤]، أيضاً قال: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُخْشُم، فقال مالك لعاصمٍ: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل على أهله فأخذ سعفات مِنْ نار، ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجدَ وفيه أهلُه، فحرّقوه وهدموه، وخرج أهله فتفرّقوا عنه، فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٨١)، و«جامع البيان» (١١/ ٢٠٧). قراءة الجمهور (إلّا أَنْ تقطّع) وقراءة يعقوب والحسن وأبي حاتم (إلى أَنْ تقطّع) وهما قراءتان متواترتان.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٧٥ ـ ٦٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٨، ١٨٨١)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٧٩ ـ ١٨٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٧٦) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٥٢٩).

ولعلّ في هذه الرواية حذفاً بين قوله ﷺ دعا رسولُ الله مالكَ بن الدخْشُم وبين قوله فقال مالكٌ لعاصمٍ، ويُبيّن ذلك ما أخرج ابن إسحاق(١)، وابن مردويه، عن أبي رُهْم: كُلْثوم بن الحُصين الغِفَاري، وكان مِنْ الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال: أقبل رسولُ الله ﷺ حتَّى نزل بذي أوانٍ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسولَ الله إنَّا بنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة، والليلة الشاتية، والليلة المطيرة، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه؛ قال: «إنّي على جَناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه»؛ فلّما نزل بذي أوانٍ أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله مالكَ بن الدخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعنَ بن عدي، وأخاه عاصم بن عدي، أحد بني العجلان، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرّقاه»، فخرجا سَريعينِ حتى أتيا بني سالم بن عوفٍ، وهم رهط مالك بن الدخْشُم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً مِنْ النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان، وفيه أهلُه فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم مِنْ القرآن ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم: إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلاً، وذكرا أسماءَهم.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خُدْرة، وفي لفظ: تماريتُ أنا ورجل مِنْ بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أُسّس على التقوى، فقال الخُدْري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العَمْريّ: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عَنْ ذلك فقال: هو هذا المسجد، لمسجدُ رسول الله ﷺ، وقال: في ذلك خير كثير، يعني: مسجد قباء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والزبير بن بكّار في أخبار

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام).

المدينة، وأبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والحاكم في «الكنى»، وابن مردويه، عن سهل بن سعد الساعدي[(١)] نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب، والضياء في «المختارة»، عن أُبيّ بن كعب[(٢)] قال: «سألتُ النبي ﷺ عن المسجد الذي أُسِّس على التقوى قال: هو مسجدي هذا».

وأخرج الطبراني، والضياء المقدسي في «المختارة»، عن زيد بن ثابت[(٣)] مرفوعاً مثلَه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، والطبراني، من طريق عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت[(٤)] قال: المسجد الذي أسس على التقوى مِنْ أوّل يوم مسجد النبي ﷺ. قال عروة: مسجد النبي ﷺ خير منه، إنّما أنزلت في مسجد قباء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن مردويه، عن ابن عمر[(٥)]، قال: المسجد الذي أُسّس على التقوى: مسجد النبي ﷺ.

وأخرج المذكوران[(٦)] عَنْ أبي سعيد الخدري مثلَه.

وقد رُوي عَنْ جماعة غير هؤلاء مثل قولهم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس[(٧)]، أنّه مسجد قباء.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٢)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٢٨٠٠، ٢٢٨٠٥، ٢٢٨٠٦، ٢٢٨٣٨)، وعبد بن حميد رقم (٤٦٦ ـ منتخب)، وابن حبان رقم (١٦٠٤، ١٠٦٥)، والطبراني رقم (٦٠٢٥). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٣)، وأحمد رقم (٢١١٠٦، ٢١١٠٧)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٧٩)، والضياء رقم (١١٣٣). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني رقم (٤٨٥٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): «في إسناده عبد الله بن عامر الأسلمي، وهو ضعيف».

(٤) أخرجه الطبراني رقم (٤٨٢٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): «إحد إسنادي الموقوف رجاله رجال الصحيح، وإنما قال عروة هذا لأنه لم يطلع على المرفوع والله أعلم».

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٣٧٢) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٣٧٢) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨١، ١٨٨٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٦٢، ٣٦٣) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ(١)، عَنْ الضحّاك، مثلَه.

ولا يخفاك أَنّ النبي ﷺ قد عيّن هذا المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وجزم بأنّه مسجده ﷺ، كما قدّمنا مِنْ الأحاديث الصحيحة، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم، ولا غيرهم، ولا يصحّ لإيراده في مقابلة ما قد صحّ عن النبيّ ﷺ، ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أُسّس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده ﷺ أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء، بلا شك ولا شبهة تعمّ.

وأخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي هريرة(٢) عَنْ رسول الله ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قال: وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية، وفي إسناده يونس بن الحارث، وهو ضعيف.

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس(٣)، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عُويم بن ساعدة، فقال: «ما هذا الطُّهور الذي أثنى الله عليكم؟» فقالوا: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة مِنْ الغائط إلا غسل فرجه، [٢/٢٤١] أو قال: مقعدته، فقال النبي ﷺ: «هو هذا».

وأخرج أحمد، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن عويم بن ساعدة الأنصاري(٤)، أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إنّ الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به؟» قالوا: والله يا رسولَ الله ما نعلم شيئاً إلا أنّه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٤)، والترمذي رقم (٣١٠٠)، وابن ماجه رقم (٣٥٧). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني رقم (١١٠٦٥)، والحاكم (١/ ١٨٧).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٢): «إسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه».

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٤٤٨٥)، وابن خزيمة رقم (٨٣)، والطبراني (ج١ رقم ٣٤٨)، والحاكم (١/ ١٥٥). وهو حديث حسن لغيره.

يغسلون أدبارَهم مِنْ الغائط فغسلنا كما غسلوا»، رواه أحمد عن حسن بن محمد. حدّثنا أبو أويس، حدّثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة، فذكره.

وقد أخرجه ابنُ خزيمة في «صحيحه».

وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الجارود في «المنتقى»، والدارقطني، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن طلحة بن نافع[1]، قال: حدّثني أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ الأنصار إنّ الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور، فما طهوركم هذا؟» قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل مِنْ الجنابة، قال: «فهل مع ذلك غيره؟» قالوا: لا، غير أن أحدَنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجي بالماء، قال: «هو ذاك فعليكموه».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في «تاريخه»، وابن جرير، والبغوي في «مُعجمه»، والطبراني وابن مردويه، وأبو نعيم في «المعرفة»، عن محمد بن عبد الله بن سلام[2]، عَنْ أبيه، قال: لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء فقال: «إنّ الله قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبروني؟» يعني: قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ فقالوا: يا رسولَ الله، إنا لنجده مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء، ونحن نفعله اليوم. وإسناد أحمد في هذا الحديث هكذا: حدّثنا يحيى بن آدم، حدّثني مالك، يعني: ابن مِغْوَل، سمعت سياراً أبا الحاكم، عَنْ شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام.

وقد روي عَنْ جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا. ولا يخفاك أَنّ بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله، وبعضها ضعيف،

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٢)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٤٠)، والدارقطني (١/ ٦٢). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ١٥٣)، وأحمد رقم (٢٣٨٣٣)، والبخاري في «تاريخه» (١/ ١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٨٩ ـ ١٩٠)، والطبراني (٣٨١ ـ قطعة من الجزء ١٣)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣ رقم ٦٥٩ ـ ٦٦٢) بسند ضعيف؛ لضعف شهر بن حوشب.

وبعضها لا تصريح فيه بأنّ المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وعلى كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ في صحتها وصراحتها.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس(١)، في قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قال: يعني: قواعده في نّار جهنم.

وأخرج مسدّد في «مُسْنده»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله(٢)، قال: لقد رأيتُ الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: يعني: الشك ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: الموت.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن حبيب بن أبي ثابت(٤)، في قوله: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: غيظاً في قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إلى أن يموتوا.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥)، عَنْ سفيان، في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: إلا أَنْ يتوبوا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٩٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٦٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسدد في «مسنده» كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٤)، والحاكم (٤/ ٤٩٦) وصحَّحه ووافقه الذهبي، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٦٩٧). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ١٠ ـ ١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٦٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٥) من طريق إسحاق الرازي، به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦) بسند ضعيف من طريق عبد العزيز، عن سفيان قال: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلَّا أن يتوبوا، وكان أصحاب عبد الله يقرؤونها: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

• والقراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف.

انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٢)، و«حاشية الشهاب» (٤/ ٣٦٧).

[صفقة مشتراة الثمن: الجنة، والطريق هو الجهاد والقتل والقتال، والنهاية النصر أو الاستشهاد]:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلُّفهم عن غزوة تبوك، وذكر أقسامهم، وفرّع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه. وذكرُ الشراء تمثيل، كما في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] مثّل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنّة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء.

وأصلُ الشراء(١) بين العباد: هو إخراجُ الشيء عَنْ المِلْك بشيء آخر مثله أو دونه، أو أنفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين؛ أي: بأن يكونوا مِنْ جملة أهل الجنة، وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم، وهي أنفس الأعْلَاق، والجود بها غاية الجود:

يجود بالنفس إنْ ضنّ الجبانُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غاية الجودِ(٢)

وجاد الله عليهم بالجنّة، وهي أعظم ما يطلبه العباد، ويتوسلون إليه بالأعمال؛ والمراد بالأنفس هنا: أنفس المجاهدين، وبالأموال: ما ينفقونه في الجهاد.

قوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان للبيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل: كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله، ثم بيّن هذه المقاتلة في سبيل الله بقوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ والمراد أنهم: يقدمون على قتل الكفار في الحرب، ويبذلون أنفسَهم في ذلك، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة، وإن لم

---

(١) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٤٩٠).

(٢) هو لصريع الغواني مُسلم بن الوليد. انظر: «شرح ديوانه» (ص٢٦٤).

يقع القتل عليهم بعد الإبلاء في الجهاد، والتعرّض للموت بالإقدام على الكفار.

قرأ الأعمش، والنخعي، وحمزة، والكسائي وخَلَف بتقديم[1] المبنيّ للمفعول على المبنيّ للفاعل.

وقرأ الباقون[2] بتقديم المبني للفاعل على المبني للمفعول.

وقولُه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ إخبار من الله سبحانه أنَّ فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله في التوراة والإنجيل، كما وقع في القرآن، وانتصاب «وعداً»[3] و«حقّاً» على المصدرية أو الثاني: نعت للأوّل، وفي التوراة مُتعلِّق بمحذوف؛ أي: وعداً ثابتاً فيها.

قولُه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [٢/٢٤٢] في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال، ما لا يخفى، فإنّه أوّلاً أخبر بأنّه قد اشترى منهم أنفسهم، وأموالهم، بأن لهم الجنة، وجاء بهذه العبارة الفخيمة، وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزّلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق، لا بدّ من حصول الموعود به، فإنّه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه، وهو صادقُ الوعد لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سروراً وحبوراً، فقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: أظهروا السرورَ بذلك. والبشارةُ: هي إظهارُ السرور، وظهوره يكون في بَشَرةِ الوجه، ولذا يقال: أسارير الوجه؛ أي: التي يظهر فيها السرور.

وقد تقدّم إيضاح هذا، والفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله.

والمعنى: أظهروا السروَر بهذا البيع الذي بايعتم به الله ﷻ، فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس، إلا مَنْ فعل مثل فعلكم.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الجنّةِ، أو إلى نفس البيع الذي ربحوا فيه الجنة، ووصف الفوز وهو الظَفَر بالمطلوب بالعِظم، يدل على أنَّه فوز لا فوز مثله.

---

(١) «النشر» (٢/٢٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٣٩٢)، و«التيسير» (ص٩٣)، و«البحر المحيط» (٥/٥٠٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان كما ذكر ذلك المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٣) «روح المعاني» (١٠/٥٣٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٤٤٦)، و«البحر المحيط» (٥/٥٠٩).

قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ خَبرٌ مبتدأ[١] محذوف؛ أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين، والتائب الراجع؛ أي: هم الرّاجعون إلى طاعة الله عَنْ الحالة المخالفة للطاعة[٢].

وقال الزجاج[٣]: الذي عندي أن قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر؛ أي: التائبون، ومَنْ بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، وإن لم يجاهدوا[٤]. قال: وهذا أحسن، إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين في قوله: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لكان الوعد خاصّاً بمجاهدين.

وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجّاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين.

وذهب آخرون إلى أنَّ هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى، وأنها على جهة الشرط؛ أي: لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا مَنْ كان من المؤمنين على هذه الأوصاف.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود: التائبين[٥] العابدين إلى آخرها ـ وفيه وجهان:

(أحدهما): أنَّها أوصاف للمؤمنين.

(الثاني): أن النصب على المدح.

وقيل: إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل مِنْ ضمير «يقاتلون»، وجوز صاحب «الكشّاف»[٦] أن يكون ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾، وما بعده أخبار، كذلك؛ أي: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال، وفيه مِنْ البعد ما لا يخفى.

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٥٣٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٤٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥١١)، و«التبيان» (٢/ ٦٦٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٩٣)، و«النكت والعيون» (٢/ ٤٠٧).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٤٧١).

(٤) قاله القشيريُّ. ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٦).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٥٥)، و«المحتسب» (١/ ٣٠٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥١١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٣٢). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

(٦) في «الكشاف» (٣/ ١٩٧).

و﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾: القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص.

و﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾: الذين يحمدون الله سبحانه على السرّاء والضرّاء، و﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ قيل: هم الصائمون، وإليه ذهب جمهور[١] المفسرين، ومنه قوله تعالى: ﴿عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ﴾ [التحريم: ٥] وإنما قيل[٢]: للصائم: سائح، لأنَّه يترك اللذات، كما يتركها السائح في الأرض، ومِنْه قول أبي طالب بن عبد المطلب[٣]:

وبالسائحين لا يذوقون فطرةً ... لربهم والراكداتِ العوامل

وقال آخر:

تراه يصلي ليلَه ونهارَه ... يظل كثيرَ الذكر للَّه سائحا[٤]

قال الزجّاج[٥]: ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا: هم الذين يصومون الفرض، وقيل: إنهم الذين يديمون الصيام.

وقال عطاء[٦]: السائحون: المجاهدون.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٧]: السائحون: المهاجرون.

وقال عكرمة[٨]: هم الذين يُسافرون لطلب الحديث والعِلْم.

وقيل: هم الجائلون[٩] بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته، وما خلق من العبر.

والسيّاحة في اللغة أصلُها[١٠]: الذهابُ على وجه الأرض كما يسيح الماء، وهي ممّا يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عَنْ الخلق، ولما يحصل له مِنْ الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه.

و﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ معناه: المصلّون، و﴿ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: القائمون بأمر النّاس بما هو معروف في الشريعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ القائمون بالإنكار

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).
(٢) سيأتي تخريج هذه الأقوال. (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٣).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٤). (٥) «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٧٢).
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٣٠). (٧) «النكت والعيون» (٢/ ٤٠٧).
(٨) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣٠).
(٩) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٨٥).
(١٠) «تهذيب اللغة» (٥/ ١٧٣)، و«الصحاح» (١/ ٣٧٧).

على مَنْ فعل منكراً؛ أي: شيئاً ينكره الشرع ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها في كُتبه، وعلى لسان رسله، وإنّما أدخل الواو في الوصفين الآخرين، وهما ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ﴾ إلخ؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة، ثم عطف عليه[1] الحافظون بالواو لقربه؛ وقيل: إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها، كقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

وقيل: إنّ الواو زائدة[2]؛ وقيل: هي واو الثمانية[3] المعروفة عند النحاة، كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، وقوله: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ [الكهف: ٢٢]، وقد أنكروا الثمانية أبو علي الفارسي[4] وناظره في ذلك ابن خالَويه[5]. ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة.

وقد أخرج ابن جرير[6]، عن محمد بن كعب القُرَظي، وغيره قالوا: «قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترطْ لربِّك ولنفسك ما شئتَ، قال: أشترط لربي أَنْ تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترطُ لنفسي أَنْ تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالَكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنّة، قال: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ الآية».

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله[7]، قال: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ فكبّر الناس في المسجد، فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفيّ ردائه على عاتقه، [٢/٢٤٣] فقال: يا رسولَ الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع رَبيحٌ لا نقيل ولا نستقيل.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٥١١ ـ ٥١٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٤٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٣٦).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) سيأتي بيانه في سورة الكهف عند تفسير الآية (٢٢).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٧)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٨٧).
(٥) انظر: «الحجة» لابن خالويه (ص٣١١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦ ـ ٧) مرسلاً بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦) بسند صحيح.

وقد أخرج ابن سعد، عن عبادة بن الصامت[(١)]، أن النبي ﷺ اشترط في بيعة العَقَبة على مَنْ بايعه من الأنصار: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا ينازعوا في الأمر أهله، ويمنعوه ممَّا يمنعون منه أنفسَهم وأهليهم، قالوا: نعم؛ قال قائل الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ قال: الجنّة.

وأخرجه ابن سعد[(٢)] أيضاً مِنْ وجه آخر، وليس في قصة العقبة ما يدلّ على أنَّها سبب نزول الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٣)]، قال: مَنْ مات على هذه التسع، فهو في سبيل الله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٤)]، قال: الشهيد مَنْ كان فيه التسع الخصال المذكورة في هذه الآية.

وأخرج أبو الشيخ[(٣)] عنه قال: العابدون: الذين يقيمون الصلاة.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عنه[(٥)]، أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل مَنْ يُدعى إلى الجنّة الحمّادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء».

وأخرج ابن جرير[(٦)]، عن عُبيد بن عمير، قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: «هم الصائمون».

وأخرج الفريابي، وابن جرير، والبيهقي في «شعب الإيمان»، من طريق عبيد بن عمير، عن أبي هريرة[(٧)] مرفوعاً مثلَه.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٦٠٩).
(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٩).
(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٩٦).
(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٩٦) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.
(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٢٠٦).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠ ـ ١١) مرسلاً.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٩٣): «وهذا مرسل جيد، فهذا أصح الأقوال وأشهرها».
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠، ١١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٥٧٨)، ومسدد كما في «المطالب العالية» رقم (٣٩٩٩).
=

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة[١] مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن مردويه[٢]، عن ابن مسعود، مرفوعاً مثله.

وقد روي عَنْ أبي هريرة[٣] موقوفاً، وهو أصح مِنْ المرفوع من طريقه، وحديث عُبيد بن عمير مرسل، وقد أسنده من طريق أبي هريرة في الرواية الثانية.

وقد روي من قول جماعة من الصحابة مثل هذا: منهم عائشة[٤] عند ابن جرير، وابن المنذر.

ومنهم ابن عباس[٥] عند ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ.

ومنهم ابن مسعود[٦]، عند هؤلاء المذكورين قبله.

وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في «شُعَب الإيمان»، عن أبي أمامة[٧] أنّ رجلاً استأذن رسول الله ﷺ في السياحة فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وصححه عبد الحق.

وأخرج أبو الشيخ[٨]، عن الربيع، في هذه الآية قال: هذه أعمال قال فيها

= قال البيهقي: «والمحفوظ عن ابن عيينة، عن عمرو، عن عبيد بن عمير، عن النبي ﷺ».

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١) بسند ضعيف؛ لضعف حكيم بن حزام.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥) بسند ضعيف جدّاً. إبراهيم بن يزيد وهو الحوزي متروك.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٢ ـ ١٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٩)، والطبراني رقم (٩٠٩٥) من طريق سفيان، به.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٩)، والطبراني رقم (٧٧٠٨، ٧٧٦٠)، والحاكم (٢/ ٧٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٢٢٦)، وأبو داود رقم (٢٤٨٦). وهو حديث حسن.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٩٩).

أصحاب النبي ﷺ: إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أَنَّ مَنْ قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيداً، ومَنْ مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله.

وأخرج ابن المنذر[1]، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: الشهيد مَنْ لو مات على فراشه دخل الجنّة. قال: وقال ابن عباس مَنْ مات وفيه تسع، فهو شهيد، وقرأ هذه الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[2]، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ يعني: بالجنّة، ثم قال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القائمين على طاعة الله، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد، وإذا وفَوا لله بشرطه وفَى لهم بشرطهم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

لما بيّن الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بيَّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً، وصرّح بأن ذلك متحتم، ولو كانوا أولي قربى، وأنّ القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها.

وقد ذكر أهل التفسير أن «ما كان» في القرآن يأتي على وجهين:

الأوّل: على النفي نحو: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

والآخر: على معنى النّهي نحو: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٢) بسند صحيح.

و﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، وتحريم الاستغفار لهم، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً، ولا ينافي هذا ما ثبت عَنْه ﷺ في «الصحيح»(١) أنّه قال يوم أُحد حين كسر المشركون رباعيته وشَجُّوا وجهه: «اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون»؛ لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، وعلى فرض أنه قد كان بلغه، كما يفيده سبب النزول، فإنّه قبل يوم أُحد بمدّة طويلة، وسيأتي، فصدُور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل(٢) الحكاية عمّن تقدّمه من الأنبياء، كما في «صحيح مسلم» عَنْ عبد الله، قال: كأني أنظر إلى النبيّ ﷺ يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عَنْ وجهه ويقول: «ربّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(٣).

وفي البخاري(٤)، أنّ النبيّ ﷺ ذكر نبيّاً قبله شجّه قومُه، فجعل النبي ﷺ يخبر عنه بأنه قال: «اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذه الجملة(٥) تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار.

والمعنى: أن هذا التبّينَ موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتداد بالقرابة؛ لأنهم ماتوا على الشرك.

وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية: ذكر الله سبحانه(٦) السبب في استغفار إبراهيم لأبيه، أنه كان لأجلِ وعدٍ تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له [٢/٢٤٤] أنه عدوّ لله، وأنه غير مستحق للاستغفار.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١١٩٥٦)، والبخاري بإثر رقم (٤٠٦٨) معلقاً، ومسلم رقم (١٧٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/٣٩٩).
(٣) أخرجه أحمد رقم (٣٦١١)، والبخاري رقم (٣٤٧٧)، ومسلم رقم (١٧٩٢).
(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٤٧٧).
(٥) «روح المعاني» (١٠/٥٤١ ـ ٥٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٤٤٩).
(٦) «جامع البيان» (١٢/١٩).

وهذا يدلّ على أنّه إنما وعده قبل أَنْ يتبين له أنه من أهل النار، ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين، أنّه كيف خفي ذلك على إبراهيم، فإنَّه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصرّ على الكفر ومات عليه، وهو لم يعلم ذلك إلَّا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدوّ لله، فإن ثبوت هذه العداوة تدلّ على الموت على الكفر، وكذلك لم يعلم نبيّنا ﷺ بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل.

وقيل: المراد من استغفار إبراهيم لأبيه: دعاؤه إلى الإسلام، وهو ضعيف جدّاً.

وقيل: المراد بالاستغفار في هذه الآية: النهي[1] عن الصلاة على جنائز الكفار، فهو كقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم.

فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ وهو كثيرُ التأوّه، كما تدل على ذلك صيغة المبالغة.

وقد اختلف أهل العلم[2] في معنى الأوّاه، فقال ابن مسعود[3]، وعبيد بن عمير[4]: إنه الذي يُكثر الدعاء.

وقال الحسن[5]، وقتادة[6]: إنه الرّحيم بعباد الله.

وروي عن ابن عباس[7]: أنه المؤمن بلغة الحبشة.

وقال الكلبي[8]: إنه الذي يذكر الله في الأرض القَفْر.

وروي مثله عن ابن المسيب[9].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٨٨).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٠١ ـ ٤٠٢)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٣ ـ ٣٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٤) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٥) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠) بسند ضعيف.
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٢).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤١) بسند ضعيف.

وقيل: الذي يكثر الذكر لله من غير تقييد، روي ذلك عن عقبة بن عامر[(١)].

وقيل: هو الذي يكثر التلاوة، حكي ذلك عن ابن عباس[(٢)].

وقيل: إنَّه الفقيه، قاله مجاهد[(٣)] والنخعي[(٤)].

وقيل: المتضرع الخاضع، روي ذلك عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد.[(٥)]

وقيل: هو الذي إذا ذكر خطاياه استغفر لها، روي ذلك عن أبي أيوب[(٦)].

وقيل: هو الشفيق. قاله عبد العزيز بن يحيى[(٧)].

وقيل: إنه المعلم[(٨)] للخير.

وقيل: إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله قاله عطاء[(٩)].

والمطابق لمعنى الأوّاه لغة أن يقال: إنه الذي يكثر التأوّه مِنْ ذنوبه، فيقول مثلاً: آه مِنْ ذنوبي آه، مما أعاقب به بسببها، ونحو ذلك، وبه قال الفرّاء[(١٠)]، وهو مروي عن أبي ذرّ[(١١)].

ومعنى التأوّه[(١٢)] هو: أَنْ يسمع للصدر صوت مِنْ تنفس الصُعداء.

قال في «الصحاح»[(١٢)]: وقد أوّه الرجل تأويهاً، وتأوه تأوهاً إذا قال: أوّه، والاسم منه: آهة بالمدّ، قال:

إذا ما قمتُ أرحَلُها بليل ... تأوّه آهَةَ الرجل الحزينِ[(١٣)]

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤١ ـ ٤٢)، والترمذي رقم (١٧٨). وهو أثر ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٣) بسند ضعيف.

(٤) ذكره البغوي في «معالم السنن» (٢/ ٣٣٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٣) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٦) بسند ضعيف.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٣).

(٨) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٣٢) عن سعيد بن جبير.

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٤).

(١٠) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣).

(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٢)، والحاكم (١/ ٣٦٨) وقال: «إسناده معضل».
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٠٢): «هذا حديث غريب، رواه ابن جرير ومشاه».

(١٢) (٦/ ٢٢٢٥).

(١٣) انظره في: «ديوان المثقب» (ص١٩٤).

و«الحليم» الكثير الحلم، كما تفيده صيغة المبالغة، وهو الذي يصفح عن الذنوب، وَيصبر على الأذى؛ وقيل: الذي لا يعاقب أحداً قط إلا لله(١).

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سعيد بن المسبب(٢)، عن أبيه، قال: لما حضرت الوفاةُ أبا طالب دخل النبي ﷺ، وعنده أَبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية بن أمية، فقال النبي ﷺ: «أي عمّ قُلْ لا إله إلا الله أحاجّ لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن أمية: يا أبا طالب أترغب عَنْ ملّة عبد المطلب؟ فجعل رسولُ الله ﷺ يعرضها عليه، وأَبو جهل وعبد الله، يعاندانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأَبى أَنْ يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء في «المختارة»، عن عليّ(٣) قال: سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن عليّ(٤) قال: أخبرتُ النبيّ ﷺ بموت أبي طالب، فبكى، فقال: «اذهبْ فغسّلْه وكفّنْه، وواره غفر الله له ورحمه»، ففعلت،

---

(١) ذكره الواحدي في «تفسيره» (٢/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٣٦٧٤)، والبخاري رقم (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم رقم (٢٤)، والنسائي رقم (٢٠٣٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠ ـ ٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢، ٣٢٨)، والترمذي رقم (٣١٠١)، والنسائي رقم (٢٠٣٥)، وأبو يعلى رقم (٣٣٥، ٦١٩)، والطيالسي رقم (١٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥ ـ ٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٣)، والحاكم (٢/ ٣٣٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٣٧٧، ٩٣٧٨). وهو حديث حسن.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٢٣)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٦٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد روي كون سبب نزول الآية: استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة:

(منها) عن محمد بن كعب، عند ابن أبي حاتم[١] وأبي الشيخ، وهو مرسل.

(ومنها) عن عَمرو بن دينار، عند ابن جرير[٢]، وهو مرسل أيضاً.

(ومنها) عن سعيد بن المسيب، عند ابن جرير[٣]، وهو مرسل أيضاً.

(ومنها) عن عمر بن الخطاب[٤] عند ابن سعد، وأبي الشيخ وابن عساكر.

(ومنها) عن الحسن البصري[٥] عند ابن عساكر، وهو مرسل.

وروي أنها نزلت بسبب زيارة النبي ﷺ لقبر أمه، واستغفاره لها، من طريق ابن عباس[٦] عند الطبراني وابن مردويه، ومن طريق ابن مسعود[٧] عند ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه.

والبيهقي في «الدلائل»، وعن بُريدة عند ابن مردويه[٨]، وما في «الصحيحين» مقدّم على ما لم يكن فيهما، على فرض أنه صحيح، فكيف وهو ضعيف غالبه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٤) مرسلاً بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١) مرسلاً.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٢) مرسلاً.
(٤) أخرجه ابن سعد (١/ ١٢٣)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).
(٥) أخرجه ابن عساكر في «تارخ مدينة دمشق» (٦٦/ ٣٣٧).
(٦) أخرجه الطبراني رقم (١٢٠٤٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٧): «فيه أبو الدرداء عبد الغفار بن المنيب بن إسحاق بن عبد الله، عن أبيه، عن عكرمة، ومن عدا عكرمة لم أعرفهم، ولم أرَ من ذكرهم».
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٩٧): «وهذا حديث غريب، وسياق عجيب».
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٣)، والحاكم (٢/ ٢٣٦)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩، ١٩٠).
قال الحاكم: «صحيح على شرطهما ولم يخرجاه هكذا بهذه السياقة، إنَّما أخرج مسلم حديث يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة مختصراً، وقال الذهبي: أيوب بن هانئ ضعَّفه ابن معين».
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٣).

وأخرج ابن المنذر(١)، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤] قال: ثم استثنى فقال: [٢/٢٤٥] ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة(٢)، في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ قال: تبين له حين مات، وعلم أن التوبة قد انقطعت منه.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وأبو بكر الشافعي في «فوائده»، والضياء في «المختارة»، عن ابن عباس(٣) قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدوّ لله، فتبرأ منه.

وأخرج ابن مردويه(٤)، عن جابر، أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر، فقال رجل: لو أنّ هذا خفّض صوته؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنّه أوّاه».

وأخرج الطبراني وابن مردويه، عن عقبة بن عامر(٥)، أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: «البجادين»: «إنه أوّاه»، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء.

وأخرجه أيضاً أحمد(٥) قال: حدّثنا موسى بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن عليّ بن رباح، عن عقبة بن عامر، فذكره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد(٦) قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأوّاه؟ قال: «الخاشع المتضرّع الدّعاء».

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٢٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٢٨٩٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ١٨٩٤، ١٨٩٥)، والضياء (١٠/ ٣٩٧ رقم ٤٢٠) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٥). وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٢).

(٥) أخرجه الطبراني (ج١٧ رقم ٨١٣)، وأحمد رقم (١٧٤٥٣). وهو حديث حسن لغيره.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٥، ١٨٩٦) بسند ضعيف.

وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأوّاه، وإسناده عند ابن جرير(١) هكذا: حدّثني المُثنّى، حدثني الحجاج بن منهال، حدّثنا عبد الحميد بن بهرام، حدّثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد، فذكره.

وأخرَج ابنُ أبي حاتم(٢)، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال: كان من حِلمه أنّه كان إذا أذاه الرجل مِنْ قومه قال له: هداك الله.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

لما نزلت الآية المتقدّمة في النهي عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهمَ العقوبة مِنْ الله بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ إلخ؛ أي: أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الإسلام، والقيام بشرائعه، ما لم(٣) يُقْدموا على شيء من المحرّمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك، فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به.

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه مِنْ محرّمات الشرع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مما يحلّ لعباده، ويحرم عليهم، ومن سائر الأشياء

(١) في «جامع البيان» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٤).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٨) من طريق أبي الجوزاء، به.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٠٥)، و«جامع البيان» (١٢/ ٤٦ ـ ٤٧).

التي خلقها، ثم بيَّن لهم أن له سبحانه ملك السمٰوات والأرض لا يشاركه في ذلك مشارك، ولا ينازعه مُنازع، يتصرف في ملكه بما شاء من التصرفات التي من جملتها أنَّه يحيى مَنْ قضت مشيئته بإحيائه، ويُميت من قضت مشيته بإماتته، وما لعباده من دونه مِنْ وليّ يواليهم، ولا نصير ينصرهم، فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فإنّ القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً؛ بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده.

قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ فيما وقع منه ﷺ مِنْ الإذن في التخلّف، أو فيما وقع منه مِنْ الاستغفار للمشركين.

وليس مِنْ لازم(١) التوبة أَنْ يسبق الذنب ممّن وقعت مِنْه أوله؛ لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي ﷺ من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق، كما في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لابسوه منها، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار، فيما قد اقترفوه مِنْ الذنوب.

ومِنْ هذا القبيل ما صحّ عنه ﷺ مِنْ قوله: «إنّ الله اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»(٢) ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبيّ ﷺ، فلم يتخلفوا عنه. وساعة العسرة: هي غزوُة تبوك، فإنهم كانوا في عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الأمر.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في كاد ضمير(٣) الشأن، وقلوبِ مرفوعُ بتزيغ عند سيبويه(٤)؛ وقيل: هي مرفوعة بكاد، ويكون التقدير من بعد ما كان قلوبُ فريق منهم تزيغ.

---

(١) «النكت والعيون» (٢/ ٤١٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم رقم (١٦١/ ٢٤٩٤)، والترمذي رقم (٣٣٠٥) وقال: «حسن صحيح».

(٣) «البحر المحيط» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٥١)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).

(٤) في «الكتاب» (١/ ٧١).

وقرأ الأعمش وحمزة وحفص «يَزيغ» بالتحتية(١).

قال أبو حاتم(٢): مَنْ قرأ بالياء التحتية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بـ«كاد».

قال النّحاس(٣): والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع، ومعنى: «تزيغ» تَتْلَف بالجهد والمشقة والشدّة؛ وقيل: معناه: تَميل عن الحق، وتترك المناصرة والممانعة؛ وقيل: معناه: تهمّ بالتخلّف عَنْ الغزو لما هم فيه [٢/٢٤٦] من الشدّة العظيمة.

وفي قراءة(٤) ابن مسعود: «مِنْ بعد ما زاغت» وهم المتخلّفون على هذه القراءة.

وفي تكرير التوبة عليهم بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ تأكيد ظاهرٌ(٥)، واعتناء بشأنها، هذا إنْ كان الضمير راجعاً إلى مَنْ تقدّم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾؛ أي: وتاب على الثلاثة الذين خُلِّفوا؛ أي: أُخّروا، ولم تقبل توبتُهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم.

قال ابن جرير(٦): معنى خُلِّفوا تُركوا، يقال: خلفت فلاناً فارقته.

وقرأ عكرمة بن خالد «خَلَفوا» بالتخفيف(٧)؛ أي: أقاموا بعد نهوض رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الغزو.

وقرأ جعفر بن محمد: «خالفوا»(٨) وهؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك،

---

(١) «البحر المحيط» (٥/٥١٩)، و«النشر» (٢/٢٨١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٥١٠)، و«روح المعاني» (١٠/٥٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٤١٠). وهي قراءة متواترة، وقرأ الباقون بالفوقية.

(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢٣٩).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٣٩).

(٤) «البحر المحيط» (٥/٥١٩)، و«حاشية الشهاب» (٤/٢٧٣)، و«روح المعاني» (١٠/٥٥٥)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٥). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

(٥) «روح المعاني» (١٠/٥٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٤٥١)، و«البحر المحيط» (٥/٥١٩).

(٦) في «جامع البيان» (١٢/٥٤).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص٥٥)، و«المحتسب» (١/٣٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٤١٢)، و«روح المعاني» (١٠/٥٥٧). هي قراءة شاذة.

(٨) انظر: المصادر المتقدمة. وهي كذلك قراءة شاذة.

ومرارة بن الربيع، أو ابن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي ﷺ توبتهم، حتى نزل القرآن بأنّ الله قد تاب عليهم؛ وقيل: معنى «خُلِّفوا»: فسدوا، مأخوذ مِنْ خُلوف الفم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ معناه: أنهم أُخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، و«ما»[١] مصدرية؛ أي: برحبها، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد؛ لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم. والرحب: الواسع. يقال: منزل رَحْب ورحيب ورحاب.

وفي هذه الآية دليل على جواز هجران[٢] أهل المعاصي تأديباً لهم؛ لينزجروا عن المعاصي.

ومعنى ضيق أنفسهم عليهم: أَنَّها ضاقت صدورهم بما نالهم[٣] من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة، وعَبّر بالظن في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عَنْ العلم؛ أي: علموا أنّ لا ملجأ يلجئون إليه قط، إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار.

قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾؛ أي: رجع عليهم بالقبول والرحمة، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا، أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها، ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الكثير القبول لتوبة التائبين، [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي]: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده.

قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أنّ هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل مِنْ توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

وقد أخرج ابن مردويه[٤]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤١٩).
(٢) «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤١٩).
(٣) «النكت والعيون» (٢/ ٤١٣).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٨).

﴿قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأُسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يُؤذنَ لكم، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ قال: حتّى ينهاهم قبل ذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[١]، في الآية قال: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامةً، ما فعلوا أو تركوا.

وأخرج ابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في «المختارة»، عن ابن عباس[٢]، أنه قال لعمر بن الخطاب: حدّثنا مِنْ شأن ساعة العُسْرة، فقال: خرجنا مع رسول الله إلى تبوك في قَيْظٍ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إنّ الرجل لينحر بِعيره، فيعصر فَرْثَه، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إنّ الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه، فلم يرجِعهما حتّى قالت السماء، فأهطلتْ ثم سكبتْ، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر.

وقد وقع الاتفاق بين الرواة أَنَّ ساعة العسرة هي غزوة تبوك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن منده، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن جابر بن عبد الله[٣]، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ قال: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار.

وأخرج ابن منده، وابن عساكر، عن ابن عباس[٤]، مثله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٢، ٥٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» رقم (١٠١)، وابن حبان رقم (١٣٨٣)، والحاكم (١/ ١٥٩)، وأبو نعيم رقم (٤٥٢)، والبيهقي (٥/ ٢٣١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٥)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٥٠/ ١٩٥)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٤٦ ـ تفسير). وهو حديث صحيح لغيره.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٥/ ١٩٥).

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما، عَنْ كعب بن مالك[١] قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنّي كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العَقَبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر منها في الناس وأَشهر، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة في كتب الحديث والسير، وهي معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك[٢]، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ قال: يعني خُلِّفوا عن التوبة، لم يتب عليهم حين تاب الله على أبي لُبابة وأصحابه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن عكرمة[٣] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن نافع[٤]، في قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ قال: نزلت في الثلاثة الذين خُلفُّوا، قيل لهم: كونوا مع محمد وأصحابه.

وأخرج ابن جرير[٥]، عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ قال: مع أبي بكر وعمر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٤١٨)، ومسلم رقم (٢٧٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٨ ـ ٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٩٩ ـ ١٩٠٣)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٣٣٧٠)، والبيهقي (٩/ ٣٣ ـ ٣٦)، وفي «الدلائل» (٥/ ٢٧٣ ـ ٢٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٥) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٠)، وابن عساكر (٥٠/ ٢٠٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٧ ـ ٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٦) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٨) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي، به.

الضحاك[١] في الآية قال: مع أبي بكر، وعمر، وأصحابهما.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس[٢]، قال: مع عليّ بن أبي طالب.

وأخرج ابن عساكر[٢]، عن أبي جعفر، قال: مع الثلاثة الذين خلفوا.

[تأكيد وجوب الجهاد في سبيل الله وتحريم التخلف]:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾. [٢/٢٤٣]

في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ، وتحريم التخلف عنه؛ أي: ما صح وما استقام لأهل[٣] المدينة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كمُزينة وجُهينة، وأَشْجَع وأَسْلم وغِفَار ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، في غزوة تبوك، وإنما خصّهم الله سبحانه لأنهم قد استُنفروا، فلم ينفروا، بخلاف غيرهم مِنْ العرب، فإنهم لم يُستنفروا[٤] مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ أي: وما كان لهم أنْ يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيشحون بها ويصونونها، ولا يشحون بنفس رسول الله، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال: رغبتُ عن كذا؛ أي: ترفعتُ عنه؛ بل واجب عليهم أن يُكابدوا معه المشاق، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق.

ويبذلوا أنفسهم دون نفسِه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٠٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٠/ ٣١٠) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣١٦). وهو عند الثعلبي (٥/١٠٩) من طريق الكلبي عن أبي صالح.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٢٣)، و«معالم التنزيل» (٢/٣٣٧).

(٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/١٠١٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٧١ ـ ٧٢).

إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ[١] لهم، والتقريع الشديد، والتهييج لهم، والإزراء عليهم.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله ؛ أي: ذلك الوجوب عليهم بسبب أنّهم مثابون على أنواع المتاعب، وأصناف الشدائد.

والظمأ: العطش، والنصَب: التعب، والمَخْمصة: المَجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن.

وقرأ عُبيد بن عُمَير «ظَمَاء»[٢] بالمد.

وقرأ غيره بالقصر[٣]، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء، و﴿لَا﴾ في هذا المواضع زائدة[٤] للتأكيد.

ومعنى ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: في طاعة الله.

قوله: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم، أو بحوافر خيولهم، أو بأخفاف رواحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار.

والموطئ: اسم مكان، ويجوز أَنْ يكون[٥] مصدراً ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾؛ أي: يُصيبون مِنْ عدوّهم قتلاً أو أسراً أو هزيمة أو غنيمة، وأصله من نلت الشيء أنال؛ أي: أُصيب. قال الكسائي[٦]: هو مِنْ قولهم: أمرٌ مَنيل مِنْه، وليس هو مِنْ التناول، إنما التناول مِنْ نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، ونلته أناله: أدركته، والضمير[٧] في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى كلٍّ واحدٍ من الأمور المذكورة، والعمل الصالح: الحسنةُ المقبولة؛ أي: إلّا كتبه الله لهم حسنةً مقبولةً يجازيهم بها،

---

(١) «روح المعاني» (١٠/ ٥٦٦).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٩)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٦٧). هي شاذة، والقراءة المتواترة هي القراءة بالقصر.
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٦٧).
(٥) «التبيان» (٢/ ٦٦٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٦٨).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٠).
(٧) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٥٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٦٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٢٤).

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في حكم التعليل[١] لما سبق مع كونه يشمل كلَّ محسن، ويصدق على المذكورين هنا صدقاً أوّليّاً.

قولُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ معطوف على[٢] ما قبله؛ أي: ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب، وإنْ كان شيئاً صغيراً يسيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهو في الأصل: كلُ منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، والعرب تقول: واد وأودية على غير قياس. قال النحاس[٣]: ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعِلة. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾؛ أي: كتبُ لهم ذلك الذي عملوه مِنْ النفقة والسفر في الجهاد ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ به ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ ضمير يرجع[٤] إلى عمل صالح.

وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها، وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] فإنها تدل على جواز التخلّف مِنْ البعض، مع القيام بالجهاد من البعض، وسيأتي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٥] من طريق عمر بن مالك، عَنْ بعض الصحابة قال: لما نزلت ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاءُ النّاس ما كانت سَريةُ إلَّا كنتُ فيها».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٦]، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: هذا حين كان الإسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله ﷺ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

وأخرج ابن أبي حاتم[٧]، عن الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، وإبراهيم بن

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٥٤)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٦٦).
(٢) انظر: «روح المعاني» (١٠/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩).
«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٤٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٧٠).
(٣) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٠). (٤) «روح المعاني» (١٠/ ٥٧٠).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٧) من طريق عبد الله بن وهب، به.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٧) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٩).

محمد الفزاري، وعيسى بن يونس السبيعي، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ قالوا: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

[الجهاد فرض كفاية وليس فرض عين]:

[المؤمنون لا ينفرون كافة، وتعدد الروايات في معنى ذلك]:

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

[توجيهات في قتال الكفار]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

اختلفَ المفسّرون في معنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ فذهب جماعةٌ إلى أنّه مِنْ بقية أحكام الجهاد؛ لأن سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو، كان المسلمون إذا بعث رسول الله ﷺ سرية إلى الكفار ينفرون جميعاً، ويتركون[1] المدينة خاليةً، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك؛ أي: ما صحّ لهم، ولا استقام أن ينفروا جميعاً؛ بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة، ويبقى مَنْ عدا هذه الطائفة النافرة.

قالوا: ويكون الضمير[2] في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية.

والمعنى: أنّ الطائفة مِنْ هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، ومن بقي من الفرقة[3] يقفون لطلب العلم، ويعلّمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون في طلبه

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٤٢٨)، و«جامع البيان» (١٢/ ٧٥ ـ ٧٦).

(٢) «البحر المحيط» (٥/٥٢٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٥٥)، و«الكشاف» (٣/١٠٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٨٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩١) عن قتادة بسند صحيح.

- وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٧٧) عن مجاهد بسند صحيح.
- وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٨٢) عن الحسن بسند صحيح.

إلى المكان الذي يجدون [٢/٢٤٨] فيه مَنْ يتعلمون منه، ليأخذوا عنه الفقه في الدين، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم.

وذهب آخرون[١] إلى أنّ هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقلّ بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دلّ على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين:

الأوّل: سفر الجهاد.

والثاني: السفر لطلب العلم. ولا شك أنّ وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب مَنْ يتعلم منه في الحضر مِنْ غير سفر.

والفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية، وبما يتوصل به إلى العلم بها من لغة ونحو، وصرف وبيان وأصول.

ومعنى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فهلّا نفر، والطائفة في اللغة: الجماعة. وقد جعل الله سبحانه الغَرَض مِنْ هذا هو التفقه في الدين، وإنذار مَنْ لم يتفقه. فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالبٌ لغرض دنيوي لا لغرض دينيّ، فهو كما قلت[٢]:

وطالبُ الدُّنيا بعلـ ... ـمِ الدِّين أيُّ بائِسِ
كمنْ غدا لِنَعْلِه ... يمسحُ بالقلانِسِ

ومعنى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الترجّي[٣] لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك، أو فيما يجب تركه فيفعل، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأنْ يجتهدوا في مقاتلة مَنْ يليهم من الكفار، وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدّة، والجهاد واجب لكل الكفار، وإن كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهمّ وأقدم، ثم الأقرب فالأقرب؛ ثم أخبرهم الله بما يقوّي عزائمهم، ويثبت أقدامهم فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: بالنصرة لهم، وتأييدهم على عدوّهم، ومن كان الله معه لم يقم له شيء.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).

(٢) الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: «ديوان الشوكاني ـ أسلاك الجوهر» (ص٢١٦ ـ ٢١٧).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٥٤).

وقد أخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن[1] عباس، قال: نسخ هؤلاء الآيات: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] و﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩] قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ يقول: لتنفرْ طائفة، وتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ، فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين، وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم مِنْ الغزو، ولعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عنه[2]، نحوه من طريق أخرى بسياق أتمّ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه[3]، أيضاً في هذه الآية قال: ليست هذه الآية في الجهاد، ولكن لمّا دعا رسول الله ﷺ على مُضَرَ بالسنين، أجدبت بلادُهم؛ فكانت القبيلة منهم تُقْبل بأسرها حتى يُحلّوا بالمدينة من الجهد، ويعتلّوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيّقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين، فردّهم إلى عشائرهم، وحذر قومهم إن فعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وفي الباب روايات عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن أبي حاتم[4]، عن قتادة، في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ قال: الأدنى، فالأدنى.

وأخرج أبو الشيخ[5]، عن الضحاك، مثله.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر[5]، أنه سئل عن غزو الديلم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ قال: الروم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٣، ١٩١٢) من طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء الخراساني، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٧٧، ٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٧ ـ ١٩٠٩، ١٩١٢)، والبيهقي في «المدخل» (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ رقم ٣٣٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٧٩ ـ ٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١١٩١، ١٩١٢) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٤).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٤).

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ قال: شدّة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ
رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾
لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين[٢]؛ أي: إذا ما أنزل الله على رسوله ﷺ سورةً من كتابه العزيز، فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لإخوانه منهم: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة النازلة ﴿إِيمَٰنًا﴾ يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أنْ يقولوه لجماعةٍ من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وتزهيدهم فيه، و﴿أَيُّكُمْ﴾[٣] مرفوع بالابتداء وخبره زادته. وقد تقدّم بيان معنى السورة.

ثم حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيماناً إلى إيمانهم، والحال أنّهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحي، وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم: المنافقون ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة المنزلة ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: خُبْثاً إلى خُبْثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد، وإظهار غير ما يضمرونه، وثبتوا على ذلك واستمروا عليه [٢/٢٤٩] إلى أن ماتوا كفاراً منافقين.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩١٤) بسند ضعيف.

(٢) «جامع البيان» (١٢/٨٨ ـ ٨٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/٤٣٦ ـ ٤٣٧).

(٣) «روح المعاني» (١٠/٥٧٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٤٥٦).

والمراد بالمرض هنا: الشك والنفاق؛ وقيل: المعنى: زادتهم إثماً إلى إثمهم.

قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قرأ الجمهور «يرون» بالتحتية.

وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطاباً للمؤمنين.

وقرأ الأعمش: «أو لم يروا»[(١)].

وقرأ طلحة بن مُصرّف «أو لا ترى»[(٢)] خطاباً لرسول الله ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود.

ومعنى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يُختبرون، قاله ابن جرير[(٣)]، وغيره، أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدّة، قاله مجاهد[(٤)].

وقال ابن عطية[(٥)]: بالأمراض والأوجاع.

وقال قتادة[(٦)]، والحسن[(٧)]: بالغزو والجهاد مع النبي ﷺ، ويرون ما وعد الله مِنْ النصر ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ و«ثم» لعطف[(٨)] ما بعدها على يرون، والهمزة في (أو لا) يرون للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدّر؛ أي: لا ينظرون ولا يرون، وهذا تعجيب مِنْ الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق، وإهمالهم للنظر والاعتبار.

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ٥٣٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٣٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٩٠ ـ ٩١)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٣٠٤). القراءة بالفوقية والتحتية متواترتان كما ذكر ذلك المؤلف، وقراءة الأعمش وطحة شاذة.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. (٣) في «جامع البيان» (١٢/ ٩١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥) بسند صحيح.

(٥) في «المحرر الوجيز» (٨/ ٣٠٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٢) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥) بسند صحيح.

(٨) «روح المعاني» (١٠/ ٥٧٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٥٦).

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: نظر[١] بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين، لننصرف عَنْ المقام الذي ينزل فيه الوحي، فإنه لا صبر لنا على استماعه، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك.

وقيل: المعنى: وإذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم، قال بعضُ مَنْ يحضر مجلس رسول الله ﷺ للبعض الآخر منهم: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم.

وحكى ابن جرير[٢]، عَنْ بعض أهل العلم، أنه قال: ﴿نَّظَرَ﴾ في هذه الآية موضوع موضع قال؛ أي: قال بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾؛ أي: عن ذلك المجلس إلى منازلهم، أو عن ما يقتضي الهداية والإيمان إلى ما يقتضي الكفر والنفاق، ثم دعا الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾؛ أي: صرفها[٣] عَنْ الخير وما فيه الرشد لهم والهداية، وهو سبحانه مصرّف القلوب ومقلبها.

وقيل: المعنى: أَنَّه خذلهم عن قبول الهداية.

وقيل: هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه، كقولهم: قاتله الله.

ثم ذكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية، أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرّهم وإنصافهم، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهوِّن عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿رَسُولٌ﴾ أرسله الله إليكم، له شأن عظيم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم في كونه عربيّاً وإلى كون هذه الآية خطاباً للعرب ذهب جمهور المفسرين.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ١٠٢١)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٢) في «جامع البيان» (١٢/ ٩٤).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٨/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٣٧).

وقال الزجاج[(١)]: هي خطاب لجميع العالم. والمعنى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ﴾ جنسكم في البشرية ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ «ما» مصدرية[(٢)].

والمعنى: شاق عليه عنتكم لكونه مِنْ جنسكم، ومبعوثاً لهدايتكم، والعنَتُ: التعب لهم، والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار، أو بمجموعهما ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، أو حريص على إيمانكم. والأوّل: أولى، وبه قال الفرّاء[(٣)].

والرؤوف والرحيم، قد تقدّم بيان معناهما؛ أي: هذا الرسول ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم قال مخاطباً لرسوله ومسلياً له، ومرشداً له، إلى ما يقوله عند أن يُعصى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: كافيّ الله سبحانه المنفرد بالألوهية ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: فوّضت جميع أموري ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وصفه بالعظم؛ لأنه أعظم المخلوقات.

وقد قرأ الجمهور[(٤)] بالجرّ على أنه صفة لعرش.

وقرأ ابن محيصن بالرفع[(٥)] صفة لرب. وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٦)]، في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيماناً وتصديقاً، وكانوا بها يَسْتبشرون.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٧٧).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٥٣٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٨١).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٦).
(٤) «البحر المحيط» (٥/ ٥٣٤)، و«حاشية الجمل» (٢/ ٢٣١)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٠٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٣٠٣).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«روح المعاني» (١٠/ ٥٨٢)، و«البحر المحيط» (٥/ ٥٣٤).
القراءة المتواترة هي قراءة الجمهور بجر «العرش»، والرواية عن ابن كثير وقراءة ابن محيصن شاذة.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم[(١)]، عن السديّ، في قوله: ﴿رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ قال: شكّاً إلى شكهم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٢)]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾ قال: يُبْتلون.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(٣)]، نحوه وقال: بالسَّنَة والجوع.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)]، عن الحسن، قال: بالعدوّ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[(٥)]، قال: بالغزو في سبيل الله.

وأخرج أَبو الشيخ، عن بكّار بن مالك[(٦)]، قال: يُمرضون في كل عام مرّة أو مرّتين.

وأخرج ابن مردويه[(٧)]، عن أبي سعيد، قال: كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن حذيفة[(٨)]، قال: كنّا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(٩)]، في قوله: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [٢/٢٥٠] قال: هم المنافقون.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥) بسند حسن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٢) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٢) بسند صحيح.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٥).
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٦).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٦) بسند ضعيف.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٥ ـ ٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٦) بسند ضعيف.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[١]، قال: لا تقولوا: انصرفنا مِنْ الصلاة، فإن قوماً انصرفوا، صرفَ اللهُ قلوبَهم ولكن قولوا قضينا الصلاة.

وأخرج ابن أبي شيبة[٢]، عن ابن عمر، نحوَه.

وأقول: الانصراف يكون عَنْ الخير، كما يكون عن الشرّ، وليس في إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عَنْ مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك، وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعدّدة إذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع مِنْ الكفار، لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع عن أهل الخير؛ كالرجوع والذهاب، والدخول والخروج، والقيام والقعود. واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى.

وأخرج عبد بن حميد، والحارث بن أبي أسامة، في «مسنده»، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، في «دلائل النبوّة»، وابن عساكر، عن ابن عباس[٣]، في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: ليس مِنْ العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مُضريُّها وربَعيُّها ويمانيُها.

وأخرج ابنُ سعد[٤] عنه، في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: قد ولدتموه يا معشر العرب.

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه»، وأبو الشيخ، عن جعفر بن محمد[٥]، عن أبيه، في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٥٢ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٨٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٩٥).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢١).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٣٢٧٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٧)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ١٩٠) بسند صحيح ولكنه مرسل.

«خرجتُ مِنْ نكاح ولم أَخْرج مِنْ سفاح» وهذا فيه انقطاع، ولكنّه قد وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»، فقال: حدثنا أبو أحمد، يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي يحدثني، عن أبيه، عَنْ جدّه، عن عليّ بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي».

وأخرج ابن مردويه[١]، عن أنس، قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فقال عليّ بن أبي طالب: يا رسول الله ما معنى من أنفسكم؟ قال: نَسَباً وصِهْراً وحَسَباً، ليس فيّ ولا في آبائي من لَدُن آدم سفاح كلنًّا نكاح».

وأخرج الحاكم[٢]، عن ابن عباس، «أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: من أعظمكم قَدْراً».

وأخرج ابن سعد[٣] عنه نحو حديث عليّ الأول.

وأخرج الطبراني[٤] عنه أيضاً نحوه.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن عائشة[٥]، نحوه.

وفي الباب أحاديث بمعناه، ويؤيده ما في «صحيح مسلم»[٦]، وغيره، من حديث واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٠) على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن سعد (١/ ٦١)، وابن عساكر (٣/ ٤٠٠) بسند واهٍ. «الإرواء» (٦/ ٣٣١).
وقال الذهبي: «هذا حديث ضعيف، فيه متروكان: الواقدي، وأبو بكر بن أبي سبرة».

(٤) أخرجه الطبراني رقم (١٠٨١٢).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٤): «ولم أعرف المديني ولا شيخه، وبقية رجاله وثقوا».

(٥) أخرجه ابن سعد (١/ ٦١)، وابن عساكر (٣/ ٤٠١).
قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإرواء» (٦/ ٣٣٣): «في الطريق إلى الزهري محمد بن عمر الأسلمي وهو متروك كذاب».

(٦) أخرجه مسلم رقم (٤/ ٢٢٧٦)، وأحمد (٤/ ١٠٧)، والترمذي رقم (٣٦٠٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى مِنْ بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن العباس بن عبد المطلب[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة، وحينَ خلَق الأنفس جعلني من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً» وفي الباب أحاديث.

وأخرج ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» من طريق يوسف بن مهران، عن ابن عباس[٢]، عن أُبيّ بن كعب، قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ، وفي لفظ: آخر ما أنزل من القرآن: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

وروي عنه نحوه مِنْ طريق أخرى؛ أخرجها عبد الله بن أحمد[٣] في «زوائد المسند»، وابن الضريس، في فضائله، وابن أبي داود في «المصاحف»، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، والخطيب في «تلخيص المتشابه»، والضياء في «المختارة».

وأخرج ابنُ مردويه[٤]، عن سعد بن أبي وقاص، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جُهينة فقالوا له: إنّك قد نزلت بين أظهرنا فأوثِقْ لنا نأمنك وتأمنّا قال: «ولم سألتم هذا؟» قالوا: نطلب الأمن، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٠)، والترمذي رقم (٣٦٠٧) وقال: «حديث حسن»، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٦٧، ١٦٨). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠١، ١٠٢) والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٣٩)، وإسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» رقم (٣٩٩٤) بسند ضعيف؛ لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» رقم (٢١٢٢٦)، وابن الضريس في «فضائله» رقم (٢٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٣٩)، والضياء رقم (١١٥٥) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٣٣).

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يعني: الكفار تولّوا عن النبي ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عنه، قال: إنما سُمّي العرشُ عرشاً لارتفاعه، وقد رُويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته، وقدره.

وإلى هنا انتهى الثلث الأوّل من التفسير المُسمَّى: «فتح القدير» الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» بقلم مؤلفه: مُحمّد بن علي الشوكاني، غفر الله لهما. وكان تمام هذا الثلث في نهار يوم الثلاثاء لعلّه يوم عشرين من شهر محرّم سنة ١٢٢٧هـ.

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

الحمد لله: انتهى سماعاً على مؤلفه. أطال الله مدّته في شهر جمادى الأولى من عام سنة ١٢٣٥هـ.

يحيى بن علي الشوكاني
غفر الله لهما آمين [٢/٢٥١]

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٩) بسند ضعيف.

سُورَةُ يُونُسَ

هي مكية إلّا ثلاث آيات من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ إلى آخرهنّ [يونس: ٩٤ - ٩٦]، هكذا روى القرطبي في «تفسيره»(١) عن ابن عباس.

وحكي عَنْ مقاتل(٢)؛ أنّها مكية إلا آيتين، وهي قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] فإنها نزلت في المدينة.

وحُكي عَنْ الكلبي(٣)؛ أنها مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠] فإنها نزلت بالمدينة.

وحُكي عن الحسن(٣)، وعكرمة، وعطاء، وجابر؛ أنها مكية من غير استثناء.

وأخرج النحاس، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس(٤)، قال: نزلت سورة يونس بمكة.

وأخرج أبو الشيخ(٥) عن ابن سيرين قال: كانت سورة يونس بعد السابعة.

وأخرج ابن مردويه(٥)، عن أنس، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل».

وأخرج ابن أبي شيبة(٦) في «المصنف» عن الأحنف، قال: صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٤٥).
(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ٩).
(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ٩).
(٤) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٢٩).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٣٩). وأخرجه محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص١٧٠) وقال الألباني في «الضعيفة» رقم (٧٠٨١) «منكر جداً».
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ٢٥٣).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ﴾ قد تقدّم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أوّل سورة البقرة، فلا نعيده. ففيه ما يغني عن الإعادة.

وقد قرأ بالإمالة أبو عَمْرو، وحمزة، وخلف، وغيرهم.

وقرأ جماعة[١] مِنْ غير إمالة؛ وقد قيل: إن معنى ﴿الٓرۚ﴾: أنا الله[٢] أرى.

قال النحاس[٣]: ورأيتُ أبا إسحاق يميل إلى هذا القول؛ لأن سيبويه[٤] قد حكى مثله عَنْ العرب، وأنشد:

بالخير خيراتٌ وإنْ شرّاً فا

أي: وإن شرّاً فشرٌّ[٥].

وقال الحسن[٦] وعكرمة: ﴿الٓرۚ﴾ قَسَمٌ.

وقال سعيد عَنْ قتادة[٦]: ﴿الٓرۚ﴾ اسم للسورة.

وقيل غير ذلك مما فيه تكِلّف لعلم ما استأثر الله بعلمه.

---

(١) «النشر» (٢/ ٦٦ ـ ٦٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٤٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢١) بسند حسن.

(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٤٣). (٤) في «الكتاب» (٣/ ٣٢١).

(٥) «الكتاب» (٣/ ٣٢١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٦٣).

(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٣)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٤٦).

وقد اتفق القرّاء على أنّ ﴿الٓر﴾ ليس بآية، وعلى أن ﴿طه﴾ آية، وفي «مقنع» أبي عَمْرو «الدانّي»؛ أنّ العادّين لطه آية هم: الكوفيون فقط.

قيل: ولعل الفرق أنَّ ﴿الٓر﴾ لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده.

والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم.

واسم الإشارة(١) مبتدأ وخبره ما بعده.

وقال مجاهد(٢) وقتادة(٣): أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى: هذه؛ أي: هذه آيات(٤) الكتاب الحكيم، وهو القرآن، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن(٥) أنّه لم يجرِ للكتب المتقدمة ذكر، وأن الحكيم من صفات القرآن لا مِنْ صفات غيره.

و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ المُحْكَم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، قاله أبو عبيدة(٦) وغيره.

وقيل: الحكيم معناه: الحاكم، فهو فعيل بمعنى: فاعل؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقيل: الحكيم بمعنى(٧): المحكوم فيه، فهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان، قاله الحسن وغيره.

وقيل: الحكيم ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٥) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٥) بسند صحيح.
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٤٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٤٧).
(٧) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤٢).

والاستفهام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار[١] العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ.

واسم كان ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾[٢] وخبرها ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: أكان إيحاؤنا عَجَباً للناس.

وقرأ ابن مسعود «عَجَبٌ» على أنَّه اسم[٣] كان، على أن كان تامة.

و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ بدل مِنْ عجب.

وقرئ بإسكان الجيم[٤] من «رجْل» في قوله: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جنْسهم، وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضي العجب، فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عَنْ الله سبحانه، إلا مَنْ كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة[٥]، أو من الجنّ، ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال؛ لأنهم لا يأنسون إليه، ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره، فإمّا أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني، وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم، أو في الشكل الإنساني، فلا بدّ مِنْ إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم.

وإن كان لكونه يتيماً أو فقيراً، فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً مِنْ خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره، وبالغاً في كمال الصفات إلى حدّ يقصّر عنه من كان غنيّاً، أو كان غير يتيم.

وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن يصطفيه الله بالرسالة مِنْ خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر مِنْ الشمس، وأظهر مِنْ النهار، حتى كانوا يسمونه الأمين. قوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع نصب[٦] بنزع الخافض؛ أي: بأن أنذر الناس، وقيل: هي المفسِّرة لأنَّ في الإيحاء معنى القول.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٩).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٩ ـ ١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٤٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٤٤). وهي قراءة شاذة.
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءة شاذة.
(٥) «روح المعاني» (١١/ ١٢ ـ ١٣).
(٦) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٣)، و«روح المعاني» (١١/ ١٤ ـ ١٥).

وقيل: هي المخففة[١] من الثقيلة، قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾؛ أي: منزل صدق.

وقال الزجاج[٢]: درجة عالية، ومنه قول ذي الرُّمة[٣]:

لـكـم قـدمٌ لا يُـنـكـرُ الـنـاسُ أنّـهـا ... مع الحسَبِ العاليَ طمّتْ على البحرِ

وقال ابن الأعرابي[٤]: القدم المتقدّم في الشرف، وقال أبو عُبيدة[٥] والكسائي[٦]: كلّ سابق مِنْ خير أو شر، فهو عند العرب قدم؛ يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق، وقدم خير، وقدم شرّ؛ ومنه قول العجاج[٧]:

زلّ بـنـو الـعـوّام عـنـد آل الـحَـكَـمْ ... وتـركـوا الـمُـلـكَ لِـمَـلـكٍ ذي قِـدَمْ

وقال ثعلب[٨]: القِدَمُ كل ما قدمت من خير، [٢/١]

وقال ابن الأنباري[٨]: القدم كناية عَنْ العمل الذي لا يقع فيه تأخير، ولا إبطاء.

وقال قتادة[٩]: سلفُ صدقٍ، وقال الربيع[١٠]: ثواب صدق.

وقال الحسن[١١]: هو محمد ﷺ.

وقال الحكيم[١٢] الترمذي: قدمه ﷺ في المقام المحمود.

وقال مقاتل[١٣]: أعمالاً قدّموها، واختاره ابن جرير[١٤].

ومنه قول الوضّاح[١٥]:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٩).

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٦).

(٣) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٢/ ٩٧٢).

(٤) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٩/ ٤٦١).

(٥) «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٣).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٠)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٥).

(٧) انظر: «ديوان العجاج» (ص١٤٩).

(٨) انظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأنباري (ت٣٢٨هـ) (١/ ٤٦٧ رقم ٤٦٧).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١١) بسند صحيح.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٩) بسند صحيح.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٤) بسند حسن.

(١٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٠).

(١٣) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (٢/ ٨٧).

(١٤) في «جامع البيان» (١٢/ ١١١).

(١٥) انظر: «ديوانه» (ص٧١)، وهو وضَّاح اليمن.

صلِّ لذي العرشِ واتخذْ قِدَماً يُنْجيكَ يومَ الخصامِ والزللِ

وقيل غير ما تقدّم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده.

قولُه: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

قرأ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف، والأعمش، وابن محيصن ﴿لَسَٰحِرٌ﴾[(١)] على أَنَّهم أرادوا رسولَ الله ﷺ باسم الإشارة.

وقرأ الباقون «لسَحْر» على أَنهم أرادوا القرآن، وقد تقدّم معنى السحر في البقرة.

وجملة: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مستأنفة[(٢)] كأنَّه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجب؟ وقال القفّال: فيه إضمار، والتقدير: فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك.

ثم إنّ الله سبحانه جاء بكلام يُبطل به العجَبَ الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجلٍ منهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: مَنْ كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عَنْ تصوّره، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس مِنْ جنسهم مَحلّاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول؟ وقد تقدّم تفسير هذه الآية في الأعراف في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فلا نعيده هنا.

ثم ذكر ما يدل على مَزيد قُدْرتِه، وعظيم شأنه فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ وترك العاطف؛ لأنّ جملة «يدبر» كالتفسير والتفصيل، لما قبلها.

وقيل: هي في محل نصب[(٣)] على الحال مِنْ ضمير استوى؛ وقيل: مستأنفة جواب سؤال مقدّر، وأصل التدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها؛ لتقع على الوجه المقبول.

وقال مجاهد[(٤)]: يقضيه ويقدّره وحده.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٥١)، و«النشر» (٢/ ٢٥٦، ٢٨٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٢١)، و«التيسير» (ص١٢٠).

(٢) «روح المعاني» (١١/ ١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٣).

(٣) «التبيان» (٢/ ٦٦٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٦) بسند صحيح.

وقيل: يَبْعث الأمر[1]، وقيل: ينزل الأمر، وقيل: يأمر به ويُمْضيه[2]، والمعنى متقارب، واشتقاقه[3] مِنْ الدُّبر، والأمر الشأن، وهو أحوال ملكوت السمٰوات والأرض، والعرش، وسائر الخلق.

قال الزجّاج[4]: إنّ الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فردّ الله عليهم بأنّه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه؛ لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب.

وقد تقدّم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه وتعالى.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى[5] فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير؛ أي: الذي فعل هذه الأشياء العظيمة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ واسم الإشارة مبتدأ، وخبره: الاسم الشريف، وربكم: بدل منه، أو بيان له، أو خبر ثان، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بيَّن لهم أنّه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر؟!

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للإنكار، والتوبيخ[6]، والتقريع؛ لأنَّ مَنْ له أدنى تذكر، وأقلّ اعتبار، يعلم بهذا ولا يخفى عليه، ثم بيّن لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى، وانتصاب: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ على المصدر[6]؛ لأن في قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر.

والمرادُ بالمرجع: الرجوع إليه سبحانه: إمّا بالموت، أو بالبعث، أو بكل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿حَقًّا﴾ فهو تأكيد[7] لتأكيد، فيكون في الكلام مِنْ الوكادة ما هو الغاية في ذلك.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٥٢). (٢) «النكت والعيون» (٢/ ٤٢٢).

(٣) انظر: «الصحاح» (٢/ ٦٥٥). (٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٦).

(٥) «روح المعاني» (١١/ ٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٦).

(٦) «روح المعاني» (١١/ ٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٦).

(٧) «التبيان» (٢/ ٦٦٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٣).

وقرأ ابن أبي عبلة «وعدُ الله حقٌّ» على الاستئناف[١].

ثم علّل سبحانه ما تقدّم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: إن هذا شأنه يبتدئ خلقه مِنْ التراب ثم يعيده إلى التراب، أو معنى الإعادة: الجزاء يوم القيامة.

قال مجاهد[٢]: ينشئه ثم يُميته، ثم يحييه للبعث؛ وقيل: ينشئه من الماء ثم يعيده مِنْ حال إلى حال. وقرأ يزيد بن القعقاع: أَنّه يبدأ الخلق بفتح الهمزة، فتكون الجملة في وضع نصب[٢] بما نصب به وعد الله؛ أي: وعدَكم أنه يبدأ الخلق ثم يُعيده، ويجوز أَنْ يكون التقدير لأنّه يبدأ الخلق.

وأجاز الفرّاء[٣] أن تكون «أن» في موضع رفع، فتكون اسماً.

قال أحمد بن يحيى ثعلب[٤]: يكون التقدير حقّاً إبداؤه الخلق، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي لا جور فيه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ يحتمل أَنْ يكون الموصول[٥] الآخر معطوفاً على الموصول الأوّل؛ أي: ليجزي الذين آمنوا، ويجزي الذين كفروا، وتكون جملة: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ في محل نصب[٦] على الحال، هي وما عُطف عليها؛ أي: وعذاب أليم، ويكون التقدير هكذا، ويجزي الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب، ولكن يشكل[٧] على ذلك أَنْ هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء، ويمكن أَنْ يقال: إن الموصول في ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ وما بعده خبره، فلا يكون معطوفاً على الموصول الأوّل.

والباء في ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ للسببية[٨]؛ أي: بسبب كفرهم، والحميم: الماء الحار، وكل مسخّن[٩] عند العرب، فهو حميم.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٥٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٣٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٤٤). وهي قراءة شاذة.

(٢) «روح المعاني» (١١/ ٢٣)، و«التبيان» (٢/ ٦٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٦). وقراءة يزيد بن القعقاع هو أبو جعفر وهي قراءة متواترة وقرأ الباقون بالكسر.

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٠).

(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٥).

(٥) «روح المعاني» (١١/ ٢٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٦).

(٦) «المحرر الوجيز» (٩/ ٩).

(٧) «جامع البيان» (١٢/ ١١٧).

(٨) «روح المعاني» (١١/ ٢٥).

(٩) «الصحاح» (٥/ ١٩٠٥).

وقد أخرج ابن مردويه[(١)]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿الٓر﴾ قال: فواتح السور أسماء من أسماء الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، وابن النجار في «تاريخه»[(٢)]، عنه، قال: في قوله: ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى.

وأخرج ابن المنذر[(١)]، عن سعيد بن جبير، مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)]، عن الضحاك، مثله أيضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)]، عن أبي مالك، في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: يعني هذه.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٥)]، عن قتادة، في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الكتب التي خلت قبل القرآن.

وأخرج ابن جرير، [٢/٣] وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٦)]، قال: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الأنبياء: ٧]، فلما كرّر الله سبحانه عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً، فغير محمد كان أحق بالرسالة، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢١، ١٩٩٤، ٧/ ٢٠٩٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (١٦٧)، وابن النجار (١٧/ ٣، ٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢١، ١٩٩٤، ٧/ ٢٠٩٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٣) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٢، ٧/ ٢٠٩٨) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٥) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٢) بسند ضعيف.

[الزخرف: ٣١] يقول: أشرف من محمد، يعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله ردّاً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ[١]، عنه، في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأوّل.

وأخرج ابن جرير[٢]، عنه، أيضاً قال: أجراً حسناً بما قدّموا من أعمالهم.

وأخرج أبو الشيخ[٣]، وابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: القدم هو العمل الذي قدموا. قال الله سبحانه: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يَس: ١٢] والآثار: ممشاهم. قال: مشى رسول الله ﷺ بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب.

وأخرج ابن مردويه[٤]، عن أبي سعيد الخدري، في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ قال: محمد ﷺ يشفع لهم.

وأخرج ابن مردويه، عن عليّ بن أبي طالب مثله[٥]. وأخرج الحاكم، وصححه، عن أُبيّ بن كعب، قال: سلف صدق.

والروايات عن التابعين وغيرهم في هذا كثيرة، وقد قدّمنا أكثرها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد، في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قال: يقضيه وحده، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه[٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٢، ١٩٢٣) بسند صحيح.

(٢) وأخرج ابن جرير (١٢/ ١٠٨) من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤١).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

(٥) في «المستدرك» (٢/ ٣٣٨) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١١٤، ١١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٦) بسند صحيح.

[مظاهر كونية دالة على وحدانيته وعظمته]:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

ذكر ها هنا بعضَ نعمَه على المكلّفين، وهي ممّا يستدل به على وجوده ووحدته، وقدرته وعلمه، وحكمته بإتقان صُنْعه في هذين النيّرين المتعاقبين على الدوام، بعدما ذكر قبل هذا إبداعَه للسمٰوات والأرض، واستواءَه على العرش، وغير ذلك. والضياء قيل: جمع ضوء؛ كالسياط والحياض[1].

وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير «ضِئَاءً» بجعل الياء[2] همزة مع الهمزة، ولا وجه له لأنّ ياءه كانت واواً مفتوحة، وأصله: «ضِواء» فقلبت ياء لكسر ما قبلها.

قال المهدوي[3]: ومَنْ قرأ «ضِئَاء» بالهمزة[4] فهو مقلوب قدّمت الهمزة التي بعد الألف، فصارت قبل الألف، ثم قلبت الياء همزة، والأُوْلى: أن يكون ضياء مصدراً لا جمعاً، مثل قام يقوم قِياماً، وصام يصوم صِياماً، ولا بدّ من تقدير مضاف؛ أي: جعل الشمس ذاتَ ضياء والقمر ذا نورٍ إلا أن يحمل على المبالغة، وكأنهما جُعلا نفس الضياء والنور.

قيل: الضياء أقوى مِنْ النور.

وقيل: الضياء هو ما كان بالذات، والنور ما كان بالعَرَض، ومن هنا قال الحكماء: إنّ نور القمر مُستفاد مِنْ ضوء الشمس.

قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾؛ أي: قدّر مسيره في منازل، أو قدره ذا منازل، والضمير[5] راجع إلى القمر، ومنازل القمر: هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٥٤).

(٢) «التيسير» (ص٥٢٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٢)، و«النشر» (٢/ ٢٨٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٦). هي رواية متواترة عنه، وبقية القرّاء بالياء.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٤).

(٤) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٢ ـ ٥١٣).

(٥) «روح المعاني» (١١/ ٣١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٧).

بحركته الخاصة به، وجملتها ثمانية وعشرون[١] وهي معروفة، ينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً لا يتخطّاه، فيبدو صغيراً في أول منازله، ثُمّ يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً، وإذا كان في آخر منازله رقّ واستقوس، ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً، أو ليلة إذا كان ناقصاً، والكلام في هذا يطول، وقد جمعنا فيه «رسالة مستقلةً» جواباً عَنْ سؤال أورده علينا بعضُ الأعلام.

وقيل: إنّ الضمير[٢] راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وفي قول الشاعر:

نحنُ بما عندنا وأنت بما ... عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ[٣]

وقد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق مِنْ هذا التفسير، والأُوْلى رجوع الضمير إلى القمر وحدَه، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير، فقال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى.

وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي مِنْ ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدّره الله سبحانه، لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم.

والسنة تتحصل مِنْ اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً.

واليوم يتحصّل مِنْ ساعات معلومة هي: أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، قد يكون لكلٍ واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان.

والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية[٤] معروف؛ ثم بيّن سبحانه أَنّه ما خلق الشمس والقمر، واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب، دونَ الباطل والعبَث.

---

(١) انظر: «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (١/١٧٦ ـ ١٨٦).
(٢) «البحر المحيط» (٦/١٥ ـ ١٦)، و«روح المعاني» (١١/٣٢).
(٣) تقدم عند تفسير الآية (٣٤) من سورة التوبة.
(٤) انظر: «روح المعاني» (١١/٣٣ ـ ٣٤).

فالإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور قبله، واستثناء مفرّغ[١] من أعم الأحوال، ومعنى تفصيل الآيات: تبيّنها، والمراد بالآيات التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أوّلياً في ذلك.

قرأ ابن كثير، وأبو عَمرو، وحفص، ويعقوب: «يفصّل» بالتحتية[١].

وقرأ ابن السَّمَيفع: «تُفصّل» بالفوقية[٢] على البناء للمفعول.

وقرأ الباقون بالنون[٣].

واختار أبو عبيد[٤]، وأبو حاتم، القراءة الأولى، ولعلّ وجه هذا الاختيار[٥] أَنْ قبل هذا الفعل ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وبعده ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق في السمٰوات والأرض من تلك المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: الذين يتقون الله سبحانه، ويجتنبون معاصيه، وخصّهم بهذه الآيات لأنهم الذين يُمْعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم [٣/٣] عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم، وما يصلحهم في معادهم.

قال القفال: مَنْ تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها، وأنّ خالقها وخالقهم ما أهملهم؛ بل جعلها لهم دار عملٍ، وإذا كان كذلك فلا بدّ مِنْ أمر ونهي.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٦]، في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ قال: لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يُعرف الليل من النهار، وهو قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢].

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٣٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٦٨).
(٢) «النشر» (٢/ ٢٨٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤). قراءة ابن السميفع شاذة، والقراءتان الأخريان متواترتان. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦١).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٥٦).
(٤) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٦).
(٥) انظر: «التيسير» (ص١٢١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٢).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٧) بسند حسن.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس[١]، في الآية قال: وجوهُهما إلى السمٰوات، وأقفيتهما إلى الأرض.

وأخرج ابن مردويه[٢]، عن عبد الله بن عمرو، مثلَه.

وأخرج أبو الشيخ[٣]، عن خليفة العبدي، قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يُعبد إلا عن رؤية ما عَبده أحد، ولكنِ المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فملأ كلَّ شيء وغطَّى كلَّ شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبُهم بربهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

شرعَ اللهُ سبحانه في شرح أحوال[٤] مَنْ لا يؤمن بالمعاد، ومَنْ يؤمن به، وقدّم الطائفة التي لم تؤمن؛ لأنّ الكلامَ في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجَبَ فيه، ويُهمِلون النظرَ والتفكر فيما لا ينبغي إهمالَه مما هو مشاهد لكل حيّ طول حياته، فيتسبّب عَنْ إهمال النظر، والتفكر الصادق: عدم الإيمان بالمعاد.

ومعنى الرجاء هنا: الخوف، ومِنْه قول الشاعر:

إذا لسعته النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وخالفَها في بيت نُوبٍ عواسلِ[٥]

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٣).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٣).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٤).
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ١٢٠ ـ ١٢١)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٧).
(٥) هو لأبي ذؤيب الهُذَلي. وقد تقدم.

وقيل: يرجون: يَطْمعون، ومِنْه قول الشاعر:

أترجو «بنو» مَرْوان سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاة ورائيا[1]

فالمعنى على الأوّل: لا يخافون عقاباً. وعلى الثاني: لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته؛ فإنْ كانَ المراد به حقيقته كان المعنى: لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا.

وقيل: المراد بالرجاء هنا: التوقّع، فيدخل تحته الخوف والطمع، فيكون المعنى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: لا يتوقعون لقاءنا، فهم لا يخافونَه، ولا يطمعون فيه ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: رضوا بها عرضاً عَنْ الآخرة، فعملوا لها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾؛ أي: سكنت أنفسُهم إليها، وفرحوا بها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَاهُمُ﴾؛ أي: مثواهم، ومكان إقامتهم النار.

والإشارة إلى المتصفين[2] بالصفات السابقة مِنْ عدم الرجاء، وحصول الرضا والاطمئنان، والغفلة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد، فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد، وأَمّا حال الذين يؤمنون به، فقد بيّنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم مِنْ التفكر والاعتبار، فيما تقدّم ذكره من الآيات ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي يقتضيها الإيمان، وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾؛ أي: يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك إلى الجنة.

وجملة: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ مستأنفة[3]، أَو خبر ثانٍ، أو في محل نصب على الحال.

ومعنى ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾: مِنْ تحت بساتينهم، أو مِنْ بين أيديهم؛ لأنّهم على سرر مرفوعة. وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلّق بتجري أو بيهديهم، أو خبر آخر، أو حال[4] مِنْ «الأنهار».

---

(١) هو لسوّار بن المُضرِّب. «خزانة الأدب» (٣/ ١٧٦).

(٢) انظر: «النكت والعيون» (٢/ ٤٢٣).

(٣) «التبيان» (٢/ ٦٦٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧).

(٤) «روح المعاني» (١١/ ٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧).

قولُه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: دعاؤهم[١] ونداؤهم، وقيل: الدعاء العبادة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] وقيل: معنى «دعواهم» هنا: الادّعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أنّ أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه مِنْ المعايب والإقرار له بالإلٰهية.

قال القفّال[٢]: أصله مِنْ الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما.

وقيل: معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أَنّ المدّعي للشيء مواظب عليه، فيمكن أَنْ تجعل الدعوى كنايةً عن الملازمة، وإنْ لم يكن في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاء.

وقيل: معناه: تمنيهم كقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يٓس: ٥٧] وكأنّ تمنيهم في الجنّة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره[٣]: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، و﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنّة. والمعنى على القول الأوّل: أنّ دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه، والمعنى: نسبُحك يا الله تَسبْيحاً.

قولُه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر[٤] مضافاً إلى الفاعل، أو تحية الله أو الملائكة لهم، فيكون مِنْ إضافة المصدر إلى المفعول. وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء.

قولُه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أَي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أَنْ يقولوا: الحمدُ لله ربِّ العالمين.

قال النّحاس[٥]: مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة مِنْ الثقيلة. والمعنى: أنّه الحمدُ لله. وقال محمد بن يزيد المبرِّد[٦]: ويجوز أن تُعْملها خفيفةً عملها ثقيلة. والرفع أَقْيس، ولم يَحك أبو عُبيد[٧] إلا التخفيف.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٥٨).
(٢) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ١٧).
(٣) «روح المعاني» (١١/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٠).
(٥) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٦).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٦).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٩).

وقرأ ابن مُحيصن[١] بتشديد (أنّ) ونصب الحمد.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ قال: مثل قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ الآية [هود: ١٥].

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٣]، أيضاً في قوله: [٣/٤] ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ قال: يكون لهم نور يمشون به.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن قتادة، مثلَه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عَنْ قتادة[٥]، في قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ قال: حدّثنا الحسن قال: بلغَنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صُوّر له عملُه في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إنّي لأراك عينَ امرئ صدق، فيقول له: أنا عملُك؛ فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة؛ وأما الكافر، فإذا خرج من قبره صوّر له عملُه في صورة سيئة وريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عينَ امرئ سوء، فيقول له: أنا عملُك، فَينطلق به حتى يُدخلَه النار».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[٦]، نحوه.

وأخرج ابن مردويه[٧]، عن أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قالوا: سبحانك اللّهم، أتاهم ما اشتهوا مِنْ الجنّة مِنْ ربهم» وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٠٨). وهي قراءة شاذة.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٨) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٩) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٤).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٢٣، ١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٩) بسند صحيح ولكنّه مرسل.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٢٤، ١٢٥) بسند ضعيف.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٥).

وأخرج ابنُ أَبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي الهُذَيل[١]، قال: الحمد أوّل الكلام وآخر الكلام، ثم تلا: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر الله سبحانه الوعيدَ على عدم الإيمان بالمعاد، ذكر أن هذا العذاب من حقِّه أَنْ يتأخر عن هذه الحياة الدنيا.

قال القفّال[٢]: لما وصفهم بالغفلة أكّد ذلك بأن مِنْ غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب، فبيّن الله سبحانه أنَّه لا مصلحة في إيصال الشرّ إليهم، فلعلّهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن.

قيل: معنى ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾: لو عجل الله للناس[٣] العقوبة كما يتعجّلون بالثواب والخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: ماتوا.

وقيل: المعنى[٤]: لو فعل اللهُ مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣١).
(٢) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ١٨ ـ ١٩).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٦١).
(٤) «المحرر الوجيز» (٩/ ١٦).

وقيل: الآية خاصة[(١)] بالكفّار الذين أنكروا البعثَ، وما يترتب عليه.

قال في «الكشّاف»[(٢)]: وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير، إشعاراً بسرعة إجابته وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له، والمراد: أهل مكة وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢].

قيل: والتقدير: ولو يعجل الله لهم الشرّ عند استعجالهم به تعجيلاً مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به، فحذف ما حذف لدلالة الباقي عليه.

قال أبو عليّ الفارسي[(٣)]: في الكلام حذف، والتقدير: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ تعجيلاً مثل ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ ثم حذف تعجيلاً وأقام صفته مقامه، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال: هذا مذهب الخليل[(٤)] وسيبويه[(٥)]، وهو قول الأخفش[(٦)] والفرّاء[(٧)]، قالوا: وأصله كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب.

قال الفراء[(٩)]: كما تقول: ضربت زيداً ضربك؛ أي: كضربك، ومعنى ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأُهْلِكوا، ولكنَّه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأُمْهِلوا؛ وقيل: معناه: أميتوا.

وقرأ ابن عامر «لَقَضَى» على البناء[(٨)] للفاعل، وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الفاء للعطف[(٩)] على

---

(١) «النكت والعيون» (٢/ ٤٢٥).

(٢) (٣/ ١١٨).

(٣) في «الحجة» (٤/ ٢٥٤).

(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٧).

(٥) في «الكتاب» (١/ ١٠٨).

(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٧).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٨).

(٨) «التيسير» (ص١٢١)، و«الحاكم لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٦٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٠). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦١) وقرأها كذلك يعقوب وعنهما نصب (أجلَهم) على أنَّه مفعول به والباقون «قُضى» بالنباء للمجهول و(أجلُهم) بالرفع.

(٩) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠ ـ ٥١).

مقدّر يدلّ عليه الكلام؛ لأنّ قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ يتضمن نفي التعجيل، فكأنه قيل: لكن لا يعجل لهم الشرّ، ولا يقضي إليهم أجلهم، فنذرهم... إلخ؛ أي: فنتركهم ونُمهلهم.

والطغيان: التطاولُ، وهو العلوّ والارتفاع، ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يَتحيّرون[(١)]؛ أي: نتركهم يَتحيّرون في تطاولهم وتكبّرِهم، وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سُبحانه وخذلاناً؛ ثم بيّن الله سبحانه أَنَّهم كاذبون في استعجال الشرّ، ولو أصابَهم ما طلبوه لأظهروا العجزَ والجزَع، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ اللّام للوقت[(٢)]؛ كقوله: جئته لشهر كذا، أو في محلٍّ نصب على الحال بدلالة عطف قاعداً أو قائماً عليه، وتكون اللّام[(٣)] بمعنى «على»؛ أي: دعانا مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وكأنّه قال: دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخصّ المذكورة بالذكر لأنّها الغالب على الإنسان، وما عداها نادر كالركوع والسجود، ويجوز أَنْ يراد أَنّه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام، وقائماً غير قادر على المشي، والأوّل: أَوْلى.

قال الزجّاج[(٤)]: إنْ تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة؛ لأنه إذا كان داعياً على الدوام، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب.

قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾؛ أي: فلما كشفنا عنه ضرّه الذي مسّه، كما تفيده الفاء[(٥)]، مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضرّ، ونسي حالة الجَهْد والبلاء، أو مضى عَنْ موقف الدعاء والتضرّع، لا يرجع إليه كأنّه لا عهد له به؛ كأنّه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذي مسه.

وقيل: معنى ﴿مَرَّ﴾: استمرّ على كفره، ولم يشكر، ولم يتعظ.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٦٣)، وانظر: «مفردات القرآن» (ص٥٨٨).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٥٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٤).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٠). (٤) في «معاني القرآن» (٣/ ٩).
(٥) «روح المعاني» (١١/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢١).

قال الأخفش(١): «أنْ» في ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ هي المخففة من الثقيلة.

والمعنى: كأنه. انتهى.

والجملة التشبيهية(٢) في محل نصب على الحال، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر؛ [٣/٥] بل تتفق لكثير مِنْ المسلمين، تلين ألسنهُم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم.

فإذا كشفَه الله عنهم غَفلوا(٣) عَنْ الدعاء والتضرّع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ، ودفع ما أصابهم من المكروه.

وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس، ولفظ الإنسان، اللَّهُمَّ أوزعنا شكرَ نعمك، وأذكرنا الأحوال التي مننتَ علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثَر مِنْ الشكر الذي لا نطيق سواه، ولا نقدر على غيره، وما أغناك عنه، وأحوجنا إليه و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلى مصدر(٤) الفعل المذكور بعده كما مرّ غير مرة؛ أي: مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم. والمسرف في اللغة(٥): هو الذي يُنفق المالَ الكثير لأجل الغرض الخسيس.

ومحل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ النصب(٦) على المصدرية.

والتزيين هو: إمّا من جهة الله(٧) تعالى على طريقة التخلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة، أو مِنْ طريق النفس الأمارة بالسوء.

والمعنى: أنّه زُيّن لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عَنْ الشكر، والاشتغال بالشهوات. ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر، عما صنعه هؤلاء، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يعني: الأمم الماضية

---

(١) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٦٥).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٤).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٧ ـ ١٨).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٥). (٥) «الصحاح» (٤/ ١٣٧٣).

(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٢١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٥).

(٧) «زاد المسير» (٤/ ١٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٦٥).

من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي ﷺ؛ أي: أهلكناهم من قبل زمانكم.

وقيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر.

و ﴿لَمَّا﴾ ظرف[١] لأهلكنا؛ أي: أهلكناهم حينَ فعلوا الظلم بالتكذيب، والتجاري على الرسل، والتطاول في المعاصي مِنْ غير تأخير لإهلاكهم، كما أخرنا إهلاكَكُم.

والواو في ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للحال[٢] بإضمار قد؛ أي: وقد جاءتهم رسلُهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات؛ أي: بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل.

وقيل: الواو للعطف على ﴿ظَلَمُواْ﴾ والأوّل: أولى.

وقيل: المراد بالظلم هنا: هو الشرك.

والواو في ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ للعطف[٣] على ظلموا، أو الجملة اعتراضية، واللّام لتأكيد النفي؛ أي: وما صحّ لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك، وسلب الألطاف عنهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي القوم المجرمين، وهو الاستئصال الكلّي لكل مُجْرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره مِنْ الكفار، أو لكفار مكة على الخصوص، ثم خاطب سبحانه الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ أي: استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها، وتنظرون آثارها، والخلائف جمع خليفة.

وقد تقدّم الكلام عليه في آخر سورة الأنعام.

واللّام في ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ لام كي؛ أي: لكي ننظرَ كيف تعملون مِنْ أعمال الخير أو الشرّ.

و﴿كَيۡفَ﴾ في محل نصب[٤] بالفعل الذي بعده؛ أي: لننظر أيّ عمل تعملونه، أو في محل نصب على الحالية؛ أي: على أيّ حالة تعملون الأعمال اللائقة

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢١)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٦).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٦).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٦٠).

بالاستخلاف. ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ وفيه التفات[١] مِنْ الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم.

والمراد بالآيات: الآيات التي في الكتاب العزيز؛ أي: وإذا تَلا التالي عليهم آياتِنا الدالة على إثبات التوحيد، وإبطال الشرك، حال كونها بينات؛ أي: واضحات الدلالة على المطلوب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وهم المنكرون للمعاد، وقد تقدّم تفسيره قريباً؛ أي: قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ طلبوا مِنْ رسول الله ﷺ لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين:

إمَّا الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله.

وإمَّا تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته، أو كلِّها، ووضع أخرى مكانها مما يطابق[٢] إرادتهم، ويلائم غرضهم، فأمره الله أن يقول في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾؛ أي: ما ينبغي لي، ولا يحلّ لي أن أبدّله[٣] مِنْ تلقاء نفسي؛ فنفى عن نفسه أحد القسمين، وهو التبديل لأنّه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه.

وقيل: إنه ﷺ نفى عَنْ نفسه أسهل القسمين ليكون دليلاً على نفي أصعبهما بالطريق الأولى، وهذا منه ﷺ مِنْ باب مجاراة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك.

وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٦/ ٦١).

(٢) قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٦): «والتبديل الذي سألوه ـ فيما ذكر ـ أن يحوِّل آية الوعيد آية وعد، وآيةَ الوعد وعيداً، والحرام حلالاً، والحلال حراماً، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلى من لا يردُّ حكمه، ولا يتعقَّب قضاؤه، وإنما هو رسول مُبلِّغ ومأمورٌ مُتبعٌ».
وقال الزجاج في «معانيه» (٣/ ١١): «سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور».
وقال القرطبي في «تفسيره» (١/ ٤٦٦): «سألوه أن يسقط ما في القرآن من عَيْب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، قاله ابن عيسى».

(٣) «النكت والعيون» (٢/ ٤٢٧).

والسؤالات الباردة، و﴿تِلْقَآيِ﴾ مصدر[١] استُعمل ظرفاً، مِنْ قبل نفسي.

قال الزجّاج[٢]: سألوه إسقاط ما فيه مِنْ ذكر البعث والنشور، وقيل: سألوه أن يسقط ما فيه مِنْ عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم[٣].

وقيل: سألوه أَنْ يحوّل[٤] الوعد وعيداً، والحرام حلالاً، والحلال حراماً، ثم أمره أَنْ يؤكد ما أجاب به عليهم مِنْ أنه ما صح له، ولا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أتبع شيئاً من الأشياء إلا ما يوحى إليّ من عند الله سبحانه مِنْ غير تبديل ولا تحويل، ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال: التعريض[٥] للنبي ﷺ بأنّ القرآن كلامه، وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له، ثم أمره الله سبحانه أَنْ يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإنّ هذه الجملة[٦] كالتعليل لما قدّمه مِنْ الجواب قبلها.

واليوم العظيم: هو يوم القيامة؛ أي: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذابَ يوم القيامة، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله، [٣/٦] وأنَّه ﷺ إنما يُبلّغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك، فقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أنّ هذا القرآن المتلوّ عليكم هو بمشيئة الله وإرادته، ولو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ولا أبلّغكم إياه ما تلوته؛ فالأمر كلّه منوط بمشيئة الله، ليس لي في ذلك شيء.

قوله: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ معطوف[٧] على ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ﴾؛ أي: ولو شاء الله ما أداركم بالقرآن؛ أي: ما أعلمكم به على لساني يقال: دَريتُ الشيء وأدراني الله به.

هكذا قرأ الجمهور بالألف[٨] مِنْ أدراه يُدريه أَعلمه يُعلمه.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٦٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٧).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١)، وقد تقدم ذكره.
(٣) قاله ابن عيسى كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٦٦).
(٤) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٦)، وقد تقدم نصه.
(٥) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٦٣).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٨).
(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٢٥).
(٨) «النشر» (٢/ ٢٨٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٦٣)، =

وقرأ ابن كثير: «ولأدراكم[١] به» بغير ألف بين اللام والهمزة.

والمعنى: ولو شاء الله لأعلمكم به مِنْ غير أن أتلوه عليكم، فتكون اللام[٢] لام التأكيد دخلت على ألف أفعل.

وقد قرئ «أدرؤكم» بالهمزة[٣] فقيل: هي منقلبة عن الألف؛ لكونهما من واد واحد، ويحتمل أن يكون مِنْ درأته إذا دفعته، وأدرأته إذا جعلته دارياً.

والمعنى: لأجعلكم بتلاوته خُصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني.

وقرأ ابن عباس، والحسن: «ولا أدراتكم[٤] به» قال أبو حاتم[٥]: أصله ولا أدريتكم به، فأبدل من الياء ألفاً.

قال النحاس[٦]: وهذا غلط. والرواية عن الحسن: «ولا أدرأتكم» بالهمزة.

قوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ تعليل[٧] لكون ذلك بمشيئة الله، ولم يكن مِنْ النبي ﷺ إلّا التبليغ؛ أي: قد أقمتُ فيما بينكم عُمْراً مِنْ قبله؛ أي: زماناً طويلاً، وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة، لست ممن يقرأ ولا ممّن يكتب.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة[٨] للتقريع والتوبيخ؛ أي: أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي؛ لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدق والأمانة، وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل، وتعلمي لما عند أهلها من العلم، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن، ولا حرصي عليه، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، وقصرتم عَنْ معارضته وأنتم العرب المشهود لهم

= و«التيسير» (ص١٢١)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٣٩). قراءة الجمهور (ولا أدراكم) وقراءة قُنْبُل والبزّي بخلافٍ عنه عن ابن كثير: (ولأدراكم) متواترتان والوجه الثاني عن البزيّ كقراءة الجمهور. وغيرهما شاذ.

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «التبيان» (٢/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٣) «المحتسب» (١/ ٢٥٨)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٦٨).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٨).

(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٨).

(٦) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٤٩).

(٧) «روح المعاني» (١١/ ٦٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٦٩).

(٨) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٧٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦).

بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(١)]، في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ الآية، قال: هو قولُ الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم: اللَّهُمَّ لا تباركْ فيه والعنْه. ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ قال: لأَهلَكَ مَنْ دعا عليه وأماتَهَ.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)]، عن سعيد بن جبير، في الآية قال: قول الرجل للرجل: اللَّهُمَّ العنه، اللَّهُمَّ اخزه، وهو يحب أن يُستجاب له.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة[(٣)]، في الآية قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يَكره أَنْ يُستجاب له.

وحكى القرطبي في «تفسيره»[(٤)] عن ابن إسحاق، ومقاتل، في الآية قالا: هو قول النضر بن الحارث: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ» فلو عجّل لهم هذا لهلكوا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جريج[(٥)]، في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ قال: مُضطِجعاً.

وأخرج أبو الشيخ[(٦)]، عن قتادة، في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ قال: على كلِّ حال.

وأخرج أبو الشيخ[(٦)]، عن أبي الدرداء، قال: ادع الله يوم سرّائك يستجاب لك يوم ضَرّائك.

وأقول أنا: أكثر مِنْ شكر الله على السرّاء يدفع عنك الضرّاء، فإنّ وعده للشاكرين بزيادة النِّعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النِّعمة عند وجود مرارة

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٠، ١٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٢) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٢) بسند صحيح.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٦١ ـ ٤٦٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٣) بسند ضعيف.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٧).

النقمة: اللَّهُمَّ اجمع لنا بين جَلْب النعم وسلب النقم، فإنّا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكلّ لسان في كل زمان، ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(١)، في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قال: ذُكِر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدقَ ربُّنا ما جعلَنَا خلائفَ في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا اللهَ خيرَ أعمالِكم بالليل والنهار، والسرّ والعلانية.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن جريج(٢)، قال: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأمة محمد ﷺ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(٣)، في قوله: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ قال: هذا قول مشركي أهل مكة للنبي ﷺ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٤)، في قوله: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: أعلمكم به.

وأخرج أبو الشيخ(٥)، عن قتادة، قال: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: ولا أشعركم به.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن ابن عباس(٦)؛ أنه كان يقرأ: «ولا أنذرتكم به».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥) بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة، به.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٤) بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير، به.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٧) إلى ابن المنذر.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٤، ١٩٣٥) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٤) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٨)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٥٦ ـ تفسير) بسند ضعيف.
• والقراءة شاذة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[١]، في قوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ قال: لم أتلُ عليكم ولم أذكر.

وأخرجا[٢] عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أَنْ يوحى إليه ورأى الرؤيا سنتين، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة، وعشراً بالمدينة، وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والترمذي، عن ابن عباس[٣]، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

[ليس هناك ما هو أظلم ممن يفتري على الله أو من يكذّب بآيات الله]:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[الفِطَر في أصلها كانت على التوحيد ثم جد الخلاف بعد حين]:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾. [٣/٧]

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام فيه[٤] معنى الجحد؛ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الكذبَ، وزيادة ﴿كَذِبًا﴾ مع أنّ الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان أَنَّ هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه، فربما يكون الافتراء كذباً في الإسناد

= انظر: «المحتسب» (١/٢٥٨، ٣٠٩)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٦).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٥) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٥) عن قتادة بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/٥٣)، والبخاري رقم (٣٩٠٢)، والترمذي رقم (٣٦٢١).

(٤) «روح المعاني» (١١/٦٩).

فقط، كما إذا أسندَ ذنب زيدٍ إلى عمرو، ذكر معنى هذا أبو السعود في «تفسيره».

قيل: وهذا مِنْ جملة رده ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يبدّله، فبيّن لهم أنّه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله، ولا ظلم يماثل ذلك.

وقيل: المفتري على الله الكذبَ هم: المشركون، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته؛ أي: لا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، والضمير[١] في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن؛ أي: إنّ الشأن هذا.

ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام، وبيّن أنها لا تنفع مَنْ عبدها ولا تضرّ مَنْ لم يعبدها، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ أي: ما ليس من شأنه الضرّر ولا النفع، ومِنْ حق المعبود أَنْ يكون مثيباً لمن أطاعه معاقباً لمن عصاه.

والواو لعطف هذه الجملة على جملة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ [يونس: ١٥] و«مَا» في ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ موصولة أو موصوفة[٢].

والواو في ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ للعطف على ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ زعموا أَنّهم يشفعون لهم عند الله، فلا يعذبهم بذنوبهم، وهذا غاية[٣] الجهالة مِنْهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممّن لا يوجد منه نفع ولا ضرّ في الحال.

وقيل[٣]: أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرأ أبو السمّال العدوي: «تَنْبئون» بالتخفيف[٤] من أنبأ ينبئ.

وقرأ مَنْ عداه بالتشديد[٥] مِنْ نبّأ يُنبِّئ.

والمعنى: أتخبرون اللهَ أَنَّ له شركاءَ في مُلْكه يُعبدون كما يُعبْد، أو أتخبرونه

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨١). وهي قراءة شاذة.

(٢) «روح المعاني» (١١/ ٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٦٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٠).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٠)، و«النشر» (٢/ ٣٦).

أنّ لكم شفعاء بغير إذْنه، واللهُ سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمٰواته وفي أرضه؟ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود مَنْ هو كذلك أصلاً، وفي هذا مِنْ التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثُمّ نزّه الله سبحانه نفسَه عَنْ إشراكهم، وهو يحتمل أنْ يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسولَه ﷺ بأن يجيب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم جواباً عليهم.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١] بالتحتية.

وقرأ الباقون بالفوقية[٢]، واختار القراءة الأولى أبو عُبيد[٣].

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قد تقدّم تفسيره في البقرة.

والمعنى: أن الناس ما كانوا جميعاً إلا أمة واحدةً موحّدة لله سبحانه، مؤمنة به، فصار البعضُ كافراً وبقي البعض الآخر مؤمناً، فخالف بعضُهم بعضاً.

وقال الزجّاج[٤]: هُم العرب كانوا على الشرك. وقال: كلُّ مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ، والأوّل أظهر. وليس المراد أَنّ كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى؛ بل المراد: كفرَ البعضُ وبقي البعضُ على التوحيد، كما قدّمنا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي: أنّه سبحانه لا يقضي[٥] بينهم فيما اختلفوا فيه إلّا يوم القيامة ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا ﴿فِيمَا﴾ هم ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لكنّه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف.

وقيل: معنى: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بإقامة الساعة عليهم.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨)، و«النشر» (٢/ ٢٨٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٧٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧١).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦٢): لعل هذا سبق قلم والصواب العكس فقد قرأ حمزة والكسائي ومعهم خلف من العشرة بالفوقية وقرأ الباقون بالتحتية.

(٣) انظر: «التيسير» (ص١٢١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧١).

(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٢). (٥) «جامع البيان» (١٢/ ١٤٣).

وقيل: لِفُرِغ مِنْ هلاكهم.

وقيل: الكلمة إنّ الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا[١].

وقيل: الكلمة أنّه لا يأخذ أحداً إلا بحجة، وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقيل: الكلمة: قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[٢].

وقرأ عيسى بن عُمر «لَقَضَى» بالبناء[٣] للفاعل.

وقرأ مَنْ عداه بالبناء[٤] للمفعول.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٥]، عن عكرمة، قال: قال النضر: إذا كان يوم القيامة شَفَعت لي اللّات والعزّى، فأنزل الله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ الآية.

وأخرج أبو الشيخ[٦]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قال ابن مسعود: (كانوا على هدى[٧]). وروى أنه قرأ هكذا.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٨]، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال: آدم وحده ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قال: حين قتل أحدُ ابنَيْ آدم أخاه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٩]، عن السديّ، في الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم، فكفروا، فلولا أن ربك أجّلهم إلى يوم القيامة لقُضى بينهم.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٢).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٧٤٢٢)، ومسلم رقم (٢٧٥١)، وأحمد (٧٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) وهي قراءة شاذة.
«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٢ ـ ٢٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧١).
(٤) «المحرر الوجيز» (٩/ ٢٣).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٥) بسند صحيح.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٩). وأثر ابن عباس: قال: «على الإسلام».
(٧) وهي قراءة شاذة. وأثر ابن مسعود هو عند أبي الشيخ عن الضحّاك.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٧) بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٧) بسند صحيح.

[فضائح ومخازي المشركين]:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ذكر سبحانَه هاهنا نوعاً رابعاً مِنْ مخازيهم، وهو معطوف[١] على قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ١٨] وجاءَ بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه.

قيل: والقائلون هم: أهل مكة؛ كأنّهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة، [٣/٨] والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلاً بيّناً ومُصدّقاً قاطعاً؛ أي: هلا أنزلت[٢] عليه آية من الآيات التي نقترحها عليه، ونطلبها منه؛ كإحياء الأموات، وجعل الجبال ذهباً، ونحو ذلك؟

ثم أمره الله سبحانه أَنْ يجيب عنهم فقال: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: أن نزول الآية غيب، واللهُ هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها.

وقيل[٣]: المعنى: انتظروا قضاءَ الله بيني وبينكم بإظهار الحقّ على الباطل.

قولُه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ لما بيّن سبحانه في الآية المتقدمة أنّهم طلبوا آيةً عناداً، ومكراً ولجاجاً، أكد ذلك بما ذكره هنا من أَنّه سبحانه إذا أذاقهم رحمةً منه من بعد أن مستهم الضرّاء، فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٧٩).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٢)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٤٤).
(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٠).

والمراد بإذاقتهم رحمتَه سبحانه: أَنّه وسّع عليهم في الأرزاق، وأدرّ عليهم النِّعم بالمطر وصلاح الثمار، بعد أن مستهم الضرّاءُ بالجدب، وضيق المعايش، فما شكروا نعمتَه ولا قدروها حقّ قدرها؛ بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضرّ، وطعنوا في آياتِ الله، واحتالوا في دفعها بكلِّ حيلة، وهو معنى المكر فيها.

و«إذا» الأولى[١] شرطية، وجوابها: إذا لهم مَكْر، وهي فجائية، ذكر معنى[٢] ذلك الخليل وسيبويه.

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه أَنْ يجيب عنهم فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ أي: أعجلُ عقوبةً، وقد دلّ أفعل التفضيل[٣] على أنّ مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله أسرعُ منه.

وإذا الفجائية[٤] يستفاد مِنْها السرعة؛ لأن المعنى: أنهم فاجئوا المكر؛ أي: أوقعوه على جهة الفُجاءة والسرعة، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة، كما قُرّر في مواطن مِنْ عبارات الكتاب العزيز.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ قرأ يعقوب في رواية، وأَبو عَمْرو في رواية: «يَمْكرون» بالتحتية[٥]، وقرأ الباقون[٦] بالفوقية.

والمعنى: أَنَّ رسلَ الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفّار، لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير؟

وفي هذا وعيدٌ لهم شديد، وهذه الجملة تعليلية[٧] للجملة التي قبلها، فإنّ مكرَهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كائنة لا محالة، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدّمة وهي: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢] وفي هذه زيادة، وهي أَنّهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض؛ بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٨٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨٣).
(٢) ذكره عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٤٩).
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٨٤).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٦٩).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣١)، و«روح المعاني» (١١/ ٨٥). القراءة بالتحتية (يمكرون) عَنْ روح عن يعقوب والباقون بالفوقية والرواية عن أبي عمرو بالتحتية شاذة. وكلا القراءتين متواترتان. «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦٢).
(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٣١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٦٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٨٥).
(٧) «روح المعاني» (١١/ ٨٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨٣).

يدبرونه مِنْ المكر ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تامّاً.

ومعنى تسييرهم[١] في البَّر: أَنّهم يمشون على أَقدامهم التي خلقها لهم، لينتفعوا بها، ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب.

ومعنى تسييرهم في البحر: أنّه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لُجج البحر، ويسّر ذلك لهم، ودفع عنهم أسبابَ الهلاك.

وقَدْ قرأ ابنُ عامر: «وهو الذي ينشركم في البحر» بالنون[٢] والشين المعجمة مِنْ النشر كما في قوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ أي: ينشرهم سبحانه في البحر، فينجي مَنْ يشاء ويغرق مَنْ يشاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ الفُلْك يقع على الواحد والجمع ويذّكر ويؤنّث، وقد تقدّم تحقيقه.

﴿وَجَرَيْنَ﴾؛ أي: السفن بهم؛ أي: بالراكبين عليها.

و«حتّى» لانتهاء الغاية[٣]، والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتبرة في الشر ثلاثة:

(أوّلها): الكون في الفُلْك.

(والثاني): جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة.

(وثالثها): فرحهم.

والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة:

(الأوّل): ﴿جَآءَتْهَا﴾؛ أي: جاءت الفُلْكَ ريحٌ عاصف، أو جاءت الريح الطيبة؛ أي: تلقتها ريح عاصف، والعصوف: شدّة هبوب الريح.

(والثاني): ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: مِنْ جميع الجوانب للفُلك، والمراد: جاء الراكبين فيها، والموج ما ارتفع مِنْ الماء فوق البحر.

(والثالث): ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١٤٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٤٧٣).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٠). القراءة بالنون والشين متواترة وهي عن ابن عامر وأبي جعفر، والباقون بالياء المضمومة والسين المفتوحة، والياء مكسورة مشدّدة. «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦٢).

(٣) «روح المعاني» (١١/ ٩٠)، و«الكشاف» (٣/ ١٢٥).

مِنْ إحاطة العدوّ بقومٍ أو ببلدٍ، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا.

وجواب[١] إذا في قوله: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ قوله: ﴿جَآءَتْهَا﴾ إلى آخره، ويكون قوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ بدلاً مِنْ ظنوا[٢]؛ لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظنّ الهلاك وهو الباعث عليه، فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه، ويمكن أن يكون جملة (دعوا) مستأنفة كأنّه قيل: ماذا صنعوا؟

فقيل: دعوا الله.

وفي قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ التفات[٣] مِنْ الخطاب إلى الغيبة، جعل الفائدة فيه صاحب الكشّاف[٤] المبالغة.

وقال الرّازي[٥]: الانتقال مِنْ مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد، كما أن عكس ذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] دليل الرضا والتقريب.

وانتصاب مُخْلصين على الحال[٦]؛ أي: لم يشوبوا دعاءَهم بشيءٍ من الشوائب، كما جرت عادتُهم في غير هذا الموطن، أنّهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده؛ بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك، لعلمهم أَنّه لا ينجيهم سوى الله سبحانه.

وفي هذا دليل على أن الخلقَ جُبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المُضطرّ يجاب دعاؤه وإنْ كان كافراً.

وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم [٩/٢] في هذه الحالة، وما يشابهها، فيا عجباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات؟

فإذا عرضتْ لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، ولم يخلصوا

---

(١) «روح المعاني» (١١/٨٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٠).
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٨٧).
(٤) في «الكشاف» (٣/ ١٢٦).
(٥) في «تفسيره» (١٧/ ٦٩).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ٩١).

الدعاء لله، كما فعله المشركون! كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يَحصل به القطعُ.

فانظرْ هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلُها، وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيفَ اقتادهم وتسلّط عليهم؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله، ولا في بعضِه، مِنْ عبّاد الأوثان، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

واللّام في ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ هي اللام الموطئة[1] للقسم؛ أي: قائلين ذلك.

والإشارة بقوله: ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ إلى ما وقعوا فيه مِنْ مشارفة الهلاك في البحر، واللّام في ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ جواب[2] القَسَم؛ أي: لنكونّن في كلِّ حال ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا، مِنْها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا، وتنجينا مِنْها؛ وقيل: إنَّ هذه الجملة مفعول دعوا ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ الله مِنْ هذه المحنة[3] التي وقعوا فيها، وأجاب دعاءهم، لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم؛ بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر.

و«إذا»[4] في ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ هي الفُجائية؛ أي: فاجئوا البغي في الأرض بغير الحق.

والبغيُّ: هو الفساد، مِنْ قولهم: بغَى الجرحُ: إذا ترامى في الفساد، وزيادة (في الأرض) للدِّلالة على أَنّ فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أَنْ يكون بحقٍ؛ بل لا يكون إلا بالباطل، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شُبْهة عندهم؛ بل تمرّداً وعِناداً؛ لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ لما ذكر سبحانه أَنّ هؤلاء المتقدّم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٢).

(٢) انظر: المصدرين في التعليقة المتقدمة.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٦).

(٤) «التبيان» (٢/ ٦٧٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥).

قرأ ابنُ إسحاق، وحفص، والمفضّل بنصب[(١)] «متاعَ»، وقرأ الباقون بالرفع[(٢)].

فمَنْ قرأ بالنّصب جعل ما قبله جملةً تامة؛ أي: بغيكم وبالَ على أنفسكم، فيكون بغيكم[(٣)] مبتدأ وعلى أنفسكم خبره، ويكون متاعَ في موضع المصدر المؤكد؛ كأنّه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استئنافاً.

وقيل: إنّ (متاعَ) على قراءة النّصب ظرف زمان نحو مقدمَ الحاج؛ أي: زمنَ متاع الحياة الدنيا؛ وقيل: هو مفعول له؛ أي: لأجل متاع الحياة الدنيا.

وقيل: منصوب بنزع الخافض؛ أي: كمتاع؛ وقيل: على الحال على أنّه مصدر بمعنى المفعول؛ أي: ممتعين، وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب.

وأما مَنْ قرأ برفع[(٤)] (متاعُ) فجعله خبر المبتدأ؛ أي: بغيكم متاعُ الحياة الدنيا، ويكون على أَنفسِكم متعلق بالمصدر، والتقدير: إنمّا بغيكم على أمثالكم، والذين جنسهم جنسكم، متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه: أبناء جنسهم، وعبّر عنهم بالأنفس لما يُدركه الجنس على جنسه من الشفقة.

وقيل: ارتفاع متاع على أنّه خبر ثان؛ وقيل: على أنّه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هُو متاعُ.

قال النّحاس[(٥)]: على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعاً بالابتداء، وخبره متاع الحياة الدنيا، وعلى أنفسكم مفعول البغي، ويجوز أَنْ يكون خبره على أنفسكم، ويضمر مبتدأ؛ أي: ذلك متاعُ الحياة الدنيا، أو هو متاعُ الحياة الدنيا. انتهى.

وقد نُوقِش أيضاً بعض هذه الوجوه المذكورة في توجيه الرفع، بما يطول به البحث في غير طائلٍ.

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٨٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥). الصواب: ابن أبي إسحاق.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٠).

(٤) «التبيان» (٢/ ٦٧٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٣).

(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٠).

والحاصل: أَنَّه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم، فالمعنى: أن ما يقع من البغي على الغير هو بغيٌّ على نفس الباغي، باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام مِنْه مجازاة على بغيه.

وإنْ جُعل الخبر متاعُ، فالمراد: أَنّ بغي هذا الجنس الإنساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال، قريب الاضْمحلال؛ كسائر أمتعة الحياة الدنيا، فإنها ذاهبة عن قُرب، متلاشية بسرعة، ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى.

ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي مِنْ المجازاة يوم القيامة، مع وعيد شديد فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ وتقديم الخبر[١] للدلالة على القصر.

والمعنى: أَنّكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله، فيجازي المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؛ أي: فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشرّ، والمراد بذلك: المجازاة، كما تقول لمن أساء: سأخبرك بما صنعتَ، وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن الربيع، في قوله: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ قال: خوّفهم عذابَه وعقوبته.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٣]، في قوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قال: استهزاءٌ وتكذيب.

وأخرج ابن المنذر[٤]، عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ قال: هلكوا.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والنسائي، وابن مردويه، عن سعد بن أبي وقاص[٥]، ما حاصله: أن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم: عكرمة بن

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٥ ـ ٣٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٨) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٩١)، وأبو داود رقم (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي رقم (٤٠٧٨). وهو حديث صحيح.

أبي جهل، هرب مِنْ مكة وركب البحر فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلِصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم يُنجّني في البحر الإخلاص، ما ينجيني في البرّ غيرُه، اللَّهُمَّ إنّ لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي مُحمداً حتى أضعَ يدي في يده، فلأجدنّه عفواً كريماً، فجاء فأسلمَ.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، والخطيب في «تاريخه»، والديلمي [٣/١٠] في «مسند الفردوس»، عن أنس[١]، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ هنّ رواجع على أهلها: المكرُ، والنَّكث، والبَغْيُ» ثم تلا رسول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أبي بكرة[٢]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تكن باغياً، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾».

وأخرج أَبو الشيخ[٣] عن مكحول قال: ثلاثٌ من كنّ فيه كنّ عليه: المكر، والبغي، والنكث، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دلّ القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فإن الله يقول: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

وأخرج ابن مردويه[٤]، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبلٌ على جبل لدُك الباغي مِنْهما».

وأخرج ابن مردويه[٤] من حديث ابن عمر مثله.

---

(١) قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٩١): «خبر منكر».
وأخرجه أبو نعيم كما في «الميزان»، والخطيب في «تاريخه» (٨/ ٤٥٠).
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٣٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٦٧١).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٣).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٣). وضعف الألباني حديث ابن عباس في «الضعيفة» رقم (١٩٤٨).

[ما قيمة متاع الحياة الدنيا، هذا وما حقيقته]:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

[يوم الحشر تسقط فيه الدعاوى والأباطيل]:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

لما ذكر الله سبحانه ما تقدّم من متاع الدنيا، جاء بكلام مُستأنف[١] يضمن بيان حالها وسرعة تقضّيها، وأنّها تعودُ بعد أن تملأ الأعين برونقها، وتجتلب النفوس ببهجتها. وتحمل أهلها على أنْ يسفكوا دماء بعضهم بعضاً، ويهتكوا حرمهم حبّاً لها، وعشقاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع[٢] بها، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب مِنْ التشبيه المَركَب، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى آخر الآية.

والمعنى: أنَّ مَثلها في سرعة[٣] الذهاب، والاتصاف بوصف يضادّ ما كانت

(١) «روح المعاني» (١١/ ٩٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٨٨).
(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٩).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٦ ـ ٣٧).

عليه وبيانه، مثل ما على الأرض مِنْ أنواع النبات في زوال رونقه، وذهاب بهجته، وسرعة تقضيه، بعد أَنْ كان غضّاً مخضّراً طريّاً، قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقُه المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره، وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بل ما يفهم مِنْ الكلام، والباء في ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ للسببية[(١)]؛ أي: فاختلط بسببه نباتُ الأرض بأن اشتبك بعضُه ببعض، حتى بلغ إلى حدّ الكمال، ويحتمل أَنْ يراد أن النبات كان في أوّل بروزه، ومبدأ حدوثه غير مهتزٍ ولا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز ورَبا، حتى اختلطَ بعضُ الأنواع ببعض ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ مِنْ الحبوب والثمار، والكلأ والتبن، وأخذت الأرض زُخْرفها.

قال في «الصِّحاح»[(٢)] الزُخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموّه مزوّر. انتهى.

والمعنى: أَنّ الأرض أخذت لونها الحسن، المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرّد. وأصل ازيّنْت: تزينت وأُدغمت التاء في الزاي، وجيء بألف الوصل؛ لأنّ الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن، والساكن لا يمكن الابتداء به.

وقرأ ابن مسعود، وأُبيّ بن كعب «وتزينت»[(٣)] على الأصل.

وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية «وأَزْيَنَتَ»[(٤)] على وزن أَفْعَلتْ؛ أي: أَزْينت بالزينة التي عليها، شبّهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة.

وقال عوف بن أبي جميلة: قرأ أشياخُنا «وازْيانَّت»[(٥)] على وزن اسوادّت[(٦)]،

---

(١) «التبيان» (٢/ ٦٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٧).

(٢) «الصحاح» (٤/ ١٣٦٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٨)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٥٣)، و«التبيان» (٢/ ٦٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٧). هي قراءة شاذة.

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٦)، و«المحتسب» (١/ ٣١١). وهي قراءة شاذة.

(٥) «روح المعاني» (١١/ ٩٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥١). قراءة الجمهور (وازّيّنت) بمهمزة وصل، وتشديد الزاي والياء، وما عداها شاذ.

(٦) «البحر المحيط» (٦/ ١٧٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٩٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥١).

وفي رواية المقدمي[(١)] «وازّانت» والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت.

وقرأ الشعبي[(٢)]، وقتادة «أزْيَنَت»، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾؛ أي: غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها، والضمير في عليها للأرض، والمراد: النبات الذي هو عليها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ جواب إذا؛ أي: جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾؛ أي: جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصود في قطعه من أصوله.

قال أبو عبيدة[(٣)]: الحصيد: المُستأصَل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس مخضرّاً طريّاً، مِنْ غَنِي بالمكان بالكسر يغنَى بالفتح إذا أقام به، والمراد بالأمس: الوقتُ القريب.

والمغاني في اللغة[(٥)]: المنازل.

وقال قتادة[(٤)]: كأن لم تنعم، قال لبيد[(٥)]:

غَنيَتْ سنيناً قَبْلَ مَجْرى دَاحِسٍ   لو كان للنَّفْس اللَّجُوجِ خُلودُ

وقرأ قتادة: «كأن لم يَغْنَ» بالتحتية[(٦)] بإرجاع الضمير إلى الزخرف.

وقرأ مَنْ عداه: «تُغْنِ» بالفوقية[(٧)] بإرجاع الضمير إلى الأرض ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما اشتملت عليه، ويجوز أن يراد [٣/١١] الآيات التكوينية.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لما نفّر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه

---

(١) «المحتسب» (٣/ ٣١١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧٧).

(٢) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٧).

(٣) «الصحاح» (٦/ ٢٤٥٠)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٢٠٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٣) بسند صحيح.

(٥) انظر: «ديوانه» (ص٣٥).

(٦) في «الكشاف» (٣/ ١٣٠) عن الحسن.

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١)، و«روح المعاني» (١١/ ١٠٠). وقراءة قتادة شاذة.

لهم من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه ﷺ إلى دار السلام.

قال الحسن وقتادة[١]: السلام: هو الله تعالى، وداره: الجنّة.

وقال الزجاج[٢]: المعنى: والله يدعو إلى دار السلامة. ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة. ومنه قول الشاعر:

تُحَيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ وهل لك بعد قومك من سلامِ[٣]

وقيل[٤]: أراد دار السلام الذي هو: التحية؛ لأنّ أهلَها ينالون من الله السلام بمعنى: التحية، كما في قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]؛ وقيل: السلام اسم[٥] لأحد الجِنان السبع: **(أحدها)**: دار السلام، **(والثانية)**: دار الجلال، **(والثالثة)**: جنّة عدن، **(والرابعة)**: جنة المأوى، **(والخامسة)**: جنة الخلد، **(والسادسة)**: جنة الفردوس، **(والسابعة)**: جنة النعيم.

وقيل: المراد: دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنّة.

وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنّة، وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة، والهداية خاصة بمن يشاء أَنْ يهديه، تكميلاً[٦] للحجة وإظهاراً للاستغناء عن خلقه.

ثم قسّم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين، وبيَّن حال كل طائفة فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال، والكفّ عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى: المثوبة الحسنى.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٣) كلاهما عن قتادة بسند صحيح.

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥).

(٣) قائله شداد بن الأسود الليثي. «السيرة النبوية» (٢/ ٣٩).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٨٠).

(٥) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٨١) عن ابن عباس.

(٦) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥٠).

قال ابن الأنباري[(١)]: العرب تُوقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك تُرك موصوفها.

وقيل: المراد بالحسنى: الجنّة[(٢)].

وأما الزيادة فقيل: المراد بها: ما يزيد على المثوبة من التفضّل؛ كقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠] وقيل: الزيادة النظر إلى وجهه الكريم.

وقيل: الزيادة هي: مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها.

وقيل: الزيادة: غُرفة مِنْ لؤلؤ، وقيل: الزيادة: مغفرة من الله ورضوان.

وقيل: هي أنَّه سبحانه يعطيهم في الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه.

وقيل غير ذلك، مما لا فائدة في ذكره، وسيأتي بيان ما هو الحق في آخر البحث.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ معنى يرهق: يَلْحق[(٣)]، ومنه قيل: غلام مُراهق، إذا لحق بالرجال[(٤)]، وقيل: يعلو، وقيل: يغشى، والمعنى متقارب.

والقتر: الغبار، ومِنْه قول الفرزدق[(٥)]:

مـتـوّجٌ بـرداءِ الـمُـلـكِ يـتـبـعُـهُ   مـوجٌ تـرى فـوقَـه الـرايـاتِ والـقَـتَـرا

وقرأ الحسن «قَتْر» بإسكان[(٦)] المثناة، والمعنى واحد، قاله النحاس[(٧)]، وواحد القَتَر قَتَرة، والذِلّة: ما يظهر على الوجه مِنْ الخضوع والإنكسار والهوان، والمعنى: أنّه لا يعلو وجوههم غَبَرة، ولا يظهر فيها هَوان؛ وقيل: القَتَر: الكآبةُ، وقيل: سواد الوجوه[(٨)].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣٢ ـ ٣٣)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٠٣ ـ ١٠٤).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٥) بسند صحيح.
(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٦٧).   (٤) «الصحاح» (٤/ ١٤٨٧).
(٥) انظر: «ديوان الفرزدق» (ص٢٣٤).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص٥٧). وهي قراءة الشاذة.
(٧) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٥١).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٦) بسند ضعيف.

وقيل: هو دُخانُ النار[١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها، المتنعمون بأنواع نَعيمها ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ هذا الفريق الثاني مِنْ أهل الدعوة، وهو معطوف[٢] على ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أو يُقدّر: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها؛ أي: يُجازي سيئة واحدة بسيئة واحدة، لا يُزاد عليها، وهذا أولى مِنْ الأوّل، لكونه من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين.

والمراد بالسيئة: إِمَّا الشركُ، أو المعاصي التي ليست بشرك، وهي ما يتلبس به العصاة مِنْ المعاصي، قال ابن كيسان[٣]: الباء زائدة، والمعنى: جزاء سيئةٍ مثلها.

وقيل: الباء مع ما بعدها الخبر، وهي متعلقة بمحذوف قامت مقامه.

والمعنى: جزاءُ سيئةٍ كائن بمثلها؛ كقولك: إنّما أنا بك، ويجوز أن يتعلّق بجزاء، والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن، فحذف[٤] خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿جَزَآءُ﴾ مرفوعاً على تقدير: فلهم جزاء سيئة، فيكون مثل قوله: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ أي: فعليه عدّة، والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف؛ كأنه قال: لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أَو تكون مؤكدة أو زائدة.

قولُه: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾؛ أي: يغشاهم هوانٌ وخِزْي. وقرئ: «يرهقهم» بالتحتية[٥] ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾؛ أي: لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط اللهِ وعذابه، أو ما لهم مِنْ جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، والأوّل أَولى، والجملةُ في محلِّ نَصْبٍ[٦] على الحالية، أو مستأنفة ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ قطعاً: جَمْعُ قطعة، وعلى هذا يكون «مُظْلماً» منتصباً على

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٤٣٣).

(٢) «روح المعاني» (١١/ ١٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٢).

(٣) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٤٤).

(٤) «التبيان» (٢/ ٦٧٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١٠٦).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٥٧)، و«روح المعاني» (١١/ ١٠٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٤ ـ ٤٥). وهي قراءة شاذة.

(٦) «روح المعاني» (١١/ ١١١)، و«الإملاء» (٣/ ٢٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥).

الحال[١] مِنْ الليل؛ أي: أغشيت وجوههم قطعاً مِنْ الليل في حالة ظلمته.

وقد قرأ بالجمع جمهورُ القرّاء[٢].

وقرأ الكسائي وابن كثير: «قِطْعا» بإسكان الطاء، فيكون «مظلماً» على هذا صفة[٣] «لقطعاً»، ويجوز أَنْ يكون حالاً من الليل.

قال ابن السِّكِّيت[٤]: القِطْعُ طائفة من الليل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السُّنَّة مِنْ خروج عصاة الموحدين.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ الحشر: الجَمْعُ، وجميعاً منتصب[٥] على الحال ﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوب[٦] بمضمر؛ أي: أنذرهم يوم نحشرهم، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة.

والمعنى: أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ في حالة الحشر، ووقت الجمع تقريعاً لهم على رؤوس الأشهاد، وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة، وحضور معبوداتهم ﴿مَكَانَكُمۡ﴾؛ أي: الزموا مكانكم، واثبتوا فيه، وقفوا في موضعكم ﴿أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ هذا الضمير[٧] تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسدّه مسدّ الزموا، و«شركاؤكم» معطوف عليه. وقرئ بنصب[٨] شركاؤكم على أن الواو واو مع.

قولُه: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ أي: فرّقنا وقطّعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا: يقال: زيّلته فتزّيل؛ أي: فرّقته فتفرّق[٩]، والمزايلة المفارقة، يقال: زايله مزايلة، وزيالاً إذا فارقَه، والتزايل: التباين.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨)، و«روح المعاني» (١١/ ١٠٨).

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١٦٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٧)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٢٣)، و«روح المعاني» (ص١١٢).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٢)، و«التبيان» (٢/ ٦٧٣).

(٤) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١/ ١٨٧).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨)، و«روح المعاني» (١١/ ١١١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٣).

(٧) «روح المعاني» (١١/ ١١٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٩).

(٨) «حاشية الشهاب» (٥/ ٢٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٣). والنصب قراءة شاذة.

(٩) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٨٨).

قال الفرّاء[١]: وقرأ بعضُهم: «فزايلنا»[٢].

والمراد بالشركاء[٣] هنا: الملائكة، وقيل: الشياطين، وقيل: الأصنام، وإنّ الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت. وقيل: المسيح، وعزير، والظاهر أنّه كل معبود للمشركين كائناً ما كان.

وجملة: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ في محل نصب[٤] على الحال بتقدير: قد.

والمعنى: وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه: [٣/١٢] ما كنتم إيّانا تعبدون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم، وشياطينكم الذين أغووكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أَنَّهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيباً مِنْ أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية.

وقيل: لكونهم شركاؤهم في هذا الخطاب، وهذا الجحدُ مِنْ الشركاء وإنْ كان مخالفاً لما قد وقع مِنْ المشركين مِنْ عبادتهم، فمعناه: إنْكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إنْ كنّا أمرناكم بعبادتنا، أو رضينا ذلك منكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ «إنْ» هي المخففة[٥] من الثقيلة، واللّام هي الفارقة بينها وبين النافية، والقائل لهذا الكلام هم: المعبودون. قالوا لمن عبدهم مِنْ المشركين: إنّا كنا عَنْ عبادتكم لنا لغافلين، والمراد بالغفلة هنا: عدم الرضا بما فعله المشركون مِنْ العبادة لهم.

وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين؛ لأنهم يرضون بما فعله المشركون مِنْ عبادتهم، ويمكن أن يكونوا من الشياطين، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، ولا أكرهوهم عليها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾؛ أي: في ذلك المكان وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان، تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٢).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٩)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٢).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٧١).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٥١)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٣).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١).

أسلفت مِنْ العمل، فمعنى ﴿تَبْلُواْ﴾: تذوق وتختبر، وقيل: تعلم، وقيل: تتبع، وهذا على قراءة مَنْ قرأ: «تبلو» بالمثناة[(١)] الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس؛ وأما على قراءة من قرأ: «نَبْلو» بالنون[(٢)]؛ فالمعنى: أَنّ الله يبتلي كل نفس ويختبرها، ويكون (ما أسلفت)[(٣)] بدلاً مِنْ كل نفس.

والمعنى: أنه يعاملها معاملة مَنْ يختبرها ويتفقد أحوالها.

قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ معطوف[(٤)] على ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، والضمير في «رُدّوا» عائد إلى الذين أشركوا؛ أي: ردّوا إلى جزائه، وما أعدّ لهم مِنْ عقابه، ومولاهم: ربُّهم.

والحق صفة له؛ أي: الصادق الربوبية دون ما اتخذوه مِنْ المعبودات الباطلة.

وقرئ «الحقَّ» بالنصب[(٥)] على المدح؛ كقولهم الحمد لله أهلَ الحمد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ضاع وبطل ما كانوا يفترون مِنْ أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة، لتشفع لهم إلى الله وتقرّبهم إليه.

والحاصل: أنّ هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق، ويعترفون به، ويقرّون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلٰهاً، ولكن حينَ لا ينفعهم ذلك.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٦)]، في قوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: اختلط فنبتَ بالماء كلُّ لون ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالحنطة والشعير، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ،

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٧٤)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٧٤).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة هذه الكلمة (تتلو) بالتاء المفتوحة، بعدها تاء ساكنة هي قراءة الكسائي وحمزة وخلف و(تبلو) بالتاء بعدها باء موحدة قراءة باقي العشرة وأما قراءة (نبلو) بالنون فشاذ. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦٣).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥١)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٨).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٨).

(٥) «روح المعاني» (١١/ ١١٨)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٨٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٣).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٠) بسند ضعيف.

عن قتادة[١] في قوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ قال: أنبتت وحَسُنت، وفي قوله[٢]: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ قال: كأن لم تَعِشْ؛ كأن لم تَنعَمْ.

وأخرج ابن جرير، عن أُبيّ بن كعب، وابن عباس[٣]، ومَرْوان بن الحكم؛ أنهم كانوا يقرؤون بعد قوله: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن[٤]، أنه كان يقرأ: وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي مِجْلَز[٥]، قال: كان مكتوب في سورة يونس إلى حيث هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ إلى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، ولو أن لابن آدم واديين مِنْ مال لتمنّى وادياً ثالثاً، ولا يُشْبع نفسَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَنْ تاب، فمُحيت.

وأخرج أبو نعيم، والدمياطي في «معجمه» من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس[٦]، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يقول: يدعو إلى عمل الجنّة. واللهُ: السلامُ، والجنة: داره.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٧]، نحوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٣) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤١)، وعبد الرزاق (١/ ٢٩٣) وهي قراءة شاذة.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٢) بسند ضعيف جداً، فيه عبد العزيز وهو ابن أبان الأموي، متروك، كذبه ابن معين وغيره. «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦٢٢).
● وهي قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف.
وقال ابن كثير في«تفسيره» (٧/ ٣٥٢): «وهذه قراءة غريبة وكأنَّها زيدت للتفسير».
(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٤).
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٤).
(٧) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٣) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[(١)]، عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ قال: يهديهم للمخرج من الشبهات، والفتن، والضّلالات.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشُعب»، عن أبي الدرداء[(٢)]، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ يوم طلعت شمسُه إلا وكِّل بجنبتيها مَلَكان يناديان نداءً يسمعه خلقُ الله كلُهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمسُه إلا وكّل بجنبتيها مَلَكان يناديان نداءً يسمعه خلُق الله كلُّهم غير الثقلين: اللّهُمَّ أعط منفقاً خلفاً، وأعطِ مُمْسكاً تلفاً ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ١٠].

وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن سعيد بن أبي هلال[(٣)]: سمعتُ أبا جعفر مُحمد بن عليّ وتلا: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقال: حدّثني جابر قال: «خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: إنّي رأيتُ في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رِجْلِي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمْع سَمِعتْ أذنُك، واعقِلْ عقَل قلبُك، إنما مثلُك ومثل أمتك مثل مَلِك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعثَ رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم مَنْ أجاب الرسول، ومنهم من ترك؛ فالله هو المِلكُ، والدار الإسلامُ، والبيت الجنةُ، وأنت يا محمد رسولُ، فمن أجابك دخلَ الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنةّ، ومن دخل الجنة أكل منها» [٣/١٣] وقد روي معنى هذا من طرق.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢١٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٤، ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٢)، والحاكم (٢/ ٤٤٤) وصحّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٤١٢)، وابن حبان رقم (٦٨٦). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٥) من طريق حجاج، عن ليث بن سعد، به. وسنده منقطع. سعيد بن أبي هلال لم يسمع من جابر بن عبد الله.
• وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٨) وصحَّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٧٠) موصولاً من طريق سعيد بن أبي هلال، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، عن جابر بن عبد الله.

وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة[(١)]، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال: ذِكُر لنا أن في التوراة مكتوباً: يا باغي الخير هلمّ، ويا باغي الشرّ اتقه.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)]، عن الحسن؛ أنه كان إذا قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال: لبيّك ربَّنا وسَعْديَك.

وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وغيرهم، عَنْ صُهيب[(٣)]: «أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ قال: إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النار نادى مُنادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقّل موازيننا، ويُبيّض وجوهَنا، ويُدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؛ قال: فَيُكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم مِنْ النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني في «الرؤية»، وابن مردويه، عن أبي موسى[(٤)]، عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أوّلهم وآخرُهم: إنَّ الله وعدكم الحسنى وزيادة» فالحسنى الجنةُ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمٰن».

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في «الرؤية»، عن كعب بن عُجْرة[(٥)]، عن النبيّ ﷺ، في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ قال: «الزيادة: النظرُ إلى وجه الرحمٰن».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٣) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٨٩٣٥)، والطيالسي رقم (١٤١١)، وهناد رقم (١٧١)، ومسلم رقم (٦٨١)، والترمذي رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه رقم (١٨٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٠، ١٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» رقم (٢٥٨)، وابن حبان رقم (٧٤٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦٦٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٥٦ رقم ٧٨١) بسند واهٍ.

وأخرج هؤلاء والدارقطني، وابن أبي حاتم، عن أُبيّ بن كعب[١]؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الذين أحسنوا: أهل التوحيد، والحُسْنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله».

وأخرج ابنُ مردويه[٢]، عن ابن عمر، مرفوعاً نحوه.

وأخرج أبو الشيخ، والدارقطني، وابن مردويه، والخطيب، وابن النجار، عن أنس[٣] مرفوعاً نحوه.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن أبي هريرة، نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي بكر الصدّيق[٥]، في الآية قال: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله.

وأخرج ابن مردويه[٦]، من طريق الحارث، عن عليّ بن أبي طالب في الآية مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، عن حذيفة[٧] في الآية قال: الزيادة: النظر إلى وجه الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والدارقطني،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٤٤)، واللالكائي (٣/٤٥٦ رقم ٧٨٠) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٥٧). وابن أبي عاصم في «الجهاد» رقم (٣١٠).

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/٤٥٦ رقم ٧٧٩)، والخطيب في «تاريخه» (٩/١٤٠).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٥٧). وابن أبي عاصم في «الجهاد» رقم (٣١٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٥٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» رقم (٢٦٤)، وابن منده في «الرد على الجهمية» رقم (٨٤)، واللالكائي رقم (٧٨٤)، والآجري في «الشريعة» رقم (٥٨٩ ـ ٥٩١)، والدارقطني في «الرؤية» رقم (١٩٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦٦٦)، وفي «الاعتقاد» (ص١٣١)، والخطيب في «تاريخه» (٩/١٣٤) بسند منقطع. عامر بن سعد لم يسمع من أبي بكر الصديق.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٥٨).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٥٧)، وابن أبي شيبة (١٣/٣٨١)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٥٢)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/٤٥٨ رقم ٧٨٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٢٠)، والآجري في «الشريعة» رقم (٥٩١)، وعبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» رقم (٤٧٣) بسند حسن.

والبيهقي، عن أبي موسى[١] نحوه.

وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، من طريق عكرمة، عن ابن عباس[٢] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، واللالكائي عن ابن مسعود[٣]، نحوه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عن عليّ[٤] قال: الزيادة غُرْفة من لؤلؤةٍ واحدة لها أربعة أبواب، غُرَفُها وأبوابها مِنْ لؤلؤة واحدة.

وأخرج ابن جرير[٥]، عن ابن عباسٍ، في قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قال: هو مِثْل قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٥] يقول: يجزيهم بعملهم، ويزيدهم من فضله. وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أَنَّها النظر إلى وجه الله سبحانه.

وقد ثبت التفسير بذلك مِنْ قول رسول الله ﷺ، فلم يبق حينئذ لقائل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السُّنَّة المطهرة ما ينتفعون به، فإنّهم لو عرفوا ذلك لكفوا عَنْ كثير من هذيانهم، والله المستعان.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٦]، في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ قال: لا يغشاهم ﴿قَتَرٌ﴾ قال: سوادُ الوجوه.

وأخرج أبو الشيخ[٧] عن عطاء في الآية قال: القتر: سَوادُ الوجه.

---

(١) أخرجه هناد في «الزهد» رقم (١٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٥٧، ١٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٥)، واللالكائي رقم (٧٨٥، ٧٨٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٣٠٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي رقم (٧٨٧، ٧٨٨).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور رقم (١٠٥٨ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٥) بسند ضعيف، للانقطاع بين الحكم بن عتبة وعلي رضي الله عنه.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٣) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٦) بسند ضعيف.

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٠).

وأخرج ابن أبي حاتم(١)، عن مجاهد، في الآية قال: خزي.

وأخرج أبو الشيخ(٢)، وابن مردويه، عن صهيب عن النبيّ ﷺ: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قال: بعد نظرهم إليه ﷻ.

وأخرج أبو الشيخ(٣)، عن السديّ، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال: الذين عملوا الكبائر ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ قال: النار ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ القطع: السّواد نسختها الآية في البقرة ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآية [البقرة: ٨١].

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس(٤)، في قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ قال: تغشاهم ذلة وشدّة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه(٥)، في قوله: ﴿مَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يقول: من مانع.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٦)، في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قال: الحشر الموت.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد(٧)، في قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ قال: فَرّقنا بينهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٨)، قال: تُنصب الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيقول: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون: نعم، هؤلاء الذين كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة: والله ما كنا نَسمع ولا نُبصر، ولا نعقل، ولا نعلم، أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون: بلى والله لإيّاكم كنا نَعبُد، فتقول لهم الآلهة: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٤٦) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٠). وأخرجه البزار (٢٠٨٧) وسنده صحيح.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٦٧) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٤٧) بلفظ: «من شافع» بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٤٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٧٢) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٤٨) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٤٨) بسند صحيح.

وأخرج ابن مردويه[1]، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُمثّل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله، فيتّبعونهم حتى "يُرْدُوهم" النار، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾».

وأخرج أبو الشيخ[1]، عَنْ السديّ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا﴾ يقول: تتبْعُ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[2]، قال: ﴿تَبْلُوا﴾ تُختَبر.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[3]، ﴿تَبْلُوا﴾ قال: تعاين ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ ما عملت ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يدعون معه من الأنداد [١٤/ ٣].

وأخرج أبو الشيخ[4]، عن السديّ في قوله: ﴿وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ قال: نسخها قوله: ﴿ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

[المشاهد الكونية واعترافهم هم أنفسهم بأنَّها من أمر الله وخلق الله]:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٩) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٩) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

لما بيّن فضائح المشركين أتبَعها بإيراد الحُجج الدامغة، مِنْ أحوال الرزق والحواس، والموت والحياة، والابتداء والإعادة، والإرشاد والهدى، وبنى سبحانه الحُجج على الاستفهام(١)، وتفويض الجواب إلى المسؤولين، ليكون أبلغ في إلزام الحُجة وأوقع في النفوس، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقية التوحيد، وبطلان ما هم عليه من الشرك ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من السماء بالمطر، ومِنْ الأرض بالنبات والمعادن، فإنْ اعترفوا حصل المطلوب، وإن لم يعترفوا فلا بدّ أن يعترفوا بأنَّ الله هو الذي خلقهما.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ «أم»(٢) هي المنقطعة، وفي هذا انتقال مِنْ سؤال إلى سؤال، وخص السمع والبصر بالذكر، لما فيهما مِنْ الصنعة العجيبة، والقدرة الباهرة العظيمة؛ أي: مَنْ يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة، والخِلْقة الغريبة، حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم، ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين.

ثم انتقل إلى حُجة ثالثة، فقال: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والنبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ أي: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، والمراد من هذا الاستفهام عمّن يُحيي ويميت.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٤٩١)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١١/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) «روح المعاني» (١١/ ١٢٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣).

ثُمّ انتقل إلى حُجّةٍ رابعة، فقال: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: يُقدّره ويقضيه، وهذا مِنْ عطف[1] العام على الخاص؛ لأنّه قد عمّ ما تقدّم وغيره ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات: إنّ الفاعل لهذه الأمور هو: الله سبحانَه، إنْ أنصفوا، وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم، وارتفاع الاسم الشريف على أنّه خبر مبتدأ[2] محذوف أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: الله يفعل ذلك، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ والاستفهام[3] للإنكار، والفاء للعطف على مُقدّر؛ أي: تعلمون ذلك، أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم مِنْ تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: فذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنّه الحق، لا ما جعلتموهم شركاء له.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ للتقريع والتوبيخ[4]، إن كانت «ما» استفهامية، لا إنْ كانت نافية كما يحتمله الكلام، والمعنى: أيّ شيء بعد الحق إلّا الضلال، فإنْ ثبوت ربوبية الربّ سبحانه حق بإقرارهم، فكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أنْ يكون واحداً في ذاته وصفاته ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: كيف تستجيزون العدول عَنْ الحق الظاهر، وتقعون في الضلال إذْ لا واسطَة بينهما؟ فمَنْ تخطى أحدهما وقع في الآخر، والاستفهام للإنكار[5] والاستبعاد والتعجب ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلالُ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق؛ كذلك حقت كلمةُ ربك؛ أي: حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا؛ أي: خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمرّدوا في كفرهم عناداً ومكابرة.

وجملة ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل مِنْ الكلمة[6].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٣)، و«روح المعاني» (١١/ ١٢٠).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٥)، و«روح المعاني» (١١/ ١٢٣).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥٣)، و«روح المعاني» (١١/ ١٢٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٦).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. (٥) «روح المعاني» (١١/ ١٢٤).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ١٢٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٤).

قاله الزجّاج[١]؛ أي: حقتْ عليهم هذه الكلمة، وهي عدم إيمانهم، ويجوز أن تكونَ الجملة تعليليةً لما قبلها بتقدير اللام؛ أي: لأنّهم لا يؤمنون.

وقال الفرّاء[٢]: إنّه يجوز إِنّهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف.

وقد قرأ نافع، وابنُ عامر: «كلماتُ ربِّك» بالجمع[٣].

وقرأ الباقون[٤] بالإفراد.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أورد سبحانه في هذا حجة خامسة على المشركين، أمر نبيه ﷺ أَنْ يقولها لهم، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنّه لما كان أمراً ظاهراً بيِّناً، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند مَنْ أنصفَ، ولم يُكْابر، كان كالمسلّم عندهم الذي لا جَحد له ولا إنكارَ فيه، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: هو الذي يفعل ذلك لا غيره.

وهذا القول الذي قاله النبي ﷺ، عن أمر الله سبحانه له هو نيابةً عن المشركين في الجواب.

إمّا على طريق التلقين لهم، وتعريفهم كيف يُجيبون، وإرشادهم إلى ما يقولون.

وإمّا لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، ومعرفة ما لديه.

وإمّا لكون المشركين لا ينطقون [٣/١٥] بما هو الصواب في هذا الجواب، فراراً منهم عَنْ أن تلزمهم الحجة، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/١٨).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (١/٤٦٣ ـ ٤٦٤).

(٣) «التيسير» (ص١٢٢)، و«النشر» (٢/٢٦٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٢٦٧). ومع نافع أبو جعفر.

(٤) «البحر المحيط» (٦/٥٤)، و«روح المعاني» (١/١٢٥)، و«التيسير» (ص١٢٢).

ومعنى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيفَ تُؤفكون؛ أي: تُصْرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره.

ثم أمره الله سبحانه أنْ يُورد عليهم حجةً سادسة فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ والاستفهام ها هنا كالاستفهامات السابقة.

والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] وفعل الهداية يَجيء متعدياً باللّام وإلى، وهما بمعنى واحد. روي ذلك عن الزجّاج.

والمعنى: قل لهم يا محمد: هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا: لا، فقل لهم: الله يهدي للحق دونَ غيره، ودليل ذلك ما تقدّم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسل، وإنزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام، والأسماع والأبصار، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ للتقرير[١] وإلزام الحجة.

وقد اختلف القُرّاء في ﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾ فقرأ أهل المدينة إلا نافعاً «يَهْدّي» بفتح[٢] الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا في قراءتهم هذه بين ساكنين.

قال النحاس[٣]: والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به. قال محمد بن يزيد[٤]: لا بدّ لمن رام مثل هذا أن يحرك حركةً خفيفة إلى الكسر، وسيبويه[٥] يسمي هذا اختلاساً.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٣٠).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥ ـ ٥٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٨)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، و«حاشية الجمل» (٢/ ٣٤٨).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٤).

(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٥٤).

(٥) «الكتاب» (٤/ ١١٠).

وقرأ أبو عمرو، وقالون، في رواية بين الفتح[١] والإسكان.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وورش، وابن محيصن، بفتح الياء والهاء[٢] وتشديد الدال.

قال النحاس[٣]: هذه القراءة بيّنة في العربية، والأصل فيها يهتدي، أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء.

وقرأ حفص، ويعقوب، والأعمش مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا[٤] الهاء، قالوا: لأنّ الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين.

وقرأ أبو بكر، عَنْ عاصم ﴿يِهِدّي﴾ بكسر الياء[٥] والهاء وتشديد الدال، وذلك للاتباع.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويحيى بن وثاب ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء[٦] وإسكان الهاء، وتخفيف الدال من هَدِيَ يَهْدِى.

قال النحاس[٧]: وهذه القراءة لها وجهان في العربية، وإن كانت بعيدة:

الأوّل: أن الكسائي[٨] والفراء قالا: إن يَهْدي بمعنى يهتدي.

الثاني: أن أبا العباس[٩] قال: إن التقدير أم مّن لا يهدي غيرَه، ثم تمّ الكلام، وقال بعد ذلك: ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾؛ أي: لكنه يحتاج أن يُهْدى، فهو استثناء منقطع[١٠]، كما تقول: فلان لا يُسمِع غيرَه إلا أن يُسْمَع؛ أي: لكنّه يحتاج أن يسمع.

---

(١) «التيسير» (ص١٢٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٥).

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١١٩ ـ ١٨٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٨).

(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٤).

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ١٨٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥١٨)، و«النشر» (٢/ ٢٨٣).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. وهي ست قراءات متواترة.

(٦) «التيسير» (ص١٢٢)، و«النشر» (٢/ ٢٨٣)، و«جامع البيان» (٢/ ١٨٠).

(٧) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٥٤).

(٨) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٥٤)، وانظر: «التيسير» (ص١٢٢)، و«النشر» (٢/ ٢٨٣).

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٥٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٥٠١).

(١٠) «البحر المحيط» (٦/ ٥٦).

والمعنى على القراءات المتقدمّة: أَفمَنْ يهدي الناسَ إلى الحقِّ، وهو الله سبحانه أَحقُّ أن يُتّبع ويُقْتدى به، أم الأحقُّ بأنْ يُتّبع ويُقْتَدى به مَنْ لا يهتدي بنفِسه إلا أَنْ يَهْدَيه غيرْه، فضلاً عَنْ أن يَهْدِيَ غيَره؟ والاستثناء على هذا، استثناء[1] مفرّغ مِنْ أعمّ الأحوال.

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تعجيب مِنْ حالهم باستفهامين متواليين؛ أي: أيّ شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله، وكلا الاستفهامين[2] للتقريع والتوبيخ، وكيفَ في محلِّ نصب بـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾، ثم بيّن سبحانه ما هؤلاءِ عليه في أمر دينهم، وعلى أيّ شيء بنوه، وبأيّ شيء اتبعوا هذا الدينَ الباطلَ، وهو الشّرْك فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ وهذا كلام مبتدأ[3] غيرُ داخلٍ في الأوامر السابقة. والمعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله، وجعلهم له أنداداً إلّا مجرّد الظن، والتخمين والحَدْس، ولم يكن ذلك عَنْ بصيرة؛ بل ظنّ مَنْ ظن مِنْ سلفهم أنّ هذه المعبودات تقرّبهم إلى الله، وأنّها تشفع لهم، ولم يكن ظنه هذا لمستند قط؛ بل مجرد خيال مختل، وحَدْس باطل، ولعلّ تنكير الظن هنا للتحقير؛ أي: إلا ظنّاً ضعيفاً لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون.

وقيل: المراد بالآية: إنّه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظنّاً. والأوّل: أولى.

ثم أخبرنا الله سبحانه: بأنّ مجرد الظن لا يغني من الحق شيئاً؛ لأن أمر الدين إنما يبني على العلم، وبه يتضح الحق مِنْ الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يُدرك به الحق، ولا يغني عَنْ الحق في شيء مِنْ الأشياء، ويجوز انتصاب شيئاً على المصدرية، أو على أنه مفعول به، ومِنْ الحق حال منه، والجملة[4] مستأنفة لبيان

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٣٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٤٩٨).

(٢) «روح المعاني» (٣/ ٤٩٨)، و«تفسير أبي السعود» (١١/ ١٣٢)، و«حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» محمد الأمين بن عبد الله الأُرمي العلوي الهرري الشافعي (ت١٣٤٨هـ) (١٢/ ٢٣٧).

(٣) «روح المعاني» (٣/ ٤٩٨).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٥٧ ـ ٥٨)، و«حدائق الروح والريحان» (١٢/ ٢٣٧).

شأن الظن وبطلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ مِنْ الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لما فرغ سبحانه مِنْ دلائل التوحيد وحججه، شرع في تثبيت أمر النبوّة؛ أي: وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البيّنة، والبراهين الواضحة، يُفْترى مِنْ الخلق من دون الله؟ وإنما هو من عند الله ﷻ. وكيف يصح أن يكون مفترى، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القومُ الذين هم أفصح العرب لساناً وأدقهم أذهاناً ﴿وَلَٰكِن﴾ كان هذا القرآن ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنْ الكتب المنزلة على الأنبياء. ونفسُ هذا التصديق معجزة مستقلة؛ لأنّ أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ، لم يَطّلع على ذلك ولا تعلّمه، ولا سأل عنه، ولا اتصل بمن له علم بذلك. وانتصابُ «تصديق» على أنَّه خبر لكان[1] المقدَّرة بعد لكن، ويجوز أن يكون انتصابه على العلّية لفعل محذوف؛ أي: لكن أنزله الله تصديقَ الذي بين يديه.

قال الفرّاء[2]: ومعنى [٣/١٦] الآية: وما ينبغي لهذا القرآن أن يُفْترى؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقيل: إن «أَنْ»[3] بمعنى اللام؛ أي: وما كان هذا القرآن ليفترى.

وقيل: بمعنى لا؛ أي: لا يُفْترى، قال الكسائي[4] والفراء[5]: إن التقدير في قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾ ولكن كانَ تصديقَ، ويجوز عندهما الرفع؛ أي: ولكن هو تصديقُ.

وقيل: المعنى: ولكن القرآن تصديق ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب؛ أي: أنها قد بَشّرتْ به قبل نزوله، فجاء مصدّقاً لها.

قيل: المعنى: ولكن تصديق النبيّ الذي بين يدي القرآن، وهو محمد ﷺ؛ لأنّهم شاهدوه قبل أن يسمعوا مِنْه القرآن.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٧)، و«روح المعاني» (٦/ ٥٧).
(٢) في «معاني القرآن» (١/ ٤٦٤).
(٣) «التبيان» (٢/ ٦٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٧).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٥٥).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٥).

قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطف[١] على قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيجيء فيه الرفع والنصب على الوجهين[٢] المذكورين في «تصديق»، والتفصيل: التبيين؛ أي: يبين ما في كتب الله المتقدّمة، والكتاب للجنس.

وقيل: أراد ما بُيِّن في القرآن مِنْ الأحكام، فيكون المراد بالكتاب: القرآن.

قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الضمير عائد إلى القرآن، وهو داخل في حكم الاستدراك خبر ثالث، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب[٣] على الحال من الكتاب، ويجوز أَنْ تكون الجملة استئنافية لا محلّ لها، و﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر رابع[٤]؛ أي: كائن مِنْ ربّ العالمين، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب؛ أو من ضمير القرآن في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: كائناً مِنْ ربّ العالمين، ويجوز أن يكون متعلقاً بتصديق وتفصيل، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معترضة[٥].

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الاستفهام[٦] للإنكار عليهم، مع تقرير ثبوت الحُجّة، و«أَمْ» هي المنقطعة التي بمعنى بَلْ، والهمزة؛ أي: بَلْ أيقولون افتراه واختلقه.

وقال أبو عُبيدة[٧]: أم بمعنى الواو؛ أي: ويقولون افتراه.

وقيل: الميم زائدة، والتقدير؛ أي: يقولون افتراه، والاستفهام[٨] للتقريع والتوبيخ. ثم أمره الله سبحانه أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهُم، ويتبيّن ضعفهُم فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: إنْ كان الأمر كما تزعمون مِنْ أن محمداً افتراه، فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب، وفصاحة الألسن، وبلاغة الكلام ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانة به، مِنْ قبائل العرب، ومِنْ آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله.

وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ«ادعوا»؛ أي: ادعوا مَنْ سوى الله من خلقه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٦٧٥)، و«روح المعاني» (١١/ ١٣٨).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٥).
(٣) «التبيان» (٢/ ٦٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٠)، و«روح المعاني» (١١/ ١٣٨).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٥٨).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ١٣٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٠).
(٧) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٨).
(٨) «المحرر الوجيز» (٩/ ٤٤ ـ ٤٥).

وسبحانَ اللهِ العظيم!! ما أقوى هذه الحجة وأوضحَها، وأظهرَها للعقول، فإنّهم لما نسبوا الافتراء إلى واحدٍ منهم في البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أَنْ تأتوا، وأنتم الجمع الجمّ، بسورة مماثلة لسورة مِنْ سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو مِنْ غيرهم من بني آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد اللَّتيا[1] والّتي، فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي، فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المُنْصف، والتنزّل البالغ، بكلمةٍ ولا نطقوا ببنت شفة؛ بل كاعوا عَنْ الجواب، وتشبثوا بأذيال العناد البارد، والمكابرة المجرّدة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مُبْطل، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدّي البالغ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ فأضربَ عَنْ الكلام الأوّل، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن، قبل أَنْ يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه.

وهكذا صُنْع مَنْ تصلّب في التقليد، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف؛ بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عياناً، وتعلمه وجداناً.

والحاصل: أَنَّ من كذَّب بالحُجة النيّرة، والبرهان الواضح، قبل أَنْ يحيطَ بعلمه، فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب، إلَّا مجرد كونه جاهلاً لما كذّب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوتٍ، ومسجلاً بقصوره عَنْ تعقّل الحجج بأبلغَ تسجيل، وليسَ على الحُجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء:

ما يبلغُ الأعداءُ مِنْ جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسه

قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ معطوف[2] على ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ أي: بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وبما لم يأتهم تأويلُه، أو هذه الجملة في محل نصب على الحال؛ أي: كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به، ولا بلغته عقولهم.

---

(١) اللَّتيَّا والتي: اسمان من أسماء الداهية قيل اللّتيّا: الداهية الصغيرة، والتي: الداهية الكبيرة. «اللسان» (١٥/ ٢٤٠)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٨٠).

(٢) «روح المعاني» (١١/ ١٤٢).

والمعنى: أنّ التكذيب منهم وقعَ قبل الإحاطة[١] بعلمه، وقبل أَنْ يعرفوا ما يؤول إليه مِنْ صدق ما اشتمل عليه مِنْ حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدّمين، والأمم السابقين، ومِنْ حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التي أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم، وتتعقله عقولهم، فإنهم لو تدبّروه كليةَ التدبّر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه مِنْ الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام الله.

وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤول إليه لمن تدبّره من المعاني الرشيقة، واللطائف الأنيقة، وكلمة التوقع أظهر في المعنى الأوّل.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: مثل ذلك التكذيب كذّب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه، فإنّهم كذّبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، وقبلَ أَنْ يأتيهم تأويله.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ الأمم السالفة من سوء العاقبة، بالخسف والمسخ ونحو ذلك مِنْ العقوبات التي حلّت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، واشتملت عليه كتب الله المنزّلة عليهم. [٣/١٧]

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾؛ أي: ومِنْ هؤلاء الذين كذّبوا بالقرآن من يؤمن به في نفسه، ويعلم أنه صدق وحق، ولكنه كذَّبَ به مكابرةً وعناداً.

وقيل: المراد: ومِنْهم مَنْ يؤمن به في المستقبل، وإن كذب به في الحال، والموصول[٢] مبتدأ، وخبره منهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ ولا يصدّقه في نفسه؛ بل كذّب به جهلاً كما مرّ تحقيقه، أو لا يؤمن به في المستقبل؛ بل يبقى على جحوده وإصراره.

وقيل: الضمير في الموضعين للنبيّ ﷺ.

وقد قيل: إنّ هذا التقسيم خاص بأهل مكة.

وقيل: عام في جميع الكفار ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، والمراد بهم: المصرّون المعاندون، أو بكلا الطائفتين، وهم الذين يؤمنون به في أنفسهم، ويكذبون به في الظاهر، والذين يكذبون به جهلاً، أو الذين يؤمنون به في المستقبل، والذين لا يؤمنون به.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«الكشاف» (٣/ ١٣٨)، و«روح المعاني» (١١/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٥)، و«حدائق الرَّوح والريحان» (١٢/ ٢٦٦).

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأنْ يقول لهم: إنْ أصرّوا على تكذيبه، واستمرّوا عليه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ أي: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، فقد أبلغتُ إليكم ما أُمرتُ بإبلاغه، وليس عليّ غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: لا تؤاخذون بعملي، ولا أؤاخذ بعملكم.

وقَدْ قيل: إنَّ هذا منسوخ[1] بآية السيف كما ذهب إليه جماعة مِنْ المفسرين.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[2]، في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يقول: سبقت كلمةُ ربك.

وأخرج أبو الشيخ[3]، عن الضّحاك، قال: صَدَقتْ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[4]، في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ قال: الأوثان.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد[5]، في قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه، فأمره بجهادهم.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ

(١) «جامع البيان» (١٢/ ١٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٤٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥١) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٢) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٤) بسند صحيح.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾... إلخ، بيّن الله سبحانه في هذا أَنَّ في أولئك الكفار مَنْ بلغت حالُه في النفرة والعداوة إلى هذا الحدِّ، وهي أنهم يستمعون إلى النبيّ ﷺ إذا قرأ القرآن، وعلّم الشرائع في الظاهر، ولكنّهم لا يسمعون في الحقيقة؛ لعدم حصول أَثَر السماع، وهو حصولُ القبول والعمل بما يسمعونه، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؛ يعني: أَنّ هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صمّ، والصمم مانعٌ مِنْ سماعهم، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع؟!، وهو: الصَّمَمُ، فكيفَ إذا انضمّ إلى ذلك أنَّهم لا يعقلون! فإن مَنْ كان أصمّ غيرَ عاقلٍ، لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يُقال له.

وجَمَع الضمير في يستمعون[1] حملاً على معنى مَنْ، وأفرده في ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ﴾ حملاً على لفظه.

قيل: والنُّكتة: كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين؛ لأنّ الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر، مِنْ المقابلة، وانتفاء الحائل، وانفصال الشعاع، والنور الموافق لنور البصر.

والتقدير في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ﴾ ومنهم: ناسٌ يستمعون، ومِنْهم بعضٌ ينظر، والهمزتان في ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾ ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي﴾ للإنكار[2]، والفاء في الموضعين للعطف على مقدّر؛ كأنّه قيل: أيستمعون إليك فأنتَ تُسْمعهم؟ أينظرون إليك فأنت تهديهم[3]؟ والكلام في ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ كالكلام في ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾... إلخ؛ لأنّ العمى مانع، فكيفَ يطمع مَنْ صاحبه في النظر.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٦٢ ـ ٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٢).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ١٥٢)، و«حدائق الروح والريحان» (١٢/ ٢٥٢).
(٣) «جامع البيان» (١٢/ ١٨٦).

وقد انضمّ إلى فقد البصر، فقد البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قَدْ يكون له مِنْ الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهماً يقوم مقام النظر، وكذلك الأصمّ العاقل، قد يتحدّس تحدّساً يفيده بعض فائدة، بخلاف مَنْ جُمع له بين عمىٰ البصر والبصيرة، فقد تعذّر عليه الإدراك.

وكذا مَنْ جُمع له بين الصمم وذهاب العقل، فقد انسدّ عليه باب الهدى، وجواب لو في الموضعين[١] محذوف، دلّ عليهما ما قبلهما.

والمقصود مِنْ هذا الكلام: تسلية رسول الله ﷺ، فإنّ الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرضَ عنه، واستراح مِنْ الاشتغال به.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار، لبيان أنّ ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم مِنْ السمع والعقل، والبصر والبصيرة؛ بل لأجل ما صار في طبائعهم مِنْ التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسَهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء؛ بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكملَ إدراكٍ، وركّب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفّر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش تجني.

وقرأ حمزة والكسائي: (ولكنِ النَّاسُ) بتخفيف[٢] النون ورفع الناس.

وقرأ الباقون[٣] بتشديدها ونصب الناس.

قال النَّحاس[٤]: زعم جماعة مِنْ النحويين منهم الفرّاء[٥]، أنّ العرب إذا قالت: «ولكن» بالواو شدّدوا النون، وإذا حذفوا الواو خفّفوها. قيل: والنكتة[٦] في

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٥٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٣).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٦٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٥٠٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٥٦)، و«روح المعاني» (١١/ ١٥٤). وهي قراءة متواترة ومع حمزة خَلَف.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٥٦).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٥).

(٦) ذكره الألوسي في «تفسيره» (١١/ ١٥٦).

وضع الظاهر موضع المضمر زيادة التعيين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر(١)، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف منصوب(٢) بمضمر؛ أي: واذكر يوم نحشرهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾؛ أي: كأنهم لم يلبثوا، والجملة في محلّ نصب(٣) على الحال؛ أي: مُشَبّهين مَنْ لم يلبث ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: شيئاً قليلاً منه، [٣/١٨] والمراد باللبث: هو اللبث في الدنيا.

وقيل: في القبور، استقلوا المدّة الطويلة إمّا لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدّة ما هم فيه مِنْ العذاب، نسوا لذّات الدنيا وكأنها لم تكن، ومثل هذا قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

وجملة: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في محلٍّ نصب(٤) على الحال، أو مستأنفة. والمعنى: يعرفُ بعضُهم بعضاً كأنّهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور، ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول، المُذْهلة للأفهام.

وقيل: إنّ هذا التعارف، هو: تعارف التوبيخ والتقريع(٥)، يقول بعضهم لبعض: أنت أضْلَلْتني، وأغويتَني، لا تعارف شفقة ورأفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

وقولُه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فيُجمع بأنّ المراد بالتعارف؛ هو: تعارف التوبيخ(٦)، وعليه يُحمل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٤).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٦٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١٥٦).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٦٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١٥٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٥).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «روح المعاني» (١١/ ١٥٨)، و«نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور» للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م) (٩/ ١٣١ ـ ١٣٢).
(٦) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٥٠٩).

وقد جُمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأنّ المواقف يوم القيامة مختلفة، فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران، والجملة في محل النصب[١] على الحال، والمراد بلقاء الله: يوم القيامة عند الحساب والجزاء، ونفى عنهم أنْ يكونوا مِنْ جنس المهتدين لجهلهم، وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم.

قولُه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أصلُه: إنْ نرك، وما مزيدة[٢] لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد، والمعنى: إنْ حصلت منّا الإراءة لك بعضَ الذي وعدناهم مِنْ إظهار دينك في حياتك بقتلهم وأسرهم، وجواب الشرط محذوف، والتقدير: فتراه، أو فذاك.

وجملة: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ معطوفة[٣] على ما قبلها.

والمعنى: أو لا نرينّك ذلك في حياتك؛ بل نتوفينّك قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة، فنريك عذابَهم فيها.

وجواب[٤] ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ محذوف أيضاً، والتقدير: أو نتوفينك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة.

وقيل: إنّ جواب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هو قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لدلالته على ما هو المراد مِنْ إراءة النبي ﷺ تعذيبهم في الآخرة.

وقيل: العدول إلى صيغة المستقبل في الموضعين لاستحضار الصورة، والأصل: أريناك أو توفيناك، وفيه نظر، فإن إراءته ﷺ لبعض ما وعد الله المشركين مِنْ العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة.

وحاصل معنى هذه الآية: إن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً[٥].

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٥٩).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٦٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٦٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٥).
(٣) «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٦٦)، و«روح المعاني» (١١/ ١٦٠).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) انظر: «الوسيط» (٢/ ٥٤٩).

وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم، وذلّهم وذهاب عزّهم، وانكسار سَوْرة كِبْرهِم بما أصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن، فللَّه الحمد.

قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ جاء بـ«ثُمّ» الدالة على التبعيد(١)، مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين؛ للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال: ما يترتب عليها مِنْ الجزاء، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم، كما ذكره النيسابوري(٢). ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية في وقت من الأوقات ﴿رَّسُولٌ﴾ يرسله الله إليهم، ويبيّن لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة.

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم، وبلغهم ما أرسله الله به فكذّبوه جميعاً ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بين الأمة ورسولها ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: العدل فنجا الرسول، وهلك المكذبون له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ويجوز أَنْ يراد بالضمير(٣) في ﴿بَيْنَهُم﴾ الأمة على تقدير أنه كذبه بعضُهم، وصدّقه البعضُ الآخر، فيهلك المكذبون، وينجو المصدقون ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، فلا يُعذّبون بغير ذنب، ولا يؤاخذون بغير حُجة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩].

وقولُه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١].

والمراد: المبالغة في إظهار العدل، والنّصفَة بين العباد، ثم ذكر سبحانه شبهة أُخرى مِنْ شبه الكفار، وذلك أن النبيّ ﷺ، كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ والاستفهام منهم للإنكار(٤) والاستبعاد، وللقدح في النبوّة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاباً منهم للنبيّ ﷺ، وللمؤمنين، وجواب

---

(١) «الكشاف» (٣/ ١٤٧)، و«روح المعاني» (١١/ ١٦١).

(٢) في «الوسيط» (٢/ ٥٤٩).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٧)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٦).

(٤) «روح المعاني» (١١/ ١٦٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٧).

الشرط محذوف[١] يدلّ عليه ما قبله، ويحتمل أَنْ يراد بالقائلين هذه المقالة: جميع الأمم الذين لم يُسْلِموا لرسلهم الذين أرسلهم الله إليهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشُبْهة، ويقطع اللَّجاج فقال: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾؛ أي: لا أقدر على جلب نفعٍ لها، ولا دفع ضُرّ عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري؟ وقدّم الضرّ؛ لأن السياق لإظهار العجز عَنْ حضور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه.

والاستثناء[٢] في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ منقطع كما ذكره أئمة التفسير؛ أي: ولكنْ ما شاء الله مِنْ ذلك كان، فكيف أقدر على أن أملك لنفسي ضرّاً أو نفعاً، وفي هذه أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجّيراة المناداة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب مِنْ الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه.

فإنّ هذا مقام ربّ العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين، وجميع المخلوقين، ورزقهم، وأحياهم ويميتهم، فكيف يُطلبُ مِنْ نبيّ من الأنبياء، أو مَلَك مِنْ الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شيء، الخالق الرازق المعطي المانع؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة، [٣/١٩] فإنّ هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل، يأمره الله بأن يقول لعباده: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾، فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممّن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه، فضلاً عن أن يملكه لغيره.

فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى!! ويطلبون منهم مِنْ الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ؟ كيفَ لا يتيقظون لما وقعوا فيه مِنْ الشرك، ولا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إلٰه إلا الله؟ ومدلول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]؟

وأعجب مِنْ هذا: اطلاع أهل العلم على ما يقع مِنْ هؤلاء، ولا ينكرون

---

(١) «روح المعاني» (١١/١٦٢)، و«البحر المحيط» (٦/٦٧).

(٢) «روح المعاني» (١١/١٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٥٠٧).

عليهم، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى؛ بل إلى ما هو أشدّ منها، فإنّ أولئك يعترفون بأن اللهَ سبحانه هو الخالقُ الرازق، المُحيي المميت، الضارّ النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومُقرّبين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرةً على الضرّ والنفع، وينادونهم تارةً على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفاك مِنْ شرّ سماعُه، والله ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر، ولقد توسّل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينُه، وينثلج به صدُره، مِنْ كفر كثير من هذه الأمة المباركة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ثم بيّن سبحانه أن لكل طائفةً حدّاً محدوداً لا يتجاوزونه، فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ فإذا جاء ذلك الوقت، أنجز وعدَه وجازى كلّاً بما يستحقه.

والمعنى: أن لكل أمةً ممّن قُضي بينهم وبين رسولهم، أو بين بعضهم البعض أجلاً معيناً، ووقتاً خاصّاً، يحلّ بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: ذلك الوقت المُعيّن، والضمير[1] راجع إلى كل أمة ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عَنْ ذلك الأجل المعين ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: شيئاً قليلاً مِنْ الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وعليه وجُملة: لا يستقدمون[2] معطوفة على جملة لا يستأخرون، ومثله قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥] والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم في تفسير الآية التي في أوّل الأعراف، فلا نعيده.

وقد أخرج ابن أبي حاتمٍ، وأبو الشيخ، عن الحسن[3]، في قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال: يعرفُ الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يُكلّمه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[4]، في قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية. قال: سوءَ العذاب في حياتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال: يوم القيامة.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٦٣).
(٢) «الجدول في إعراب القرآن وصرفه» (٦/ ١١٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٥) بسند صحيح.

[تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب]:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

[في القرآن موعظة تحيي القلوب، وتشفي صدوركم من الخرافة التي تلمؤها والشك الذي يسيطر عليها]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ هذا منه سبحانه تزييفٌ لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الأوّل؛ أي: أخبروني إنْ أتاكم عذاب الله ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: وقت بياتٍ، والمراد به: الوقت الذي يَبْيتون فيه، ويَنامون ويغفلون، عن التحرّز. والبياتُ بمعنى: التبيّيت، اسمُ مصدرٍ كالسلام بمعنى: التسليم، وهو منتصب على الظرفية[1]، وكذلك نهاراً؛ أي: وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والضمير[2] في «منه» راجع إلى العذاب؛ وقيل: راجع إلى الله، والاستفهام في ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للإنكار[3] المتضمّن للنهي، كما في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] ووجُه الإنكار عليهم في استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب، وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له؟ والجملة المصدّرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء؛ وقيل: إنّ الجواب محذوف.

(١) «الفريد في إعراب القرآن المجيد» (٢/ ٥٦٥).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٦٨)، و«روح المعاني» (١١/ ١٦٨ ـ ١٦٩).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٦٨).

والمعنى: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه؛ وقيل: إنّ الجواب قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ وتكون جملة[(١)]: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اعتراضاً، والمعنى: إنْ أتاكم عذابُه آمنتم به بعد وقوعه حينَ لا ينفعكم الإيمان. والأوّل: أَوْلى. وإنما قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[(٢)]، ولم يقل: يستعجلون منه؛ للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال، وهو الإجرام؛ لأن من حقّ المجرم أن يخاف مِنْ العذاب بسبب إجرامه، فكيف يستعجله؟ كما يقال لمن يستوخم أمراً إذا طلبه: ماذا تجني على نفسك.

وحكى النحاس[(٣)]، عن الزجاج[(٤)]؛ أن الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ إن عاد إلى العذاب كان لك في ﴿مَّاذَا﴾ تقديران:

(أحدهما)[(٥)]: أن تكون (ما) في موضع رفع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبر (ما)، والعائدُ محذوفٌ.

(والتقدير الآخر): أنْ يكون ﴿مَّاذَا﴾ اسماً واحداً في موضع رفع بالابتداء، والخبر ما بعده، وإنْ جعل الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ عائداً إلى الله تعالى، كان ﴿مَّاذَا﴾ شيئاً واحداً في موضع نصب بـ«يستعجل».

والمعنى: أيّ شيء يستعجل منه المجرمون؛ أي: مِنْ الله ﷻ. ودخول الهمزة الاستفهامية[(٦)] في ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ على (ثم) كدخولها على الواو والفاء، وهي لإنكار[(٧)] إيمانهم، حيثُ لا ينفع الإيمان، [٣/٢٠] وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم، وتفظيع ما فعلوه في غير وقته، مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، وجيء بكلمة ثم التي للتراخي؛ دلالةً على الاستبعاد.

---

(١) «الفريد في إعراب القرآن المجيد» (٢/ ٥٦٥)، و«روح المعاني» (١١/ ١٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٦٨).

(٢) «الكشاف» (٣/ ١٤٩)، و«روح المعاني» (١١/ ١٧١).

(٣) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٤٢).

(٥) «التبيان» (٢/ ٦٧٧).

(٦) «روح المعاني» (١١/ ١٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٩).

(٧) «المحرر الوجيز» (٩/ ٥٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧).

وجيء بـ«إذا» مع زيادة[١] (ما) للتأكيد؛ دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم في غير وقته، ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم.

والمعنى: أبعدَ ما وقع عذابُ[٢] الله عليهم، وحلّ بكم سخطُه وانتقامه آمنتم، حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً، ولا يدفع عنكم ضرّاً؛ وقيل: إنّ هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم، وإزراء عليهم. والأول: أَوْلى.

وقيل: إن (ثَمَّ) هاهنا، هي بفتح الثاء، فتكون ظرفية بمعنى هناك. والأوّل: أَوْلى.

قولُه: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قيل: هو استئناف بتقدير القول[٣]، غير داخل تحت القول الذي أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقوله لهم؛ أي: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: بالعذاب تكذيباً منكم واستهزاء؛ لأن استعجالهم[٤] كان على جهة التكذيب والاستهزاء، ويكون المقصود بأمره ﷺ أن يقول لهم هذا القول: التوبيخ لهم، والاستهزاء بهم، والإِزْراء عليهم.

وجملة ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في محلّ نصب على الحال[٥]، وقُرِئ «آلان» بحذف[٦] الهمزة التي بعد اللّام، وإلقاء حركتها على اللام.

قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ معطوف على الفعل المقدّر[٧]، قيل: آلآن، والمراد منه: التقريع والتوبيخ[٨] لهم؛ أي: قيل للذين ظلموا أنفسَهم بالكفر وعدم الإيمان: إنّ هذا الذي تطلبونه ضررٌ محض، عارٍ عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب الدائم الذي لا ينقطع.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٠٩)، و«روح المعاني» (١١/ ١٧٢).
(٢) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٣/ ٥٠٩).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٧٠). (٤) «المحرر الوجيز» (٩/ ٥٤).
(٥) «روح المعاني» (١١/ ١٧٣).
(٦) «النشر» (١/ ٣٥٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٩١)، و«الكشاف» (٣/ ١٤٩). وهي قراءة نافع وابن وردان عن أبي جعفر والباقون دون نقل.
(٧) «روح المعاني» (١١/ ١٧٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥١٠).
(٨) انظر: التعليقة المتقدمة.

والقائل لهم هذه المقالة، والتي قبلها قيل[١]: هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم. ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الحياة من الكفر والمعاصي.

والاستفهام للتقرير[٢]، وكأنَّه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب، وحلول النِّقمة. ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة، والجوابات عن أقوالهم الباطلة: أنهم استفهموا تارةً أخرى عن تحقق العذاب، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؛ أي: يَسْتخبرونك[٣] عَنْ جهة الاستهزاء منهم والإنكار، أحقٌّ ما تعدنا به مِنْ العذاب في العاجل والآجل، وهذا السؤال منهم جهلٌ مَحْض، وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم في هذا التكرير صنيع مَنْ لا يعقل ما يقول، ولا ما يقال له.

وقيل: المراد بهذا الاستخبار منهم هو عَنْ حقيّة القرآن، وارتفاع (حقٌّ) على أنه خَبرٌ مقدّم[٤]، والمبتدأ هو الضمير الذي بعده، وتقديم الخبر للاهتمام، أو هو مبتدأ، والضمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر، والجملةُ في موضع نصب بـ«يستنبئونك».

وقرئ «آلحقُّ هو» على أنّ اللام للجنس[٥]، فكأنّه قيل: أهو الحق لا الباطل.

قوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أمر الله سبحانه رسولَه ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جواباً عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء؛ أي: قل لهم يا محمد غير ملتفتٍ إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾؛ أي: نَعمْ، وربي إنّ ما أعدّكم به مِنْ العذاب لحق ثابت كائن لا محالة. وفي هذا الجواب تأكيد[٦] من وجوه:

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٨).
(٢) «روح المعاني» (١١/١٧٦)، و«البحر المحيط» (٦/٧١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٥١٠).
(٣) «المحرر الوجيز» (٩/٥٤)، و«جامع البيان» (١٢/١٩١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٨).
(٤) «البحر المحيط» (٦/٧١)، و«روح المعاني» (١١/١٧٦).
(٥) «البحر المحيط» (٦/٧١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٥١٠)، و«روح المعاني» (١١/١٧٦ ـ ١٧٧). وهي قراءة شاذة.
(٦) «التبيان» (٢/٦٧٧)، و«البحر المحيط» (٦/٧١).

الأوّل: القسَم مع دخول الحرف الخاص بالقسَم الواقع موقع نعم.

الثاني: دخول إنّ المؤكدة.

الثالث: اللّام في (لحق).

الرابع: اسميةُ الجملة، وذلك يدلّ على أنَّهم قد بلغوا في الإنكار والتمرّد إلى الغاية التي ليست وراءها غاية، ثم توعدهم بأشدّ توعدٍ، ورهبّهم بأعظم ترهيب، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ أي: فائتين العذاب بالهرَب والتحيّل الذي لا ينفع، والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً.

وهذه الجملة إما معطوفة[١] على جملة جواب القسَم، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم مِنْ عذاب الله بوجه من الوجوه؛ ثم زاد في التأكيد، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾؛ أي: ولو أنّ لكل نفس من الأنفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله، وعدم الإيمان به ما في الأرض، مِنْ كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها مِنْ الأموال النفيسة، والذخائر الفائقة لافتدت به؛ أي: جعلته فدية[٢] لها مِنْ العذاب.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران: ٩١] وقد تقدّم قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣] الضمير راجع إلى الكفار، الذين سياق الكلام معهم.

وقيل: راجع إلى الأنفس المدلول عليها بكل نَفْس. ومعنى «أَسَرُّوا»: أخفوا؛ أي: لم يُظهروا الندامة بل أخفوها، لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولَهم، وذهب بتجلدهم، ويمكن أَنَّه بقي فيهم، وهم على تلك الحالة عِرْق ينزعهم إلى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا؛ فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون.

وقيل[٣]: أسرّها الرؤساءُ فيما بينهم دونَ أتباعهم، خوفاً من توبيخهم لهم؛ لكونهم هم الذين أضلوهم، وحالوا بينهم وبين الإسلام؛ [٣/٢١] ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب، وأَمَّا بعد الدخول فيه فهم الذين: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٧١)، و«الفريد» (٢/ ٥٦٧).

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١٩٢).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٩)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧).

﴿شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] وقيل: معنى «أَسَرُّوا»: أظهروا، وقيل: وجدوا ألَمّ الحَسْرة في قلوبهم؛ لأنّ الندامة لا يمكن إظهارها، ومِنْه قول كُثيّر[(١)]:

فأسررتُ الندامةَ يوم نادى ... بردِّ جِمالِ عاضرةَ المُنادي

وذكر المبرِّد[(٢)] في ذلك وجهين:

الأوّل: أنها بدت في وجوههم أسرّة الندامة، وهي الإنكسار، واحدها: سرار، وجمعها: أسارير.

والثاني: ما تقدّم.

وقيل: معنى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: أخلصوها؛ لأن إخفاءها إخلاصها. و﴿لَمَّا﴾ في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ظرف بمعنى[(٣)] حينَ منصوب بأسرّوا، أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين، أو بين الرؤساء والأتباع، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين.

وقيل: معنى القضاء بينهم: إنزال العقوبة عليهم، والقسط: العَدْل، وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في محل نصب[(٤)] على الحال؛ أي: لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حلّ بهم، فإنّه بسبب ما كسبوا.

وجملة: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مسوقة لتقرير[(٥)] كمال قُدرته؛ لأنّ مَنْ ملك ما في السمٰوات والأرض، تصرف به كيفَ يشاء، وغُلِّب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات.

قيل: لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الأرض لو كان لهم ذلك بيَّن أن الأشياء كلّها لله، وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به.

وقيل: لما أقسم على حقية ما جاء به النبي ﷺ، أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البيّن بأنّ ما في العالم على اختلاف أنواعه مُلكه، يتصرّف به كيف يشاء، وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه تنبيه للغافلين، وإيقاظ للذاهلين.

---

(١) انظر: «ديوان كثير عزَّة» (ص١٣٧).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٤٣٨).
(٣) «روح المعاني» (١١/ ١٧٩). (٤) «البحر المحيط» (٦/ ١٧٢).
(٥) «الكشاف» (٣/ ١٥٠)، و«روح المعاني» (١١/ ١٨٠ ـ ١٨١).

ثم أكّد ما سبق بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: كائن لا محالة، وهو[1] عامّ يندرج فيه ما استعجلوه مِنْ العذاب اندراجاً أوّليّاً، وتصدير الجملة بحرف[2] التنبيه، كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما فيه صلاحهم، فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يهب الحياةَ ويسلبها.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الدار الآخرة، فيجازي كلّاً بما يستحقه، ويتفضل على مَنْ يشاء من عباده.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ يعني: القرآن فيه[3] ما يتعظ به مَنْ قرأه وعرف معناه، والوعظ في الأصل: هو التذكير[4] بالعواقب، سواء كان بالترغيب أو الترهيب، والواعظ هو كالطبيب يَنهى المريض عما يضرّه، و(مِنْ) في ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ متعلّقة بالفعل[5]، وهو ﴿جَآءَتۡكُم﴾، فتكون ابتدائية، أو متعلقة بمحذوف، فتكون تبعيضية ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ مِنْ الشكوك[6] التي تعتري بعض المرتابين، لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقَّة، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة.

والهدى[7]: الإرشادُ لمن اتبّع القرآن، وتفكّر فيه، وتدبّر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة.

والرحمة: هي ما يوجد في الكتاب العزيز مِنْ الأمور التي يرحم الله بها عباده، فيطلبها مَنْ أراد ذلك حتى ينالها؛ فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور.

ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم، فقال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه: هو

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ١٨٠)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٩٣).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٧٣)، و«معالم التنزيل» (٤/ ١٣٨).
(٣) انظر: «الوسيط» (٢/ ٥٥٠).
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٠).
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٧٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١٨٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥١٢).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٠). (٧) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة: رحمته لهم.

وروي عَنْ ابن عباس(١) أنه قال: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام.

وروي عَنْ الحسن(٢) والضحّاك(٣)، ومجاهد(٤) وقتادة(٥)؛ أن فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن.

والأَوْلى: حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أوّليّاً.

وأصل الكلام: قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ عليه.

قيل: والفاء في هذا الفعل المحذوف(٦) داخلة في جواب شرط مقدّر؛ كأنه قيل: إنْ فرحوا بشيء فليخصّوا فضل الله ورحمتَه بالفرح.

وتكرير(٧) الباء في برحمته للدلالة على أنّ كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقلّ في الفرح.

والفرح: هو اللّذة(٨) في القلب بسبب إدراك المطلوب، وقد ذمّ الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وجوّزه في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠] وكما في هذه الآية.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٦ ـ ١٩٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٥٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٥٩) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٦) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٧ ـ ١٩٨)، وسعيد بن منصور رقم (١٠٦٥ ـ تفسير)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٦٠٠) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٦) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٦) بسند صحيح.
(٦) «روح المعاني» (١١/١٨٥ ـ ١٨٦)، و«الفريد»، و(٢/٥٦٩)، و«الكشاف» (٣/١٥٠)، و«التبيان» (٢/٦٧٨).
(٧) «التبيان» (٢/٦٧٨)، و«الفريد» (٢/٥٦٩).
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١١).

ويجوز أن تتعلق الباء في ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بقوله: ﴿جَآءَتْكُم﴾، والتقدير: جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك؛ أي: فبمجيئها، فليفرحوا، وقرأ يزيد بن القعقاع ويعقوب: «فلتفرحوا» بالفوقية[(١)]، وقرأ الجمهور[(٢)] بالتحتية.

والضمير[(٣)] في «هو خير» راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة، أو إلى المجيء على الوجه الثاني، أو إلى اسم الإشارة في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾.

والمعنى: أن هذا خير لهم مما يجمعونه مِنْ حطام الدنيا.

وقد قُرِئ بالتاء الفوقية[(٤)] في ﴿يَجْمَعُونَ﴾ مطابقة للقراءة بها في «فلتفرحوا».

وقد تقرّر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قليلة، جاءت هذه القراءة عليها، قرأ الجمهور[(٥)] بالمثناة التحتية في يجمعون، كما قرءوا في ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾. وروي عن ابن عامر[(٦)] أنه قرأ بالفوقية في يجمعون، والتحتية في «فلتفرحوا».

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ، عن أبي الأحوص[(٧)]، قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إن أخي يشتكي بطنَه، فوُصف له الخمر، فقال: سبحان الله! ما جعل الله في رجس شفاء، إنما الشفاء في شيء مِنْ القرآن والعسل، فهما شفاء لما في الصدور، وشفاءً للناس.

وأخرج أبو الشيخ[(٨)]، عن الحسن، قال: «إنَّ الله جعل القرآن شفاء لما في الصدور، ولم يجعله شفاء لأمراضكم».

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٧٧)، و«روح المعاني» (١١/ ١٨٨)، و«جامع البيان» (١٢/ ١٩٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٠)، و«النشر» (٢/ ٣٨٥). هما قراءتان متواترتان، فالقراءة بالفوقية (فلتفرحوا) هي قراءة رويس عن يعقوب فقط والقراءة بالياء التحتية (فليفرحوا) للباقي أما القراءة بالفوقية عن أبي جعفر فهي شاذة.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٧٧)، و«الفريد» (٢/ ٥٧١)، و«روح المعاني» (١١/ ١٨٨).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٧٧ ـ ٧٨)، و«النشر» (٢/ ٣٨٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٩).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) «المحتسب» (١/ ٣٦٣).

(٧) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (٨٩١٠) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٦).

وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه، [٣/٢٢] عن أبي سعيد الخدري(١)، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أشتكي صدري، فقال: اقرأ القرآن، يقول الله: شفاء لما في الصدور». وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان»، عن واثلة بن الأسقع؛ أن رجلاً شكا إلى النبيّ ﷺ وجع حَلْقه، قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء مِنْ كل داء».

وأخرج أبو داود، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أُبيّ(٢) قال: أقرأني رسول الله ﷺ بالتاء؛ يعني: الفوقية، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن أنس(٣)، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال: بفضل الله القرآن، وبرحمته أن جعلكم من أهله».

وأخرج الطبراني في «الأوسط»(٤)، عن البراء، مثله من قوله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الشعب»، عن أبي سعيد الخدري(٥)، مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي، عن ابن عباس(٦)، في الآية قال: بكتاب الله بالإسلام.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه(٧) قال: فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٦٦).
(٢) أخرجه الطيالسي رقم (٥٤٧)، وأبو داود رقم (٣٩٨١)، والحاكم (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١). وهو حديث صحيح. يعني قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾.
(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٦٧).
(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٥٥١٢).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٤، ١٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٨)، وابن أبي شيبة (١٠/٥٠١)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٦٤ ـ تفسير)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٥٩٨) بسند ضعيف؛ لضعف حجاج بن أرطأة، فهو صدوق، كثير الخطأ والتدليس، وعطية وهو ابن سعد العوفي، ضعيف، يدلس تدليس الشيوخ، فهو يحدث عن أبي سعيد موهماً أنَّه الخدري، وهو يعني محمد بن السائب الكلبي.
(٦) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٦٣ ـ تفسير)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٥٩٥) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/١٩٦ ـ ١٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٩)، والبيهقي رقم (٢٥٩٦) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عنه[١] أيضاً قال. بفضل الله: القرآن، وبرحمته: حين جعلهم مِنْ أهله.

وقد روي عَنْ جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[٢]: هو: خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ
أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا
تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ
ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

أشار سبحانه بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾... إلخ إلى طريق أخرى غير ما تقدّم في إثبات النبوّة، وتقرير ذلك ما حاصله: أنّكم تحكمون[٣] بتحليل البعض، وتحريم البعض، فإنْ كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء، مسلمهم وكافرهم، وإنْ كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم، فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده.

ومعنى ﴿أَرَءَيْتُم﴾: أخبروني، و﴿مَّآ﴾ في محل نصب[٤] بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ المتضمن لمعنى: أخبروني.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٥٩٧) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٩٦) بسند ضعيف.

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

(٤) «الفريد» (٢/ ٥٧١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٥)، و«روح المعاني» (١١/ ١٨٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٧٧).

وقيل: إنّ «ما» في محل الرفع[١] بالابتداء وخبرها «آلله أذن لكم». و«قل» في قوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تكرير[٢] للتأكيد والرابط محذوف، ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾.

والمعنى: أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق، فجعلتم منه حراماً وحلالاً، آلله أذن لكم في تحليله وتحريمه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وعلى الوجهين، فمن في مِنْه ﴿حَرَامًا﴾ للتبعيض[٣]، والتقدير: فجعلتم بعضَه حراماً وجعلتم بعضه حلالاً، وذلك كما كانوا يفعلونه في الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في الكتاب العزيز.

ومعنى إنزال الرزق: كون المطر ينزل مِنْ جهة العلوّ، وكذلك يقضي الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره ﷻ، لكل شيء فيه.

وروي عن الزجاج[٤] أن «ما» في موضع نصب بأنزل، وأنزل بمعنى: خَلَق، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وعلى هذا القول والقول الأوّل يكون قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ مستأنفاً.

قيل: ويجوز أن تكون الهمزة[٥] في ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ للإنكار[٦]، وأم منقطعة بمعنى: بَلْ أتفترون على الله، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء.

وفي هذه الآية الشريفة ما يصكّ مسامع المتصدِّرين للإفتاء لعباد الله في

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٧٧)، و«التبيان» (١/ ٥٤٤).
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ١٨٢).
(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٥).
(٥) «التبيان» (١/ ٥٤٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥١٤)، و«روح المعاني» (١١/ ١٩٠).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ١٩٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٧٧).

شريعته، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلِّدين الذين لا يعقلون حجَجَ الله، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي. ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة[١] قد قلدوه في دينهم، وجعلوه شارعاً مستقلّاً. ما عمل به من الكتاب والسُّنَّة، فهو المعمول به عندهم. وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه، فهو: في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلدوه متعبّداً بهذه الشريعة، كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها، كما هو محكوم عليهم بها.

وقد اجتهد رأيه وأدّى ما عليه، وفاز بأجرين[٢] مع الإصابة وأجر مع الخطأ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعةً مستقلة، ودليلاً معمولاً به. وقد أخطئوا في هذا خطأ بيناً. وغلطوا غلطاً فاحشاً. فإنّ الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصّه وحده، ولا قائل مِنْ أهل الإسلام المعتدّ بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقوّم هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل، اللَّهُمَّ كما رزقتنا مِنْ العلم ما نميز به بين الحق والباطل، فارزقنا من الإنصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير.

ثم قال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: أيّ شيء [٣/٢٣] ظنهم في هذا اليوم، وما يصنع بهم فيه، وهذه الجملة[٣] الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي أمر اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقوله لهم؛ بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم مِنْ عذاب الله، و«يوم القيامة» منصوب

---

(١) انظر: «إرشاد الفحول» (ص٨٦٠ ـ ٨٧٠)، و«البحر المحيط» للزركشي (٦/ ٢٧٠ ـ ٢٧٧)، و«المستصفى» للغزالي (١٣٩/٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٥/ ٧١٢)، وأبو داود رقم (٣٥٧٤)، وابن ماجه رقم (٢٣١٤) من حديث عمرو بن العاص أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

(٣) «البحر المحيط» (٧٨/٦)، و«الفريد» (٢/ ٥٧٢)، و«روح المعاني» (١١/ ١٩٠ ـ ١٩١).

بالظنّ، وذكر الكذب[١] بعد الافتراء، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد.

وقرأ عيسى بن عمر «وما ظنَّ» على أنه فعل[٢]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات، وطرفة من الطرفات.

قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ[٣]، و«ما» نافية، والشأن: الأمر بمعنى القصد، وأصله الهمز، وجمعه شؤون. قال الأخفش[٤]: تقول العرب: ما شأنْتُ شَأنَه؛ أي: ما عملتُ عملَه: ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ قال الفرّاء[٥] والزجّاج[٦]: الضمير في مِنْه يعود على الشأن[٧]، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف؛ أي: تِلاوة كائنة مِنْه، إذْ التلاوة للقرآن مِنْ أعظم شؤونه ﷺ.

والمعنى: أنّه يتلو مِنْ أجل الشأن الذي حدّث القرآن، فيعلم كيف حكمه، أو يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن.

وقال ابنُ جرير[٨] الطبري: الضمير عائد في مِنْه إلى الكتاب؛ أي: ما يكون مِنْ كتاب الله مِنْ قُرآن، وأعاده تفخيماً له كقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، والخطاب في ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ لرسول الله[٩] وللأمّة.

---

(١) قال الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ١٩٠ ـ ١٩١): و«التسجيل عليهم بالافتراء، وزيادة الكذب، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك؛ لإظهار كمال قُبح ما افتعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً».

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٧)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٤٣).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٧٨ ـ ٧٩).

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٧/ ١٢١).

(٥) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٧٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٥٩).

(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦).

(٧) «الفريد» (٢/ ٥٧٣).

(٨) في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠٤).

(٩) «روح المعاني» (١١/ ١٩٣ ـ ١٩٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥١٥).

وقيل: الخطاب لكفار قريش ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناء[(١)] مفرّغ من أعمّ الأحوال للمخاطبين؛ أي: شهوداً عليكم بعمله منكم.

والضمير في «فيه» مِنْ قوله: ﴿تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ عائد على العمل، يقال: أفاض فلانٌ في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. وقال الضحاك[(٢)]: الضمير في فيه عائد على القرآن؛ والمعنى: إذ تشيعون في القرآن الكذب.

قولهُ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ الكسائي «يعزِبُ» بكسر الزاي[(٣)]، وقرأ الباقون[(٤)] بالضم وهما لغتان فصيحتان.

ومعنى يعزبُ: يغيب، وقيل: يَبْعدُ. وقال ابن كيسان[(٥)]: يذهب، وهذه المعاني متقاربة.

و«مِنْ» في ﴿مِن مِّثْقَالِ﴾ زائدة للتأكيد[(٦)]؛ أي: وما يغيب عَنْ ربك وزن ذرة؛ أي: نملة حمراء، وعبَّر بالأرض والسماء مع أنّه سبحانه لا يغيب عنه شيء، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما؛ لأنّ الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما مِنْ المخلوقات، وقدّم الأرض على السماء؛ لأنّها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها مِنْ قرب.

والواو في ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ للعطف[(٧)] على لفظ مثقال، وانتصبا لكونهما مُمْتنعين، ويجوز أَنْ يكون العطف على ذرّة.

وقيل: انتصابهما بلا التي لنفي الجنس، والواو للاستئناف، وليس مِنْ متعلقات وما يعزب، وخبر[(٨)] لا ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ والمعنى: ولا أصغرَ مِنْ مثقال الذرّة ولا أكبر منه إلا وهو في كتاب مُبين، فكيفَ يغيب عنه؟

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ١٩٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠٥) من طريق المسيّب بن شريك، به.

(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٠)، و«جامع البيان» (١٢/ ٢٠٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٧٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨٥).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٥).

(٦) «روح المعاني» (١١/ ١٩٥).

(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٧٩ ـ ٨٠)، و«الفريد» (٢/ ٥٧٣).

(٨) «روح المعاني» (١١/ ١٩٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦).

وقرأ يعقوبُ وحمزة[١] برفع أصغرُ وأكبرُ، ووجه ذلك: أَنّه معطوف[٢] على محل مِنْ مثقال، ومحلُّه الرفعُ.

وقد أُورِد على توجيه النّصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله، أو على لفظ ذرّة إشكال[٣]، وهو أنّه يصير تقدير الآية: لا يعزبُ عَنْه شيء في الأرض، ولا في السماء إلّا في كتاب، ويلزم منه أَنْ يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عَنْ علم الله وهو محال.

وقد أجيب[٤] عن هذا الإشكال بأن الأشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداءً مِنْ غير واسطة؛ كخلق الملائكة والسمٰوات والأرض.

وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأوّل مِنْ حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أَنّ هذا القسم الثاني متباعد في سلسلة العلّية عن مرتبة الأوّل، فالمراد من الآية: أنّه لا يبعد عَنْ مرتبة وجوده ـ سبحانه ـ شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرضُ: الردّ على من يزعم أنّه غير عالم بالجزئيات.

وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع[٥]؛ أي: لكن هو في كتاب مبين. وذكر أبو علي[٦] الجُرجاني؛ أَنْ إِلّا بمعنى الواو، على أن الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ ثم وقع الابتداء بقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾؛ أي: وهو أيضاً في كتاب مبين. والعرب قد تضع إِلّا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١١]؛ يعني: ومَنْ ظلم. وقولُه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ أي: والذين ظلموا، وقدّر (هو) بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها، كما في قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي: هي حطة، ومثله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النساء: ١٧١] ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٨٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٠)، و«إعراب القراءات السبع وعللها» (١/ ٢٧٠).
(٢) «الفريد» (٢/ ٥٧٣)، و«التبيان» (٢/ ٦٧٩).
(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٥٢).
(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٤).
(٥) «التبيان» (٢/ ٦٧٩)، و«روح المعاني» (١١/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، و«الفريد» (٢/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤).
(٦) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٨٠).

ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الزجّاج(١): إنّ الرفَع على الابتداء في قراءة مَنْ قرأ بالرفع(٢)، وخبره: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ واختاره صاحب «الكشّاف»(٣)، واختار في قراءة النصب(٤) التي قرأ بها الجمهور أنهما منصوبان بلا التي لنفي الجنس، واستشكل العطف بنحو ما قدّمنا.

ثم لما بيَّن سبحانه إحاطته بجميع الأشياء، وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الوليّ في اللغة(٥): القريب. والمراد بأولياء الله: خُلّص المؤمنين كأنَّهم قربوا مِنْ الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته.

وقد فسّر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: يؤمنون بما يجب الإيمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه مِنْ معاصي الله سبحانه.

والمراد(٦) بنفي الخوف عنهم: أَنَّهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عَنْ المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة مِنْ أنفسهم، وحسن ظنّ بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب؛ لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيسلِّمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عَنْ الهمّ والكدر، فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة. ومحلُّ الموصول(٧) النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر [٣/٢٤] لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره: لهم البشرى، فيكون غير متصل بما قبله، أو النصب أيضاً على المدح، أو على أنه وصف لأولياء.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/٢٦). (٢) تقدم ذكره.
(٣) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/١٥٢ ـ ١٥٣).
(٤) تقدم ذكره.
(٥) «الصحاح» (٦/٢٥٢٨)، و«تهذيب اللغة» (١٥/٤٤٧)، وانظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٨٥ ـ ٨٨٦).
(٦) «روح المعاني» (١١/٢٠٠ ـ ٢٠١)، و«جامع البيان» (١٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩).
(٧) «التبيان» (٢/٦٧٩)، و«الفريد» (٢/٥٧٤ ـ ٥٧٥)، و«روح المعاني» (١١/٢٠٢)، و«البحر المحيط» (٦/٨٢).

قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله؛ أي: لهم البشرى مِنْ الله ما داموا في الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه، ويُنْزله في كتبه، مِنْ كون حال المؤمنين عنده هو إدخالُهم الجنّة ورضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة، وما يتفضل الله به عليهم من إجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة.

وأما البشرى في الآخرة: فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب. والبشرى مصدر(١) أريد به المُبشَّر به، والظرفان في محل نصب على الحال؛ أي: حال كونهم في الدنيا، وحال كونهم في الآخرة.

ومعنى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله على العموم، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أوّليّاً.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور(٢) قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يُقَادَر قَدْرُه، ولا يماثله غيره، والجملتان(٣): أعني ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ اعتراض في آخر الكلام عند من يجوّزه، وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، أو **الأولى**: اعتراضية، **والثانية**: تذييلية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥١٩)، و«الفريد» (٢/ ٥٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٢).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) قال الطيبي في «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب» وهو حاشية الطيبي على «الكشاف» (٧/ ٥٢٤): «أمّا الأولى فهو قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ﴾ إذ معناه: لا إخلاف لمواعيده، فيكون مؤكِّداً لمعنى الوعد في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، وأمّا الثانية فهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٧] إذ معناه: أنَّ البشارةَ في الدارين هو الفوز العظيم، فيكون مؤكِّداً لهذا المعنى، ولو جُعلت الأولى معترضة، والثانية تذييلاً للمعتَرض والمعتَرَض فيه ومؤكدة لها: كان أحسن».

مردويه، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ قال: هم أهل الشرك، كانوا يُحلّون مِنْ الأنعام والحرث ما شاؤوا، ويحرّمون ما شاءوا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عنه[٢]، في قوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ قال: إذ تَفْعلون.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، عن مجاهد[٣]، مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ[٤]، في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قال: لا يَغيب عنه وزنُ ذرّة ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال: هو الكتاب الذي عند الله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٥]، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ قيل: مَنْ هم يا ربّ؟ قال: هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

وأخرج أبو الشيخ[٦]، عن سعيد بن جبير، قال: هم الذين إذا رُؤوا ذكر الله.

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والضياء في «المختارة»، عن ابن عباس[٧]، مرفوعاً وموقوفاً قال: «هم الذين إذا رُؤوا يُذْكر الله لرؤيتهم».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٠) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٣) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٥) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧٠).

(٧) أخرجه ابن المبارك رقم (٢١٨)، والطبراني رقم (١٢٣٢٥)، والضياء رقم (١٠٥، ١٠٦) مرفوعاً.

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٠٩) موقوفاً.

وقال الهيثمي في «الزوائد» (٧/ ٣٦): «رواه الطبراني عن شيخه الفضل ابن أبي روح ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وأورده الألباني في «الصحيحة» (١٦٤٦).

وأخرج عنه ابن المبارك، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه مرفوعاً، مثله[١].

وأخرجه ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير[٢]، مرفوعاً وهو مرسل.

وروي نحوه من طرق أخرى مرفوعاً وموقوفاً.

وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، عن عَمْرو بن الجموح[٣]؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يَحِقّ العبدُ حقّ صريح الإيمان حتى يُحبّ لله ويُبغض لله، فإذا أحبّ لله وأبغض لله فقد استحقّ الولاء مِنْ الله، وإنّ أوليائي من عبادي وأحبّائي مِنْ خلقي الذين يُذْكرون بذكري وأُذْكَر بذكرهم».

وأخرج أحمد[٤] عن عبد الرحمٰن بن غَنْم يبلغ به النبيَّ ﷺ: «خيارُ عبادِ الله الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، وشرارُ عباده المشّاؤون بالنميمة، المُفرّقون بين الأحبة الباغُون البُرآء العنَتَ».

وأخرج الحكيم الترمذي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص[٥]، قال: قال رسول الله ﷺ: «خِياركم مَنْ ذكَّركم الله رؤيتُه، وزاد في علمكم مَنْطقه، ورغَّبكم في الآخرة عملُه».

وأخرج الحكيم الترمذي[٦]، عَنْ ابن عباس، مرفوعاً نحوه.

وأخرج الحاكم[٧] وصحّحه، عن ابن عمر، مرفوعاً: «إن لله عباداً ليسوا

(١) أخرجه ابن المبارك رقم (٢١٨)، والحكيم الترمذي (٢/ ٣٩)، والبزار في «مسنده» رقم (٣٦٢٦ ـ كشف)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٤).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٨): «رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا».

(٢) أخرجه ابن المبارك رقم (٢١٧)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٢٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١٠).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٥٥٤٩)، والحكيم الترمذي (٢/ ٤١).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٩): «فيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف».
وأورده الألباني في «الضعيفة» (٥٦٢١).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٧٩٩٨) بسند ضعيف. وهو حديث حسن بشواهده.

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي (٢/ ٣٩).

(٦) أخرجه الحكيم الترمذي (٢/ ٣٩).

(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١).

بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه، فجثا أعرابي على رُكْبتيه فقال: يا رسولَ الله صفْهم لنا، حَلِّهم لنا؟ قال: قوم مِنْ أفناء الناس مِنْ نزّاع القبائل، تصافوا في الله، وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة مِنْابر مِنْ نور فيُجلسهم، يخافُ الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوفَ عليهم ولا هم يحزنون».

وأخرج أبو داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عَنْ عمر بن الخطاب[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ، فذكر نحوه.

قال ابن كثير[(٢)]: وإسناده جيد.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة[(٣)] مرفوعاً نحوه.

وأخرج أحمد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي مالك الأشعري[(٤)] مرفوعاً نحوه.

وأخرج ابن مردويه[(٥)]، عن أبي هريرة، قال: «سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية فقال: الذين يتحابون في الله».

وأخرج ابن مردويه[(٥)]، عن جابر، مرفوعاً مثله.

وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أَنَّهم المرادون بالآية.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه،

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٣٥٢٧)، وهناد رقم (٤٧٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١١ ـ ٣١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٩٩٨). وهو حديث صحيح.

(٢) في «تفسيره» (٧/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» رقم (٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٩٩٧). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٨٩٤، ٢٢٩٠٦)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» رقم (٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٠٠١) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧٣).

والحكيم في «نوادر الأصول»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شُعب الإيمان»، عَنْ عطاء بن يسار، عن رجل مِنْ أهل مصر قال: سألتُ أبا الدرداء[1] عَنْ معنى قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقال: ما سألني عنها أحدٌ منذ سألتُ رسول الله ﷺ فقال: «ما سألني عنها أحدٌ غيرك منذ أُنزلت عليّ: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلمُ، أو تُرى له، فهي بُشْراه في الحياة الدنيا، وبُشْراه في الآخرة الجنة». وفي إسناده هذا الرجل [٣/٢٥] المجهول.

وأخرج أبو داود الطيالسي، وأحمد، والدارمي، والترمذي، وابن ماجه، والحكيم الترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي، عَنْ عبادة بن الصامت[2] قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له».

وأخرج أحمد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، عن عبد الله بن عَمْرو[3]، عَنْ رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يُبشّر بها المؤمِنْ جزء مِنْ ستة وأربعين جزءاً من النبوّة، فمن رأى ذلك فليُخْبر بها» الحديث.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عَنْ أبي هريرة[4]، عن النبي ﷺ في الآية قال: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو تُرى له، وفي الآخرة الجنّة».

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٦٦، ١٠٦٧ ـ تفسير)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥١)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٧٥٢٠)، والترمذي رقم (٢٢٧٣، ٣١٠٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢١٦، ٢١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٧٥١، ٤٧٥٢). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الطيالسي رقم (٥٨٤)، وأحمد رقم (٢٢٦٨٧، ٢٢٧٤٠)، والدارمي (٢/ ١٢٣)، والترمذي رقم (٢٢٧٥)، وابن ماجه رقم (٣٨٩٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١٥)، والحاكم (٢/ ٣٤٠)، والهيثم بن كليب الشاشي رقم (١١٦٩، ١٢١٦، ١٢١٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٧٥٣). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٧٠٤٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٧٦٤). وهو حديث صحيح لغيره.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢١٨) من طريق يقوي بعضه بعضاً.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ، وابنُ مردويه، وابنُ منده، من طريق أَبي جعفرٍ، عَنْ جابر[١]؛ أَنَّ رسول الله ﷺ فسّر البُشرى في الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة، وفي الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت: إنّ الله قد غفر لك ولمن حَمَلك إلى قبرك.

وأخرج ابن مردويه[٢]، عنه، مرفوعاً مثل حديث جابر.

وأَخرجَ ابنُ مردويه[٢]، عن ابن مسعود، مرفوعاً الشطر الأوّل مِنْ حديث جابر.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، عن ابن عباس[٣]، مثلَه.

وقد وردتْ أحاديثُ صحيحة بأنّ الرؤيا الصالحة مِنْ المبشّرات، وأَنّها جزء من أجزاء النبوّة، ولكنّها لم تُقيد بتفسير هذه الآية.

وقد روي أَنّ المراد بالبشرى في الآية هي قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

أخرج ذلك ابن جرير، وابن المنذر، من طريق عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس[٤].

وأخرج ابن المنذر[٥]، عنه، مِنْ طريق مقسم أنها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

وأخرج ابنُ جرير، والحاكم، والبيهقي، عن نافع[٦]، قال: خطب الحجاج فقال: إنّ ابنَ الزبير بدّل كتاب الله، فقال ابن عمر: لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧٨).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٢) من طريق طلحة القنّاد، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٣) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٦)، والحاكم (٢/ ٣٣٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٥٢٨) من طريق ابن عليّة، به.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦٥ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾.

قولُه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ نهيٌ للنبي ﷺ عَنْ الحُزْن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه، والقدح في دينه. والمقصود: التسلية له والتبشير.

ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله ﷺ مُعللاً لما ذكره من النهي لرسوله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليستْ لأحدٍ من عباده، وإذا كان ذلك كله له، فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة، وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً.

وقرئ «يُحْزِنك»(١) مِنْ أحزنه. وقرئ «أَنَّ العزة» بفتح الهمزة(٢) على معنى: لأن العزّة لله، ولا ينافي ما في هذه الآية من جعل العزّة جميعها لله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] لأن كل عزّة بالله، فهي: كلّها لله. ومنه قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، وإذا كانوا في ملكه يتصرّف فيهم كيف

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٨٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٦٥)، و«التيسير» (ص٩١ ـ ٩٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢١٤). وهي قراءة نافع بضم الياء، وكسر الزاي، وباقي العشرة بفتح الياء وضم الزاي.

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٧)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٤٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٣ ـ ٨٤). وقراءة «أَنَّ العزة» بفتح الهمزة شاذة.

يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله ﷺ بما لا يأذن الله به، وغُلِّب العقلاء على غيرهم؛ لكونهم أشرف.

وفي الآية نعي على عُبّاد البشر(١)، والملائكة والجمادات؛ لأنهم عبدوا المملوك، وتركوا المالك، وذلك مخالف لما يوجبه العقل، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾.

والمعنى: أنّهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله، فليست شركاء له على الحقيقة؛ لأن ذلك محال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] و«ما» في (وما يتبع)(٢) نافية وشركاء مفعول يتبع، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والأصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة: إنما هي أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه.

ويجوز أن يكون المذكور مفعول «يدعون»، وحذف مفعول «يتبع» لدلالة المذكور عليه.

ويجوز أَنْ تكون استفهامية(٣) بمعنى: أيّ شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، ويكون على هذا الوجه شركاء منصوباً بـ«يدعون»، والكلام خارج مخرج التوبيخ(٤) لهم، والإزراء عليهم.

ويجوز أَنْ تكون(٥) (ما) موصولة معطوفة على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: لله من في السمٰوات، ومن في الأرض، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء.

والمعنى: أنّ الله مالكٌ لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السمٰوات ومن في الأرض. ثم زاد سبحانه في تأكيد الردّ عليهم، والدفع لأقوالهم، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظنّاً، والظنّ لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾؛ أي: يقدرون أنهم شركاء تقديراً باطلاً، وكذباً بحتاً، وقد تقدّمت هذه الآية في الأنعام.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٧).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٢١٦)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٢١)، و«روح المعاني» (١١/ ٢١٧).
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٨٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٢١٧).

ثم ذكر سبحانه طرفاً مِنْ آثار قدرته[(١)] مع الامتنان على عباده ببعض نعمه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾؛ أي: جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين:

أحدهما: مظلم وهو الليل؛ لأجل يسكن العباد فيه عَنْ الحركة والتعب، [٣/٢٦] ويريحون أنفسهم عَنْ الكدّ والكسب.

والآخر: مُبْصر، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم، وتوفير معايشهم، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء مُنير، لا يخفى عليه فيه كبير ولا حقير، وجعله سبحانه للنّهار مبصراً مجاز.

والمعنى: أنّه مبصر صاحبه كقولهم: نهاره صائم، والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إلى الجعل المذكور ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عجيبة كثيرة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: يسمعون ما يُتلى عليهم مِنْ الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه هاهنا منها، ومِنْ غيرها مما لم يذكره، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ﴾ هذا نوع آخر[(٢)] من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فردّ ذلك عليهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ﴾ فتنزّه جلَّ وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين، وبيَّن أنه غنيّ عن ذلك، وأن الولد إنما يُطْلب للحاجة. والغنيّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد مَنْ يكون بصدد الانقراض، ليقوم الولد مقامه، والأزليّ القديم لا يفتقر إلى ذلك. وقد تقدّم تفسير الآية في البقرة.

ثم بالغ في الردّ عليهم بما هو كالبرهان، فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾، وإذا كان الكل له، وفي ملكه، فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوّة والأبوّة.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٩/٦٦ ـ ٦٧)، و«روح المعاني» (١١/٢١٨).

(٢) «جامع البيان» (١٢/٢٢٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/٥٢٣).

ثم زيّف دعواهم الباطلة وبيَّن أنّها بلا دليلٍ فقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾؛ أي: ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تقولونه، و«من» في ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ زائدة للتأكيد[١]، والجار[٢] والمجرور في ﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلق إما بسلطان؛ لأنه بمعنى الحُجة والبرهان، أَو متعلّق بما عندكم لما فيه مِنْ معنى الاستقرار.

ثم وبّخهم على هذا القول العاطل عَنْ الدليل الباطل عند العقلاء فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويستفاد مِنْ هذا أن كلِ قول لا دليل عليه، ليس هو مِنْ العلم في شيءٍ؛ بل من الجهل المحض، ثُمّ أمر رسولَه ﷺ أنْ يقول لهم قولاً يدلّ على أن ما قَالوه كذب، وأنّ مَنْ كذب[٣] على الله لا يُفْلح، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أي: كلّ مفتر هذا شأنه، ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أوّليّاً.

وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز.

والمعنى: أنّ هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب.

ثم بيّن سبحانه أن الافتراء وإن فاز صاحبه بشيء مِنْ المطالب العاجلة، فهو متاع قليل في الدنيا، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتري عذاباً مؤبّداً. فيكون متاع خبر مبتدأ[٤] محذوف، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفتري بافترائه ليس بفائدة يعتدّ بها؛ بل هو متاع يسير في الدنيا، يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله.

وقال الأخفش[٥]: إنّ التقدير لهم متاع في الدنيا، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٢٠)، و«الفريد» (٢/ ٥٧٧).
(٢) «التبيان» (٢/ ٦٨٠)، و«الفريد» (٢/ ٥٧٧).
(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٩).
(٤) قال الهمداني في «الفريد» (٢/ ٥٧٧): «وفيه وجهان:
أحدهما: خبر مبتدأ محذوف؛ أي: ذلك متاع في الدنيا؛ أي: افتراؤهم منفعة قليلة في الدنيا.
والثاني: مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: لهم منفعة قليلةٌ يتمتعون بها في الدنيا، أو لهم تمتع فيها فيكون بمعنى المصدر».
«التبيان» (٢/ ٦٨٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٢١).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢١).

وقال الكسائي[(١)]: التقدير ذلك متاع أو هو متاع، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ.

وقد أخرج أبو الشيخ[(٢)]، عَنْ ابن عباس، قال: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ لمّا لم ينتفعوا بما جاءهم مِنْ الله، وأقاموا على كُفْرهم، كَبرُ ذلك على رسول الله ﷺ، فجاءه مِنْ الله فيما يعاتبه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون ويعلمه، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة، في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ قال: مُنْيراً.

وأخرج أبو الشيخ، عَنْ الحسن، في قوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ يقول: ما عندكم سلطان بهذا.

[قصة نوح ﵇ تسلية للرسول ﷺ]:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

لما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشُبَهة المنهارة؛ شرع في ذكر قصص الأنبياء، لما في ذلك من التسلية لرسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار المعاصرين لك، المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة[(٣)].

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: خبرَه، والنبأ: هو الخبرُ الذي له خَطَرٌ وشأن، والمراد: ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به، كما فعله كفار قريش وأمثالهم: ﴿إِذْ قَالَ

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦١).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٧) بسند صحيح.

﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: وقت قال لقومه، والظرف[(١)] منصوب بنبأ أو بدل مِنْه بدل اشتمال، واللّام في[(٢)] ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾ لام التبليغ ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾؛ أي: عُظم وثُقل، والمَقام بفتح الميم: الموضع الذي يُقام فيه، وبالضم: الإقامة[(٣)].

وقد اتفق القرّاء على الفتح[(٤)]، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان؛ أي: لأجله. ومنه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمٰن: ٤٦]؛ أي: خاف ربَّه، ويجوز أن يراد بالمقام: المكث؛ أي: شقّ عليكم مكثي بين أظهركم، ويجوز أن يراد بالمقام: القيام؛ لأنّ الواعظ يقوم حال وعظه.

والمعنى: إنْ كان كُبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم، وكُبر عليكم تذكيري لكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التكوينية والتنزيلية، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ هذه الجملة جواب الشرط[(٥)].

والمعنى: إنّي لا أقابل ذلك منكم إلّا بالتوكل على الله، فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً.

ويجوز أنْ يريد إحداثَ مرتبةٍ مخصوصة عن مراتب التوكل، ويجوز أن يكون جواب الشرط ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾ وجملة[(٦)] ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [٣/٢٧٠] اعتراض؛ كقولك: إن كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي. ومعنى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ اعتزموا عليه، مِنْ أجمع الأمر: إذا نواه وعزَم عليه قاله الفرّاء[(٧)]، وروي عن الفرّاء[(٨)] أنه قال: أجمع الشيء: أعدّه، وقال مؤرّج السدوسي[(٩)]: أجمعَ الأمرَ، أفصحُ مِنْ أَجمعتُ عليه، وأنشد:

يا ليتَ شعري والمُنى لا تَنفعُ ... هل أغدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ[(١٠)]

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٢٢).
(٢) «الفريد» (٢/٥٧٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٢٢).
(٣) «الصحاح» (٥/ ٢٠١٧)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٣٥٦).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٨٠ ـ ٦٨١)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٢٣): أمَّا بضم الميم فهي شاذة، وروتب عن أبي مجلز وأبي رجاء، وأبي الجوزاء.
(٥) «روح المعاني» (١١/ ٢٢٣).
(٦) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٢٦).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣).
(٨) انظر: المصدر المتقدم. وذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٢).
(٩) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٨٧)، والألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٢٢٤).
(١٠) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٤٧٣)، والجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٢) دون نسبة.

وقال أبو الهيثم(١): أجمع أمرَه: جعله جميعاً بعدما كان متفرّقاً، وتفرّقه أن تقول مرّة أفعلُ كذا، ومرّة أفعلُ كذا، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه؛ أي: جعله جميعاً، فهذا هو الأصل في الإجماع، ثم صار بمعنى العزم.

وقد اتفق جمهور(٢) القُرّاء على نصب «شركاءَكم» وقطع الهمزة مِنْ أجمعوا.

وقرأ يعقوب، وعاصم الجَحْدري بهمزة(٣) وصل في «أَجْمَعُوا»، على أنّه من جَمَع يجمع جمعاً.

وقرأ الحسنُ، وابنُ أبي إسحاق، ويعقوب «وشركاؤُكم» بالرفع(٤).

قال النّحاس(٥): وفي نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه: الأوّل: بمعنى: وادعوا شركاءَكم، قاله: الكسائي(٦) والفراء(٧)؛ أي: ادعوهم لنصرتكم، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر. وقال محمد بن يزيد المبرد(٨): هو معطوف على المعنى، كما قال الشاعر(٩):

يا ليت زوجَكِ في الوغى ... مُتقلِّداً سَيفاً ورمحاً

والرمح لا يتقلد به، لكنه محمول كالسيف. وقال الزجاج(١٠): المعنى: مع شركائكم، فالواو على هذا واو مع.

وأمّا على قراءة «اجْمَعوا» بهمزة وصل فالعطف ظاهر؛ أي: اجمعوا أمركم، واجمعوا شركاءكم.

---

(١) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٨٧)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١/ ٣٩٧).

(٢) «النشر» (٢/ ٢٨٦)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣)، و«جامع البيان» (١٢/ ٢٣٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة. قرا رويس في وجه له عن يعقوب (فاجمعوا) بهمزة وصلٍ وفتح الميم، وقرأ الباقون وهو الوجه الثاني لرويس (فأجمعوا) بهمزة قطع وكسر الميم وهما متواترتان وأمّا (شركاءكم) فقرأها يعقوب بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب وهما متواترتان.اهـ. انظر: «تخريج القراءات من فتح القدير» (ص١٦٦).

(٤) «المحتسب» (١/ ٣١٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٥) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٢).

(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٢).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣). (٨) في «الكامل» (١/ ٤٣٢، ٢/ ٨٣٦).

(٩) هو: عبد الله بن الزبعرى. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

(١٠) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨).

وأما توجيه قراءة الرفع، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في «أَجْمَعُوا»، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك أن الكلام قد طال. قال النحاس[١] وغيره: وهذه القراءة بعيدة؛ لأنه لو كان «شُرَكَاءُكُمْ» مرفوعاً لرُسِم في المصحف بالواو، وليس ذلك موجوداً فيه.

قال المهدوي[٢]: ويجوز أنْ يرتفع الشركاء بالابتداء، والخبر محذوف؛ أي: وشركاؤكم ليجمعوا أمرَهم، ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل، لقصد التوبيخ، والتقريع لمن عبدَها.

وروي[٣] عن أُبيٍّ أنَّه قرأ: «وادعوا شركاءَكم» بإظهار الفعل.

قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ الغُمّة: التغطية[٤] مِنْ قولهم، غمّ الهلال: إذا استتر؛ أي: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، قال طَرَفة[٥]:

لَعَمْرُكَ ما أمري عليّ بغُمَّةٍ نهاري ولا ليلي عليّ بسَرْمدِ

هكذا قال الزجاج[٦]. وقال الهيثم[٧]: معناه: لا يكن أمركم عليكم مُبْهماً.

وقيل: إن الغُمّة: ضيق الأمر، كذا روي عَنْ أُبي عبيدة[٨].

والمعنى: لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً؛ بل ادفعوا هذا الضيق والشدّة بما شئتم، وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأوّلين: يكون المراد بالأمر الثاني هو الأمر الأول، وعلى الثالث: يكون المراد به غيره.

قولُه: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: ذلك الأمر الذي تريدونه بي، وأصل اقضوا مِنْ القضاء، وهو الإحْكَام، والمعنى: أحكموا ذلك الأمر. قال الأخفش والكسائي[٩]: هو مثل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]؛ أي: أنهيناه إليه وأبلغناه إياه، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]؛ أي: لا تُمْهِلون؛ بل عجّلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم.

---

(١) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٢).
(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ٦٩).
(٣) «المحتسب» (١/ ٣١٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٨٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٨١). هي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٤) «تهذيب اللغة» (١٦/ ١١٥).
(٥) انظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص٤٠).
(٦) في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨).
(٧) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٨٨).
(٨) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٩).
(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٢).

وقيل: معناه: ثم امضوا إليّ ولا تؤخرون.

قال النّحاس[١]: هذا قولٌ صحيح في اللغة، ومنه قضى الميت: مضى.

وحكى الفراء[٢] عَنْ بعض القراء أنه قرأ ثم «أفضوا» بالفاء[٣] وقطع الهمزة؛ أي: توجهوا.

وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدلّ على وثوقه بنصر ربه، وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه.

ثم بيّن لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار، وتبليغ الشريعة عن الله، ليس هو لطمع دنيويّ، ولا لغَرضٍ خسيس، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: إنْ أعرضتم عَنْ العمل بنصحي لكم، وتذكيري إياكم، فما سألتكم في مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إليّ حتى تتهموني فيما جئت به.

والفاء في ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لترتيب[٤] ما بعدها على ما قبلها.

والفاء[٥] في ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ جزائية ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ما ثوابي في النصح والتذكير إلا عليه سبحانه، فهو يثيبني آمنتم أو توليتم.

قرأ أهل المدينة، «وأبو عمرو»، وابن عامر، وحفص، بتحريك[٦] الياء من ﴿أَجْرِيَ﴾.

وقرأ الباقون[٧] بالسكون ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصةً لله سبحانه، لا يأخذون عليها أجراً ولا يطمعون في عاجل.

قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾؛ أي: استمروا على تكذيبه[٨] وأصرّوا

---

(١) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٢).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٤).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٥٧)، و«المحتسب» (١/ ٣١٥)، و«الفريد» (٢/ ٥٨١). وهي قراءة شاذة.

(٤) «روح المعاني» (١١/ ٢٢٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٢٧).

(٥) انظر: التعليقة المتقدمة.

(٦) «النشر» (٢/ ٢٨٨)، و«التيسير» (ص١٢٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٧٠).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) «جامع البيان» (١٢/ ٢٣٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩٠).

على ذلك، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن، والمراد بمَنْ معه: مَنْ قد أجابه وصار على دينه، والخلائف: جمع خليفة.

والمعنى: أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للمهلكين بالغرق، ويخلفونهم فيها ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ من الكفار المعاندين لنوح، الذين لم يؤمنوا به، أغرقهم الله بالطوفان: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فيه تسلية[1] لرسول الله ﷺ، وتهديد للمشركين، وتهويل عليهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ كهود وصالح، وإبراهيم ولوط، وشعيب ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها الله لقوم كلِّ نبيّ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي: فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر وأصرّوا عليه.

والمعنى: أنّه ما صحَّ ولا استقامَ لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله إليهم رسلَه أنْ يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم.

والمعنى: أنّ كل قوم مِنْ العالَم لم يؤمنوا عند أنْ أرسل الله إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به مِنْ قبل مجيئه إليهم؛ لأنهم كانوا غير مؤمنين؛ بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولاً، وهذا مبنيّ على أن الضمير[2] في ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وفي ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [٣/٢٨] وقيل: ضمير ﴿كَذَّبُوا۟﴾ راجع إلى قوم نوح؛ أي: فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتي هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [الروم: ٩] وقيل: إن الباء[3] في ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ للسببية؛ أي: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم، وفيه نظر.

وقيل: المعنى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: في عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه، وإن آمنوا ظاهراً. قال النحاس[4]: ومن أحسن ما قيل: إنه لقوم بأعيانهم

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٣١).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٩٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٣٤).
(٣) «روح المعاني» (١١/ ٢٣٢)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٢٨).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٣).

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود في الكفر، وقد تقدّم تفسير هذا في غير موضع.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[١]، عن الأعرج، في قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ يقول: فأحكموا أمركم، وادعوا شركاءَكم.

وأخرج[٢] أيضاً عَنْ الحسن في الآية أي: فَلْيُجمعوا أمرَهم معكم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٣]، في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ قال: لا يَكْبر عليكم أمرُكم ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ﴾ ما أنتم قاضون.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ﴾ قال: انهضوا ﴿إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يقول: ولا تؤخِّرون.

[قصة موسى في خمسة مواقف]:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٣١) من طريق عبد الوهاب، به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٩) من طريق خَلَف بن هشام الخفاف، به.
قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٣٢): «والصواب من القول في ذلك قراءةُ من قرأ ﴿فأجمعوا أمرَكم وشرَكاءكم﴾ بفتح الألف من (أَجمعوا) ونُصِبَ الشركاءَ؛ لأنها في المصحف بغير واو، ولإجماع الحجة على القراءة بها، ورفض ما خالفها، ولا يعترض عليها بمن يجوز عليه الخطأ والسَّهو.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٣٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٠) بسند ضعيف. الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ [يونس: ٧٤] والضمير[2] في ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾، راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم، وخصّ موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما، وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون.

والمراد بالملأ: الأشراف، والمراد بالآيات: المعجزات، وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبولها، ولم يتواضعوا لها، ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: كانوا ذوي إجرام عظام، وآثام كبيرة، فبسبب ذلك اجترءوا على ردّها؛ لأنّ الذنوبَ تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق، وإبصار الصواب.

قيل: وهذه الجملة معترضة[3] مقرِّرة لمضمون ما قبلها.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: فلما[4] جاء فرعون وملأه الحقُّ مِنْ عند الله، وهو: المعجزات، لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرةً منهم، فردّ عليهم موسى قائلاً: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٦٨١ ـ ٦٨٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٢٩).
(٢) «التبيان» (٢/ ٦٨٢).
(٣) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٣/ ٥٢٩)، والألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٢٣٦).
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

قيل: في الكلام حذف(١)، والتقدير: أتقولون للحقّ سحر فلا تقولوا ذلك، ثم استأنف إنكاراً آخر مِنْ جهة نفسه فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثاني، والملجئ إلى هذا أنّهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ بل هم قاطعون بأنه سحر؛ لأنّهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فحينئذٍ لا يكون قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ من قولهم.

وقال الأخفش(٢): هو مِنْ قولهم، وفيه نظر لما قدّمنا؛ وقيل: معنى ﴿أَتَقُولُونَ﴾: أتعيبون الحقّ وتطعنون فيه، وكان عليكم أن تذعنوا له، ثم قال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، منكراً لما قالوه.

وقيل: إن مفعول(٣) ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوف، وهو ما دلّ عليه قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ﴾ والتقدير: أتقولون ما تقولون؛ يعني: قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قيل: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، وعلى هذا التقدير والتقدير الأوّل فتكون جملة ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ مستأنفة(٤) من جهة موسى عليه السلام، والاستفهام: للتقريع(٤) والتوبيخ، بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: ماذا قال لهم موسى لما قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟ فقيل: قال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾، على طريقة الاستفهام الإنكاري(٥).

والمعنى: أتقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين، وهو أبعد شيء من السحر. ثم أنكر عليهم، وقرّعهم، ووبّخهم، فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكارٍ بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، وتجهيل(٦) بعد تجهيل.

وجملة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في محل نصب(٧) على الحال؛ أي: أتقولون

---

(١) «الفريد» (٢/ ٥٨٢)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٢).
(٢) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٢).
(٣) «الفريد» (٢/ ٥٨٢)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).
(٤) «الفريد» (٢/ ٥٨٢)، و«روح المعاني» (٦/ ٢٣٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٢).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣١)، و«الفريد» (٢/ ٥٨٢).
(٦) «روح المعاني» (٦/ ٢٣٨)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٢).
(٧) «روح المعاني» (٦/ ٢٣٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩١).

للحق إنَّه سحر، والحال: أنّه لا يفلح الساحرون، فلا يظفرون بمطلوب، ولا يفوزون بخير، ولا ينجون مِنْ مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد أَيّده بالمعجزات والبراهين الواضحة؟.

وجملة: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ مستأنفة[١] جواب سؤال مقدّر كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟

وفي هذا ما يدلّ على أَنّهم انقطعوا عَنْ الدليل، وعجزوا عن إبراز الحُجّة، ولم «يجدوا» ما يجيبون به عما أورده عليهم؛ بل لجؤوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو: الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم مِنْ الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم، وسبب مكابرتهم للحق، وجحودهم للآيات البينة، وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا [٣/٢٩] عليها، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، وكم بقي على الباطل، وهو يعلم أنّه باطل بهذه الذريعة مِنْ طوائف هذا العالَم في سابق الدهر ولاحقه.

فمنهم مَنْ حبسه ذلك عَنْ الخروج من الكفر.

ومنهم مَنْ حبسه عن الخروج إلى السُّنَّة مِنْ البدعة، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت. يقال: لفَتَه[٢] لَفْتاً: إذا صرَفه عَنْ الشيء ولواه عنه، ومنه قول الشاعر[٣]:

تلفَّتُ نحوَ الحيّ حتى رأيتُني وَجِعْتُ مِنْ الإصغاءِ لِيتاً وأخدعا

أي: تريد أَنْ تصرفنا عَنْ الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا، وهو عبادة الأصنام، والمراد بالكبرياء: المُلْك، قال الزجاج[٤]: سمي المُلْك[٥] كبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب مِنْ أمر الدنيا؛ وقيل: سُمّي بذلك؛ لأن المَلِك يتكبّر.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩١).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٤٣)، و«الصحاح» (١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).
(٣) الصمة بن عبد الله القشيري. انظر: «ديوانه» (ص٩٤).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٦٤).
(٥) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٨).

والحاصل: أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين[١]: التمسك بالتقليد للآباء، والحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبي وصدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة؛ لأنّ التدبير للنّاس بالدين يرفع تدبير الملوك «لهم» بالسياسات والعادات.

ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ تصريحاً منهم بالتكذيب، وقطعاً للطمع في إيمانهم.

وقد أفرد الخطاب لموسى في قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾، ثم جمعوا بينه وبين هارون في الخطاب في قولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ووجه[٢] ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عَنْ طريق آبائهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلّغ عن الله ما شرعه لهم.

وجمعوا[٢] بينهما في الضميرين الآخرين؛ لأنّ الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، وقد مرّت القصة في الأعراف.

قولُه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ قال هكذا لما[٣] رأى اليد البيضاء والعصا؛ لأنّه اعتقد أنهما مِنْ السحر، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم، هكذا قرأ حمزة والكسائي، وابن وثّاب، والأعمش «سحّار»[٤].

وقرأ الباقون[٥]: «ساحر» وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف.

والسحّار صيغة مبالغة؛ أي: كثير السحر، كثير العلم بعمله وأنواعه ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ في الكلام[٦] حذف، والتقدير هكذا: وقال فرعون ائتوني بكل سحّار عليم، فأتوا بهم إليه، فلمّا جاء السحرة، فتكون الفاء للعطف[٧] على المقدّر المحذوف.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، و«تفسير الرازي (١٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٩).
(٤) «التيسير» (ص١١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٧١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٦). هما قراءتان متواترتان، ومع حمزة خَلف.
(٥) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة. (٦) «روح المعاني» (١١/ ٢٤٣).
(٧) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩٢ ـ ٩٣).

قولُه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ أي: قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له: إمّا أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقون؛ أي: اطرحوا على الأرض ما معكم مِنْ حبالكم وعِصِيّكم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما ألقوه من ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: الذي جئتم به السحر، على أن (ما)[1] موصولة مبتدأ[2] والخبر السحر.

والمعنى: أنّه سحر، لا أنه آية من آيات الله. وأجاز الفراء نصب السحر بـ﴿جِئْتُم﴾، وتكون[3] (ما) شرطية، والشرط جئتم، والجزاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ على تقدير الفاء؛ أي: فإنّ الله سيبطله.

وقيل: إنّ السحر منتصب على المصدر؛ أي: ما جئتم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام، فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء، واختاره النحاس[4]. وقال: حذف الفاء[5] في المجازاة لا يجيزه كثير مِنْ النحْويين إلا في ضرورة الشعر.

وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر «آلسحر»[6] على أن الهمزة للاستفهام، والتقدير: أهو السحر، فتكون (ما) على هذه القراءة استفهامية.

وقرأ أُبيّ[7] «ما أتيتم به سحر إن الله سيبطله»؛ أي: سيمحقه، فيصير باطلاً بما يظهره على يديّ مِنْ الآيات المعجزة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أوّلياً.

والواو في ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ للعطف[8] على سيبطله؛ أي: يبيّنه ويوضّحه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه، لاشتمالها على الحجج والبراهين ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مِنْ آل فرعون، أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أوّلياً، والإجرام: الآثام.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «التبيان» (٢/ ٦١٢ ـ ٦١٣)، و«الفريد» (٢/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٤٣).

(٣) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.

(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٤). (٥) «روح المعاني» (١١/ ٢٤٥).

(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٩٤ ـ ٩٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢١)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٣٨ ـ ٣٩٠)، و«جامع البيان» (١٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٠). وقرأ الباقون (السحر) بألف ولام دون همزة استفهام وهما قراءتان متواترتان.

(٧) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءة شاذة. (٨) «روح المعاني» (١١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ الضمير يرجع[١] إلى موسى؛ أي: مِنْ قوم موسى، وهم طائفة مِنْ ذراري بني إسرائيل.

وقيل: المراد طائفة مِنْ ذراري فرعون، فيكون الضمير عائداً على فرعون.

قيل: ومنهم مؤمن آل فرعون[٢] وامرأته، وماشطة ابنته، وامرأة خازنه.

وقيل: هم قوم: آباؤهم مِنْ القِبْط وأمهاتهم مِنْ بني إسرائيل، روي هذا عن الفراء[٣].

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الضمير لفرعون، وجُمع لأنَّه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له.

وقيل: إنّ قوم فرعون سُمّوا بفرعون مثل ثمود، فرجع[٤] الضمير إليهم بهذا الاعتبار.

وقيل: إنّه عائد على مضاف محذوف، والتقدير: على خوف من آل فرعون، وروي هذا عَنْ الفرّاء[٥].

ومنع ذلك الخليل[٦]، وسيبويه، فلا يجوز عندهما قامت هند وأنت تريد غلامها.

وروي عَنْ الأخفش[٧] أن الضمير يعود على الذرية، وقوّاه النحاس[٨].

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛ أي: يصرفَهم عَنْ دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم، وهو بدل[٩] اشتمال. ويجوز[٩] أن يكون في موضع نصب بالمصدر.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: عاتٍ مُتكّبرٍ، متغلب على أرض مصر

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٧٩).
(٢) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٦٤)، و«جامع البيان» (١٢/ ٢٤٦).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٦).
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، و«الفريد» (٢/ ٥٨٦).
(٥) في «معاني القرآن» (١/ ٤٧٧).
(٦) ذكره الهمداني في «الفريد» (٢/ ٥٨٦)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٥).
(٧) ذكره مكي في «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٩٠).
(٨) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٥).
(٩) «البحر المحيط» (٦/ ٩٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٤٩)، و«الفريد» (٢/ ٥٨٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٤).

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين للحد في الكفر، وما يفعله من القتل والصلب، وتنويع العقوبات.

قولُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ قيل: إن هذا من باب التكرير[١] للشرط، فشرط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام؛ أي: الاستسلام لقضائه وقدره.

وقيل: إن هذا ليس[٢] من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، والمشروط بالإسلام وجوده.

والمعنى: أن يسلموا أنفسهم لله؛ أي: يجعلوها له سالمةً خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكونِ مع التخليط.

قال في «الكشّاف»[٣]: ونظيره في الكلام: إنْ ضربَك زيدً فاضربْه، إن كانت لك به قوّة [٣/٣٠].

﴿فَقَالُوا۟﴾؛ أي: قوم موسى مجيبين له ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ثم دعوا الله مخلصين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾؛ أي: موضع فتنة ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمعنى[٤]: لا تسلّطهم علينا، فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، ولا تجعلنا فتنة لهم، يفتنون بنا غيرَنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سُلِّطنا عليهم وعذبناهم، وعلى المعنى الأوّل: تكون الفتنة بمعنى المفتون.

ولما قدّموا التضرّع إلى الله سبحانه في أَنْ يصون دينهم عن الفساد، أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم، فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي هذا دليل على أنَّه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

قولُه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ «أن»[٥] هي المفسّرة لأن في الإيحاء معنى القول أَنْ تبوّآ؛ أي: اتخذوا لقومكما بمصر بيوتاً؛ يقال: بوّأتُ زيداً مكاناً، وبوّأت لزيدٍ مكاناً، والمبوَّأ: المنزل الملزوم، ومنه بوّأه الله منزلاً؛ أي: ألزَمه إيّاه، وأسكنَه فيه، ومِنْه الحديث: «مَنْ كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٥٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٣).
(٢) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٣/ ٥٣٣).
(٣) (٣/ ١٦٥).
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥٣).
(٥) «التبيان» (٢/ ٦٨٤)، و«الفريد» (٢/ ٥٨٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٥٢).

مقعده مِنْ النار»[١].

ومنه قول الراجز:

نحن بنو عدنان ليس شكُّ تبوّأ المجدُ بنا والملكُ[٢]

قيل: ومصر في هذه الآية هي: الإسكندرية[٣].

وقيل: هي مصر[٤] المعروفة، لا الإسكندرية ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾؛ أي: متوجِّهة إلى جهة القبلة[٥].

قيل: والمراد بالبيوت هنا: المساجد[٦]، وإليه ذهب جماعة من السلف.

وقيل: المراد بالبيوت: التي يسكنون فيها، أمروا بأن يجعلوها[٧] متقابلة.

والمراد بالقبلة على القول الأوّل هي: جهة بيت المقدس[٨]، وهو: قبلة اليهود إلى اليوم.

وقيل: جهة الكعبة[٩]، وأنَّها كانت قِبْلَةَ موسى ومَنْ معه.

وقيل: المراد أنَّهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة، ليصلوا[١٠] فيها سرّاً لئلا يصيبهم من الكفار مَعرّة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾؛

---

(١) وهو حديث متواتر.
أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩)، والبخاري رقم (٣٤٦١)، والترمذي رقم (٢٦٦٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
وأخرجه البخاري رقم (١٢٩١)، ومسلم رقم (٤) من حديث المغيرة.
وأخرجه البخاري رقم (١٠٧) مِنْ حديث الزبير بن العوام.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦) عن مجاهد بسند صحيح.

(٤) قاله الضحاك كما في «النكت والعيون» (٢/ ٤٤٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٨) عن مجاهد بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦) عن مجاهد بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٩) عن قتادة بسند صحيح.

(٨) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٤٣)، و«النكت والعيون» (٢/ ٤٤٧).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٧) عن قتادة بسند صحيح.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) عن ابن عباس بسند ضعيف.

أي: التي أمركم الله بإقامتها، فإنه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة، إما في المساجد[(١)] أو في البيوت، لا جعل البيوت متقابلة، وإنما جَعلَ الخطاب في أوّل الكلام مع موسى وهارون، ثم جَعلَه لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم أفرد[(٢)] موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء، ثم جُعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جُعل خاصاً بموسى؛ لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها.

وقيل: إنّ الخطاب في ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنبيِّنا محمد ﷺ، على طريقة الالتفات والاعتراض، والأوّل أولى.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[(٣)]، في قوله: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ قال: لِتَلْوِينا.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[(٤)]، قال: لِتَصُدّنا عن آلهتنا.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(٥)]، في قوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: العَظَمةُ والمُلْك والسُّلْطان.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[(٦)]، في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ قال: الذُرّية: القليلُ.

وأخرج هؤلاءِ[(٧)]، عَنْه، في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ قال: مِنْ بني إسرائيل.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٢٦٠). (٢) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٣) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٤٠) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٥) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٥) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(١)]، قال: هم أولاد الذين أُرسِل إليهم موسى مِنْ طول الزمان، ومات آباؤهم.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس[(٢)]، قال: كانت الذرية التي آمنت لموسى من أُناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم: امرأةُ فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازِن فرعون، وامرأةُ خازنه.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، ونعيم بن حماد في «الفتن»، وأبو الشيخ، عَنْ مجاهد[(٣)]، في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: لا تُسلّطهم علينا فَيفتِنُونا.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه[(٤)]، قال في تفسير الآية: لا تُعذِّبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب مِنْ عندك، فيقولَ قوم فرعونَ: لو كانوا على الحقِّ ما عُذِّبوا ولا سُلِّطنا عليهم فيُفتنون بِنا.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن أبي قلابة[(٥)]، في الآية قال: سأل ربّه أَنْ لا يُظهَر علينا عدوّنا، فَيَحسبون أَنَّهم أولى بالعدل فَيُفتنون بذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي مِجْلَز[(٦)]، نحوه.

وأخرج أبو الشيخ[(٧)]، عَنْ قتادة، في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ الآية، قال: ذلك حينَ منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدَهم في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة.

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٤٦) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٧٠ ـ تفسير)، ونعيم بن حمّاد في «الفتن» رقم (٣٦٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٢) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٢).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦) بسند صحيح.

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٣).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد(١)، في قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ﴾ قال: مصر: الإسكندرية.

وأخرجَ سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٢)، في الآية قال: كانوا لا يُصلُّون إلا في البِيَع حتى خافوا من آل فرعون، فأُمِروا أَنْ يُصلّوا في بيوتهم.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عَنْ ابن عباس(٣)، في الآية قال: أمُروا أن يتخذوا في بيوتهم مساجد.

وأخرج أبو الشيخ(٤)، عن أبي سنان، قال: القبلة: الكعبة، وذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥)، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: يقابل بعضُها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٧٢ ـ تفسير) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٧).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٧٨٣) عن ابن عباس.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٧) بسند حسن.

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المُعْجزات، وإقامة الحجج البيّنات، ولم يكن لذلك تأثير في مَنْ أرسل إليهم، دعا عليهم بعد أن بيّن سبب إصرارهم على الكفر، وتمسكهم بالجحود والعناد، فقال مبيّناً للسبب أوّلاً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قد تقدّم أنّ الملأ هم الأشراف، والزينة: اسمٌ لكل ما يتزين به، مِنْ ملبوس ومركوب، وحلية وفراش وسلاح، [٣/٣١] وغير ذلك، ثم كرّر النداء[١] للتأكيد فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾.

وقد اختلف في هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال الخليل وسيبويه[٢]: إنّها لام العاقبة[٣] والصيرورة.

والمعنى: أنّه لما كان عاقبة أمرهم الضلال، صار كأنّه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم مِنَ النعم ليضلوا، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت.

وقيل: إنها لام كي[٤]؛ أي: أعطيتهم لكي يضلوا.

وقال قوم: إنّ المعنى: أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا[٥]. فحذفت (لا) كما قال سبحانه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

قال النحاس[٦]: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أَنَّ العرب لا تحذف (لا) إلا مع أن، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

وقيل: اللام للدعاء[٧] عليهم. والمعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، واستدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: ﴿ٱطْمِسْ﴾ ﴿وَٱشْدُدْ﴾.

---

(١) «روح المعاني» (١١/٢٥٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٤).
(٢) ذكره عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٦).
(٣) «الفريد» (٢/ ٥٨٩)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٣).
(٤) «الفريد» (٢/ ٥٨٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).
(٥) قال الهمداني في «الفريد» (٢/ ٥٨٩): «وهذا قوي من جهة المعنى، ضعيف من جهة العربية؛ لأن (لا) لا تحذف إلا مع (أن) خاصة نحو: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]. وانظر: «جامع البيان» (١٢/ ٢٦٢).
(٦) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٦).
(٧) قاله ابن الأنباري، كما في «روح المعاني» (١١/ ٢٥٦).

وقد أطال صاحب «الكشّاف»(١) في تقرير هذا بما لا طائل تحته.

والقول الأوّل هو: الأولى.

وقرأ الكوفيون(٢): «لِيُضلِّوا» بضم حرف المضارعة؛ أي: يوقعوا الإضلال على غيرهم.

وقرأ الباقون بالفتح(٣)؛ أي: يَضلّون في أنفسهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

قال الزجاج(٤): طمسُ الشيء إذهابهُ عَنْ صورته.

والمعنى: الدعاء عليهم بأنْ يمحق الله أموالهم، ويهلكها.

وقُرئ بضم الميم(٥) مِنْ اطمُس ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: اجعلها قاسية مطبوعةً لا تقبل الحق، ولا تنشرح للإيمان.

قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ قال المبرِّد(٦) والزجاج(٧): هو معطوف على ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾، والمعنى: آتيتهم النّعم، ليضلوا ولا يؤمنوا، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضاً.

وقال الفراء(٨)، والكسائي(٩)، وأبو عبيدة(١٠): هو دعاء بلفظ النهي، والتقدير: اللَّهُمَّ فلا يؤمنوا، ومِنْه قول الأعشى(١١):

فلا ينسبطْ من بين عينيك ما انزوى ... ولا تلقَني إلا وأنفُك راغمُ

---

(١) في «الكشاف» (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧).
قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٦٣): «والصواب من القول في ذلك عندي أنَّها لام كي، ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك، عقوبةً منك» وهذا كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].
وانظر: «الانتصاف» (٢/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٥٦).

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٩)، و«النشر» (٢/ ٢٦٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٤٩). والقراءة بضم حرف المضارعة وفتحها متواترتان.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٠ ـ ٣١).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٥٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٠).

(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٦).

(٧) في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣١).

(٨) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٧).

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٦).

(١٠) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٨١).

(١١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص١٢٩).

وقال الأخفش(١): إنَّه جواب الأمر؛ أي: اطمسْ واشددْ، فلا يؤمنوا، فيكون منصوباً. وروي هذا عَنْ الفراء(٢) أيضاً، ومنه:

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحا إلى سليمانَ فنستريحا(٣)

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ أي: لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم.

وقد استشكل(٤) بعضُ أهل العلم ما في هذه الآية مِنْ الدعاء على هؤلاء، وقال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم. وأجيب(٤): بأنّه لا يجوز لنبيّ أَنْ يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه، وإنما يأذن الله بذلك لعلّمه بأنه ليس فيهم مَنْ يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنّه لا يؤمن مِنْ قومه إلّا مَنْ قد آمن، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده.

فقيل: إنّ هارون كان يؤمِّن(٥) على دعاء موسى، فسمي ها هنا داعياً، وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمِّن منزلة الداعي، ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أوّل الكلام لأصالته في الرسالة(٦).

قال النحاس(٧): سمعت عليّ بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما، قول موسى: ﴿رَبَّنَا﴾ ولم يقل رب.

وقرأ عليّ والسلمي «دعاؤكما»(٨) وقرأ ابن السَمْيفع «دعواكما»(٩)

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢٦٦).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (١/٤٧٧ ـ ٤٧٨).
(٣) وهو لأبي النجم العجلي. انظر: «ديوانه» (ص٨٢).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٤١).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢٧١ ـ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٩٨٠) عن أبي العالية بسند صحيح.
(٦) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/٢٦٠).
(٧) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٦٧).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص٥٨)، و«المحتسب» (٢/٣٦٦). وهي قراءة شاذة.
(٩) «البحر المحيط» (٦/١٠١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٤٢). وهي كذلك قراءة شاذة.

والاستقامة: الثباتُ على ما هما عليه مِنْ الدعاء إلى الله.

قال الفراء[١] وغيره: أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه، على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة، ثم أهلكوا.

وقيل: معنى الاستقامة[٢]: ترك الاستعجال ولزوم السكينة، والرضا والتسليم لما يقضي به الله سبحانه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بتشديد النون[٣] للتأكيد، وحرّكت بالكسر لكونه الأصل، ولكونهما أشبهت نون التثنية.

وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون[٤] على النفي لا على النهي.

وقُرئ بتخفيف[٥] الفوقية الثانية من ﴿تَتَّبِعَآنِّ﴾.

والمعنى: النهي لهما عَنْ سلوك طريقة مَنْ لا يعلم بعادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح، تعجيلاً وتأجيلاً.

قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ هو مِنْ جاوز المكان: إذا خلفه وتخطّاه، والباء للتعدية[٦]؛ أي: جعلناهم مجاوزين البحرَ، حتى بلغوا الشط؛ لأن الله سبحانه جعل البحر يَبَساً فمرّوا فيه حتّى خرجوا مِنْه إلى البرّ.

وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: ٥٠]

وقرأ الحسن «وجوّزنا»[٧] وهما لغتان ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقال: تبع وأتبع بمعنى واحد: إذا لحقه.

وقال الأصمعي[٨]: يقال: أَتبعه بقطع الألف: إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الألف: إذا اتّبع أثرَه، أدركه، أو لم يُدْركه. وكذا قال أبو زيد[٨].

---

(١) في «معاني القرآن» (١/ ٤٧٨).
(٢) (١١/ ٣٣).
(٣) «الفريد» (٢/ ٥٩٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٦١ ـ٢٦٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣١).
(٤) «التيسير» (ص١٢٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٨٦).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة ابن ذكوان متواترة، وأما قراءة تخفيف الفوقية الثانية فشاذ.
(٦) «روح المعاني» (١١/ ٢٧٤)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٥)، و«الفريد» (٢/ ٥٩١).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص٥٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٧٤). وهي قراءة شاذة.
(٨) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ٨٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٤).

وقال أبو عمرو: إنّ اتبعه بالوصل: اقتدى به. وانتصاب[١] بغياً وعدواً على الحال، والبغي: الظلم، والعدو: الاعتداء، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة؛ أي: للبغي والعدو.

وقرأ الحسن «وعُدُوّا» بضم العين[٢] والدال وتشديد الواو، مثل عَلا يَعْلو عُلُوّاً.

وقيل: إنّ البغي: طلبُ الاستعلاء[٣] في القول بغير حقٍ، والعدو: في الفعل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾؛ أي: ناله ووصلَه وألجَمه.

وذلك[٤] أنَّ موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة مِنْ فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففَرَق الله البحَر لموسى وبني إسرائيل، فمشوا فيه حتى خرجوا مِنْ الجانب الآخر، وتبعهم فرعون، والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضيّ موسى ومَنْ معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون، وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر، انطبق عليهم فغرقوا [٣/٣٢] كما حكى الله سبحانه ذلك: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: صدّقت أنّه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه، فحذفت الباء، والضمير للشأن[٥].

وقُرئ بكسر[٦] إنّ على الاستئناف، وزعم أبو حاتم[٧] أن القول محذوف؛ أي: آمنت، فقلتُ: إنّه، ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق له، كما تقدّم في النساء، ولم يقل اللعين: آمنت بالله أو بربّ العالمين؛ بل قال: آمنت أنَّه لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل؛ لأنه بقي فيه عِرْق مِنْ دعوى الإلٰهية.

قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: المستسلمين لأمر الله، المنقادين له، الذين

---

(١) «الفريد» (٢/ ٥٩١)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠١ ـ ١٠٢)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٣١٣).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٨)، «البحر المحيط» (٦/ ١٠٢). وهي قراءة شاذة.

(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٦٦).

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٥) «الفريد» (٢/ ٥٩٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٧٦).

(٦) «التيسير» (ص١٢٣)، «النشر» (٢/ ٢٨٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٢). كسر همزة «إنّ» عَن حمزة والكسائي وخَلَف، وفتح الهمزة عَنْ الباقين وكلاهما متواترتان.

(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٧).

يوحّدونه وينفون ما سواه، وهذه الجملة إما في محل نصب[١] على الحال أو معطوفة على آمنت.

قولُه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ هو مقول قول مقدّر معطوف[٢] على قال: آمنتُ؛ أي: فقيل له: أتؤمن الآن؟

وقد اختلف مَنْ القائل لفرعون بهذه المقالة؟

فقيل: هي مِنْ قول[٣] الله سبحانه.

وقيل: مِنْ قول جبريل[٤]، وقيل: مِنْ قول ميكائيل.

وقيل: من قول[٥] فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه.

وجملة ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾: في محل نصب على الحال[٦] من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر، وهو أتؤمن الآن؛ والمعنى: إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، والحال أنّه قد عصى الله من قبل، والمقصود التقريع والتوبيخ له.

وجملة ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: معطوفة[٧] على (عصيتَ) داخلة في الحال؛ أي: كنت مِنْ المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك.

قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قرئ «نُنْجِيك» بالتخفيف[٨]، والجمهور[٨] على التثقيل.

وقرأ اليزيدي[٩]: «نُنَحّيك» بالحاء المهملة مِن التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٥).

(٢) «الفريد» (٢/ ٥٩٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٥).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٧). (٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٦).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٦) «التبيان» (٢/ ٦٨٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٢).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) «النشر» (٢/ ٢٥٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨). قراءة (نُنْجيك) بضم النون وسكون النون الثانية وكسر الجيم مخُفّفة هي قراءة يعقوب وقراءة (نُنَجِّيك) بضم النون وفتح النون الثانية، وكسر الجيم مشدّدة قراءة باقي العشرة وهما متواترتان وأما (نُنحيّك) بالحاء فشاذة. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٦٨).

(٩) «القراءات الشاذة» (ص٥٨)، و«المحتسب» (١/ ٣١٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٣).

ومعنى «ننجيك» بالجيم: نلقيك على نَجْوةٍ[1] من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأناً من ذاك، فألقاه الله على نجوة من الأرض؛ أي: مكان مرتفع[2] من الأرض حتى شاهدوه.

وقيل: المعنى: نُخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر، ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق.

ومعنى «نُنَحِّيك» بالمهملة: نطرحك على ناحية من الأرض، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ «بِنِدَائك»[3].

وقد اختلف المفسرون في معنى ببدنك، فقيل: معناه: بجسدك بعد سلب الروح منه.

وقيل: معناه: بدرعك، والدرع يسمى بدناً.

ومنه قول كعب بن مالك[4]:

ترى الأبدانَ فيها مسبغاتٍ ... على الأبطالِ واليلبِ الحصينا

أراد بالأبدان: الدروع.

وقال عَمْرو بن معدي كرب[5]:

ومضى نساؤهم بكل مضاضة ... جدلاء سابغة وبالأبدان

أي: بدروع سابغة، ودروع قصيرة: وهي التي يقال لها: أبدان، كما قال أبو عُبيدة[6].

وقال الأخفش[7]: وأمّا قول مَنْ قال بدرعك فليس بشيء، ورجّح أن البدن المراد به هنا الجسد.

قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ هذا تعليل[8] لتنجيته ببدنه، وفي ذلك دليل على أنَّه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية: العلامة؛

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٤٤٩).

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٩). (٣) أي: بدعائك.
«القراءات الشاذة» (ص٥٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٣). وهي قراءة شاذة.

(٤) انظر: «ديوان كعب بن مالك» (ص٢١٧).

(٥) انظر: «ديوان عمرو بن معديكرب» (ص١٧٣).

(٦) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٨). (٧) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٤).

(٨) «روح المعاني» (١١/ ٢٨٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٨).

أي: لتكون لمن خلفك من الناس علامةً يعرفون بها هلاكك، وأنك لست كما تدّعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق.

وقيل: المراد ليكون طرحك على الساحل وحدَك دون المغرقين من قومك آية مِنْ آيات الله، يعتبر بها الناس، أو يعتبر بها مَنْ سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك، حتى يحذروا مِنْ التكبر والتجبر والتمرّد على الله سبحانه، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلٰهية، واستمرّ على ذلك دهراً طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة.

وقرئ «لمن خلَفَك» على صيغة[1] الفعل الماضي؛ أي: لمن يأتي بعدك من القرون، أو مَنْ خلفك في الرياسة أو في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكر، وتوقظ من سِنة الغفلة ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ عما توجبه الآيات، وهذه الجملة تذييلية[2].

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[3]، في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يقول: دمِّر على أموالهم وأهلكها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: اطبعْ ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهو الغَرقُ.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القُرظي[4]، قال: سألني عمرُ بن عبد العزيز، عن قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ فأخبرته أَنّ الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون، حتى صارت حجارة، فقال عمر: كما أنتَ حتى آتيك، فدعا بكيس مختوم ففكّه، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنّها الحجارة والدنانير والدراهم، وأشباه ذلك مِنْ الأموال حجارة كلها.

وقد روي أنّ أموالهم تحوّلت حجارة مِنْ طريق جماعة من السلف.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[5]، قال: قد ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، قال: فاستجاب له، وحال بين فرعون وبين الإيمان.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ١٠٤)، و«القراءات الشاذة» (ص٥٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٨٢). وهي قراءة شاذة.

(٢) «روح المعاني» (١١/ ٢٨٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٨، ١٩٨٠) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٩) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٠) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ[(١)]، عَنْ أبي هريرة قال: كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول: آمين. قال أبو هريرة: وهو اسمٌ مِنْ أسماء الله، فذلك قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

وأخرج أبو الشيخ[(١)]، عن ابن عباس، نحوَه.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عَنْ عكرمة[(٢)] نحوه.

وأخرج سعيد بن منصور[(٣)]، عَنْ محمد بن كعب القرظي، نحوه أيضاً.

وأخرج ابن المنذر[(٤)]، عن ابن عباس، قال: يزعمون أَنّ فرعون مكث بعد هذه الدعوة أَربعين سنة.

وأخرج ابن جرير[(٥)]، عن ابن جريج، مثله.

وأخرج الحكيم[(٦)] الترمذيّ، عن مجاهد، نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٧)]، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: فامْضِيا لأمري، وهي الاستقامة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٨)]، عَنْ عكرمة، قال: العدو، والعتوّ، والعلوّ في كتاب الله: [٣/٣٣] التجبّر.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٩)]، عَنْ ابن عبَّاس، قال: لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر أصحاب فرعون، أوحى الله إلى البحر أنْ انطبق عليهم، فخرجت أُصبعُ فرعون بلا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريلُ: فعرفت أن الربَّ رحيم، وخفتُ أن تُدركه الرحمة، فرمسته بجناحي وقلتُ: آلان وقد عصيتَ قبلُ؟ فلما خرج

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، ٢٧٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٧) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٧٥ ـ تفسير) بسند ضعيف.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٢) بسند ضعيف.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٥).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٣) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨١) بسند ضعيف.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤) بسند ضعيف.

موسى وأصحابه قال مَنْ تخلّف مِنْ قوم فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه، ولكنّهم في جزائر البحر يتصيدون، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً، فلفظه عرياناً أصلع أخينس قصيراً فهو قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن قال: إنّ فرعون لم يَغْرق، وكانَ نجّاه عبرةً لم يكن نجّاه عافيةً؛ ثم أوحى الله إلى البحر أَنْ الْفِظْ ما فيك، فلفظهم على الساحل، وكان البحر لا يلفظ غريقاً في بطنه حتى يأكلَه السمكُ، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة.

وأخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس(١)، قال: قال رسول الله ﷺ: «أغرق الله فرعون فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتنَي وأنا آخذ مِنْ حال البحر فأدسّه في فيه مخافةً أَنْ تُدْرِكَه الرحمة».

وقد روى هذا الحديث الترمذي(٢) مِنْ غير وجه، وقال: حسن صحيح غريب، وصحّحه أيضاً الحاكم(٣).

وروي عن ابن عباس(٤)، مرفوعاً مِنْ طرق أخرى.

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، عَنْ أبي هريرة(٥)، عَنْ النبي ﷺ، قال: «قال لي جبريل: ما كان على الأرض شيء أبغض إليّ مِنْ فرعون، فلمّا آمن جعلت أحشو فاه حَمْأَةً وأنا أغطّه خشيةَ أنْ تُدرِكه الرحمة».

وأخرج ابن جرير، والبيهقي، من حديث أبي هريرة(٦) مرفوعاً نحوه.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٨٢٠)، والترمذي رقم (٣١٠٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٢)، والطبراني رقم (١٢٩٣٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٣١٠٨)، والطيالسي رقم (٢٧٤٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٢)، وابن حبان رقم (٦٢١٥)، والحاكم (١/ ٥٧، ٢/ ٣٤٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٣٩١ ـ ٩٣٩٣). وهو حديث صحيح.

(٣) في «المستدرك» (١/ ٥٧، ٢/ ٣٤٠). (٤) تقدم. وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٥٨٢٣).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٣٩٠) بسند ضعيف؛ لضعف كثير بن زاذان.

قال ابنُ كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٩٨): «كثير بن زاذان هذا قال ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو زرعة وأبو حاتم: مجهول، وباقي رجاله ثقات».

وأخرج ابنُ مردويه(١)، عَنْ ابن عمر، مرفوعاً نحوه أيضاً.

وأخرجَ أبو الشيخ(١)، عَنْ أبي أُمامة، مرفوعاً نحوه أيضاً، وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول، وباقي رجاله ثقات.

والعجب كل العجب ممّن لا علم له بفنّ الرواية مِنْ المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث رسول الله ﷺ والحكم ببطلان ما صحّ منها، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت، والقصور الفاضح الذي يضحك منه كلّ مَنْ له أدنى ممارسة لفن الحديث، فيا مسكين مالك ولهذا الشأن الذي لست منه في شيء؟ ألا تستر نفَسك، وتربع على ضلعك، وتعرف بأنّك بهذا العلم مِنْ أجهل الجاهلين، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه، وحاصلُك الذي ليس لك غيره، وهو: علمُ اللّغة وتوابعُه مِنْ العلوم الآلية.

ولقد صار صاحب «الكشّاف»(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ بسبب ما يتعرّض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو مِنْه في ورد، ولا صدرٍ، سخرةً للساخرين، وعبرةً للمعتبرين، فتارةً يروي في كتابه الموضوعات، وهو لا يَدري أنّها موضوعات، وتارة يتعرض لردّ ما صحّ، ويجزم بأنه مِنْ الكذب على رسول الله ﷺ والبهت عليه، وقد يكون في «الصحيحين» وغيرهما، ممّا يلتحق بهما مِنْ رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج، وأدنى نصيب مِنْ عقل يحجر صاحبَه عَنْ التكلّم في علم لا يعلمه، ولا يدري به أقلّ دراية، وإنْ كان ذلك العلم مِنْ علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة مِنْ الناس، ويصطلحون على أمورٍ فيما بينهم، فما بالك بعلم السُّنَّة الذي هو قسيم كتاب الله، وقائله رسولُ الله ﷺ، وراويه عَنْه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وكلُّ حرفٍ مِنْ حروفه، وكلمة مِنْ كلماته يثبت بها شرعٌ عامّ، لجميع أَهل الإسلام.

وأخرَج ابنُ جرير(٣)، عن ابن عبّاس، في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قال: أنجى اللهُ فرعونَ لبني إسرائيل مِنْ البحر فنظروا إليه بعدما غرق.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٧).

(٢) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٦٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٣) بسند ضعيف.

وأخرَج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابنُ أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبو الشيخ، عَنْ مجاهد[١]، في الآية قال: بجسدك، قال: كذب بعضُ بني إسرائيل بموت فرعون، فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل: أحمر قصيراً كأنّه ثور.

وأخرَج ابنُ الأنباري[٢]، عَنْ مُحمد بن كعب، في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قال: بدرعك، وكان درعه مِنْ لؤلؤة يلاقي فيها الحروب.

[مآل بني إسرائيل بعد البغي والفساد والتحدي والعصيان]:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ هذا من جملة ما عدّده الله سبحانه مِنْ النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى ﴿بَوَّأْنَا﴾: أسكنّا، يقال: بوّأت زيداً منزلاً: أسكنته فيه، والمبوّأ اسمُ مكان أو مصدر، وإضافته إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب، فإنهم [٣/٣٤] كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، والمراد به هنا: المنزل المحمود المختار[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٣) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٧).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٤)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٦٧).

قيل: هو أرض مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، وقيل: الشام.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: المستلذّات مِنْ الرزق ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم، وتشعبوا فيه شعباً بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾؛ أي: لم يقع منهم الاختلاف في الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة، وعلمهم بأحكامها، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمد ﷺ.

وقيل: المعنى: أنّهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، وهو القرآن النازل على نبيِّنا ﷺ، فاختلفوا في نعته وصفته، وآمن به مَنْ آمن منهم، وكفر به من كفر.

فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوّل: هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها.

وعلى القول الثاني: هم اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والمحقّ بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الشك في أصل اللغة[(١)]: ضَمُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه شَكّ الجوهر في العقد، والشاك كأنّه يضم إلى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه، فيتردّد ويتحيّر، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، كما ورد في القرآن في غير موضع.

قال أبو عمر[(٢)]، محمد بن عبد الواحد، الزاهد: سمعتُ الإمامين ثعلباً والمبرِّد يقولان: معنى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾؛ أي: قل يا محمد للكافر: فإن كنت في شك ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ يعني: مُسْلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سَلَام وأمثاله، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم، ويقرّون بأنَّهم أعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيّه أن يرشد الشاكين فيما أنزله الله إليه من القرآن أَنْ يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقّاً، وأنّ

---

(١) «الصحاح» (٤/ ١٥٩٤)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٤٢٥)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٦١).

(٢) في «ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن» (ص٢٥٨ ـ ٢٥٩).

هذا رسوله، وأنّ التوراة شاهدة بذلك ناطقة به، وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر.

وقال القتيبي[١]: المراد بهذه الآية: مَنْ كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي ﷺ، ولا بتصديقه؛ بل كان في شك. وقيل: المراد بالخطاب: النبي ﷺ لا غيره.

والمعنى: لو كنتَ[٢] ممّن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألتَ أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك.

وقيل: الشك هو ضِيقُ الصدر؛ أي: إنْ ضاق صدرك بكفر هؤلاء، فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب مِنْ قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم.

وقيل: معنى الآية: الفَرْضُ[٣] والتقدير؛ كأنَّه قال له: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً، فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك عَنْ نبوّتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضياً للكتم عندهم.

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل، ولا تشوبه شبهة.

ثم عقّبه بالنهي للنبي ﷺ عَنْ الامتراء فيما أنزل الله عليه؛ بل يستمر على ما هو عليه مِنْ اليقين وانتفاء الشك. ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره، كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله، فإن الظاهر[٤] فيه التعريض، ولا سيما بعد تعقيبه بقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَسِرِينَ﴾

---

(١) «تأويل مشكل القرآن» للقتبي (ص٥٨، ٢٠٩).
(٢) «النكت والعيون» (٢/ ٥٠).
(٣) «روح المعاني» (١١/ ٢٩٣)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٨).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٣٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٩٥).

وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع مِنْ النهي لهم أنفسهم؛ لأنه إذا كان بحيث يُنْهى عنه مَنْ لا يتصوّر صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قد تقدّم مثله في هذه السورة، والمعنى: أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرّون على الكفر، ويموتون عليه لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، وإنْ وقع منهم ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب، فهو في حكم العدم ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ مِنْ الآيات التكوينية والتنزيلية، فإنّ ذلك لا ينفعهم؛ لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم، وحق منه القول عليهم: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان، وليس بإيمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه.

قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ لولا هذه هي التحضيضية[١] التي بمعنى: هلَّا، كما قال الأخفش[٢] والكسائي وغيرهما، ويدل على ذلك ما في مصحف أُبيّ[٣] وابن مسعود «فهلّا قرية» والمعنى: فهلّا قرية واحدة من هذه القرى التي أهلكناها آمنت إيماناً معتدّاً به، وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه، ولم يؤخره كما أخره فرعون.

والاستثناء[٤] بقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ منقطع، وهو استثناء من القرى؛ لأن المراد: أهلها.

والمعنى: لكن قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا﴾ إيماناً معتدّاً به قبل معاينة العذاب، أو عند أوّل المعاينة قَبْل حلوله بهم.

---

(١) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ١٠٧)، والألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٢٩٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٥٣).

(٢) ذكرهما النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٦٨).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٥٢)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٩٧). وهي قراءة شاذة مخالفة الرسم.

(٤) «روح المعاني» (١١/ ٢٩٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٦)، و«الفريد» (٢/ ٥٩٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٦٨).

﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ وقد قال بأنّ هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة منهم: الكسائي(١)، والأخفش، والفراء(٢)؛ وقيل: يجوز أن يكون متصلاً.

والجملة في معنى النفي؛ كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقُرِئ(٣) بالرفع على البدل.

وقال الزجّاج(٤) في توجيه الرفع: يكون المعنى: غيرُ قوم يونس، ولكن حملت إِلَّا عليها وتعذّر جعل الإعراب عليها، فأعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غيره.

قال ابن جرير(٥): خص قوم يونس مِنْ بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب. وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجّاج(٦): إنه لم [٣/٣٥] يقع العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان، وهذا أولى مِنْ قول ابن جرير.

والمراد بعذاب الخزي الذي كشفه الله عنهم، وهو: العذاب الذي كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه، أو الذي قد رأوا علاماته دون عينه.

﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾؛ أي: بعد كشف العذاب عنهم، متّعهم الله في الدنيا إلى حين معلوم، قدّره لهم.

[القاعدة الكلية في الكفر والإيمان]:

ثم بيَّن سبحانه أنّ الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ﴾ بحيث لا يخرج عنهم أحد ﴿جَمِيعًاۚ﴾ مجتمعين على الإيمان، لا يتفرّقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي

---

(١) ذكره عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (١١/ ٥٤).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٩).
(٣) «الكشاف» (٣/ ١٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٠٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٩٨). وقراءة الرفع شاذة.
(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).
(٥) في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩١).
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٣٤).

أرادها الله سبحانه، وانتصاب جميعاً على الحال كما قال سيبويه[١].

قال الأخفش[٢]: جاء بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ بعد ﴿كُلُّهُمْ﴾ للتأكيد كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١] ولما كان النبيّ ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، أخبره الله بأن ذلك لا يكون؛ لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة، والمصالح الراجحة، لا تقتضي ذلك، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد، ولا داخل تحت قدرتك.

وفي هذا تسلية[٣] له ﷺ، ودفعٌ لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل، الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون إلى الفساد أقرب، ولله الحكمة البالغة. ثم بيَّن سبحانه ما تقدم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما صحّ، وما استقامَ لنفسٍ من الأنفس أن تؤمن بالله إلا بإذنه؛ أي: بتسهيله وتيسيره ومشيئته؛ لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: العذاب، أو الكفر، أو الخذلان الذي هو سبب العذاب.

وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضّل «ونَجْعلُ»[٤] بالنون.

وفي الرُجس[٥] لغتان: ضم الراء وكسرها، والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله، ولا يتفكرون في آياته، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عَنْ قتادة[٦]، في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قال: بوّأهم الله الشامَ وبيتَ المقدس.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ١٥٨).

(٢) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٤).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٤٠ ـ ٥٤١).

(٤) «النشر» (٢/ ٢٨٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦٩). وقرأ الباقون بالياء وهما قراءتان متواترتان.

(٥) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٤٢).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٥)، وابن عساكر (١/ ١٤٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٤) بسند صحيح.

الضحاك[1] قال: منازل صدق؛ مصر والشام.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[2]، في قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ قال: العلم كتابُ الله الذي أنزله، وأمْره الذي أمرهم به. وقد ورد في الحديث أنّ اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، وهو في السنن والمسانيد، والكلام فيه يطول.

وأخرجَ ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في المختارة، عن ابن عباس[3]؛ في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ الآية، قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يَسْأل.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة[4]، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشكُّ ولا أسأل. وهو مُرْسل.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[5]، في قوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال: التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً من أهل الكتاب وآمنوا به، يقول: سلْهم إنْ كنتَ في شك بأنَّك مكتوب عندهم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[6]، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: حقّ عليهم سَخَطُ الله بما عَصَوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١/ ١٥١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٦)، والضياء في «المختارة» رقم (٩١) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٨) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٦) من طريق ابن جريج بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٨) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[١]، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ يقول: فما كانت قريةٌ آمنت.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٢]، في الآية قال: لم يكن هذا في الأمم قبل قومِ يُونس لم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوَم يونس، فاستثنى الله قوم يونس. قال[٣]: وذُكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوَى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهَّم قذف الله في قلوبهم التوبة، فلبسوا المسُوح وأخرجوا المواشي، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجّوا إلى الله أربعين صباحاً، فلما عرف الله الصدَق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضىٰ منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلّى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا مِيلٌ.

وأخرج ابن مردويه[٤]، عَنْ ابن مسعود، عَنْ النبي ﷺ، قال: إنّ يونس دعا قومَه، فلما أبوا أَن يُجيبوه وعدهم العذاب، فقال: إنه يأتيكم يوم كذا وكذا، ثم خرج عنهم، وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلّهم العذاب خرجوا، ففرقوا بين المرأة وولدها، وبين السَخْلة وولدها، وخرجوا يعجّون إلى الله، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم، وصرف عنهم العذابَ، وقعد يونس في الطريق يسأل عَنْ الخبر، فمرّ به رجل فقال: ما فعلَ قوم يونس؟ فحدّثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قومٍ قد كذبتهم، وانطلق مغاضباً: يعني مُراغماً.

وأخرج أحمد في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ سعيد بن جبير[٥]، قال: غَشّى قومَ يونس العذابُ كما يُغشَّى القبرُ بالثوب إذا أُدْخل فيه صاحبُه، ومَطَرتِ السماءُ دماً.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٨) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٢).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٦) عن ابن مسعود بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٣، ٢٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٩) بسند ضعيف.

وأخرج أحمدُ في الزهد، وابن جرير، عن ابن عباس[(١)]، أَنّ العذاب كان هبط على قوم يُونس لم يكن بينهم وبينه إلا قَدْر ثُلثي مِيل، فلما دعوا كشفه الله عَنْهم.

وأخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي الجلد[(٢)]، قال: لما غشّى قومَ يونس العذابُ مشوا إلى شيخ مِنْ بقية علمائهم. فقالوا له: ما تَرى؟ قال: قولوا: يا حيّ حينَ لا حيّ، ويا حيّ مُحييَ الموتى، ويا حيُّ لا إله إلا أنت، فقالوا فكُشِفَ عنهم العذابُ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(٣)]، في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ قال: السَّخَط.

وأخرج أبو الشيخ[(٤)]، عَنْ قتادة، قال: الرجس: الشيطان، والرِجْسُ: العذابُ.

[الكون معرضٌ رائعٌ تتجلى فيه حقيقة الألوهية]:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ [٣/٣٦] كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٤) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٢٩٦)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٩) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٠) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٤).

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لما بيَّن سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية.

والمراد بالنظر: التفكّر والاعتبار؛ أي: قل يا محمد للكفار: تفكروا واعتبروا بما في السمٰوات والأرض مِنْ المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته، وكمال قدرته.

و﴿مَاذَا﴾ مبتدأ[(١)]، وخبره في السمٰوات والأرض. أو المبتدأ «ما».

و«ذا» بمعنى الذي، وفي السمٰوات والأرض صلته، والموصول وصلته خبر المبتدأ؛ أي: أيّ شيء الذي في السمٰوات والأرض، وعلى التقديرين فالجملة في محل نصب[(٢)] بالفعل الذي قبلها. ثم ذكر سبحانه أَنّ التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته، فقال: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: ما تنفع على أن ما نافية، ويجوز أن تكون استفهامية[(٣)]؛ أي: أيّ شيء ينفع، والآيات هي التي عبّر عنها بقوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والنذر: جمع نذير، وهم: الرسل أو جمع إنذار، وهو المصدر ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ في علم الله سبحانه.

والمعنى: أن مَنْ كان هكذا لا يجدى فيه شيء، ولا يدفعه عن الكفر دافع.

قوله: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد ﷺ إلّا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا مِنْ قبل هؤلاء، فقد كان الأنبياء المتقدّمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب، وهم يكذبونهم ويُصمّمون على الكفر، حتى ينزل الله عليهم عذابه، ويحلّ بهم انتقامه، ثم قال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٣٠٥)، و«الفريد» (٢/ ٢٩٦)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١١٠).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١١٠).

المعاصرين لك: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ أي: تربّصوا لوعد ربكم، إني معكم من المتربصين لوعد ربي، وفي هذا تهديد شديد[١]، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك.

وثم في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ للعطف[٢] على مقدّر يدلّ عليه ما قبله؛ كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم. وقرأ يعقوب: ثم «نُنْجِى»[٣] مخففاً.

وقرأ كذلك أيضاً في: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وروي كذلك عن الكسائي وحفص في الثانية.

وقرأ الباقون بالتشديد[٤]، وهما لغتان فصيحتان: أَنْجى يُنْجي إنجاء، ونجَّى يُنَجّى تَنْجية بمعنى واحد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ معطوف[٥] على رسلنا؛ أي: نجيناهم ونجينا الذين آمنوا، والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلاً لأمرها.

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾؛ أي: حقّ ذلك علينا حقّاً، أو إنجاءً مثل ذلك الانجاء حقّاً ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من عذابنا للكفار، والمراد بالمؤمنين: الجنس[٦]، فيدخل في ذلك الرسل وأتباعهم، أو يكون خاصاً بالمؤمنين، وهم أتباع الرسل؛ لأن الرسل داخلون في ذلك بالأولى.

قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين، مخاطباً لجميع الناس، أو للكفار منهم، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله: إنْ كنتم في شك من ديني الذي أنا عليه، وهو

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٤٢).

(٢) «التبيان» (٢/ ٦٨٦ ـ ٦٨٧)، و«الفريد» (٢/ ٥٩٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٠٦).

(٣) «النشر» (٢/ ٢٥٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٥٨ ـ ٥٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١١١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٣).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «الفريد» (٢/ ٥٩١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١١١).

(٦) «روح المعاني» (١١/ ٣٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٤٢).

عبادةُ الله وحده لا شريك له، ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته، وأنه الدين الحق الذي لا دين غيره، فاعلموا أنّي بريء مِنْ أديانكم التي أنتم عليها ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في حال من الأحوال ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾؛ أي: أخصّه بالعبادة، لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها، وخصّ صفة التوفي مِنْ بين الصفات لما في ذلك مِنْ التهديد لهم؛ أي: أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أوّلاً، وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشدّ الأحوال مهابة في القلوب، ولكونه قد تقدّم ذكر الإهلاك، والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة؛ فكأنه قال: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم. ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله، بيَّن أنه مأمور بالإيمان فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: بأن أكون مِنْ جنس مَنْ آمن بالله، وأخلص له الدين.

وجملة: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ معطوفة[(١)] على جملة: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر؛ لأن المقصود من «أَنْ» الدلالة على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية، أو يكون المعطوف عليه في معنى الإنشاء؛ كأنّه قيل: كن مؤمناً ثم أقم.

والمعنى: أن الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين والثبات فيه، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال. وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء، أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة، وعدم التحوّل عنها. و﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين[(٢)]، أو من الوجه؛ أي: مائلاً عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام. ثم أكد الأمر المتقدّم للنهي عن ضدّه، فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهو معطوف[(٣)] على أقم، وهو من باب التعريض لغيره ﷺ.

قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ معطوف[(٤)] على ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) «الفريد» (٢/ ٥٩٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٣١٠).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ١١٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٣١١)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٤٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ١١٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٣١١).

﴿ٱلنَّاسُ﴾ غير داخل تحت الأمر، وقيل: معطوف على «ولا تكونن» أي: لا تدع[١] من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرّك بشيء من النفع والضرّ إن دعوته، ودعاء مَنْ كان هكذا لا يجلب نفعاً، ولا يقدر على ضرّ ضائعٌ لا يفعله عاقل على تقدير أنّه لا يوجد مَنْ يقدر على النفع والضرّ غيره، فكيف إذا كان موجوداً؟

فإن العدول عَنْ دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: فإن دعوت، ولكنه كنى[٢] عن القول بالفعل ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا جزاء الشرط[٣]؛ أي: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم [٣/٣٧]. والمقصود من هذا الخطاب: التعريض بغيره ﷺ.

وجملة: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخرها[٤] مقرّرة لمضمون ما قبلها.

والمعنى: أن الله سبحانه هو الضار النافع، فإن أنزل بعبده ضراً لم يستطع أحد أن يكشفه كائناً من كان؛ بل هو المختص بكشفه كما اختصّ بإنزاله.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾: أي خير كان لم يستطع أحد أن يدفعه عنك، ويحول بينك وبينه كائناً مَنْ كان، وعبّر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم. قال الواحدي[٥]: إن قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ هو مِنْ القلب، وأصله وإنْ يرد بك الخير، ولكن لما تعلّق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان لآخر. قال النيسابوري: وفي تخصيص الإرادة بجانب الخير، والمسّ بجانب الشرّ دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، والشرّ بالعرض.

قلتُ: وفي هذا نظر، فإنَّ المسّ هو أمر وراء الإرادة، فهو مستلزم لها، والضمير في ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ راجع[٦] إلى فضله؛ أي: يُصيب بفضله مَنْ يشاء من عباده.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٠٠ ـ ١٠١).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٣١٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٧٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١١٢).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٤٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٣١٣).
(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٧/ ١٧٥)، وانظر: «الوسيط» (٢/ ٥٦٢).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ٣١٥).

وجملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَذْييلية[١]، ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: القرآن ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: منفعة اهتدائه مختصة به، وضرر كفره مقصور عليه لا يتعدّاه، وليس لله حاجة في شيء من ذلك[٢]، ولا غرض يعود إليه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بحفيظ يحفظ أمورَكم، وتُوكَل إليه، إنما أنا بشير ونذير. ثم أمره الله سبحانه أنْ يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التي يشرعها الله له، ولأمته. ثم أمره بالصبر على أذى الكفار، وما يلاقيه من مشاقّ التبليغ، وما يعانيه مِنْ تلوّن أخلاق المشركين وتعجرفهم، وجعل ذلك الصبر ممتداً إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم، وفي الآخرة بعذابهم بالنار، وهم يشاهدونه ﷺ هو وأمته، المتبعون له المؤمنون به، العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه، يتقلبّون في نعيم الجنّة الذي لا ينفد، ولا يمكن وصفه، ولا يوقف على أدنى مزاياه.

وقد أخرج أبو الشيخ[٣]، عن السديّ في قوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ يقول: عند قوم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ نَسخَتْ قولَه: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٤]، في قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: وقائع الله في الذين خلوا مِنْ قبلهم، قوم نوح، وعاد، وثمود.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن الربيع[٥] في الآية قال: خوّفهم عذابه

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٤٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٣١٥).
(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٦).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩١) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩١) بسند صحيح.

ونقمته وعقوبَته، ثم أخبرهم أَنّه إذا وقع مِنْ ذلك أمر نجّى اللهُ رسلَه والذين آمنوا، فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية.

وأخرجَ أبو الشيخ[1]، عَنْ السديّ، في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: بعافيةٍ.

وأخرجَ البيهقي في «الشُعب»[2]، عَنْ عامر بن قيس، قال: ثلاثُ آياتٍ في كتاب الله اكتفيتُ بهنّ عَنْ جميع الخلائق: **أوّلهنّ**: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، **والثانية**: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: ٢]، **والثالثة**: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وأخرجَ أبو الشيخ[3]، عَنْ الحسن، نحوه.

وأخرج أبو الشيخ[4]، عَنْ مجاهد، في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ قال: هو الحق المذكور في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، في قوله[5]: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ قال: هذا مَنسوخٌ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (١٣٢٦).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٤).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٣) بسند صحيح من طريق ابن وهب، عن ابن زيد.

سُورَةُ هُودٍ

هي مكية[١] في قول الحسن وعكرمة، وعطاء وجابر.

قال ابن عباس وقتادة: إلا آية وهي قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤].

وأخرج النحاس في «ناسخه»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، من طرق عن ابن عباس[٢] قال: نزلت سورة هود بمكة.

وأخرج ابن مردويه[٣]، عن عبد الله بن الزبير، مثلَه.

وأخرج الدارمي، وأبو داود في «مراسيله»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، والبيهقي في «الشُعَب»، عن كعب[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا هود يوم الجمعة».

وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، من طريق مسروق، عن أبي بكر الصديق[٥]، قال: «قلت: يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، فقال: شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت».

وأخرجه البزار، وابن مردويه، من طريق أنس[٦]، عنه، مرفوعاً بلفظ: «قلت: يا رسول الله عجل إليك الشيب، قال: شيبتني هود وأخواتها، والواقعة، والحاقة، وعمّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية».

وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مردويه، عن أنس[٧]، قال: «قال أصحاب

(١) «المحرر الوجيز» (٩/ ١٠١)، و«النكت والعيون» (٢/ ٤٥٥).
(٢) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٣١).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٦).
(٤) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٤)، وأبو داود في «مراسيله» رقم (٥٩١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٢٨).
(٥) أخرجه الطبراني رقم (١٠٠٩١)، وابن عساكر (٤/ ١٧٢، ١٧٣).
(٦) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٩٢) وقال: «زائد منكر الحديث».
(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٠٩ ـ تفسير). وهو حديث ضعيف.

رسول الله ﷺ: لقد عجل إليك الشيبُ، فقال: شيبتني هود وأخواتها من المفصّل».

وأخرج الترمذي وحسّنه، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور»، من طريق عكرمة، عن ابن عباس(١)، قال: «قال أبو بكر: يا رسولَ الله، قد شبتَ. قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت».

وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء(٢) عنه، أنّ الصحابة قالوا: «يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيبُ، قال: أجلْ شيبتني هود وأخواتها». قال عطاء: وأخواتها: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١]، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

وأخرج البيهقي في «الدلائل»، عَنْ أبي سعيد الخدري(٣)، قال: «قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أسرع إليك الشيب. قال: شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت».

وأخرج الطبراني، وابن مردويه، عَنْ سهل بن سعد الساعدي(٤)، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كوّرت».

وأخرجا أيضاً(٥) عَنْ ابن مسعود «أَنّ أبا بكر قال: يا رسولَ الله ما شيبك؟ قال: هود والواقعة». وفي إسناده عَمرو بن ثابت، وهو متروك.

وأخرج الطبراني، وابن مردويه بسند صحيح، عن عقبة بن عامر(٦): «أن رجلاً قال: يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود، وإذا الشمس كوّرت وأخواتها».

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٧٦). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٧١).

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٥٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (٥٨٠٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): «فيه سعيد بن سلام العطار وهو كذاب».

(٥) أخرجه ابن الطبراني رقم (١٠٠٩١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): «فيه عمرو بن ثابت وهو متروك».

(٦) أخرجه الطبراني (ج١٧ رقم ٧٩٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): «رجاله رجال الصحيح».

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وأبو يعلى، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أبي جحيفة[1] قال: «قالوا: يا رسول الله نراك قد شبتَ، قال: شيبتني هود وأخواتها».

وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر، عن عمران بن حصين[2]: «أنّ رسول الله ﷺ قال له أصحابه: قد أسرع إليك الشيب. قال: شيبتني هود وأخواتها من المفصل».

وأخرج ابن عساكر، عَنْ جعفر بن محمد، عن أبيه[3]، أن رسول الله ﷺ قال: «شيبتني هود وأخواتها، [٣/٣٨] وما فُعل بالأمم قبلُ».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨﴾.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٨٨٠)، والطبراني (ج٢٢ رقم ٣١٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٧٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٧٥).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٧٥، ١٧٦) بسند ضعيف.

قوله: ﴿الٓر﴾ إنْ كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محلّ له، وإن كان اسماً للسورة فهو في محل رفع[(١)] على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف.

و﴿كِتَٰبٌ﴾ يكون على هذا الوجه خبراً لمبتدأ محذوف[(٢)]؛ أي: هذا كتاب، وكذا على تقدير أن ﴿الٓر﴾ لا محلّ له، ويجوز أن يكون ﴿الٓر﴾ في محل نصب[(٣)] بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اذكر، أو اقرأ؛ فيكون ﴿كِتَٰبٌ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف، والإشارة في المبتدأ المقدّر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن.

ومعنى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صارت مُحكمةً متقنة[(٤)]، لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم.

وقيل[(٥)]: معناه: إنّها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المُحكم الذي لم ينسخ.

وقيل: معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فُصّلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب.

وقيل: أحكمها الله مِنْ الباطل، ثم فصّلها بالحلال والحرام.

وقيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته؛ وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت بالوحي.

وقيل أُيّدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها مِنْ عند الله؛ وقيل: معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذاً من قولهم أَحْكمتُ الدابة: إذا وضعت عليها الحَكَمَةَ لتمنعها مِنْ الجماح.

و﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ معطوف على ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾، ومعناه ما تقدّم، والتراخي[(٦)] المستفاد

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٣٢٣)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٨).

(٢) «روح المعاني» (١١/ ٣٢٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٧١)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٨).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٨ ـ ٣١١)، و«النكت والعيون» (٢/ ٤٥٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٧٢).

(٥) سيأتي تخريج هذه الأقوال.

(٦) «روح المعاني» (١١/ ٣٢٥)، و«الكشاف» (٣/ ١٨١).

من «ثُمّ» إما زماني إنْ فُسّر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، وإما رتبيّ إن فُسّر بغيره مما تقدّم.

والجمل في محل[(١)] رفع على أنّها صفة لكتاب، أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف.

وفي قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ لفٌّ ونشر؛ لأنّ المعنى: أحكمها حكيم، وفصّلها خبير عالم بمواقع الأمور.

قولُه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفعول[(٢)] له حذف منه اللام: كذا في «الكشّاف»[(٣)]، وفيه أنّه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلّل.

وقيل: «أنْ» هي المفسرة[(٤)] لما في التفصيل من معنى القول؛ وقيل: هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله، محكيّاً على لسان النبيّ ﷺ.

قال الكسّائي[(٥)] والفراء[(٦)]: التقدير: أحكمت بأنْ لا تعبدوا إلا الله ﷻ.

وقال الزجّاج[(٧)]: أُحْكمت ثم فُصّلت لئلا تعبدوا إلا الله، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بأنّه نذير وبشير، فقال: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ أي: ينذرهم ويخوّفهم من عذابه لمن عصاه، ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه، والضمير[(٨)] في ﴿مِّنْهُ﴾ راجعٌ إلى الله سبحانه؛ أي: إنّني لكم نذير وبشير مِنْ جهة الله سبحانه.

وقيل: هو مِنْ كلام الله سبحانه كقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ معطوف[(٩)] على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، والكلام في (أَنْ) هذه كالكلام في التي قبلها.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ١١٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٢٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٠٠).
(٢) «الفريد» (٢/ ٦٠١)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٢٩)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩).
(٣) (٣/ ١٨٢).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٨٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٢٠)، و«الفريد» (٢/ ٦٠١).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٧٣).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣).
(٧) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٨).
(٨) «البحر المحيط» (٦/ ١٢٠)، و«التبيان» (٢/ ٦٨٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٢٩).
(٩) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ معطوف[١] على ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة، لكونه[٢] وسيلة إليها.

وقيل: إن التوبة من متممات الاستغفار.

وقيل: معنى «استغفروا»: «توبوا»، ومعنى توبوا: أخلصوا[٣] التوبة واستقيموا عليها.

وقيل: استغفروا من سالف الذنوب[٤]، ثم توبوا من لاحقها.

وقيل: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة.

قال الفرّاء[٥]: ثُمّ هاهنا بمعنى الواو؛ أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو: التوبة، والتوبة هي: الاستغفار.

وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأنّ المغفرة هي الغرض[٦] المطلوب، والتوبة: هي السبب إليها، وما كان آخراً في الحصول، كان أوّلاً في الطلب.

وقيل: استغفروا في الصغائر، وتوبوا إليه في الكبائر؛ ثم رتب على ما تقدّم أمرين:

الأول: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أصل الإمتاع: الإطالة، ومنه أَمتع اللهُ بك؛ فمعنى الآية: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية مِنْ سعة الرزق ورغد العيش ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى وقت مقدّر عند الله، وهو: الموت[٧]؛ وقيل: القيامة[٨]؛ وقيل: دخول الجنة؛ والأوّل أولى.

والأمر الثاني: قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾؛ أي: يُعْطِ كلَّ ذي فضلٍ في

---

(١) «النكت والعيون» (٢/ ٤٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٦٧).
(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٧٣).
(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٧٣).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٦٧).
(٥) «النكت والعيون» (٢/ ٤٥٦)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣).
(٦) «المحرر الوجيز» (٩/ ١٠٣ ـ ١٠٤).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٦٨).
(٨) «زاد المسير» (٤/ ٧٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٧٣).

الطاعة والعمل فضله؛ أي: جزاء فضلهِ، إمّا في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً، والضمير[(١)] في ﴿فَضۡلَهُۥ﴾ راجع إلى كل ذي فضل.

وقيل: راجع إلى الله سبحانه على معنى أن الله يعطي كلَّ مَنْ فضلت حسناتهُ فضله الذي يتفضل به على عباده. ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: تتولوا وتُعرضوا عن الإخلاص في العبادة، والاستغفار، والتوبة.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ وهو: يوم القيامة، ووصفه[(٢)] بالكبر، لما فيه مِنْ الأهوال؛ وقيل: اليوم الكبير: يوم بدر.

ثم بيَّن سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾؛ أي: رجوعكم إليه بالموت، ثم البعث، ثم الجزاء، لا إلى غيره.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال، وهذه الجملة[(٣)] مقرّرة لما قبلها.

ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم، ولا لانت له قلوبُهم؛ بل هم مصرّون على العناد مُصمِّمون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، وأنه أمر ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يقال: ثَنَى صدره عَنْ الشيء: إذا ازورّ عنه وانحرف منه، فيكون في الكلام كناية[(٤)] عَنْ الإعراض؛ لأن مَنْ أعرض عن الشيء ثنى عنه صدره، وطوى عنه كَشْحَه.

وقيل: معناه: يعطفون صدورهم على ما فيها مِنْ الكفر والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عَنْ الإخفاء لما يعتقدونه مِنْ الكفر، كما كان دأب المنافقين.

والوجه الثاني أولى، ويؤيّده قوله: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾؛ أي: ليستخفوا[(٥)] مِنْ الله، فلا يُطْلع عليه رسولَه والمؤمنين، أو ليستخفوا مِنْ رسول الله ﷺ؛ ثم كرّر كلمة

---

(١) «البحر المحيط» (٦/١٢١)، و«روح المعاني» (١١/٣٣٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/٦٩).
(٣) «روح المعاني» (١١/٣٣٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/٧).
(٤) «الكشاف» (٣/١٨٣)، و«روح المعاني» (١١/٣٣٤).
(٥) «جامع البيان» (١٢/٣١٦)، و«روح المعاني» (١١/٣٣٤ ـ ٣٣٥).

التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم، فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي: يستخفون في وقت استغشاء الثياب، وهو التغطي بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابَنا، واستغشينا ثيابنا، وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟

وقيل: معنى ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ﴾: حين يأوون إلى فراشهم [٣/٣٩]، ويتدثرون بثيابهم.

وقيل: إنّه حقيقة، وذلك أَنَّ بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ، ثنى صدره، وولى ظهره، واستغشى ثيابه، لئلا يسمع كلاَم رسول الله ﷺ.

وجملة: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مستأنفة[١]؛ لبيان أنّه لا فائدة لهم في الاستخفاء؛ لأن الله سبحانه يعلم ما يسرّونه في أنفسهم، أو في ذات بينهم وما يُظْهرونه؛ فالظاهر والباطن عنده سواء، والسرّ والجهر سيّان.

وجملة: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل[٢] لما قبلها وتقرير له، وذات الصدور هي: الضمائر التي تشتمل عليها الصدور.

وقيل: هي القلوب، والمعنى: أنّه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإسرار والإظهار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك؛ ثم أكّد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان، ونهاية الإحسان، فقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ أي: الرزق الذي تحتاج إليه مِنْ الغِذاء اللائق بالحيوان، على اختلاف أنواعه تفضلاً مِنه وإحساناً، وإنما جيء به على طريق الوجوب، كما تشعر به كلمة «على» اعتباراً بسبق الوعد به منه.

و«من» زائدة[٣] للتأكيد، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله، وأقواله، وأفعاله.

والدابة: كلُّ حيوانَ يدبُّ ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾؛ أي: محل استقرارها في الأرض، أَو محل قرارها في الأصلاب ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ موضعها في الأرحام، وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ١٢٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٣٩).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٤٠).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٧٢).

وقال الفرّاء: مستقرها[١] حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه، وقد مرّ تمام الأقوال في سورة الأنعام، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفرّاء ظاهر.

وأَمّا على القول الأوّل: فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة.

والمعنى: وما مِنْ دابة في الأرض إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة. وقبل كونها دابة، وذلك حيثُ تكون في الرحم ونحوه؛ ثم ختم الآية بقوله: ﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: كلٌّ مما تقدّم ذكره من الدوّاب، ومستقرّها ومستودعها، ورزقها في كتاب مبين، وهو اللوح[٢] المحفوظ؛ أي: مُثْبَت فيه.

ثم أكّد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السمٰوات والأرض، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قد تقدّم بيان هذا في الأعراف.

قيل: والمراد بالأيام: الأوقات؛ أي: في ستة أوقات، كما في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١٦].

وقيل: مقدار ستة أيام، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة، وهي المقابلة لليالي؛ لأنّه لم يكن حينئذٍ لا أرض ولا سماء، وليس اليوم إلا عبارة عَنْ مدّة كون الشمس فوق الأرض، وكان خلق السمٰوات في يومين، والأرضين في يومين، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد، في يومين، كما سيأتي في حم السجدة.

قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: كان قبل[٣] خلقهما عرشه على الماء، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السمٰوات والأرضين.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام متعلقة بخلق؛ أي: خلق هذه

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٩/١٠٨ ـ ١٠٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٤٥).
(٢) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٧٤)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٢٨).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٣٠).

المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال، على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويوفّر الجزاء لمن كان أحسن عملاً مِنْ غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد؛ لأنّه من أعمال القلب.

وقيل: المراد بالأحسن عملاً: الأتمّ عقلاً.

وقيل: الأزهد في الدنيا.

وقيل: الأكثر شكراً، وقيل: الأتقى لله.

قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ثم لمّا كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره.

والمعنى: لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء: إنكم مبعوثون مِنْ بعد الموت، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ليقولن الذين كفروا من الناس: إن هذا الذي تقوله يا محمد إلّا باطل كبطلان السحر، وخدع كخدعه.

ويجوز أَنْ تكون الإشارة بهذا إلى القرآن؛ لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث.

وقرأ حمزة والكسائي: «إنّ هذا إلا ساحر»[١] يعنون النبي ﷺ، وكسرت «إنّ»[٢] من قوله: ﴿إِنَّكُم﴾ لأنها بعد القول.

وحكى سيبويه[٣] الفتح على تضمين ﴿قُلْتَ﴾ معنى ذكرت، أو على «أن» بمعنى «علّ»؛ أي: ولئن قلتَ لعلّكم مبعوثون، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين؛ أي: توقعوا ذلك، ولا تبتّوا القول بإنكاره ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: الذي تقدّم ذكره في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وقيل: عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل: يوم بدر.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ أي: إلى طائفة[٤] مِنْ الأيام قليلة؛ لأن ما يحصره العدّ

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٦٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٢٦). وهي قراءة خلف وقرأ الباقون: (سِحْر).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٥٩). القراءة بالكسر هي قراءة الجمهور، وأم بفتح همز «أَنكم» فشاذة.

(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٧٣).

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨)، و«النكت والعيون» (٢/ ٤٦٠).

قليل، والأمة اشتقاقها من الأُمّ: وهو القصد، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب.

وقيل: هي في الأصل الجماعة[١] مِنْ الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه؛ كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر؛ أي: في ذلك الحين، فالمراد على هذا: إلى حين تنقضى أمة معدودة مِنْ الناس.

﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾؛ أي: أَيُّ شيء يمنعه مِنْ النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب، فأجابهم الله بقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾؛ أي: ليسَ محبوساً عنهم؛ بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب[١] بمصروفاً ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: أحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع يستهزئون مكان يستعجلون؛ لأن استعجالهم[٢] كان استهزاء منهم، وعبّر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، فكأنّه قد حاق بهم.

وقد أخرج ابنُ أبي حاتم[٣]، عن ابن زيد؛ أنه قرأ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال: هي كلُّها محكمة، يعني: سورة هود ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ قال: ثم ذكر محمداً ﷺ، فحكم فيها بينه وبين مَنْ خالفه، وقرأ (مَثَلُ الفريقين) الآية كلها، ثم ذكر قوم نوح ثم هود، فكان هذا تفصيل ذلك، وكان أوّله محكماً قال: وكان أبي يقول ذلك، يعني: زيد بن أسلم.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن[٤]، في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال: أحكمتْ بالأمر والنهي، وفُصّلت بالوعد والوعيد.

وأخرج هؤلاء[٥] عن مجاهد ﴿فُصِّلَتْ﴾ قال: فسّرت.

وأخرج هؤلاء[٦] أيضاً عن قتادة في الآية قال: أحكمها الله من الباطل، ثم

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧٧ ـ ٧٨).
(٢) «النكت والعيون» (٢/ ٤٦٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٦٨).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٥) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٤، ١٩٩٥) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٥) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١٠) بسند صحيح.

فَصّلها بعلمه، فبيَّن حلالَه وحرامَه وطاعتَه ومعصيتَه، وفي قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾؛ يعني: مِنْ عند حكيم، وفي قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ قال: فأنتم في ذلك المتاع، فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقّه، فإن الله مُنْعِم يحبّ الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد مِنْ الله، وذلك قضاؤه الذي قضاه؛ وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ يعني: الموت، وفي قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؛ أي: في الآخرة.

وأخرج هؤلاء أيضاً عَنْ مجاهد[1] في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؛ أي: في الآخرة.

وأخرج أبو الشيخ[2]، عَنْ الحسن قال: يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة.

وأخرج ابنُ جرير[3]، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ قال: مَنْ عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومَنْ عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عُوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ مِنْ الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك مَنْ غلب آحادُه أعشارَه. [٣/٤٠]

وأخرج البخاري[4] وغيره، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلّوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

قال البخاري[5]، وعن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رؤوسَهم.

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، يعني به: الشك[6] في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد[7] والحسن[8] وغيرهما؛ أي: أنهم

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١٤) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٩).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١٥) بسند ضعيف جدّاً.
(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٦٨١).
(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٦٨٣).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٩) من طريق معمر، عن عكرمة، عن ابن عباس بسند منقطع بين معمر وعكرمة.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١٨) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣١٨) بسند صحيح.

كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنّون أنهم يستخفون مِنْ الله بذلك، فأعلمهم سبحانه أنّه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد(١)، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال: كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبيّ ﷺ ثَنَى صدره، وتغشّى ثوبه، لكيلا يراه، فنزلت.

وأخرج ابن جرير(٢)، عن الحسن، في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي رَزين(٣) في الآية قال: كان أحدهم يَحْني ظهرَه ويستغشي بثوبه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة(٤)، في الآية قال: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله، قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره، واستغشى بثوبه، وأضمر همّه في نفسه، فإن الله لا يخفى عليه ذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس(٥)، قال في الآية: يكتمون ما في قلوبهم ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٧٨ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (٣١٧/١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩٩٩/٦) مرسلاً بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣١٨/١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٠، ٢٠٠١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣١٨/١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٠) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣١٩/١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩٩٩/٦، ٢٠٠٠) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣٢١/١٢ ـ ٣٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٨، ٢٠٠٠) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[١]، في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية قال: يعني: كلّ دابة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية قال: يعني ما جاءها مِنْ رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً، ولكن ما كان لها مِنْ رزق لها فمن الله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٣]، في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ قال: حيثُ تأوِي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال: حيث تموت.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٤]، عنه ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ قال: يأتيها رزقها حيث كانت.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود[٥]، قال: مستقرّها في الأرحام، ومستودعها حيثُ تموت.

ويؤيد هذا التفسير الذي ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، عن ابن مسعود[٦]، عَنْ النبي ﷺ قال: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أُتيحتْ له إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيُقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني».

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠١) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٦ رقم ٧٦٨٦، ٦/ ٢٠٠١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠١، ٣٠٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٢٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠١) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٢، ٢٠٠٣)، والحاكم (٢/ ٣٤١).

(٦) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٦٦)، والحاكم (١/ ٤١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٨٨٩). وهو حديث صحيح.

وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، عن ابن عباس[١]، أنّه سئل عن قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: على أيّ شيء كان الماء؟ قال: على مَتْن الريح.

وقد وردت أحاديث كثيرة في صفة العرش، وفي كيفية خلق السمٰوات والأرض ليس هذا موضع ذكرها.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، عن ابن عمر[٢]، قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: وأحسنكم عقلاً أورعكم عَنْ محارم الله، وأعملكم بطاعة الله.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن قتادة، قال: أيُّكم أتمّ عقلاً.

وأخرج أيضاً[٤] عَنْ سفيان قال: أزهدكم في الدنيا.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٥]، قال: لما نزلت ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] قال ناس: إنّ الساعة قد اقتربت فتناهوا، فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء؛ فأنزل الله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فقال ناس مِنْ أهل الضلال: هذا أمر الله قد أتى، فتناهى القومُ ثم عادوا إلى مكرهم، مكرِ السوء، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عن ابن عباس[٦]، في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ قال: إلى أجل معدود.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٩٠٨٩)، وفي «التفسير» (١/ ٣٠٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٥)، وأبو الشيخ رقم (٢١٢)، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي (٢/ ٣٤١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٠٢) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦)، وداود بن المحبر في كتاب «العقل» كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ١٤٥) ضعيف جدّاً.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٠٥).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٧)، =

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[١] ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾؛ يعني: أهل النفاق.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن السديّ، في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وقع بهم العذابُ الذي استهزءوا به.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

اللّام في[٣] ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هي الموطئّة للقسَم، والإنسان الجنس، فيشمل المؤمن والكافر، ويدل على ذلك الاستثناء[٤] بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

وقيل: المراد: جنس الكفار، ويؤيده أنّ اليأس والكفران والفرح والفخر، هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب.

= والحاكم (٢/ ٣٤١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٢) من طريق سفيان الثوري، به.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٧) بسند حسن.

(٣) «التبيان» (٢/ ٦٩٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٧١).

(٤) «الفريد» (٢/ ٦٠٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٩١)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٧١).

وقيل: المراد بالإنسان: الوليد بن المغيرة[١]، وقيل: عبد الله بن أبي أُمية المخزومي[٣].

والمراد بالرحمة[٢] هنا: النعمة مِنْ توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾؛ أي: سلبناه إياها ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾؛ أي: آيس من الرحمة، شديد القنوط من عودها، وأمثالها.

والكفور: عظيم الكفران، وهو الجحود بها. قاله ابن الأعرابي[٣].

وفي إيراد صيغتي المبالغة في ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس، وكثير الجحد عند أَنْ يسلبه الله بعضَ نعمه، فلا يرجو عودها، ولا يشكر ما قد سلف له منها.

وفي التعبير[٤] بالذوق ما يدل على أَنَّه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه؛ لأنّ الإذاقة والذوق: أقلّ ما يوجد به الطعم، والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضرّاء: ظهور أَثَرُ الإضرار على مَنْ أصيب به.

والمعنى: أنّه إنْ أذاق اللهُ سبحانه العبدَ نعماءه مِنْ الصحة والسلامة، والغنى بعد أَنْ كان في ضرّ من فقرٍ أو مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه؛ بل يقول: ذهب السيئات؛ أي: المصائبُ التي ساءته من الضرّ والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها، غير شاكر لله، ولا مثن عليه بنعمه ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ أي: كثير الفرح بَطَراً وأَشَرَاً، كثير الفخر على الناس، والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، وفي التعبير عن ملابسة الضرّ له بالمس [٣/٤١] مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة، فإن كلاهما لأدنى ما يطلق عليه اسم[٥] الملاقاة، كما تقدّم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن، والشكر عند حصول المنن.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/٥٦٦). وصوابه ابن أبي أمية كما في «الوسيط».
(٢) «جامع البيان» (١٢/٣٤١)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٨٠).
(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/١٩٣).
(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٣٧٠).
(٥) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٣٧٠).

قال الأخفش[(١)]: هو استثناء ليس من الأوّل؛ أي: ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة.

وقال الفراء[(٢)]: هو استثناء من لئن أذقناه؛ أي: مِنْ الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس: يشمل الكافر والمؤمن، فهو استثناء متصل.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ متناهٍ في الكِبَر.

ثم سلّى الله سبحانه رسوله ﷺ، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾؛ أي: فلعلك لعِظَم ما تراه منهم[(٣)] من الكفر والتكذيب، واقتراح الآيات التي يقترحونها عليه على حسب هواهم، وتعنتهم تاركٌ بعضَ ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه، مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به، كسبِّ آلهتهم وأمرهم بالإيمان بالله وحده.

قيل: وهذا الكلام خارج مخرج[(٤)] الاستفهام؛ أي: هل أنت تارك؟

وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد؛ أي: لا يكون منك ذلك؛ بل تبلّغهم جميعَ ما أَنزل اللهُ عليك، أحبّوا ذلك أم كرهوه، شاءوا أم أبوا. ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ معطوف على تارك[(٥)].

والضمير في (به)[(٦)] راجع إلى «ما» أو إلى ﴿بَعْضَ﴾، وعبّر بضائق دون ضيق لأنّ اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللّزوم.

﴿أَن يَقُولُواْ﴾؛ أي: كراهةَ أَنْ يقولوا، أو مخافةَ أَنْ يقولوا أو لئّلا يقولوا:

---

(١) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٥).
(٢) في «معاني القرآن» له (٢/ ٤ ـ ٥).
(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٣٤٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٧٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٩١).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٨١).
(٥) «روح المعاني» (١١/ ٣٧٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٧٤).
(٦) «الفريد» (٢/ ٦٠٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٢٩).

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾؛ أي: هلا أنزل عليه كنز؛ أي: مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يصدّقه ويبين لنا صحة رسالته؛ ثم بيّن سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، وليس عليك حصول مطلوبهم، وإيجاد مقترحاتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل.

قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ «أم» هي المنقطعة[1] التي بمعنى: بَلْ والهمزة، وأضرب عما تقدّم مِنْ تهاونهم بالوحي، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك، وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه، والاستفهام للتوبيخ[2] والتقريع، والضمير المستتر في ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ للنبي ﷺ، والبارز إلى ما يوحى، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم، فقال: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾؛ أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني.

ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل: أمثاله؛ لأن المراد مماثلة كل واحدة من السور، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه، ومدارُه[3] المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حدّ الإعجاز، وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية، والإفراد شرط.

ثم وصف السور بصفة أخرى، فقال: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ دعاءه، وقدرتم على الاستعانة به، من هذا النوع الإنساني، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله سبحانه.

وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾؛ أي: ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمون من افترائي له ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾؛ أي: فإنْ لم يفعلوا ما طلبته منهم، وتحدّيتهم به مِنْ الإتيان

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٣٧٨)، و«الفريد» (٢/ ٦٠٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٠).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٧)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٨٠).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٨٠).

بعشْر سور مثله، ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله ﷺ[١] وللمؤمنين، أو للنبي ﷺ وحده، وجُمع[٢] تعظيماً وتفخيماً ﴿فَاعْلَمُوٓاْ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أو للرسول ﷺ وحده على التأويل الذي سلف قريباً.

ومعنى أمرهم بالعلم: أمرهم بالثبات عليه؛ لأنَّهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم: الأمر بالازدياد منه، إلى حدّ لا يشوبه شك، ولا تخالطه شبهة، وهو علم اليقين. والأوّل: أولى.

ومعنى: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أنه أُنزل متلبِّساً[٣] بعلم الله المختص به، الذي لا تطلع على كُنْهه العقول، ولا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ أي: واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لا شريك له، ولا يقدره غيره على ما يقدر عليه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: ثابتون على الإسلام، مخلصون له، مزدادون مِنْ الطاعات؛ لأنّه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عَشْر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوقَ ما كنتم عليه، وبصيرة زائدة، وإن كنتم مسلمين مِنْ قبل هذا فإنّ الثبوت عليه، وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم.

وقيل: إنّ الضمير[٤] في ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ للموصول في مَنْ استطعتم، وضمير لكم، للكفار، الذين تحدّاهم رسولُ الله ﷺ، وكذلك ضمير ﴿فَاعْلَمُوٓاْ﴾.

والمعنى: فإنْ لم يستجب لكم مَنْ دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بَعَشْر سُورٍ من سائر الكفار ومَنْ يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرّون وينفعون، فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول، خارجٌ عن قدرة غيره ﷻ، لما

(١) «الكشاف» (٣/ ١٨٦)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٤٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٧٥).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٣١)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٨٣).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ١٣١).

اشتمل عليه مِنْ الإعجاز الذي تتقاصر دونه قوّة المخلوقين، وأنه أنزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقولُ، ولا تبلغه الأفهام.

واعلموا أنه المنفرد[١] بالألوهية لا شريك له، فهل أنتم بعد هذا مسلمون؟ أي: داخلون في الإسلام، متبعون لأحكامه، مقتدون بشرائعه.

وهذا الوجه أقوى مِنْ الوجه الأوّل من جهة، وأضعف منه من جهة.

فأما جهة قوّته: فلإتسّاق الضمائر، وتناسبها، وعدم احتياج بعضها إلى تأويل.

وأما ضعفه، فلما في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى تكلف، وهو أَنْ يقال: إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم مِنْ الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم، ومعاضدتهم، ومبالغتهم في عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر، يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار، بأنّ هذا القرآن مِنْ عند الله، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم في الإسلام.

واعلم أنّه قد اختلف التحدّي للكفار بمعارضة القرآن، فتارة وقع بمجموع القرآن؛ كقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] وبعَشْر سور كما في هذه الآية، وذلك لأن العشرة أوّل عقد مِنْ العقود، وبسورة منه كما تقدّم، وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه. ثم إن الله سبحانه توعد مَنْ كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ قال الفرّاء[٢]: إن ﴿كَانَ﴾ هذه زائدة، ولهذا جُزم الجواب.

وقال الزجّاج[٣]: «مَنْ كان» في موضع جزم بالشرط، وجوابه: نوفّ إليهم؛ أي: مَنْ يكن يريد.

واختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك[٤]: نزلت في الكفار،

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٤٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٧٦).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥).
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٧٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٤٩ ـ ٤٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١١) بسند صحيح من طريق عبيد بن سليمان، عن الضحاك.

واختاره النحاس[١] بدليل الآية التي بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾. [٣/٤٢]

وقيل: الآية واردة في الناس على العموم؛ كافرهم ومسلمهم.

والمعنى: أَنَّ مَنْ كان يريد بعمله حظّ الدنيا يُكافأ بذلك، والمراد بزينتها: ما يُزينها ويحسّنها مِنْ الصحة والأمن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظّ، ونفاذ القول، ونحو ذلك.

وإدخال[٢] «كان» في الآية يفيد أَنَّهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون في الآخرة؛ لأنّهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا، ولم يعملوا للآخرة.

وظاهر قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ أن مَنْ أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته، وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه.

قال القرطبي[٣]: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ٢٠]. وكذلك ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيدتها وفسرتها التي في سبحان: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

قوله: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾؛ أي: وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها؛ أي: في الدنيا لا يُبْخسون؛ أي: لا ينقصون مِنْ جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، وذلك في الغالب، وليس بمطرد؛ بل إن قضت به مشيئته سبحانه، ورجحته حكمته البالغة.

وقال القاضي: معنى الآية: مَنْ كان يريد[٤] بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها،

---

(١) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٧٥).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨).
(٣) في «تفسيره» (١١/ ٨٥).
(٤) «روح المعاني» (١١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ١٠٤٤).

نوفّ إليهم أعمالهم وافيةً كاملةً مِنْ غير بخسٍ في الدنيا، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف، وسائر اللذات والمنافع، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره، وهو حاصل لكل عامل للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ الإشارة(١) إلى المريدين المذكورين، ولا بدّ مِنْ تقييد هذا بأنّهم لم يريدوا الآخرة بشيءٍ من الأعمال المعتدّ بها، الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار، كما تقدّم ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾؛ أي: ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلوص، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء؛ بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: أنه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتدّ به؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح.

قولُه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بيّن سبحانه أن بينَ مَنْ كان طالباً للدنيا فقط، ومن كان طالباً للآخرة تفاوتاً عظيماً، وتبايناً بعيداً.

والمعنى: أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبيّ ﷺ، والإيمان بالله؛ كغيره ممّن يريد الحياة الدنيا وزينتها؛ وقيل: المراد بمن كان على بينة من ربه: النبي ﷺ؛ أي: أفمَن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتبُ السالفة؛ كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

ومعنى البينة: البرهان الذي يدلّ على الحق، والضمير في قوله: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ﴾ راجع إلى البينة باعتبار(٢) تأويلها بالبرهان، والضمير في ﴿مِّنۡهُ﴾ راجع إلى القرآن؛ لأن قد تقدّم ذكره في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أو راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: ويتلو البرهان الذي هو البينة شاهدٌ يشهد بصحته من القرآن، أو من الله سبحانه. والشاهد: هو الإعجاز الكائن في القرآن، أو المعجزات التي ظهرتْ لرسول الله ﷺ، فإنّ ذلك مِنْ الشواهد التابعة للقرآن.

---

(١) «الوسيط» للواحدي (٢/ ٥٦٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٨٦)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٥٣).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ١٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٢١).

وقال الفراء[1]: قال بعضهم: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله ﷻ.

وقيل: المراد بمن كان على بينة من ربه: هم مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام، وأضرابه.

قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ معطوف على شاهد[2]. والتقدير: ويتلو الشاهد شاهد آخر مِنْ قبله هو كتاب موسى، فهو وإن كان متقدّماً في النزول، فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى، مع كونه متأخراً في الوجود، لكونه وصفاً لازماً غير مفارق، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى. ومعنى شهادة كتاب موسى، وهو التوراة: أنّه بشّر بمحمد ﷺ، وأخبر بأنه رسول من الله.

قال الزجّاج[3]: والمعنى: ويتلوه مِنْ قبله كتاب موسى؛ لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

وحكى أبو حاتم، عَنْ بعضهم، أنه قرأ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبَ مُوسَىٰٓ﴾ بالنصب[4]، وحكاه المهدوي، عَنْ الكلبي، فيكون معطوفاً[5] على الهاء في «يتلوه».

والمعنى: ويتلو كتابَ موسى جبريل، وانتصاب إماماً ورحمة على الحال[6]. والإمام: هو الذي يُؤتمّ به في الدين ويُقْتدى به، والرحمة: النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على مَنْ أنزله عليهم، وعلى مَنْ بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة، وهو الكون على البينة من الله. واسم الإشارة[7] مبتدأ وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يصدّقون بالنبيّ ﷺ، أو بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: بالنبيّ أو بالقرآن.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٦).
(٢) «الفريد» (٢/٦١٣)، و«البحر المحيط» (٦/١٣٤ ـ ١٣٥).
(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/٤٤). (٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٩).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢٧٦).
(٦) «الفريد» (٢/٦١٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٧٦)، و«التبيان» (٢/٦٩٢).
(٧) «البحر المحيط» (٦/١٣٥).

والأحزاب المتحزّبون على رسول الله ﷺ مِنْ أهل مكة وغيرهم، أو المتحزّبون مِنْ أهل الأديان كلها ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾؛ أي: هو من أهل النار لا محالة، وفي جعل النار موعداً إشعار بأنّ فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب، ومثله قول حسان[1]:

أوردتموها حياضَ الموت صاحيةً ... فالنارُ موعدها والموتُ لاقيها

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾؛ أي: لا تك في شك من القرآن، وفيه تعريض[2] بغيره ﷺ؛ لأنّه معصومٌ عن الشك في القرآن، أو من الموعد ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقّاً، أو قد طُبع على قلوبهم فلا يفهمون أنّه الحق أصلاً.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[3]، في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ قال: لأصحاب محمد ﷺ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أنس[4]، في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ قال: نزلت في اليهود والنصارى.

وأخرج ابن أبي حاتم[5]، عن عبد الله بن مَعْبد، قال: قام رجل إلى عليّ فقال: أخبرنا عن هذه الآية ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ إلى قوله: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قال: وَيْحك، ذاك مَنْ كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة.

وأخرج النحاس[6] عن ابن عباس ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ مالها ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾ نوفّر لهم بالصحة والسرور في الأهل، والمال، والولد ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ لا يُنْقَصون. ثم نسخها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨] [٣/٤٣].

---

(١) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٢٥٩).
(٢) «روح المعاني» (١١/٣٩٩)، و«البحر المحيط» (٦/١٣٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٣٤٥) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠١٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٣٥٠) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠١٠) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٣١).

وأخرج أبو الشيخ[١]، عن السديّ، مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٢]، في الآية قال: من عمل صالحاً: التماسَ الدنيا صوماً أو صلاة، أو تهجّداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله: أو فيّه الذي التمس في الدنيا وحَبِط عمله الذي كان يعمل، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وأخرج ابن جرير[٣]، عن الضحاك، قال: نزلت هذه الآية في أهل الشرك.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن الحسن، في قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال: طيباتهم.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن ابن جريج، نحوه.

وأخرج أبو الشيخ[٥]، عن السديّ، في قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ قال: حبط ما عملوا مِنْ خيرٍ، وبطل في الآخرة، ليس لهم فيها جزاء.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٦]، في الآية، قال: هم أهل الرياء.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في «المعرفة»، عن عليّ بن أبي طالب[٧]، قال: ما مِنْ رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ رسول الله ﷺ بينة مِنْ ربه، وأنا شاهد منه.

وأخرج ابن عساكر، وابن مردويه من وجه آخر، عنه[٨]، قال: قال

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٠٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٠، ٢٠١١، ٢٠١٣) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٤٩) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١١).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٥٠) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤، ٢٠١٥)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ١٠٥ رقم ٣٤٦). قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥١٣) هذا كذبٌ على عليٍّ قطعاً.
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٠).

رسول الله ﷺ: «أفمن كان على بينة من ربه. . أنا. ويتلوه شاهد منه: عليّ».

وأخرج أبو الشيخ[(١)]، عن أبي العالية، في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: ذاك محمد ﷺ.

وأخرج أبو الشيخ[(١)]، عن إبراهيم، نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، وأبو الشيخ، عن محمد بن عليّ بن أبي طالب[(٢)]، قال: قلت لأبي: إن الناس يزعمون في قول الله سبحانه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أنَّك أنت التالي، قال: وددتُ أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ﷺ.

وأخرج أبو الشيخ[(٣)]، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس[(٤)]، قال: جبريل فهو شاهد من الله بالذي يتلوه من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ قال: ومن قبله التوراة على لسان موسى، كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن الحسن بن عليّ[(٥)]، في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: محمد هو الشاهد مِنْ الله.

وأخرج أبو الشيخ[(٦)]، عن إبراهيم ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ قال: ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤) بسند صحيح من طريق قتادة، عن عروة، عن محمد ابن الحنفية، به.
• وأخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٦٨٢٨) بسند ضعيف جدّاً.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): «وفيه خليد بن دعلج وهو متروك».

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٩٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤) من طريق يقوي بعضها بعضاً.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١١).

وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة[(١)] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ قال: الكفار أحزاب كلُّهم على الكفر.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)]، عن قتادة، قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ قال: من اليهود والنصارى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾؛ أي: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم؛ لأنهم افتروا على الله كذباً بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، واللفظ وإن كان لا يقتضي إلا نفي وجود مَنْ هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكاري[(٣)]؛ فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم.

فالمعنى على هذا: لا أحد مثلهم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، وهو مبتدأ[(٤)]، وخبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٥) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١١).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٠١).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ١٣٧).

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ الأشهاد: هم الملائكة[(١)] الحفظَة.

وقيل: المرسلون.

وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلّغوا ما أمرهم الله بإبلاغه.

وقيل: جميع[(٢)] الخلائق.

والمعنى: أنّه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم[(٣)] بما نسبوه إليه ولم يصرّحوا بما كذبوا به؛ كأنّه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف.

قوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد؛ أي: يقولون: هؤلاءِ الذين[(٤)] كذبوا على ربهم، ويقولون: ألا لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسَهم بالافتراء.

ويجوز أَنْ يكون من كلام الله سبحانه، قاله بعدما قال الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾. والأشهاد جمع شهيد، ورجحه أبو عليّ بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١].

وقيل: هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب.

والفائدة في قول الأشهاد بهذه المقالة: المبالغة في فضيحة[(٥)] الكفار، والتقريع لهم على رؤوس الأشهاد.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٧) عن مجاهد بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٩) عن قتادة بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٧) عن الضحاك بسند صحيح.

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٦).

(٥) «روح المعاني» (١١/ ٤٠٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٤).

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لُعِنوا بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يمنعون مَن قدروا على منعه عَنْ دين الله والدخول فيه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها، أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال: بغيتك شرّاً؛ أي: طلبته لك.

﴿و﴾الحال[١] أنـ﴿ـهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ أي: يصفونها بالعوج، والحال أنهم بالآخرة غير مصدّقين، فكيف يصدّون الناس عن طريق الحق، وهم على الباطل البحت؟

وتكرير الضمير[٢] لتأكيد كفرهم واختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتدّ به بالنسبة إلى عظيم كفرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما كانوا يعجزون اللهَ في الدنيا إنْ أراد عقوبتهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يدفعون عنهم ما يُريده اللهُ سبحانه مِنْ عقوبتهم، وإنزال بأسه بهم.

وجملة: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مستأنفة[٣] لبيان أَنَّ تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم، ليكون عذاباً مضاعفاً.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويزيد ويعقوب «يُضَعَّف»[٤] مشدّداً.

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: أفرطوا في إعراضهم عن الحق، وبغضهم له، حتى كأنّهم لا يقدرون على السمع، ولا يقدرون على الإبصار، لفرط تعاميهم عن الصواب.

ويجوز أن يراد بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنّهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، ولا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضرراً، ويجوز[٥] أن تكون «ما» هي المديّة.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٤٠٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «روح المعاني» (١١/ ٤٠٤)، و«الفريد» (٢/ ٦١٤).
(٤) «النشر» (٢/ ٢٢٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٠٠)، و«التيسير» (ص٨١).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٧٦).

والمعنى: أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع والبصر.

قال الفرّاء(١): ما كانوا يستطيعون السمعَ؛ لأنّ الله أضلّهم في اللوح المحفوظ.

وقال الزجاج(٢): لبغضهم النبي ﷺ. وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه.

قال النحاس(٣): هذا معروف في كلام العرب، يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان: إذا كان ثقيلاً عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بعبادة غير الله.

والمعنى: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم أعظم خسران ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: ذهبَ وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدّعون أنها تشفع لهم، ولم يبق بأيديهم إلا الخسران.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال الخليل(٤) وسيبويه(٥): «لا جرم»: بمعنى: حقٌّ فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة، وبه قال الفرّاء(٦).

وروي عَنْ الخليل(٧) والفراء(٨) أنها: بمنزلة قولك: لا بدّ ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقّاً.

وقال الزجاج(٩): إن جرمَ بمعنى: كسبَ؛ أي: كسبَ ذلك الفعلُ لهم الخسرانَ، وفاعل كسبَ [٢/٤٤] مضمر، وأنّ منصوبة بجرم.

قال الأزهري(١٠): وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللّغة.

وقال الكسائي(١١): معنى لا جرم: لا صَدّ ولا منع عَنْ أنهم في الآخرة هم

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٨).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/٤٥).
(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٧٧).
(٤) وقال الخليل في كتاب «العين» (ص١٣٧): «ولا جَرَمَ يجري مجرى لا بُدَّ، ويفسَّر حَقّاً».
(٥) في «الكتاب» (٣/١٣٨).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٨).
(٧) في كتاب «العين» له (ص١٣٧).
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٨).
(٩) في «معاني القرآن» (٣/٤٦).
(١٠) في «تهذيب اللغة» (١١/٦٥ ـ ٦٦).
(١١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢٧٨).

الأخسرون. وقال جماعة مِنْ النحويين: إن معنى لا جرم: لا قطعَ قاطعٌ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ قالوا: والجرم[١] القطعُ، وقد جَرَمَ النخلَ واجترمَه؛ أي: قطعَه، وفي هذه الآية بيان أَنَّهم في الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم، ولا يبلغ إليه.

وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، وبين مَنْ كان على بينة من ربه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله، وغير ذلك من خصال الإيمان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: أنابوا إليه.

وقيل[٢]: خشعوا.

وقيل: خضعوا، قيل: وأصل[٣] الإخبات: الاستواء في الخَبْت: وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان.

قال الفرّاء[٤]: إلى ربهم، ولربهم واحد ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أنّ كل فريق شُبّه بشيئين، أو شُبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبّه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا تكون الواو في «والأصمّ»، وفي «والسميع» لعطف الصفة[٥] على الصفة، كما قول الشاعر[٦]:

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٩٢)، و«الصحاح» (٥/ ١٨٨٥).
(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦)، و«النكت والعيون» (٢/ ٤٦٥).
(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٧٢)، و«الوسيط» (٢/ ٥٦٩).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩ ـ ١٠).
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ١٣٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٠٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦).
(٦) «الإنصاف» (٢/ ٤٦٩)، و«خزانة الأدب» (١/ ٤٥١)، و«المطوّل» (ص٣٧١).

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام[١]

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ للإنكار[٢] يعني: الفريقين، وهذه الجملة[٣] مقرّرة لما تقدّم مِنْ قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] وانتصاب مثلاً على التمييز[٤] مِنْ فاعل يستويان؛ أي: هل يستويان حالاً وصفةً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في عدم استوائهما، وفيما بينهما مِنَ التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تذكّر، وعنده تفكر وتأمل، والهمزة لإنكار[٥] عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[٦]، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قال: الكافر والمنافق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ شهدوا به عليهم يوم القيامة.

وأخرج ابن جرير[٧]، عن مجاهد، قال: الأشهاد: الملائكة.

وأخرج أبو الشيخ[٨]، عن قتادة، نحوه.

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن ابن عمر[٩]: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُدْني المؤمنَ حتى يضع كَنَفَه ويستره مِنْ الناس ويقرّره بذنوبه، ويقول له:

---

(١) وعجز البيت: وليث الكتيبة في المُزدحم.
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٤١١)، و«الفريد» (٢/ ٦١٦).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٣٨)، و«الفريد» (٢/ ٦١٦).
(٤) «التبيان» (٢/ ٦٩٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٤١١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤١٣).
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ١٣٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٤١١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٧) بسند صحيح.
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٢).
(٩) أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٥)، ومسلم رقم (٢٧٦٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٤٢)، وابن ماجه رقم (١٨٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٤٧٢)، وابن المبارك رقم (١٦٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ١٨٩، ١٩٠).

أتعرفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقول: ربِّ أعرف، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنّه قد هلك قال: فإنّي سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعْطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين».

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ(١)، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: هو محمد ـ يعني: سبيل الله، صدّت قريش عنه الناس.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢)، عن أبي مالك، في قوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ يعني: يرجون بمكة غير الإسلام ديناً.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٣)، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية قال: أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فإنه قال: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ وأما في الآخرة فإنه قال: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة(٤)، في قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ قال: ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيراً فينتفعوا به، ولا يبصروا خيراً فيأخذوا به.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٥)، في قوله: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾ قال: خافوا.

وأخرج ابن جرير(٦)، عنه، قال: الإخبات: الإنابة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٧) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٨) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧١) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٩) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٤) بسند ضعيف.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ[1]، قال: الإخبات: الخشوع والتواضع.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[2]، قال: اطمأنوا.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[3]، في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ قال: الكافر ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ قال: المؤمن.

[قصة نوح مع قومه]:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا
نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ
كَٰذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ
أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي
مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ
إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ
إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ
أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾.

[وظيفة الرسالة وحقيقتها الوحدة]:

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن في الكلام، ونقله من

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٦) بسند ضعيف.

أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر، والحجة أبين، والقبول أتمّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بفتح[1] الهمزة على تقدير حرف الجر؛ أي: أرسلناه بأنّي؛ أي: أرسلناه مُتلبِّساً بذلك الكلام، وهو أنّي لكم نذير مبين. وقرأ الباقون بالكسر[2] على إرادة القول؛ أي: قائلاً: إنّي لكم، والواو في ولقد للابتداء، واللام هي[3] الموطئة للقَسَم، واقتصر على النذارة دون البشارة؛ لأنّ دعوته كانت لمجرد الإنذار، أو لكونهم لم يعملوا بما بشّرهم به، وجملة: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل[4] من إنّي لكم نذير مبين؛ أي: أرسلنّاه بأن لا تعبدوا إلا الله، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير، أو بمبين، وجملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تعليلية[5].

والمعنى: نهيتكم عَنْ عبادة غير الله لأني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار.

واليوم الأليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ ووصفه بالأليم من باب الإسناد[6] المجازي مبالغة. ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوّته من ثلاث جهات[7]، فقال: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ والملأ: الأشراف كما تقدم غير مرة، ووصفهم بالكفر ذمّاً لهم، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ هذه **الجهة الأولى**: من جهات طعنهم في نبوّته؛ أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا.

والجهة الثانية: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ ولم يتبعك أحد

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٨٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١٥٢٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٣٩)، و«التيسير» (ص١٢٤). وهي قراءة متواترة، ومع مَنْ بِفتح الهمزة: أبو جعفر ويعقوب وخلف.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «التبيان» (٢/ ٦٩٤)، و«الفريد» (٢/ ٦١٦).

(٤) «روح المعاني» (١١/ ٤١٣)، و«الفريد» (٢/ ٦١٧).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٤١٣).

(٦) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٤١٣).

(٧) «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٣٢).

من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك، والأراذل جمع أرذُل، وأرذل جمع رَذْل، مثل: أكالب وأكلُب وكَلْب.

وقيل: الأراذل جمع[1] الأرذل؛ كالأساود جمع أسود، وهم: السَّفلة.

قال النحاس[1]: الأراذل: الفقراء والذين لا حسَب لهم، والحسب: الصناعات. [٣/٤٥] قال الزجّاج[٢]: نسبوهم إلى الحياكة، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثرَ لها في الديانة.

وقال ثعلب[٣] عن ابن الأعرابي: السَّفِلة: هو الذي يصلح الدنيا بدينه، قيل له: فمن سَفِلةُ السّفِلة؟ قال: الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه. والظاهر من كلام أهل اللغة[٤]: أن السّفلة هو الذي يدخل في الحِرف الدنية، والرؤية في الموضعين إنْ كانت القلبية ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ في الأوّل، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ في الثاني هما المفعول الثاني، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال[٥]، وانتصاب[٦] ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ على الظرفية، والعامل فيه ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾.

والمعنى: في ظاهر الرأي من غير تعمق، يقال: بدا يبدو: إذا ظهر.

قال الأزهري[٧]: معناه: فيما يبدو لنا مِنْ الرأي.

والوجه الثالث: من جهات قدحهم في نبوّته: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ خاطبوه في الوجهين الأولين، منفرداً وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه أي: ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به، وتستحقون ما تدّعونه.

ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن، وانتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذي لا مستند له إلا مجرد العصبية، والحسد، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، فقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدّعونه، ويجوز أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم، والأوّل: أولى؛ لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٥١)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٨٠).

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٥). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٩٩).

(٤) «الصحاح» (٥/ ١٧٣٠)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٣٠).

(٥) «الفريد» (٢/ ٦١٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٤١٦).

(٦) «الفريد» (٢/ ٦١٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٠ ـ ١٤١).

(٧) في «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: أخبروني إنْ كنتُ على برهان من ربي في النبوّة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها، مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة، فإنّ المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوّة، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس ممّا يمنع من النبوّة، فإنّهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم.

ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ هي: النبوّة.

وقيل: الرحمة: المعجزة، والبينة: النبوّة.

قيل: ويجوز أَنْ تكون الرحمة هي: البينة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فُسّرت به البينة.

والإفراد[(١)] في ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ على إرادة كل واحدة منهما، أو على إرادة البينة؛ لأنها هي التي تظهر لمن تفكر، وتخفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت: خفيت.

وقيل: الرحمة هي على الخلق.

وقيل: هي الهداية إلى معرفة البرهان.

وقيل: الإيمان، يقال: عميت عن كذا، وعمي عليّ كذا: إذا لم أفهمه.

قيل: وهو من باب القلب[(٢)]؛ لأن البينة أو الرحمة لا تعمى وإنما يُعمى عنها فهو كقولهم: أدخلت القلنسوة رأسي.

وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص «فعُمِّيت» بضم[(٣)] العين وتشديد الميم على البناء للمفعول؛ أي: فعماها الله عليكم، وفي قراءة أُبيّ «فعمّاها[(٤)] عليكم».

والاستفهام في ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ للإنكار[(٥)]؛ أي: لا يمكنني أن اضطركم[(٦)] إلى المعرفة بها، والحال أنكم لها كارهون.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٤١٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٣)، و«الكشاف» (٣/ ١٩٣).

(٢) انظر: «الحجة» للفارسي (٤/ ٣٢٢).

(٣) «النشر» (٢/ ٣٦)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٨٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٧). ومع المذكورين قرأ خلف، وقرأ الباقون (فَعَمِيت) بفتح العين وكسر الميم مُخفّفة، وهما قراءتان متواترتان.

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٥٩)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٨٢). قراءة «أُبيّ» شاذة.

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ١٤٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٠٢).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٠٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

والمعنى: أخبروني إنْ كنتُ على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتي إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها، فإنّ ذلك لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

وحكى الكسائي[1] والفراء[2] إسكان الميم الأولى في ﴿أَنُلْزِمْكُمُوهَا﴾ تخفيفاً كما في قول الشاعر[3]:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستَحقِبٍ ... إثماً من اللّه ولا واغلِ

فإن إسكان الباء في أشرب للتخفيف. وقد قرأ أبو عمرو[4] كذلك.

قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيه التصريح منه ﷺ بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالاً حتى يكون بذلك محلّاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادعى طلباً للدنيا، والضميرُ في «عليه» راجع[5] إلى ما قاله لهم، فيما قبل هذا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ كالجواب[6] عما يفهم من قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ من التلميح[7] منهم إلى إبعاد الأراذل عنه.

وقيل: إنهم سألوه طردهم تصريحاً لا تلميحاً، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: لا أطردهم، فإنّهم ملاقون يوم القيامة ربَّهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه، وكأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم؛ ثم بيَّن لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه، والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾ كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٨٠).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢).
(٣) هو لامرئ القيس. انظر: «ديوانه» (ص١٢٣).
(٤) وهو غير المشهور عن أبي عمرو. بل هي رواية شاذة عن أبي عمرو. «روح المعاني» (١١/ ٤٢١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٤).
(٥) «روح المعاني» (١١/ ٤٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٥).
(٦) «روح المعاني» (١١/ ٤٢٣)، و«النكت والعيون» (٢/ ٢٦٦).
(٧) «روح المعاني» (١١/ ٤٢٣)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).

ثم أكد عدم جواز طردهم[١] بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾؛ أي: مَنْ يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان والإجابة إلى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم، لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معطوف[٢] على مقدّر؛ كأنه قيل: أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره وتتفكرون فيه، حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه من الصواب.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ بيَّن لهم أنه كما لا يطلب[٣] منهم شيئاً مِنْ أموالهم على تبليغ الرسالة؛ كذلك لا يدّعي أن عنده خزائن الله حتى يستدلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ والمراد بخزائن الله: خزائن رزقه.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ أي: ولا أدّعي أني أعلم بغيب الله؛ بل لم أقل لكم إلا أني نذير مبين، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا.

وقد استدلّ بهذا مَنْ قال: إنّ الملائكة أفضل مِنْ الأنبياء، والأدلة في هذه المسألة مختلفة، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست مما كلفنا الله بعلمه ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾؛ أي: تحتقر، والازدراء[٤] مأخوذ من أزرى عليه: إذا عابه، «وزرى» عليه: إذا احتقره، وأنشد الفراء[٥]:

يباعدهُ الصديقُ وتزدريه حليلتُهُ وينهرُه الصغيرُ[٦]

والمعنى: إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٢٨٥).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٤٢٥).
(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).
(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٨٠).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٠٤).
(٦) البيت لعروة بن الورد. انظر: «ديوانه» (ص٩١).

محل، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئاً ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ مِنْ الإيمان به، والإخلاص له، فمجازيهم على ذلك، ليس لي ولا لكم مِنْ أمرهم شيء ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم إن فعلت ما تريدونه بهم، أو مِنْ الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم، ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم وكلامه عجزاً عن القيام بالحجة، وقصوراً عن رتبة المناظرة، وانقطاعاً عن المباراة بقولهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾؛ أي: خاصمتنا بأنواع الخصام، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال، فقد ضاقت علينا المسالك، وانسدّت أبواب الحيل ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب الذي تخوّفنا منه، وتخافه علينا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تقوله لنا، فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته.

و﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجّله لكم، وإن قضتْ مشيئتُه وحكمته بتأخيره أخّره ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بفائتين عما أراده الله بكم بهربٍ أو مدافعة ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ الذي أبذله لكم، وأستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته لكم بإيضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه.

﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ وجواب هذا[1] الشرط محذوف، [٣/٤٦] والتقدير: إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، كما يدل عليه ما قبله.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾؛ أي: إنْ كان الله يريد إغواءكم، فلا ينفعكم النصح مني، فكان جواب[2] هذا الشرط محذوفاً كالأوّل، وتقديره ما ذكرنا، وهذا التقدير إنما هو على مذهب مَنْ يمنع من تقدّم الجزاء على الشرط، وأما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشرط الأوّل، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾، وجزاء الشرط الثاني[3] الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها.

قال ابن جرير[4]: معنى ﴿يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ يهلككم بعذابه، وظاهر لغة العرب أن

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٢)، و«التبيان» (٢/ ٦٩٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «التبيان» (٢/ ٦٩٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٧).
(٤) في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٩).

الإغواء: الإضلال؛ فمعنى الآية: لا ينفعكم نصحي إنْ كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد، ويخذلكم عَنْ طريق الحق.

وحكى عن طيّ(١): أصبح فلان غاوياً؛ أي: مريضاً، وليس هذا المعنى هو المراد في الآية.

وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك، ومنه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] وهو غير ما في هذه الآية ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فإليه الإغواء وإليه الهداية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس(٢)، في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قال: فيما ظهر لنا.

وأخرج أبو الشيخ(٣)، عن عطاء، مثلَه.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج(٤)، في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ قال: قد عرفتُها وعرفتُ بها أمرَه، وأنّه لا إلٰه إلا هو، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال: الإسلام والهدى والإيمان، والحُكْم والنبوّة.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن قتادة(٥) في قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قال: أما والله لو استطاع نبيّ الله لألزمَها قومه، ولكنّه لم يستطعْ ذلك ولم يمكنه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٦)، أنه كان يقرأ «أنلزمكموها مِنْ شطر أنفِسنا وأنتم لها كارهون».

---

(١) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٣) بسند ضعيف.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٣) بسند صحيح.
(٦) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٨٥ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٣) بسند صحيح.
● وهي قراءة تفسيرية، لا على أنها قرآن، لمخالفتها سواد المصحف.
«البحر المحيط» (٦/ ١٤٢)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٨٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٢١).

وأخرج ابن جرير[١]، عن أبي العالية، قال في قراءة أُبيّ: «أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن أُبيّ[٢] بن كعب، أنه قرأ: «أنلزمكموها مِنْ شَطْر قلوبنا».

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[٣]، في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، قال: قالوا له: يا نوح إنْ أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أَنْ نكون نحن وهم في الأرض سواء، وفي قوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يُفْنيها شيء، فأكون إنما دعوتكم لتتبعوني عليها، لأُعطيكم بملكه لي عليها ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لا أقول: اتبعوني على علمي بالغيب ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نزلتُ من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤]، عن ابن زيد ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾. قال: حقّرتموهم.

وأخرج أبو الشيخ[٥]، عن السدي، في قوله: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ﴾ قال: يعني: إيماناً.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[٦]، في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ قال: تكذيباً بالعذاب، وأنه باطل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٤) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٤) بسند صحيح.
• ولكنها قراءة شاذة.
«جامع البيان» (١٢/ ٣٨٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٢).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٥) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٣) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٦).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٨) بسند ضعيف.

[نوح يتلقى وحي ربّه وأمره، بصناعة السفينة]:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ
إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ
الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ
وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ
آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ
ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا
عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ
ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أنكر سُبحانه عليهم قولهم: إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ثم أمره أن يجيب بكلام منصف، فقال: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ بكسر الهمزة[(١)] على قراءة الجمهور، مصدر أجرم؛ أي: فعل ما يُوجب الإثمَ، وجرم وأجرم بمعنى قاله النّحاس[(٢)]، والمعنى: فعليّ إثمي، أو جزاء كسبي. ومَنْ قرأ بفتح الهمزة[(٣)]، قال: هو جميع جرم ذكره النحاس[(٤)] أيضاً ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: مِنْ إجرامكم بسبب

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٠٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٨).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨١).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص٦٠)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٨)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٦٩). وهي قراءة شاذة يعنى القراءة بفتح الهمزة.
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨١).

ما تنسبونه إليّ من الافتراء، قيل: وفي الكلام حذف والتقدير: لكن ما افتريته، فالإجرام وعقابه ليس إلّا عليكم، وأنا بريء منه(١).

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية، فقيل: إنّها حكاية عن نوح، وما قاله لقومه.

وقيل: هي حكاية عَنْ المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة.

والأوّل: أولى؛ لأنّ الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام.

قوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ «أنّه لن يؤمن» في محل رفع(٢) على أنه نائب الفاعل الذي لم يسمّ.

ويجوز أن يكون في موضع نصب(٢) بتقدير الباء؛ أي: بأنّه.

وفي الكلام تأييس له مِنْ إيمانهم، وأنهم مستمرّون على كفرهم، مصممون عليه، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانُه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ البؤس: الحُزْن؛ أي: فلا تَحْزَن، والبائس: المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين؛ لأن الابتئاس: حزن في استكانة. ومنه قول الشاعر:

وكم مِنْ خليلٍ أو حميم رُزِئْتُه فلم أبتئسْ والرُّزءُ فيه جليلُ(٣)

[صناعة السفينة برعايتنا وتعليمنا]:

ثم إنّ الله سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون البتّة، عرّفه وجه إهلاكهم، وألهمه الأمر الذي يكون به خلاصه، وخلاص مَنْ آمن معه، فقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾؛ أي: اعمل السفينة متلبساً بأعيننا(٤)؛ أي: بمرأى منا، والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك، وعبّر عن ذلك بالأعين لأنّها آلة الرؤية، والرؤية هي: التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب، وجمعَ الأعينَ للتعظيم لا للتكثير.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠).
(٢) «التبيان» (٢/ ٦٩٧)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٤١).
(٣) انظره في: «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٠٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٤٩).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، و«جامع البيان» (١٢/ ٣٩٢).

وقيل: المعنى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك.

وقيل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بعلمنا؛ وقيل: بأمرنا.

ومعنى بوحينا: بما أوحينا إليك مِنْ كيفية صنعتها ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: لا تطلب إمهالهم، فقد حان وقت الانتقام منهم.

وجملة[١]: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ للتعليل؛ أَيْ: لا تطلب منا إمهالهم، فإنَّه محكوم منّا عليهم بالغرق، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخيره.

وقيل: المعنى: ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم، فإنّهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك، لا يتأخر إغراقهم عنه.

وقيل: المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾؛ أي: وطفق يصنع الفلك، أو: وأخذ يصنع الفلكَ.

وقيل: هو حكايةُ حالٍ ماضية لاستحضار الصورة.

وجملة[٢]: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: استهزءوا به لعمله السفينة. قال الأخفش[٣] والكسائي: يقال: سخرت به ومنه. وفي وجه سخريتهم منه قولان[٤]:

(أحدهما): أَنّهم كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوّة نجاراً.

(والثاني): أَنّهم لما شاهدوه يعمل السفينة، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوحُ ما تصنع بها؟ قال: أَمشي بها على الماء فعجبوا من قوله، وسخروا به.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٤٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٨ ـ ٣٩).
(٢) «الفريد» (٢/ ٦٢٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٤٢).
(٣) ذكره النّحاس عنهما في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٨٢).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١١٣).

ثم أَجابَ عليهم بقوله: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [٣/٤٧] وهذا الكلام مستأنف[١] على تقدير سؤال كأنّه قيل: فماذا قال لهم؟ والمعنى: إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم، فإنّا نسخر منكم غداً عند الغرق.

ومعنى السخرية هنا: الاستجهال[٢]؛ أي: إنْ تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون، واستجهاله[٣] لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم، وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده، والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ لمجرد[٤] التحقق والوقوع، أو التجدّد والتكرّر.

والمعنى: إنّا نسخر منكم سخريةً متحققةً واقعة كما تسخرون منا كذلك، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك.

وقيل: معناه[٥]: نَسْخر منكم في المستقبل سخريةً مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق، وفيه نظر، فإنّ حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية، إذ هم في شغل شاغل عنها.

ثم هدّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وهو عذاب الغرق في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذاب النار الدائم، ومعنى يحلّ: يجعل المؤجل حالّاً، مأخوذ مِنْ حلول الدَّين المؤجّل، ومن موصولة[٦] في محل نصب، ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع؛ أي: أينا يأتيه عذاب يخزيه؛ وقيل: في موضع رفع بالابتداء، و﴿يَأْتِيهِ﴾ الخبر، و﴿يُخْزِيهِ﴾ صفة لعذاب.

قال الكسائي[٧]: إن ناساً من أهل الحجاز يقولون: سوف تعلمون؛ قال: ومن

---

(١) «روح المعاني» (١١/٤٤٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/٣٩).
(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/١٤٧)، و«البحر المحيط» (٦/١٥٠).
(٣) قال الألوسي في «روح المعاني» (١١/٤٤٣): «وإطلاقُ السُّخرية عليهم حقيقةٌ وعليه ﷺ للمشاكلة؛ لأنها لا تليق بالأنبياء ﷺ، وفسَّرها بعضهم بالاستجهال، وهو مجازٌ؛ لأنّه سببٌ للسخرية، فأطلقت السخرية وأُريد سببُها».
(٤) «روح المعاني» (١١/٤٤٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/٣٩).
(٥) «المحرر الوجيز» (٩/١٤٧).
(٦) «الفريد» (٢/٦٢٤)، و«روح المعاني» (١١/٤٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/١٥١).
(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢٨٢).

قال: «ستعلمون» أسقط الواو والفاء جميعاً، وجوّز الكوفيون «سَفْ تعلمون» ومنعه البصريون، والمراد بعذاب الخزي: العذاب الذي يُخْزي صاحبَه، ويَحلُّ عليه العار.

[قصة الطوفان]:

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ «حتى» هي الابتدائية[(١)] دخلت على الجملة الشرطية، وجُعلت غاية لقوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

والتنور اختلف في تفسيرها على أقوال:

(الأوّل): أنها وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً، روي ذلك عن ابن عباس[(٢)]، وعكرمة[(٣)]، والزهري[(٤)]، وابن عيينة.

(الثاني): أنه تنور الخبز الذي يخبزونه فيه، وبه قال مجاهد[(٥)] وعطية[(٦)] وهو قول الحسن[(٧)]، وروي عن ابن عباس[(٧)] أيضاً.

(الثالث): أنه موضع اجتماع الماء في السفينة، روي عن الحسن[(٨)].

(الرابع): أنه طلوع الفجر، من قولهم: تنّور الفجر، روي عن عليّ بن أبي طالب[(٩)].

(الخامس): أنه مسجد الكوفة، روي عن عليّ أيضاً ومجاهد؛ قال مجاهد[(١٠)]: كان ناحية التنّور بالكوفة.

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٤٤٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٢٠٢٩)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٨٧ ـ تفسير) بسند ضعيف. الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢/ ٤٠٢) بسند ضعيف.

(٤) ذكره عنهما البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٥) عن مجاهد بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس، وسنده ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ١٠٤) بسند ضعيف.

(٨) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ١٤٨).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) بسند ضعيف.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٥) بسند ضعيف.

(السادس): أنه أعالي الأرض، والمواضع المرتفعة، قاله قتادة(١).

(السابع): أنه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردة، روي ذلك عن عكرمة(٢).

(الثامن): أنه موضع بالهند؛ قال ابن عباس(٣): كان تنور آدم بالهند.

قال النحاس(٤): وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض، قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢] فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة، هكذا قال، وفيه نظر، فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء. إلا إذا كان المراد مجرد العلامة، كما ذكره آخراً.

وقد ذكر أهل اللغة أن الفور: الغليان، والتنور(٥): اسم عجمي عرّبته العرب؛ وقيل: معنى فار التنور: التمثيل بحضور العذاب كقولهم: حمي الوطيس: إذا اشتدّ الحرب، ومنه قول الشاعر:

تركتُم قِدْرَكُم لا شيءَ فيها ... وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفورُ(٦)

يريد: الحرب.

[من يمسك نوح ومن يستصحب من الأحياء]:

قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: قلنا: يا نوح احمل في السفينة مِنْ كلٍّ زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين ذكراً وأنثى. وقرأ حفص

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٤) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير، به.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) بسند ضعيف.
(٤) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).
(٥) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٦٩)، و«الصحاح» (٢/ ٦٠٢).
(٦) قائله: جبل بن جوّال الثعلبي.
«السيرة النبوية» (٢/ ٢٧٣).

«من كلٍّ» بتنوين[(١)] كلٍ؛ أي: مِنْ كل شيءٍ زوجين، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر، ويطلق على كل واحد منهما زوج، كما يقال للرجال زوج، وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصنف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥]، ومنه قول الأعشى[(٢)]:

وكلُّ ضربٍ من الديباج يلبَسُه أبو حذافةَ مخبوٌّ بذاك معا

أراد: كل صنف من الديباج.

﴿وَأَهۡلَكَ﴾ عطف على «زوجين»[(٣)]، أو على «اثنين» على قراءة حفص[(٤)]، وعلى محلّ ﴿كُلِّ زَوۡجَيۡنِ﴾، فإنّه في محلّ نصب[(٥)] بـ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، أو على ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ على قراءة الجمهور.

والمراد: امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ أي: من تقدّم الحكم عليه بأنّه من المغرقين، في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ على الاختلاف السابق فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء[(٦)] من جملة ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾ ومَنْ قال: المراد بهم ولده كنعان وامرأته واعلةُ أمّ كنعان جعل الاستثناء مِنْ أهلك، ويكون متصلاً إنْ أريد بالأهل ما هو أعمّ من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط.

قوله: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ معطوف[(٧)] على أهلك؛ أي: واحمل في السفينة مَنْ آمن من قومك، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم على القول الآخر.

---

(١) «التيسير» (ص١٢٤)، و«النشر» (٢/ ٢٨٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٩٧ ـ ٧٩٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٨). وقرأ الجمهور بترك التنوين على الإضافة، وهما متواترتان.

(٢) انظر: «ديوان الأعشى ميمون بن قيس» (ص١٥٧).

(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٣)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٥)، و«التبيان» (٢/ ٦٩٨).

(٤) تقدم ذكره.

(٥) «الفريد» (٢/ ٦٢٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٣).

(٦) «التبيان» (٢/ ٦٩٨)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٥٣).

(٧) «روح المعاني» (١١/ ٤٥٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٢).

ثم وصف الله سبحانه قلّة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به، فقال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل: هم ثمانون[١] إنساناً: منهم ثلاثة مِنْ بنيه، وهو سام، وحام، ويافث، وزوجاتهم.

ولما خرجوا[٢] مِنْ السفينة بنوا قريةً يقال لها: قرية الثمانين[٣]، وهي موجودة بناحية الموصل.

وقيل: كانوا عشرة، وقيل: سبعة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل غير ذلك.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ القائل: نوح، وقيل: الله سبحانه. والأوّل: أولى، لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والركوب: العلوّ على ظهر الشيء حقيقةً نحو: ركب الدابة، أو مجازاً نحو: ركبه الدَّينُ، وفي الكلام حذف؛ أي: اركبوا الماء في السفينة، فلا يرد أنّ ركبَ يتعدّى بنفسه.

وقيل: إنّ الفائدة[٤] في زيادة ﴿فِي﴾ أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها.

وقيل: إنّها زيدت لرعاية جانب المحلية في السفينة كما في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ [الكهف: ٧١] قيل: ولعلّ نوحاً قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله مِنْ الأزواج؛ كأنه قيل: فحمل الأزواج وأدخلها في الفُلْك، وقال للمؤمنين، ويمكن أن يقال: إنّه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه مَنْ لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤١٢) بسند ضعيف من طريق ابن جريج، عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٢) بسند حسن.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١١٧).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ١٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١١٩).

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ارْكَبُوا﴾، أو حال[١] من فاعله؛ أي: مُسمّين الله، أو قائلين: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضمّ الميم فيهما إلّا مَنْ شذّ منهم على أنهما اسما زمان، وهما: في موضع[٢] نصب على الظرفية؛ أي: وقت مجراها ومرساها، ويجوز أن يكونا مصدرين؛ أي: وقت إجرائها وإرسائها.

وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص «مَجْراها» بفتح الميم[٣]، ومُرْساها بضمها.

وقرأ يحيى بن وثّاب بفتحها[٤] فيهما. وقرأ مجاهد، وسليمان بن جندب، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي «مُجْريها ومُرْسيها» على أنهما[٥] وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع[٦] رفع باضمار مبتدأ؛ أي: هو مجريها ومرسيها ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني، وعدم استئصاله بالغرق.

قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هذه الجملة[٧] متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين، وهي تجري بهم، والموج: جمع موجة، وهي: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٦).
(٢) «الفريد» (٢/ ٦٢٦)، و«التبيان» (٢/ ٦٩٨).
(٣) «التيسير» (ص١٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٢٠)، و«الحجة» للفارسي (٤/ ٣٢٩)، و«جامع البيان» (١٢/ ٤١٣ ـ ٤١٤). قراءة (مُجْراها) بفتح الميم قراءة أهل الكوفة ما عدا أبا بكر عن عاصم و(مُجْراها) بضم الجيم قراءة باقي العشرة. وقراءة يحيى بن وثّاب وكذا قراءة مجاهد ومَنْ معه فشاذة. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٧٠).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «الفريد» (٢/ ٦٢٧)، و«التبيان» (٢/ ٦٩٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) «روح المعاني» (١١/ ٤٥٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٥)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٨)، و«التبيان» (٢/ ٦٩٩).

قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ هو: كنعان[1]، قيل: وكان كافراً، واستبعد كون نوح ينادي مَنْ كان كافراً مع قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وأجيب: بأنّه كان منافقاً، فظن نوح أنه مؤمن.

وقيل: حملته شفقة الأبوّة على ذلك.

وقيل: إنّه كان ابن امرأته، ولم يكن بابنه، ويؤيده ما روي أن عليّاً قرأ: «ونادى نوح ابنها»[2].

وقيل: إنّه كان لغير رشدة، وولد على فراش نوح.

وردّ بأنّ قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة [٣/٤٨] منصب النبوّة.

﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾؛ أي: في مكانٍ عزلَ فيه نفسه عَنْ قومه، وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح: اركبوا فيها.

وقيل: في معزل[3] مِنْ دين أبيه.

وقيل: من السفينة[4].

قيل: وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق؛ بل كان في أوّل فور التنور.

قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ قرأ عاصم بفتح الياء[5]، والباقون[6] بكسرها، فأمّا الكسر فلجعله بدلاً من ياء الإضافة؛ لأن الأصل يا بنيّ، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حُذف الألف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٢٢).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٢)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٩٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٢٣).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٨).
(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٤).
(٥) «النشر» (٢/ ١١ ـ ١٢)، و«التيسير» (ص٤٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٨).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان

قال النَّحاس[١]: وقراءة عاصم مشكلة.

وقال أَبو حاتم[٢]: أصله يا بنياه ثم تحذف، وقد جعل الزجّاج[٣] للفتح وجهين، وللكسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل ما ذكرناه، والوجه الثاني: أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين. وأما الكسر، فالوجه الأوّل ما ذكرناه، والثاني: أن تحذف لالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس[٤].

وقرأ أبو عَمْرو، والكسائي، وحفص ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ بادغام[٥] الباء في الميم لتقاربهما في المخرج.

وقرأ الباقون[٦] بعدم الإدغام.

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ نهاه عن الكون مع الكافرين؛ أي: خارج السفينة، ويمكن أَنْ يراد بالكون معهم الكون على دينهم.

ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابنُ نوح على أبيه، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾؛ أي: يمنعني بارتفاعه من وصول الماء إليّ، فأجاب عنه نوح بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا مانعَ، فإنّه يوم قد حقّ فيه العذاب وجفّ القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم[٧] فيندرج[٨] تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أوّليّاً، وعبّر[٩] عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره.

---

(١) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٤).
(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٨٤).
(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٤).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٤).
(٥) «النشر» (٢/ ١١ ـ ١٢)، و«التيسير» (ص٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٥٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٨).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان، ولكن الصواب في العزو: قرأ الكسائي وأبو عمرو، ويعقوب بالإدغام بلاخلاف وقرأ ابن كثير وقالون وعاصم وخلّاد بالإدغام في وجه لهم، والوجه الآخر مع الباقين بالإظهار. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٧٠).
(٧) «روح المعاني» (١١/ ٤٦٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٥).
(٨) قال أبو السعود في «تفسيره» (٤/ ٤٥): «سلك طريقة نفي الجنس المنتظم لنفي جميع أفراد العاصم ذاتاً وصفةً كما في قولهم: ليس فيه داعٍ ولا مجيب أي أحد من الناس للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً بالوجهين المذكورين، وزاد اليوم للتنبيه على أنّه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتَلِمُّ فيها المُلِماتُ المعتادة التي ربما يُتخلص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية».
(٩) «روح المعاني» (١١/ ٤٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٥).

والاستثناء قال الزجّاج[١]: هو منقطع[٢]؛ أي: لكن مَنْ رحمه الله فهو يعصمه، فيكون: ﴿مَن رَّحِمَ﴾ في موضع نصب[٣]، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى: معصوم؛ أي: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله: مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] ﴿عِيشَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] ومنه قول الشاعر[٤]:

دع المكارِمَ لا تنهض لبغيتها واقعدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسي

أي: المُطْعَم المكسوّ، واختار هذا الوجه ابن جرير[٥].

وقيل: العاصم بمعنى: ذي العصمة، كلابن وتامرٍ، والتقدير: لا عاصم قط إلا مكان مَنْ رحم الله، وهو السفينة، وحينئذ فلا يرد ما يقال: إن معنى من رحم من رحمه الله، ومن رحمه الله هو معصوم، فكيف يصحّ[٦] استثناؤه عن العاصم؟ لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعاً للإشكال.

وقرئ ﴿إِلَّا مَن رُّحِمَ﴾ على البناء للمفعول[٧] ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾؛ أي: حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق؛ وقيل: بين ابن نوح، وبين الجبل، والأوّل: أولى؛ لأن تفرّع ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ عليه يدل على الأوّل لا على الثاني؛ لأن الجبل ليس بعاصم.

قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ يقال: بلع الماء يبلعه مثل منَع يمنَع، وبلَع يبلَع، مثل: حَمِد يحَمد لغتان حكاهما الكسائي[٨] والفراء[٩].

والبلع: الشرب، ومنه البالوعة[١٠]، وهي: الموضع الذي يشرب الماء،

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٥).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٠٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٦٣)، و«الفريد» (٢/ ٦٣١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) الحطيئة. انظر: «ديوانه» (ص٢٨٤).
(٥) في «جامع البيان» (١٢/ ٤١٧ ـ ٤١٨).
(٦) «جامع البيان» (١٢/ ٤١٨ ـ ٤١٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٢٤ ـ ١٢٥).
(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٠)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤)، و«الفريد» (٢/ ٦٣١). وهي قراءة شاذة.
(٨) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٨٦).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧).
(١٠) «تهذيب اللغة» (٢/ ٤١١ ـ ٤١٢)، و«الصحاح» (٣/ ١١٨٨).

والازدراد، يقال: بلع ما في فمه من الطعام إذا ازدرده[١]، واستُعير البلع الذي هو مِنْ فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ الإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر إذا انقطع. والمعنى: أمرَ السماءَ بإمساك الماء عَنْ الإرسال، وقدّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ أي: نَقَص، يُقال: غَاضَ الماءُ وغضته أنا.

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: أُحكم وفُرغ منه: يعني: أهلك الله قوم نوح على تمام وإِحْكام ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾؛ أي: استقرّت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، وهو جبل بقرب الموصل؛ وقيل: إنّ الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل[٢]:

سبحانه ثم سبحاناً نعوذُ به ... وقبْلنا سبّح الجوديُّ والجُمُدُ[٣]

ويقال: إنّه من جبال الجنة، فلذا استوت عليه.

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ القائل: هو الله سبحانه، ليناسب صدر الآية؛ وقيل: هو نوح وأصحابه.

والمعنى: وقيل: هلاكاً[٤] للقوم الظالمين، وهو مِنْ الكلمات التي تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيماء إلى قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [هود: ٣٧].

وقد أطبق علماء[٥] البلاغة على أنَّ هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٢٦) عن وهب بن منبه: يقول بالحبشية أزردية.
● وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: اشربي بلغة الضد «الدر المنثور» (٣/٤٣٦).

(٢) ذكره أبو عبيد في «مجاز القرآن» (١/٢٩٠).

(٣) هو لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٦١).

(٤) «جامع البيان» (١٢/٤١٩).

(٥) انظر: «المطوّل» (ص١٨٦ ـ ١٨٧)، و«روح المعاني» (١١/٥٠٢ ـ ٥٠٣).

القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في علم اللغة، المطلعين على ما هو مدوّن مِنْ خطب مصاقع خطباء العرب، وأشعار بواقع شعرائهم، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها.

وقد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم، فأطالوا وأطابوا، رحمنا الله وإيّاهم برحمته الواسعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[1]، عن قتادة، في قوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ قال: عملي ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: مما تعملون.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عَنْ قتادة[2]، في قوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وذلك حين دعا عليهم نوح قال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وأخرج أحمد في «الزهد»، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن الحسن[3]، قال: إن نوحاً لم يدع على قوم حتى نزلت الآية هذه، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم، فدعا عليهم.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس[4]، في قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ قال: فلا تَحْزن.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي، عنه[5]، في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ قال: بعين الله ووحيه.

وأخرج ابن أبي حاتم[6]، عنه، أيضاً قال: لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك، فأوحى الله إليه أَنْ يصنعها مثل جُؤجُؤ الطائر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٩١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» رقم (٢٨٤) بسند ضعيف؛ لضعف صالح بن داد المري.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٥) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٦) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، عن عائشة[١]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كانَ نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرةً فعظُمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعملها سفينة، ويمرّون فيسألونه، فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه، ويقولون: يعمل سفينة في البرّ، وكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور، وكثرُ الماء في السِّكك خشيته أمّ الصبي عليه، وكانت تحبه حبّاً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبيّ»، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مُسْتدرك الحاكم.

وقد روي في صفة السفينة وقدرها أحاديث، وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة.

وأخرج ابن المنذر[٢]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ قال: هو: الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ قال: هو الخلود في النار.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، عنه[٣]، قال: كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة، وكان فار التنور بالهند وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعاً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤]، عنه أيضاً قال: التنور العين التي بالجزيرة عين الوردة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عليّ بن أبي طالب[٥]، قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٢) وصحَّحه وتعقَّبه الذهبي بقوله: «إسناده مظلم، وموسى بن يعقوب ليس بذاك». وقال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٤٤٣): «وهذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٢١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩)، والحاكم (٢/ ٣٤٢، ٣٤٣) وصحَّحه وتعقَّبه الذهبي فقال: «النضر ضعَّفوه».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨).

وقَدْ روي عَنْه نحو هذا من طرق.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(١) قال: التنور: وجه الأرض، قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك.

والعرب تُسمي وجه الأرض: تنور الأرض.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عليّ(٢) ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قال: طلع الفجر، قيل له: إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك.

وقد روي في تفسير التنور غير هذا، وقد قدّمنا الإشارة إلى ذلك.

وروي في صفة القصة، وما حمله نوح في السفينة، وكيف كان الغرق، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة [٣/٤٩] لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه.

وأخرج ابن جرير(٣)، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ قال: حين يركبون ويجرون ويرسون.

وأخرج ابن جرير(٤)، عن الضحاك قال: كان إذا أراد أن ترسي قال: بسم الله فأرستْ، وإذا أراد أن تجري قال: بسم الله فَجَرتْ.

وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن السني، وابن عديّ، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن الحسين بن عليّ(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أَنْ يقولوا: بسم الله الملك الرحمٰن، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] إلى آخر الآية».

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٨٧ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٠٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤١٥) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٣) من طريق جابر بن نوح، به.

(٥) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٦٧٨١)، والطبراني في «الدعاء» رقم (٨٠٣)، وابن السني رقم (٥٠٠)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٥٥ ـ ٢٦٥٦) بسند تالف.

وأخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس[١]، عن النبيّ ﷺ.

وأخرجه أيضاً أبو الشيخ[٢]، عنه، مرفوعاً مِنْ طريق أخرى.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عن قتادة، قال: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٤] قال: هو ابنه غير أنّه خالفه في النية والعمل.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، وأبو الشيخ عن عكرمة، في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ قال: لا ناجٍ إلا أهل السفينة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦]، وأبو الشيخ، عن القاسم بن أبي بَزَّةَ، في قوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ قال: بين ابن نوح والجبل.

وأخرج ابن المنذر[٧]، وعن عكرمة في قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ قال: هو بالحبشية.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه[٨]، في ﴿ٱبْلَعِى﴾ قال: بالحبشية؛ أي: ازدرديه.

وأخرج أبو الشيخ، عَنْ جعفر بن محمد[٩]، عن أبيه قال: معناه: اشربي بلغة الهند.

---

(١) أخرجه الطبراني رقم (١٢٦٦١) بسند ضعيف جداً.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٢): «فيه نهشل بن سعيد، وهو متروك».
• والضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٥٣٥) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٠٧)، وسعيد بن منصور رقم (١٠٩٤ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥) من طريق حفص بن عمر العدني، به.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥).

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣٣).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٦) من طريق عبد الصمد بن معقل، به.

(٩) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣٦).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[١] مثلَه.

أقول: وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب: ظاهر مكشوف، فما لنا وللحبشة والهند.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

معنى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ دعاه، والمراد: أراد دعاءه بدليل[٢] الفاء في ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ، فلا بدّ من التقدير المذكور.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أنّه مِنْ الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك: و﴿أَهْلَكَ﴾. فإنْ قيل: كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] وهو المستثنى منه، وترك ما يفيده الاستثناء، وهو: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]؟ فيجاب بأنّه لم يعلم إذ ذاك أنه ممّن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا خلف فيه، وهذا منه.

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: أتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض.

وقيل: أراد بـ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: أنتَ أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٦) بسند صحيح.

(٢) «روح المعاني» (١١/ ٤٨١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٦).

وقيل: إنّ الحاكم بمعنى: ذي الحكمة كدارع.

ثُم أجابَ الله سبحانه عَنْ نوح ببيان أنّ ابنه غير داخل في عموم الأهل، وأنه خارج بقيد الاستثناء فـ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ الذين آمنوا بك، وتابعوك، وإنْ كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرّح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة: قرابة الدين، لا قرابة النسب، وحده، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ قرأ الجمهور[1] «عملٌ» على لفظ المصدر.

وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكسائي، ويعقوب، «عَمِلَ» على لفظ[2] الفعل؛ ومعنى القراءة الأولى: المبالغة في ذمِّه؛ كأنّه جعل نفس العمل، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حُذف المضاف وجعل نفس العمل، كذا قال الزجّاج[3] وغيره.

ومعنى القراءة الثانية ظاهر؛ أي: إنّه عَمِل عملاً غيرَ صالح، وهو: كفرهُ وتركه لمتابعة أَبيه؛ ثم نَهاه عَنْ مثل هذا السؤال، فقال: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ لمّا بيَّن له بطلان ما اعتقده مِنْ كونه من أهله، فرّع[4] على ذلك النهي عن السؤال، وهو وإن كان نهياً عامّاً بحيث يشمل كل سؤال، لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أوّلياً، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع، وسمى دعاءه سؤالاً: لتضمنه معنى السؤال ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: أُحذّرك أن تكون من الجاهلين؛ كقوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧].

وقيل: المعنى: أرفعك أَنْ تكون من الجاهلين. قال ابن العربي[5]: وهذه زيادة من الله، وموعظة يرفع بها نوحاً عَنْ مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٤٣٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٦٢)، و«التيسير» (ص١٢٥)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٥).

(٤) «روح المعاني» (١١/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦).

(٥) في «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٤٧).

العلماء العاملين، ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه، بادر إلى الاعتراف بالخطأ، وطلب المغفرة والرحمة، فـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾؛ أي: أعوذُ بك أَنْ أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه، ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبَ ما دعوت به على غير علم مني ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ برحمتك التي وسعت كلَّ شيء، فتقبل توبتي ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ﴾ القائل: هو الله، أو الملائكةُ[1] ﴿ٱهۡبِطۡ﴾؛ أي: انزلْ مِنْ السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بَلَعتْ الأرض ماءَها، وجفّت.

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾؛ أي: بسلامةٍ وأمن، وقيل: بتحية ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾؛ أي: نِعَمٍ[2] ثابتة، مشتق مِنْ بروك الجمل، وهو ثبوتهُ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾؛ أي: ناشئة ممّن معك، وهم المتشعبون مِنْ ذرية مَنْ كان معه في السفينة.

وقيل: أراد مَنْ في السفينة، فإنهم أمم مختلفة، وأنواع من الحيوانات متباينة. قيل: أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من ذريتهم.

وأراد بقوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ من صار كافراً مِنْ ذريتهم إلى يوم القيامة، وارتفاع أمم في قوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ على أنه خبر[3] مبتدأ محذوف؛ أي: ومنهم أمم؛ وقيل: على تقدير: ويكون أمم. وقال الأخفش[4]: هو كما تقول: كلمت زيداً وعمرو جالس، وأجاز الفراء[5] في غير القراءة: وأمماً سنمتعهم؛ أي: ونمتع أمماً؛ ومعنى الآية: وأمم سنمتعهم في الدنيا

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٣٨).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٧).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٦٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٣٩).
(٤) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٨).
(٥) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٨).

بما فيها من المتاع، ونعطيهم منها ما يعيشون به، ثم يمسّهم منا في الآخرة عذاب أليم.

وقيل: يمسهم إمّا في الدنيا أو في الآخرة، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى قصة نوح، وهي مبتدأ والجمل[١] بعده أخبار ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ من جنس أنباء الغيب، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر؛ أي: مِنْ أخبار الغيب التي مرّت بك في هذه السورة.

والضمير[٢] في ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ راجع إلى القصة، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿مَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا﴾ يعلمها ﴿قَوْمُكَ﴾ بل هي مجهولة عندكم مِنْ قبل الوحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما تلاقيه من كُفّار زمانك، والفاء لتفريع[٣] ما بعدها على ما قبلها ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ، وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر، ولا اعتبار بمباديه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن[٤]، قال: نادى نوح ربه فقال: ربّ إن ابني من أهلي، وإنك قد وعدتني أن تنجي لي أهلي، وإن ابني من أهلي.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر، عن ابن عباس[٥]، قال: «ما بغت امرأة نبيّ قط».

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يقول: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٠٢)، و«الفريد» (٢/ ٦٣٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٩٦).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «روح المعاني» (١١/ ٤٩٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٥١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٨) من طريق المنذر بن شاذان، به.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٤، ٢٠٣٩)، وابن عساكر (٦٢/ ٢٦٥) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.

وأخرج ابن أبي حاتم[١]، وأبو الشيخ، عنه، قال: إن نساء الأنبياء لا يزنين، وكان يقرؤها ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ﴾ يقول: مسألتك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٢]، في قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قال: بيَّن الله لنوح أنه ليس بابنه.

وأخرج أبو الشيخ[٣]، عن ابن زيد، في قوله: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [٢/٥٠] قال: أُهبِطوا والله عنهم راض.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي[٤]، قال: دخل في ذلك السلام والبركات كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

وأخرج ابنُ جرير[٥]، عن الضحاك ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾؛ يعني: ممن لم يولد، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني: متاع الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة.

وأخرج أبو الشيخ[٦] قال: ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾؛ يعني: العرب ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ القرآن.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٠) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٢٧) بسند صحيح.

• قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٣٣) وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: تأويل ذلك: إنَّه ليس من أهلك الذين وعدتُك أن أُنجيهم؛ لأنّه كان لدينك مخالفاً وبي كافراً، وكان ابنه لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيَّه محمداً ﷺ فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢] وغير جائز أن يخبرَ أنَّه ابنه، فيكون بخلاف ما أخبر.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٣٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٢) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٢) من طريق عبيد بن سلمان، به.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤١) عن السدي.

[قصة هود عليه السلام]:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
۝٥١ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً
إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا
عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ
ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ
عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ معطوف[١] على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥]؛ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم؛ أي: واحداً منهم، وهوداً عطف بيان، وقوم عاد كانوا عبدَة أوثانٍ، وقد تقدّم مثل هذا في الأعراف.

وقيل[٢]: هم عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى، وعاد الأخرى هم: شداد ولقمان وقومهما المذكورون في قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]، وأصل عاد: اسم رجل، ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر، ونحوهما.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرئ «غيرِهِ» بالجرّ[٣] على اللفظ، وبالرفع[٤] على

---

(١) «روح المعاني» (١١/٥٠٦)، و«البحر المحيط» (٦/١٦٦).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٤١).
(٣) «البحر المحيط» (٦/١٦٦)، و«التيسير» (ص١١٠)، و«النشر» (٢/٢٧٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٤٦٧). قرأ بالجر الكسائي وأبو جعفر، وقرأ بالرفع باقي العشرة وهما قراءتان متواترتان، أما قراءة النصب فشاذة.
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

محل ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾، وقرئ بالنصب[1] على الاستثناء.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ أي: ما أنتم باتخاذ إلٰه غير الله إلا كاذبون على الله ﷻ، ثم خاطبهم فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: لا أطلب منكم أجراً على ما أبلّغه إليكم، وأنصحكم به مِنْ الإرشاد إلى عبادة الله وحده، وأنه لا إلٰه لكم سواه، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام.

وقد تقدّم معنى هذا في قصّة نوح ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾؛ أي: ما أجري الذي أطلب إلّا من الذي فطرني؛ أي: خلقني فهو الذي يُثيبني على ذلك.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ أجرَ الناصحين إنما هو من ربّ العالمين، قيل: إنما قال فيما تقدّم في قصة نوح: مالاً، وهنا قال: أجراً لذكر الخزائن بعده في قصة نوح، ولفظ المال بها أليق، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة.

والمعنى: اطلبوا مغفرته لما سلف مِنْ ذنوبكم، ثم توسّلوا إليه بالتوبة.

وقد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح.

ثم رغّبهم في الإيمان بالخير العاجل، فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثير الدرور، وهو منصوب[2] على الحال، دَرّتِ السماء تَدرّ، وتُدرّ، فهي: مِدْرار، وكان قوم هود أهل بساتين، وزرع، وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ معطوف[3] على يرسل؛ أي: شدّة مضافة إلى شدّتكم، أو خَصْباً إلى خصبكم، أو عزّاً إلى عزّكم.

قال الزجّاج[4]: المعنى: يزدكم قوّة في النِّعم ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: لا تُعْرِضوا عمّا أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر مصرّين عليه.

والإجرام: الآثام كما تقدّم، ثم أجابه قومُه بما يدلّ على فرط جهالتهم، وعظيم غباوتهم، فـ ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة نعمل عليها، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه، عناداً وبعداً عن الحق ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ التي نعبدها من دون الله.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٤٤)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٠٧).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٠٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٨).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٦٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٠٧).

(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٧).

ومعنى: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عَنْ قولك، فالظرف في محل نصب[١] على الحال ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدّقين في شيء مما جئتَ به ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: ما نقول إلا أنّه أصابك بعضُ[٢] آلهتنا التي تعيبها، وتُسفّه رأينا في عبادتها، بسوء: بجنون، حتى نشأ عَنْ جنونك ما تقوله لنا، وتكرره علينا من التنفير عنها، يقال: عراه الأمر واعتراه: إذا ألمّ به، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاته بهم، وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه، وأنهم لا يقدرون على شيء مما يريده الكفار به؛ بل اللهُ سبحانه هو الضارّ النافع فـ ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أنتم ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من إشراككم من دون الله من غير أَنْ يُنزّل به سلطاناً ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون مِنْ أنها تقدر على الإضرار بي، وأنّها اعترتني بسوء ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تمهلوني؛ بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم.

وفي هذا مِنْ إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصكّ مسامعهم، ويوضح عجزهم، وعدم قدرتهم على شيء ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ فهو: يعصمني من كيدكم، وإن بلغتم في تطلب وجوه الإضرار بي كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه.

ثم لما بيَّن لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته، وصَفَه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه مِنْ اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، وأنه مالك[٣] للجميع، وأن ناصية كل دابة من دوابّ الأرض بيده، وفي قبضته وتحت قهره، وهو تمثيل لغاية التسخير[٤] ونهاية التذليل، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمنّ عليه جزوا ناصيته، فجعلوا ذلك علامةً لقهره.

قال الفراء[٥]: معنى آخذ بناصيتها: مالكها والقادر عليها، وقال القتيبي[٦]: قاهرها لأنّ مَنْ أخذتَ بناصيته فقد قهرته. والناصية[٧] قصاص الشعر من مقدّم الرأس.

---

(١) «الفريد» (٢/ ٦٣٨)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٠٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٣).
(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٧٠).
(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٤٩)، و«الكشاف» (٣/ ٢٠٩).
(٤) «روح المعاني» (١١/ ٥١٣ ـ ٥١٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٥٥ ـ ٥٦).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٤٣). (٦) في «تأويل مشكل القرآن» (ص١٣٨).
(٧) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٤٤).

ثم علّل ما تقدّم بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: هو على الحق والعدل، فلا يكاد يسلطكم عليّ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: تتولوا فحذفت إحدى التاءين، والمعنى: فإنْ تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ ليس عليّ إلّا ذلك، وقد لزمتكم الحجة.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ جملة مستأنفة[١] لتقرير الوعيد بالهلاك؛ أي: يستخلف في دياركم وأموالكم قوماً آخرين، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾.

وروى حفص عن عاصم أنه قرأ «ويَسْتخلفْ» بالجزم[٢] حملاً على موضع (فقد أبلغتكم) ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾؛ أي: بتوليكم، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب مُهيمنٍ عليه، يحفظه من كل شيء، قيل: و«على» بمعنى[٣] اللّام، فيكون المعنى: لكل شيء حفيظ، فهو يحفظني مِنْ أن تنالوني بسوء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابنا الذي هو إهلاك عاد ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مِنْ قومه.

قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: برحمة عظيمة كائنة منا؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله.

وقيل: هي الإيمان ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد قيل: وهو السموم التي كانت تدخل أنوفهم ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ مبتدأ[٤] وخبر، وأنّث الإشارة اعتباراً بالقبيلة.

قال الكسائي[٥]: إنّ من العرب من لا يصرف عاد ويجعله إسماً للقبيلة.

﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كفروا بها، وكذبوها وأنكروا المعجزات ﴿وَعَصَوْاْ

---

(١) «روح المعاني» (١١/٥١٦)، و«الفريد» (٢/٦٣٩)، و«التبيان» (٢/٧٠٤).
(٢) «روح المعاني» (١١/٥١٦)، و«البحر المحيط» (٦/١٦٩)، و«حاشية الجمل» (٢/٤٠٥). هي رواية شاذة عَنْ حفص والمتواتر عنه الرفع.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٤٦)، و«جامع البيان» (١٢/٤٥١).
(٤) «الفريد» (٢/٦٣٩)، و«البحر المحيط» (٦/١٦٧)، و«روح المعاني» (١١/٥١٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٨٩).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٢٨٩).

رُسُلَهُۥ﴾؛ أي: هوداً وحده[١]؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا لأنّ مَنْ كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل.

وقيل: إنهم عصوا هوداً ومَنْ كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رُسلاً متعدّدين لكذبوهم.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار: المتكبر، والعنيد: الطاغي الذي لا يقبل الحقَّ ولا يذعن له.

قال أبو عُبيدة[٢]: العنيد: العنود والعاند والمعانِد، وهو المعارض بالخلاف مِنْه، ومنه قيل للعِرْق الذي يتفجّر بالدم: عاند. قال الراجز[٣]:

إنـي كـبـيـرٌ لا أطـيـقُ الـعُـنَّـدا[٤]

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾؛ أي: ألحقوها، وهي: الإبعاد مِنْ الرحمة والطرد مِنْ الخير، والمعنى: أنّها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا ﴿و﴾ أتبعوها ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فلُعِنوا هنالك كما لُعنوا في الدنيا ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾؛ أي: بربهم.

وقال الفرّاء[٥]: [٢/٥١] كفروا نعمة ربهم، يقال: كفرته وكفرت به، مثل: شكرتُه وشكرت له.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾؛ أي: لا زالوا مُبْعدين من رحمة الله، والبعد: الهلاك، والبعد: التباعد من الخير، يقال: بَعُد يبعُد بُعْداً: إذا تأخر وتباعد، وبَعِد يَبْعَد بَعَداً: إذا هلَكَ، ومنه قول الشاعر:

لا يـبـعُـدنْ قـومـي الـذيـن هـم سُـمُّ الـعُـداةِ وآفـةُ الـجـزرِ[٦]

وقال النابغة[٧]:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) في «مجاز القرآن» (١/٢٩٠).

(٣) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٤٥٢)، والجوهري في «الصحاح» (٢/٥١٣).

(٤) العاند: البعير الذي يجورُ عن الطريق ويعدل عن القصد. «الصحاح» (٢/٥١٣).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٢٠).

(٦) انظر: «ديوان الخرنق بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه» (ص٢٩).

(٧) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٩٠).

فلا تبعَدن إنّ المنيةَ منهلٌ وكلُّ امرئٍ يوماً به الحالُ زائلُ

ومنه قول الشاعر:

ما كانَ ينفعني مقالُ نسائِهم وقتلت دونَ رجالِهم لا تبعُدِ

وقد تقدّم أنّ العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[(١)] ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾؛ أي: خلقني.

وأخرج ابن عساكر، عن الضحاك[(٢)]، قال: أمسك اللهُ عَنْ عاد القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ فأبوا إلا تمادياً.

وأخرج أبو الشيخ[(٣)]، عن هارون التيمي، في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ قال: المطر.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[(٤)]، في قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قال: شدّةً إلى شدّتكم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة[(٥)]، في قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قال: ولد الولد.

وأخرج ابن جرير[(٦)]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ قال: أصابتك بالجنون.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٧)] عن يحيى بن سعيد قال: ما مِنْ أحد يخاف لصّاً عادياً، أو سَبُعاً ضارياً، أو شيطاناً مارداً فيتلو هذه الآية إلّا صرفه الله عنه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٣) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤٢).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٥) من طريق طلق بن غنّام، به.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٤٧) بسند ضعيف.

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤٣).

وأخرج ابنُ جرير[١]، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ قال: الحق.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عَنْ أبي مالك، في قوله: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ قال: شديد.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٣]، في قوله: ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ قال: المشرك.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السديّ[٤]، قال: العنيد: المُشَاقّ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[٥]، في قوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةً﴾ قال: لم يُبْعث نبيّ بعد عاد إلا لُعنتْ على لسانه.

وأخرج ابن المنذر[٦]، عن قتادة، في الآية قال: تتابعت عليهم لعنتان من الله: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

[قصة صالح عليه السلام]:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٥٠) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٧) من طريق السُّدي، به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٥٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٨) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٨) بسند حسن.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤٤).

قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ معطوف[١] على ما تقدّم. والتقدير: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، والكلام فيه، وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ كما تقدّم في قصة هود.

وقرأ الحسن ويحيى بن وثّاب «وإلى ثمودٍ» بالتنوين[٢] في جميع المواضع.

واختلف سائر القراء[٣] فيه، فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع؛ فالصرف باعتبار التأويل بالحيّ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، وأنشد سيبويه[٤] في التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة:

غلبَ المساميحَ الوليدُ جماعةً وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادَها[٥]

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ابتدأ خلقكم من الأرض؛ لأن كل بني آدم من صُلْب آدم، وهو مخلوق مِنْ الأرض ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: جعلكم عُمّارها وسُكّانها، مِنْ قولهم: أعمر فلان فلاناً دارَه، فهي له عُمْرى، فيكون استفعل بمعنى أفعل: مثل استجاب بمعنى أجاب.

وقال الضحاك[٦]: معناه: أطال أعمارَكم، وكانت أعمارهم مِنْ ثلثمائة إلى ألف.

وقيل: معناه: أمركم بعمارتها مِنْ بناء المساكن وغرس الأشجار.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾؛ أي: سلوه المغفرة لكم مِنْ عبادة الأصنام ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ارجعوا إلى عبادته ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾؛ أي: قريب الإجابة لمن دعاه، وقد تقدّم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾؛ أي: كنّا نرجو أن تكون فيناً سيداً مطاعاً ننتفع برأيك، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من ادّعائك النبوّة، ودعوتك إلى التوحيد.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٢٣).

(٢) «التيسير» (ص١٢٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧٥)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٢٣)، و«القراءات الشاذة» (ص٤٤). القراءة بالتنوين شاذة، والقرّاء الذين لم يُصرفوه هم حفص عن عاصم وحمزة ويعقوب واختلف عن الباقين.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) في «الكتاب» (٣/ ٢٥٠).

(٥) انظره في ديوان: عدي بن الرَّقاع العاملي (ت٩٥هـ) (ص١٢٨) ط. الكتب العلمية، بيروت.

(٦) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٩٠)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٤٧).

وقيل: كان صالح[(١)] يعيب آلهتهم، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا: انقطع رجاؤنا منك.

والاستفهام في قوله: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ للإنكار[(٢)]، أنكروا عليه هذا النهي.

و﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ في محل نصب بحذف الجار؛ أي: بأن نعبد، ومعنى ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: ما كان يعبد آباؤنا، فهو حكاية حال[(٣)] ماضية لاستحضار الصورة ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ مِنْ أرَبْتُه، فأنا أُرِيبُه: إذا فعلت به فعلاً يوجب له الرِّيبة، وهي: قلقُ النفس وانتفاء الطمأنينة، أو مِنْ أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة.

والمعنى: إنّنا لفي شك مما تدعونا إليه مِنْ عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان موقع في الريب ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ﴾؛ أي: من جهته ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: نبوّة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع، لكنها صدّرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين؛ لأنهم في شك من ذلك، كما وصفوه عن أنفسهم ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام[(٤)] معناه: النفي؛ أي: لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ الرسالة، وراقبتكم وفترت عما يجب عليّ من البلاغ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بتثبيطكم إياي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي، والتعرّض لعقوبة الله لي. قال الفرّاء[(٥)]؛ أي: تضليل وإبعاد مِنْ الخير.

وقيل: المعنى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾[(٦)] «باحتجاجكم» بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ قد مرّ تفسير هذه الآية في الأعراف.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، و«جامع البيان» (١٢/ ٤٥٤)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٩٠).
(٢) «روح المعاني» (١١/ ٥٢٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٤٠).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٧٥ ـ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٢٦).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٥٣).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٠).
(٦) «جامع البيان» (١٢/ ٤٥٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٩١).

ومعنى لكم آية: معجزة ظاهرة، وهي منتصبة[١] على الحال، و«لكم» في محل نصب[٢] على الحال «من آية» مقدّمة عليها، ولو تأخرت لكانت صفة لها.

وقيل: إنّ «ناقة الله» بدل مِنْ «هذه»، والخبر «لكم»، والأوّل: أولى؛ وإنما قال: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم؛ وقيل: من صخرة صمّاء.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: دعوها تأكل في أرض الله ممّا فيها من المراعي التي تأكلها الحيوانات. قال أبو إسحاق الزجّاج[٣]: ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف[٤]، ولعله يعني في الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا في الآية، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ قال الفراء[٥]: بَعقْر، والظاهر: أنّ النهي عما هو أعمّ من ذلك ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ جواب النهي؛ أي: قريب مِنْ عَقْرها. وذلك ثلاثة أيام ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي؛ بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العَقْر لها.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾؛ أي: تمتعوا[٦] بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام، فإنّ العقاب نازل عليكم بعدها.

قيل: إنهم عقروها يوم الأربعاء، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت، وأتاهم العذاب يوم الأحد.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ أي: غير مكذوب فيه، فحذف الجارّ اتساعاً، أو من باب المجاز كأنّ الوعد إذا وفّى به صدق ولم يكذب.

ويجوز أن يكون[٧] مصدراً؛ أي: وعد غير كذْبٍ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/١٧٧)، و«الفريد» (٢/٦٤١)، و«روح المعاني» (١١/٥٢٨ ـ ٥٢٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٦٠).
(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٠)، و«الكتاب» (١/ ٢٥).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٠).
(٦) «جامع البيان» (١٢/ ٤٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٧٨).
(٧) «روح المعاني» (١١/ ٥٣٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧٨)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٦٠).

عذابنا، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ قد تقدّم تفسير هذا في قصة هود ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ أي: ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة، [٤/٥٢].

والخزي: الذّل والمهانة؛ وقيل: مِنْ عذاب يوم القيامة، والأوّل: أولى.

وقرأ نافع والكسائي بفتح يوم[١] على أنّه اكتسب البناء من المضاف إليه. وقرأ الباقون بالكسر[٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: في اليوم الرابع من عَقْر الناقة، صيح بهم فماتوا، وذكر الفعل لأنّ الصيحة[٣] والصياح واحد، مع كون التأنيث غير حقيقي.

قيل: صيحة جبريل، وقيل: صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا، وتقدّم في الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨].

قيل: ولعلّها وقعت عقب الصيحة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾؛ أي: كأنّهم لم يُقيموا في بلادهم أو ديارهم.

والجملةُ في محل[٤] نصب على الحال والتقدير: مماثلين لمن لم يُوجد ولم يُقم في مقامٍ قط ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ وضع الظاهر موضع[٥] المضمر لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ وقرأ الكسائي بالتنوين.

وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما في إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى.

وقد أخرج أبو الشيخ[٦]، عن السديّ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: خلقكم من الأرض.

---

(١) «التيسير» (ص١٢٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٢)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٣٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٧٨ ـ ١٧٩).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «الفريد» (٢/ ٦٤٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٣٣).
(٤) «التبيان» (١/ ٥٨٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٣٣).
(٥) «الفريد» (٢/ ٦٤٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤٤).

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[١] ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ قال: أعمَركم فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن ابن زيد ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ قال: استخلفكم فيها.

أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٣] ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خساراً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء الخراساني[٤] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٥]، في قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ قال: ميّتين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٦] ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ قال: كأن لم يعيشوا فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه[٧]، قال: كأن لم يَعمُروا فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨]، عن قتادة، قال: كأن لم يَنْعَموا فيها.

[قصة لوط وقومه، وذكر قصة إبراهيم وبشارة الملائكة عليهم السلام]:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٨) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٨) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٥٥) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٩) من طريق عثمان بن عطاء، به.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٦ رقم ٨٦٨٩) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٢) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٣) بسند صحيح.
(٨) (٦/ ٢٠٥٢).

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٖ ٧٦﴾.

هذه قصّة[(١)] لوط عليه السلام وقومه، وهو ابنُ عمِّ إبراهيم عليه السلام، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين. فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط، مرّوا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كلُّ مَنْ نزل عنده يُحسن قِراه، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة، فظنهم أضيافاً، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل[(٢)]. وقيل: كانوا تسعة[(٣)]، وقيل: أحد عشر[(٤)]، والبُشْرى[(٥)] التي بشّروه بها هي بشارته بالولد.

وقيل: بإهلاك[(٦)] قوم لوط، والأول: أولى.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ منصوب[(٧)] بفعل مقدر؛ أي: سلّمنَا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ[(٨)] محذوف؛ أي: أمْركم سلامٌ، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: عليكم سلام ﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ أي: إبراهيم ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٖ﴾ قال أكثر النحويين[(٩)]: ﴿أَن﴾ هنا بمعنى: حتى؛ أي: فما لبث حتى جاء.

وقيل: إنَّها في محل نصب[(١٠)] بسقوط حرف الجر، والتقدير: فما لبث عن أن

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٥٧).
(٢) قاله ابن عباس. «معالم التنزيل» (٢/ ٣٩٢).
(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٩٢) عن الضحاك.
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٩٢) عن السُّدي.
(٥) «جامع البيان» (١٢/ ٤٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٥٧).
(٦) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٦٦).
(٧) «روح المعاني» (١٢/ ٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٥)، و«الفريد» (٢/ ٦٤٣).
(٨) «البحر المحيط» (٦/ ١٧٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٥)، و«الفريد» (٢/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤).
(٩) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٤٤).
(١٠) انظر: المصادر المتقدمة.

جاء؛ أي: ما أبطأ إبراهيم عَنْ مجيئه بعجل، وما نافية؛ قاله[١] سيبويه. وقال الفراء[٢]: فما لبث مجيئه؛ أي: ما أبطأ مجيئه.

وقيل[٣]: إنّ (ما) موصولة وهي مبتدأ والخبر: أَنْ جاء بعجل حنيذ. والتقدير: فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ.

والحنيذ: المشويّ مُطْلقاً؛ وقيل: المشويّ بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار، يقال: حَنذَ الشاة يحنذها: جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ.

وقيل: معنى حنيذ[٤]: سمين؛ وقيل: الحنيذ هو: السَّمِيط[٥]؛ وقيل: النضيج، وهو فعيل بمعنى مفعول، وإنما جاءهم بعجل؛ لأنّ البقر كانت أكثر أمواله.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لا يمدونها إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ يقال: نكرتُه وأنكرتُه واستنكرته: إذا وجدته على غير ما تَعْهد، ومِنْه قول الشاعر:

فأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادثِ إلا الشيبَ والصلعا[٦]

فجمع بين اللغتين[٧]، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إذا أنكرتني بلدةٌ أو نكِرْتها ... خرجْتُ مع البازي عليّ سوادُ

وقيل: يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونكرتُ لما تراه بقلبك.

قيل: وإنما استنكر منهم ذلك؛ لأنّ عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنّوا أنه قد جاء بشرٍّ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أحسّ في نفسه منهم ﴿خِيفَةً﴾؛ أي: خوفاً وفزعاً؛ وقيل: معنى أوجس: أضمر في نفسه خيفةً، والأول ألصق بالمعنى اللُّغوي، ومنه قول الشاعر[٨]:

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٢).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٠ ـ ٢١).
(٣) «التبيان» (٢/ ٧٠٦)، و«إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٢)، و«الفريد» (٢/ ٦٤٤).
(٤) «الصحاح» (٢/ ٥٦٢).
(٥) «الصحاح» (٣/ ١١٣٥).
قال الجوهري: وسمطتُ الجدي إذا نظفت من الشعر بالماء الحارّ لتشويه، فهو سميطٌ ومسموطٌ.
(٦) انظر: «ديوان الأعشى» (ص١٥١). (٧) «جامع البيان» (١٢/ ٤٧٢).
(٨) انظر: «ديوان يزيد بن معاوية» (ص٢٥).

جاء البريدُ بقرطاسٍ يحثُ به فأوجسَ القلبُ مِنْ قرطاسِهِ فزعا

وكأنه ظنّ أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره، أو لتعذيب قومه ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف؛ بل أوجس ذلك في نفسه، فلعلّهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه، أو قالوه له بعدما قال عقب ما أوجس في نفسه مِنْ الخيفة قولاً يدلّ على الخوف، كما في قوله في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، ولم يذكر ذلك ها هنا اكتفاء بما هنالك.

ثم علّلوا نهيه عَنْ الخوف بقولهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: أرسلنا إليهم خاصةً، ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٧، ٥٨، والذاريات: ٣١، ٣٢].

وجملة ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ في محل نصب[١] على الحال، قيل: كانت قائمةً عند تحاورهم وراء الستر.

وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس، والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور[٢]. وقال مجاهد وعكرمة: إنّه الحيض، ومنه قول الشاعر:

وإني لآتي العِرسَ عند طُهورها وأهجُرها يوماً إذا تكُ ضاحكاً[٣]

وقال الآخر:

وضِحْكُ الأرانبِ فوقَ الصفا كمثلِ دم الخوفِ يوم اللِّقا[٤]

والعرب تقول: ضحكت الأرنبُ: إذا حاضت.

وقد أنكر بعضُ اللُّغويين[٥] أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت.

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك. وقال الفراء[٦]: فيه تقديم وتأخير.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٦٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٥).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٦٤). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٦٣).
(٤) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٧٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٦٣).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٦٣). (٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣).

والمعنى: فبشرناها فضحكت سروراً بالولد.

وقرأ محمد بن زياد مِنْ قُرّاء مكة (فضحَكت) بفتح الحاء[١]، وأنكره المهدوي[٢] ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قرأ حمزة، وابن عامر، وحفص بنصب[٣] ﴿يَعْقُوبَ﴾ على أنّه مفعول فعل دل عليه ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾؛ كأنه قال: ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب.

وأجاز الكسائي[٤]، والأخفش[٤]، وأبو حاتم أن يكون يعقوب في موضع جرّ.

وقال الفراء[٥]: لا يجوز الجرّ إلا بإعادة حرفه.

قال سيبويه[٦]: ولو قلتَ: مررت بزيد أوّل من أمس، وأمس عمر كان قبيحاً خبيثاً؛ لأنك فرقت بين المجرور، وما يشركه، كما يفرق بين الجار والمجرور.

وقرأ الباقون برفع يعقوبُ[٧] على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذي قبله.

وقيل: الرفع بتقدير فعل محذوف؛ أي: ويحدث لها، أو وثبت لها.

وقد وقع التبشير هنا لها، ووقع لإبراهيم في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما.

وجملة: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل، فماذا قالت؟

قال الزجّاج[٨]: أصلها يا ويلتي، فأبدل من الياء ألف لأنها أخفّ من الياء والكسرة، وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع كثيراً على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يَعجبْنَ منه.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٧). وهي قراءة شاذة.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٦٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٧).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٨٣)، و«النشر» (٢/ ٢٩٠)، و«التيسير» (ص١٢٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٤٨١).

(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٣)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٦ ـ ٧٠٧).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢).

(٦) في «الكتاب» (١/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٧) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٣).

(٨) في «معاني القرآن» (٣/ ٦٣).

وأصل الويل: الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع.

والاستفهام[١] في قولها: [٢/٥٣] ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ للتعجب؛ أي: كيف ألد وأنا شيخة قد طعنتُ في السنّ، يقال: عَجَزْتُ تعجز مخففاً ومثقلاً عَجْزاً وتَعْجيراً؛ أي: طعنت في السنّ، ويقال: عجوز وعجوزة.

وأما عَجِزتْ بكسر الجيم: فمعناه: عَظُمت عجيزتُها، قيل: كانت بنت تسع وتسعين، وقيل: بنت تسعين.

﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؛ أي: وهذا زوجي إبراهيم شيخاً لا تحبل من مثله النساء، و«شيخاً» منتصب[٢] على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة.

قال النحاس[٣]: وفي قراءة أُبيّ وابن مسعود (شيخٌ) بالرفع على أنه خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف؛ وعلى الأول يكون «بعلي» بدلاً من اسم الإشارة[٤].

قيل: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة.

وقيل: ابن مائة، وهذه المُبشَّرة هي سارة امرأة إبراهيم.

وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها ابن، وأيست منه لكبر سنها، فبشّرها الله به على لسان ملائكته.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ أي: ما ذكرته الملائكةُ مِنْ التبشير بحصول الولد، مع كونها في هذه السنّ العالية التي لا يولد لمن كان مثلها شيء يقضي منه العجب.

وجملة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ مستأنفة[٥] جواب سؤال مقدّر، والاستفهام فيها للإنكار؛ أي: كيف تعجبين من قضاء الله وقدره، وهو لا يستحيل عليه شيء، وإنّما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوّة، ولا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٦٨)، و«روح المعاني» (١٢/٢٣).

(٢) «البحر المحيط» (٦/١٨٤)، و«التبيان» (٢/٧٠٧)، و«الفريد» (٢/٦٤٩).

(٣) في «إعراب القرآن» له (٢/٢٩٤).

(٤) انظر: «التبيان» (٢/٧٠٧)، و«الفريد» (٢/٦٤٩)، و«روح المعاني» (١٢/٢٣ ـ ٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٢٩٤).

(٥) «البحر المحيط» (٦/١٨٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٦٩). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا قالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: الرحمة التي وسعت كلَّ شيء، والبركات وهي: النموّ والزيادة، وقيل: الرحمة: النبوّة، والبركات: الأسباط مِنْ بني إسرائيل لما فيهم من الأنبياء.

وانتصاب[(١)] «أهلَ البيت» على المدح أو الاختصاص، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾؛ أي: يفعل موجبات حَمْده مِنْ عباده على سبيل الكثرة ﴿مَّجِيدٌ﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات، والجملة تعليل[(٢)] لقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾؛ أي: الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال: ارتاع مِنْ كذا: إذا خاف، ومنه قول النابغة[(٣)]:

فارتاع مِنْ صوت كَلّابٍ فبات له ... طوعَ الشوامتِ مِنْ خوفٍ ومن حذرِ

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: بالولد، أو بقولهم: لا تخف، قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قال الأخفش[(٤)] والكسائي: إن يجادلنا في موضع جادلنا، فيكون هو جواب «لما»، لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل.

قال النحاس[(٥)]: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط.

وقيل: إنّ الجواب محذوف، و«يجادلنا» في موضع نصب على الحال، قاله الفرّاء[(٦)]. وتقديره: فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا؛ أي: يجادل رُسلَنا.

وقيل: إنّ المعنى: أخذ يجادلنا، ومجادلته لهم قيل: إنّه سمع قولهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال: أرأيتم[(٧)] إن كان فيهم خمسون من

---

(١) «الفريد» (٢/ ٦٥١)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٤).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٦٦). (٣) «ديوان النابغة الذبياني» (ص٣٢).
(٤) ذكره عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).
(٥) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٩٥). (٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٧٢)، و«جامع البيان» (١٢/ ٤٨٦).

المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، ثم قال: فعشرة فخمسة؟ قالوا: لا. قال: فواحد؟ قالوا: لا.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢]، فهذا معنى مجادلته في قوم لوط؛ أي: في شأنهم وأمرهم. ثم أثنوا على إبراهيم، أو أثنى الله عليه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾؛ أي: ليس بعجول في الأمور، ولا بموقع لها على غير ما ينبغي. والأوّاه: كثير التأوّه، والمنيب: الراجع إلى الله، وقد تقدّم في براءة الكلام على الأوّاه.

قوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ هذا قول الملائكة له؛ أي: أعرض عن هذا الجدال في أمر قد فُرغ منه، وجفّ به القلم، وحقّ به القضاء.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الضمير للشأن، ومعنى مجيء أمر الله: مجيء عذابه الذي قدّره عليهم، وسبق به قضاؤه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾؛ أي: لا يردّه دعاء ولا جدال؛ بل هو واقع بهم لا محالة، ونازل بهم على كل حال، ليس بمصروف ولا مدفوع[(١)].

وقد أخرج ابن أبي حاتم[(٢)]، عن عثمان بن محصن، في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورافئيل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٣)]، في قوله: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قال: نضيج.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)]، عنه، قال: مشويّ.

وأخرج أبو الشيخ[(٥)]، عنه، أيضاً قال: سميط.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الضحاك[(٦)] قال: الحنيذ الذي أنضج بالحجارة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٧٣)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٩٤).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٤) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٦٨) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٣) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٤٦).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٣) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم[(١)]، عن يزيد بن أبي يزيد البصري، في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ قال: لم ير لهم أيدياً فنكرهم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[(٢)]، في قوله: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ قال: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير، وأنه يحدّث نفسه بشرّ، ثم حدّثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته.

وأخرج ابنُ المنذر[(٣)]، عن المغيرة قال: في مصحف ابن مسعود: «وامرأته قائمة وهو جالس»[(٤)].

وأخرج ابن أبي حاتم[(٥)]، عن مجاهد ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ قال: في خدمة أضياف إبراهيم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[(٦)] قال: لما أوجس إبراهيم في نفسه خيفة حدّثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة، ومما أتاهم من العذاب.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[(٧)] ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال: فحاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة.

وأخرج ابن جرير[(٨)]، عن مجاهد، في قوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٤) من طريق أحمد بن حاتم الرملي، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٧١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٤) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥١).

(٤) وهي قراءة شاذة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٥) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٦).

(٧) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥١).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٧٦) بسند ضعيف.

وأخرج أبو الشيخ[1]، عن عكرمة قال: حاضت.

وأخرج أبو الشيخ[1] عن ابن عمر مثله.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[2]، في قوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قال: هو ولد الولد.

وأخرج ابن الأنباري[3] في كتاب «الوقف والابتداء»، عن حسان بن [أبجر][4] قال: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل من هذيل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قال: ولد الولد.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الشعب» من طرق، عن ابن عباس[5] أنه كان ينهى عَنْ أن يزاد في جواب التحية على قولهم: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ويتلو هذه الآية: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوَه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[6]، في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ قال: الفَرَقُ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قال: يخاصمنا.

وأخرج عبد الرزاق، وأبو الشيخ، عن قتادة[7] في تفسير المجادلة قال: إنه

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٦) من طريق حبيب بن أبي ثابت، به.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٢).

(٤) كذا في المخطوط والذي في «الدر المنثور»: (ابن أبحر). وفي نسخة «الحُر».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٨٧٧) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٨٧، ٤٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٧) بسند صحيح.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٩٠) بسند صحيح.

قال لهم يومئذ: أرأيتم إن كان فيهم خمسون مِنْ المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم، قال: أربعون؟ قالوا: وأربعون، قال: ثلاثون؟ قالوا: وثلاثون حتى بلغوا عشرة، قالوا: إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير؟ قال قتادة: إنّه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[(١)] قال: لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)]، عن عمر بن ميمون قال: الأوّاه: الرحيم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)]، عن ابن عباس، قال: المنيب: المقبل إلى طاعة الله.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عن قتادة قال: المنيب المخلص.

[قصة لوط مع قومه]:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٤٩٠) من طريق الأعمش، به.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٦) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٦) بسند صحيح.

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا إلى لوط.

فلما رآهم لوط، وكانوا في صورة غِلْمان حسان مُرْد، ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾؛ أي: ساءه مجيئهم، يقال: ساءه يسوءه، وأصل سيء بهم سُويء بهم نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء، ولما خُفّفت الهمزة ألقيت حركتها على الياء.

وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو عمرو بإشمام السين الضم[1].

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ قال الأزهري[2]: الذرع يوضع موضع الطاقة، وأصله أن البعير يَذْرع بيده في سيره على قدر سَعة خَطْوه؛ أي: يبسطها، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته، ضاق ذرعه عَنْ ذلك، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدّة الأمر.

وقيل: هو مِنْ ذَرَعه القيء[3]: إذا غَلبَه وضاق عَنْ حبسه.

والمعنى: أنّه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم مِنْ قومه، لما يعلم مِنْ فسقهم [٢/٥٤] وارتكابهم لفاحشة اللواط ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾؛ أي: شديد. قال الشاعر[4]:

وإنك إن لم ترض بكرَ بنَ وائلٍ   يكن لك يومٌ بالعراق عصيبُ

يقال: عصيب وعَصَبصَبْ وعَصوصب على التكثير؛ أي: يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه قيل: عُصْبة وعِصابة؛ أي: مجتمعو الكلمة، ورجل معصوب؛ أي: مجتمع الخَلْق ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: جاءوا لوطاً، الجملة في محل نصب[5] على الحال.

---

(١) «التيسير» (ص٥٠)، و«النشر» (٢/٢٠٨). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» ص(١٧٢): الصواب أن القارئين بالإشمام نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس، وأما أبو عمرو فالرواية عنه في هذا شاذة، والباقون دون إشمام، والإشمام لا يضبط إلّا بالمشافهة والقراءة على الشيوخ.

(٢) في «تهذيب اللغة» (٢/٣١٦).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٢٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٢/٤٩٧)، و«الجامع لأحكام القرآن».

(٥) «روح المعاني» (١٢/٥٥)، و«التبيان» (٢/٧٠٩)، و«الفريد» (٢/٦٥٣).

ومعنى ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: يُسْرِعون إليه. قال الكسائي[(١)]، والفراء، وغيرهما من أهل اللغة[(٢)]: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة، يقال: أهرع الرجل إهراعاً؛ أي: أسرع في رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى، قال مهلهل[(٣)]:

فجاءوا يُهرَعون وهم أُسارى نقودهُم على رغم الأنوف

وقيل: يهرعون: يهرولون، وقيل: هو مشي بين الهرولة والعَدْوّ[(٤)]. والمعنى: أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه؛ كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت، كانوا يعملون السيئات.

وقيل: ومِنْ قبل لوط كانوا يعملون السيئات؛ أي: كانت عادتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه لذلك العمل، قام إليهم[(٥)] لوط مدافعاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ أي: تزوّجوهنّ، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي، وقد كان له ثلاث بنات، وقيل: اثنتان، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهنّ، فيمتنع لخبثهم، وكان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما بنتيه.

وقيل: أراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ النساء جملة؛ لأن نبيّ القوم أب لهم، وقالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة، ولم يرد الحقيقة.

ومعنى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ أي: أحلّ وأنزه؛ والتطهر: التنزه عما لا يحلّ، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل؛ بل هي مثل «الله أكبر».

وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر بنصب[(٦)] «أطهَر»، وقرأ الباقون بالرفع[(٧)]؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ، وخبره «بناتي»، وهنّ ضمير فصل، و«أطهر» حال.

---

(١) ذكره عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (١١/ ١٧٥).
(٢) «تهذيب اللغة» (١/ ١٤١)، و«الصحاح» (٣/ ١٣٠٦).
(٣) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٠)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٩٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٥).
(٤) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٧٥).
(٥) «المحرر الوجيز» (٩/ ١٩٦ ـ ١٩٧).
(٦) «التبيان» (٢/ ٧٠٩)، و«الفريد» (٢/ ٦٥٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٥)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٠). والقراءة بنصب (أطهر) شاذة.
(٧) «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٧٨).

وقد منع الخليل[١]، وسيبويه[٢]، والأخفش[٣] مثل هذا؛ لأن ضمير الفصل الذي يُسمّى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتمّ الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾؛ أي: اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، ولا تذلوني[٤] وتجلبوا عليّ العار في ضيفي، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة؛ لأنه في الأصل[٥] مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تـعـدمـي الـدهـرَ شِـفـارَ الـجـازِر لـلـضـيـفِ والـضـيـفُ أحـقُ زائـرِ[٦]

ويجوز فيه التثنية[٧] والجمع، والأوّل: أكثر. يقال: خزي الرجل خَزَاية؛ أي: استحيا أو ذَلّ أو هان، وخَزِي خَزْياً: إذا افتضح[٨]، ومعنى ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾: في حقِّ ضيفي، فخزي الضيف: خزيٌ للمضيف، ثم وبّخهم فقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح، ويمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به، وأرشدهم إليه، بقوله: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ أي: ما لنا فيهن مِنْ شهوة ولا حاجة؛ لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق.

ومعنى ما نسبوه إليه من العلم: أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور، وشدّة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء.

ويمكن أن يريدوا: أنّه لا حق لنا في نكاحهنّ؛ لأنه لا ينكحهنّ ويتزوج بهن إلا مؤمن، ونحن لا نؤمن أبداً.

وقيل: إنّهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردّهم، وكان من سُنَّتهم أن من خطبَ فُردَّ، فلا تحلُّ له المخطوبة أبداً ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الذكور، ثم إنّه لما علم تصميمهم على الفاحشة، وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ وجواب «لو»[٩] محذوف.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٦).
(٢) «الكتاب» (٢/ ٣٩٧). (٣) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٨١).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٧٩)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٠٧).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٦)، و«البيان» للأنباري (٢/ ٢٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٠٩).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٧٩). (٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٦).
(٨) «تهذيب اللغة» (٧/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)، و«الصحاح» (٦/ ٢٣٢٦).
(٩) «الفريد» (٢/ ٦٥٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٨).

والتقدير: لدافعتكم عنهم، ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمنّي؛ أي: لو وجدتُ معيناً وناصراً، فسمي ما يتقوّى به قوّة ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ عطف[1] على ما بعد لو لما فيه مِنْ معنى الفعل، والتقدير: لو قويت على دفعكم، أو آويت إلى ركن شديد.

وقرئ «أو آويَ» بالنصب[2] عطفاً على قوّة كأنه قال: لو أن لي بكم قوّة، أو إيواءً إلى ركن شديد؛ ومراده بالركن الشديد: العشيرة[3]، وما يمتنع به عنهم هو ومَنْ معه.

وقيل: أراد بالقوّة: الولد، وبالركن الشديد: مَنْ ينصره من غير ولده.

وقيل: أراد بالقوّة: قوته في نفسه.

ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة، ووجدوا قومَه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أخبروه أوّلاً أنهم رسل ربه، ثم بشّروه بقولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها؛ لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوّه إليه ولم يقدروا عليه؛ ثم أمروه أن يخرج عنهم، فقالوا له: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قرأ نافع وابن كثير[4] بالوصل، وقرأ غيرهما بالقطع[5]، وهما لغتان فصيحتان.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤] وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال:

حيِّ النّضيرةَ وربَّةَ الخِدْر ... أسْرتْ إليكَ ولم تَكنْ تَسْري[6]

وقيل: إنّ أسرى للمسير من أول الليل، وسرى للمسير من آخره، والقطع من الليل: الطائفة مِنْه.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٤١)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٨).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٠ ـ ٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٢).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٨١)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ١٩٥)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٠٨).

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٥١٤)، و«التيسير» (ص١٢٥)، و«النشر» (٢/ ٢٩٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٣٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٩).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) انظره في: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٢٢٤).

قال ابن الأعرابي[١]: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: بساعة منه.

وقال الأخفش[٢]: بِجُنْح من الليل، وقيل[٣]: بظلمة من الليل، وقيل: بعد هدوٍّ مِنْ الليل.

قيل: إنّ السرى لا يكون إلّا في الليل، فما وجه زيادة بقطع من الليل؟

قيل: لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون في أوّله قبل اجتماع الظلمة، وليس ذلك بمراد ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾؛ أي: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره.

قيل: وجه النّهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم، وهول ما نزل بهم، فيرحموهم ويرقّوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات، فإنه لا بدّ للملتفت مِنْ فترة في سيره.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب[٤] على قراءة الجمهور.

وقرأ أبو عَمْرو، وابن كثير بالرفع[٥] على البدل، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة مِنْ قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ أي: أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها، فـ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِنْ العذاب، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرةً.

وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عُبيد[٦] وقال: لا يصح ذلك إلا برفع ﴿يَلْتَفِتْ﴾ ويكون نعتاً؛ لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات وليس المعنى كذلك.

قال النحاس[٧]: وهذا العمل من أبي عُبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون، والرفع على البدل له معنى صحيح، وهو أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات؛ أي: لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتُك، فإنّها تلتفت وتهلك.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٨٣). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٨٣).

(٣) «الوسيط» للواحدي (٢/ ٥٨٤)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٢٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٨٩).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ١٩٠)، و«النشر» (٢/ ٢٩٠)، و«التيسير» (ص١٢٥).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. (٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٨٤).

(٧) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٢٩٧).

وقيل: إنَّ الرفع[١] على البدل مِنْ أحد، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف، فكأنه قال: ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تتخلف، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار مِنْ تناقض القراءتين.

والضمير في ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ﴾ للشأن[٢].

والجملة خبر إنّ ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾ هذه الجملة تعليل[٣] لما تقدّم من الأمر بالإسراء والنهي عَنْ الالتفات.

والمعنى: أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ للإنكار[٤] التقريري، والجملة[٤] تأكيد للتعليل.

وقرأ عيسى بن عُمر ﴿أَلَيْسَ الصُّبُحُ﴾ بضم الباء[٥] وهي لغة، ولعلّ جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرّقوا إلى أعمالهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالأمر: نفس العذاب ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: عالي قرى قوم لوط [٢/٥٥] سافلها.

والمعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها، وذلك لأن جبريل[٦] أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل: إنه يقال: أَمطرنا في العذاب ومُطرنا في الرحمة؛ وقيل: هما لغتان، يُقال: مطرتِ السماء وأمطرت حكي ذلك الهروي[٧].

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧١٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٩٠)، و«الفريد» (٢/ ٦٥٦).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٤٩)، و«الفريد» (٢/ ٦٥٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٧٠).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٠).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٧). وهي قراءة شاذة.
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٠٢)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٥٨٤)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٣٩٨).
(٧) في «الغريبين» (٦/ ١٧٥٨ ـ ١٧٥٩).

والسجيل: الطين المتحجر[١] بطبخ أو غيره؛ وقيل: هو الشديد الصلب من الحجارة؛ وقيل: السجيل الكثير.

وقيل: إنَّ السجيل[٢] لفظة غير عربية، أصله سنج وجيل، وهما بالفارسية حجر وطين عرّبتهما العربُ فجعلتهما اسماً واحداً؛ وقيل: هو مِنْ لغة العرب.

وذكر الهروي[٣]: أن السجيل اسم لسماء الدنيا.

قال ابن عطية[٤]: وهذا ضعيف يردّه وصفه بمنضود.

وقيل: هو بحر مُعلّق في الهواء بين السماء والأرض؛ وقيل: هي جبال في السماء.

وقال الزجاج[٥]: هو مِنْ التسجيل لهم؛ أي: ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٨، ٩] وقيل: هو مِنْ أسجلته: إذا أعطيته، فكأنه عذاب أعطوه، ومنه قول الشاعر[٦]:

مَنْ يساجلني يساجلْ ماجداً يملأ الدلوَ إلى عَقْدِ الكُرَب

ومعنى ﴿مَّنضُودٍ﴾: أنّه نضد[٧] بعضه فوق بعض، وقيل: بعضه في أثر بعض، يقال: نَضَدتُ المتاع: إذا جعلت بعضَه على بعض، فهو منضود ونضيد.

والمسوّمة: المُعْلَمة؛ أي: التي لها علَامة. قيل: كان عليها أمثال الخواتيم؛ وقيل: مكتوب على كلِّ حجر اسم مَنْ رُمي به.

وقال الفرّاء[٨]: زعموا أَنّها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض. فذلك تسويمها.

ومعنى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة مِنْ الظالمين وهم قوم لوط ببعيد، أو ما هي من كل ظالم من

---

(١) «الصحاح» (٥/ ١٧٢٥).
(٢) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة»: (سجل).
(٣) في «الغريبين» (٣/ ٨٦٨ ـ ٨٦٩). (٤) في «المحرر الوجيز» (٩/ ٢٠٥).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧١). (٦) وهو: الفضل بن العباس.
انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٨٧)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٥٠).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٨٨) عن قتادة.
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤).

الظلمة ومنهم كفار قريش ومَنْ عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها.

وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾؛ أي: قُرى قوم لوط ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ممّن كفر بالنبيّ ﷺ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنها بين الشام والمدينة(١).

وفي إمطار الحجارة قولان(٢):

أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل.

والثاني: أنها أمطرت على مَنْ لم يكن في المدن من أهلها، وكان خارجاً عنها.

وتذكير(٣) البعيد على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف مُذّكر؛ أي: شيء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(٤)، في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قال: ساء ظنّاً بقومه، وضاق ذَرْعاً بأضيافه ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يقول: شديد.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم(٥)، عنه، في قوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال: يُسرِعون ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال: يأتون الرجال.

وأخرج ابن أبي حاتم(٦)، وأبو الشيخ، عنه، أيضاً قال: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسعون إليه.

وأخرج أبو الشيخ(٧)، عنه، أيضاً في قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ قال: ما عرض

(١) «المحرر الوجيز» (٩/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٣٣).
(٢) «النكت والعيون» (٢/ ٤٩٤).
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١١/ ٥٤).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/ ٤٩٥، ٤٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦١) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦١) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦١) بسند ضعيف.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٧).

لوط بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً، إنما قال: هؤلاء نساؤكم؛ لأن النبيّ إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبوهم، قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] «وهو أبوهم» في قراءة أُبيّ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد(١)، قال: لم تكن بناته ولكن كنّ مِنْ أمته، وكل نبيّ أبو أمته.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير(٢) نحوه.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر، عن السديّ(٣) نحوه. قال: وفي قراءة عبد الله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] «وهو أبٌ لهم»(٤) ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥)، عن حذيفة بن اليمان، قال: عرض عليهم بناته تزويجاً، وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته.

وأخرج أبو الشيخ(٦)، عن السديّ، في قوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ قال: لا تفضحوني.

وأخرج ابن أبي حاتم(٧)، عن أبي مالك ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ قال: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، عن ابن عباس(٨) ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ قال: واحد يقول: لا إله إلا الله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تارخ مدينة دمشق» (٥٠/ ٣١٧).

(٤) وهي قراءة شاذة؛ لمخالفتها رسم المصحف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٣) بسند ضعيف.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٨).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٦٣) بسند حسن.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٣) بسند ضعيف.

وأخرج أبو الشيخ[١]، عَنْ عكرمة مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السديّ[٢] ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ قال: إنما نريد الرجال ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: إلى جُنْدٍ شديد لمقاتلتكم[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم[٤]، عن ابن عباس، ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قال: عشيرة.

وقد ثبت في البخاري[٥] وغيره من حديث أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «يغفر الله للوط إنْ كان يأوي إلى ركن شديد» وهو مرويّ في غير «الصحيح» من طريق غيره من الصحابة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٦] ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: جوف الليل.

وأخرجا[٧] عنه قال: بسواد الليل[٨].

وأخرج عبد الرزاق[٩]، عن قتادة، قال: بطائفة من الليل.

وأخرج ابن أبي حاتم[١٠]، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا يتخلّف.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٨، ٥٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٤) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٠٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١١) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٤) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٣٣٧٥)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١٠٩٢ ـ تفسير).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٢٤) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٥) بسند صحيح.

(٨) الذي في «جامع البيان»: (بطائفة من الليل).

(٩) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٢٤) بسند صحيح.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٠٦٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[1]، في قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ قال: لا ينظر وراءه أحد ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، عن هارون[2] قال: في حرف[3] ابن مسعود «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتَك».

وأخرج ابن جرير، عن مجاهد[4]، في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم، فقلعها مِنْ أركانها، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أوّل ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قوماً ما أصابهم، ثم إنّ الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل.

وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة، وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين مَنْ قال بشيء من ذلك، وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب، وحالهم في الرواية معروف.

وقد أُمرنا بأنّا لا نصدّقهم ولا نكذبهم، فاعرف هذا، فهو الوجه في حذفنا لكثير مِنْ هذه الروايات الكائنة في قصص الأنبياء وقومهم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[5]، في قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قال: يُرْهِبُ بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٦) من طريق ابن جريج، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٢٥) من طريق القاسم بن سلام، به.

(٣) وهي قراءة شاذة.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٩) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[١]، عن السديّ، في الآية قال: مِنْ ظَلَمةِ العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٢] قال: من ظالمي هذه الأمة.

[قصة شعيب وقومه]:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا [٢/٥٦] ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٣٣) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٠) من طريق ضمرة بن ربيعة.

أي: وأرسلنا إلى مَدْين، وهم قوم شعيب، أخاهم[١] في النسب شعيباً، وسُمّوا مدين باسم أبيهم، وهو مدين بن إبراهيم؛ وقيل: باسم مدينتهم.

قال النحاس[٢]: لا ينصرف مدين لأنّه اسم مدينة، وقد تقدّم الكلام على هذا في الأعراف بأبسط مما هنا.

وقد تقدّم تفسير: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ في أوّل السورة، وهذه الجملة[٣] مستأنفة؛ كأنه قيل: ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم؟

وقد كان شعيب عليه السلام يُسمَّى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه، أمرهم أوّلاً بعبادة الله سبحانه الذي هو الإِلٰه وحده لا شريك له، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان؛ لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف[٤]، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص.

وجملة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٍ﴾ تعليل[٥] للنّهي؛ أي: لا تنقصوا المكيال والميزان لأنّي أراكم بخير؛ أي: بثروة وسعةٍ في الرزق، فلا تغيّروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإِضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يغنيكم عَنْ أخذ أموال الناس بغير حقها، ثم ذكر بعد هذه العلّة علة أخرى، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ فهذه العلة فيها الإِذكار لهم بعذاب الآخرة كما أنّ العلة الأولى فيها الإِذكار لهم بنعيم الدنيا؛ ووصف اليوم بالإِحاطة والمراد العذاب؛ لأن العذاب واقع في اليوم.

ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم: أنّه لا يشذ منهم أحد عنه، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهرباً، واليوم: هو يوم القيامة.

وقيل: هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٩١)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٣٨).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٩٨). (٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٩٥).
(٤) «جامع البيان» (١٢/ ٥٣٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٩١).
(٥) «روح المعاني» (١٢/ ٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٧٣).

[إيفاء الكيل والميزان]:

ثم أكّد النهي عَنْ نقص الكيل والوزن بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ والإيفاء: هو الإتمام، والقِسْط: العدل، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضلٌ وخير، ولكنّها فوق ما يفيده اسم العدل، والنهي عن النقص، وإنْ كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن.

ثم زاد ذلك تأكيداً فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ قد مرّ تفسير هذا في الأعراف، وفيه النهي عَنْ البخس على العموم، والأشياء أعمّ مما يكال ويوزن، فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أوّليّاً.

وقيل: البَخْس: المكس خاصة.

[العثو هو الإفساد]:

ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قد مرّ أيضاً تفسيره في البقرة.

والعثي في الأرض يشمل كلَّ ما يقع فيها من الإضرار بالناس، فيدخل فيه ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وقيده بالحال[(١)] وهو قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة. ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: ما يبقيه لكم مِنْ الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقِسْط أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبَخْس، والفساد في الأرض، ذكر معناه ابن جرير[(٢)] وغيره من المفسرين. وقال مجاهد[(٣)]: بقية الله: طاعته.

وقال الربيع[(٤)]: وصيته.

وقال الفراء[(٥)]: مراقبته، وإنما قيد ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، أو المراد بالمؤمنين هنا[(٦)]: المصدّقون لشعيب ﴿وَمَآ

---

(١) «الفريد» (٢/ ٦٥٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٥).
(٢) في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٢) بسند صحيح.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٩٢). (٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٩٣).

أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما، أو أحفظ عليكم أعمالكم، وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وجملة: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مستأنفة[١] جواب سؤال مقدّر؛ كأنّه قيل: فماذا قالوا لشعيب؟ وقرئ ﴿أَصَلَوَاتُكَ﴾ بالإفراد[٢]، و﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ في موضع نصب.

وقال الكسائي[٣]: موضعها خفض على إضمار الباء، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون مِنْ الأوثان، والاستفهام[٤] للإنكار عليه والاستهزاء به؛ لأن الصلوات عندهم ليست مِنْ الخير الذي يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب: أصدقتك: أمرتك بهذا.

وقيل: المراد بالصلاة[٥] هنا: القراءة؛ وقيل: المراد بها: الدين، وقيل: المراد بالصلوات: أتبّاعه، ومنه المصلى الذي يتلو السابق؛ وهذا منهم جواب لشعيب عَنْ أمره لهم بعبادة الله وحده.

وقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ جواب له عَنْ أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، ونهيهم عن نقصهما، وعَنْ بخس الناس، وعن العثي في الأرض، وهذه الجملة[٦] معطوفة على «ما» في ما يعبد آباؤنا. والمعنى: أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، وتأمرك أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، من الأخذ والإعطاء، والزيادة والنقص. وقرئ «تفعل ما تشاء» بالفوقية فيهما.

قال النحاس[٧]: فتكون أَو على هذه القراءة للعطف، على أن الأولى، والتقدير: أصلواتُك تأمرك أَنْ تفعل في أموالنا ما تشاء.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٥٩ ـ ٦٠)، و«الفريد» (٢/ ٦٥٩).
(٢) «النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٩٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٦).
قراءة (أصلاتُك) بالإفراد قراءة الكوفيين عدا أبي بكر عن عاصم، والباقون (أصلواتك) بالجمع وهما متواترتان.
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٨).
(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٥٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٧٥).
(٥) «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٩٣).
(٦) «الفريد» (٢/ ٦٥٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٩٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٦١).
(٧) في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٨).

وقُرئ «نفعل» بالنون[١] وما تشاء بالفوقية، ومعناه: أصلواتك تأمرك أن نفعل نحن في أموالنا ما تشاؤه أَنتَ وندع ما نشاؤه نحن وما يجري به التراضي بيننا؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ على طريقة التهكم به[٢]؛ لأنّهم يعتقدون أنه على خلافهما، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك، وفي اعتقادك، ومعناهم: أن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك مِنْ الحلم والرشد.

وقيل: إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم.

وقد تقدّم تفسير الحلم والرشد، وجملة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها.

والمعنى: أخبروني إنْ كنتُ على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾؛ أي: من فضله وخزائن ملكه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: كثيراً واسعاً حلالاً طيباً.

وقد كان ﷺ كثير المال؛ وقيل: أراد بالرزق النبوّة، وقيل[٣]: الحكمة، وقيل: العلم، وقيل: التوفيق.

وجواب الشرط محذوف[٤] يدلّ عليه سياق الكلام تقديره: أترك أمركم ونهيكم، أو أتقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية[٥] والاستهزاء.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾؛ أي: وما أُريد بنهيي[٦] لكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم، يقال: خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مولّ عنه، وخالفتهُ عَنْ كذا في عكس ذلك ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ أي: ما أُريد بالأمر والنهي إلا لإصلاح لكم ودفع الفساد في دينكم

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦١)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ١٢٧)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤١٣). قراءة (تفعل) أو (نفعل بالنون و(ما تشاء) بالفوقية. قراءة شاذة.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٩٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٦٢).

(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

(٤) «الفريد» (٢/ ٦٦١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٧٦).

(٦) «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢١٢).

ومعاملاتكم ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما بلغتْ إليه استطاعتي، وتمكنتْ منه طاقتي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ما صرت موفقاً هادياً نبيّاً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه ومنحي إياه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري التي منها أمرُكم ونهيكم ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع [٢/٥٧] في كلِّ ما نابني من الأمور، وأفوّض جميع أموري إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره، وقيل: معناه: وإليه أرجع في الآخرة؛ وقيل: إنّ الإنابة: الدعاء. ومعناه: وله أدعوا.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ قال الزجاج(١): معناه: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب إياكم، كما أصاب مَنْ كان قبلكم؛ وقيل: معناه: لا يحملنكم شقاقي، والشقاق: العداوة، ومنه قول الأخطل(٢):

ألا مَنْ مبلغٍ عني رسولاً فكيفَ وجدتمُ طعمَ الشقاقِ

و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في محل نصب(٣) على أنّه مفعول ثان ليجرمنكم ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الصيحة، وقد تقدّم تفسير يجرمنّكم وتفسير الشقاق.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يحتمل أَنْ يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم، أو ليسوا ببعيد منكم في السبب الموجب لعقوبتهم، وهو مطلق الكفر.

وأفرد(٤) لفظ: ﴿بِبَعِيدٍ﴾ لمثل ما سبق في ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ وقد تقدّم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أوّل السورة، وتقدّم تفسير الرحيم، والمراد هنا: أنه عظيم الرحمة للتائبين، والودود: المحبّ.

قال في «الصحاح»(٥): وددتُ الرجل أودّه ودّاً: إذا أحببتُه، والودود: المُحبّ، والوُدّ والوِدّ والوَدّ: المحبة؛ والمعنى هنا: أنّه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودّة بمن يودّه من اللطف به، وسوق الخير إليه، ودفع الشرّ عنه. وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٤). (٢) انظر: «ديوان الأخطل» (ص٣١).
(٣) «التبيان» (٢/ ٧١٢)، و«الفريد» (٢/ ٦٦١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٦٩).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٧٧)، و«زاد المسير» (٤/ ١٥).
(٥) «الصحاح» (٢/ ٥٤٩).

وجملةُ: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ مستأنفة كالجُمَل السابقة، والمعنى: أنّك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور[1] الغيبية؛ كالبعث والنشور، ولا نفقه ذلك؛ أي: نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة، فيكون نفي الفقه على هذا حقيقةً لا مجازاً.

وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقار الكلام مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال: فَقِه يفقَه: إذا فهم فِقْهاً وفُقها.

وحكى الكسائي[2] فقهانا، ويقال: فَقُه فِقْهاً: إذا صار فقيهاً.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾؛ أي: لا قوّة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، وتتمكن بها مِنْ مخالفتنا؛ وقيل: المراد أنّه ضعيف في بدنه قاله عليّ بن عيسى؛ وقيل: إنّه كان مصاباً ببصره.

قال النحاس[3]: وحكى أهل اللغة أنّ حِمْيرَ تقول للأعمى: ضعيف؛ أي: قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له: ضرير[4]؛ أي: قد ضرّ بذهاب بصره؛ وقيل: الضعيف: المهين، وهو قريب مِنْ القول الأوّل.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ رهط الرجل عشيرتُه الذين يَسْتندُ إليهم، ويتقوّى بهم، ومنه الراهط لجُحْر اليَربُوع؛ لأنّه يتوثق به ويَخْبأ فيه ولدهُ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وإنما جعلوا رهطه مانعاً مِنْ إنزال الضرر به مع كونهم في قلة، والكفار ألوف مؤلفة؛ لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم، ثم أكدوا ما وصفوه به مِنْ الضعف بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ حتى نكفّ عنك لأجل عزتك عندنا؛ بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلناك[5] بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة وقيل: معنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: لشتمناك، ومنه قول الجعدي[6]:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٠٠)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٥٢).
(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٢٩٩).
(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٩).
(٤) ذكره ابن جرير في«جامع البيان» (١٢/ ٥٥٢).
(٥) «جامع البيان» (١٢/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٧٣).
(٦) أي: النابغة الجعدي. انظر: «ديوانه» (ص١٦٥).

تراجمنا بمُرِّ القولِ حتى نصيرَ كأنّنا فَرَسَا رِهانِ

ويطلق الرجم على اللعن، ومنه: الشيطان الرجيم.

وجملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مستأنفة، وإنما قال: أعزّ عليكم من الله، ولم يقل أعزّ عليكم منّي؛ لأن نفي[١] العزّة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النِفي استهانةً به، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله ﷻ، فقد تضمن كلامهم أنَّ رهطه أعزّ عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم، وتعجب منه وألزمهَم ما لا مخلص لهم عَنْه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا مِنْ قوّة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجَر ما لا يخفى، ولأمر مّا سُمي شعيب خطيب الأنبياء، والضمير[٢] في ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ راجع إلى الله سبحانه.

والمعنى: واتخذتم اللهَ ﷻ بسبب عدم اعتدادكم بنبيِّه الذي أرسله إليكم ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾؛ أي: مَنْبوذاً وراء الظهر لا تبالون به؛ وقيل: المعنى: واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم، يُقال: جعلت أمره[٣] بظهر: إذا قصّرتَ فيه، و﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾ مَنْسوب إلى الظهر، والكسر لتغيير النسب ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾: لمّا رأى إصرارهم على الكفر، وتصميمَهم على دين آبائهم، وعدم تأثير الموعظة فيهم، توعدهم بأن يعملوا على غاية تَمكْنهم ونهاية استطاعتهم، يقال: مَكُنَ مَكانةً: إذا تمكن أبلغ تمكن، وأخبرهم أنّه عامل على حسب ما يمكنه ويقدّره الله له؛ ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده، وقد تقدّم مثله في الأنعام ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ «مَنْ» في محل[٤] نصب بـ﴿تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: سوف تعلمون مَنْ هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٧٦ ـ ٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٧٩).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٠١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٧٨).

(٣) «جامع البيان» (١٢/ ٥٥٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٣٧٧).

(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، و«الفريد» (٢/ ٦٦٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ٨١).

الذلّ والفضيحة والعار ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ معطوف[١] على ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾.

والمعنى: ستعلمون مَنْ هو المعذّب ومَنْ هو الكاذب؟ وفيه تعريض بكذبهم في قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

وقيل: إنّ «مَنْ» مبتدأ، وما بعدها صلتها، والخبر محذوف، والتقدير: مَنْ هو كاذب فسيعلم كذبه، ويذوق وبالَ أمرِه.

قال الفراء[٢]: إنما جاء بهو في ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ لأنهم لا يقولون مَنْ قائمٌ: إنما يقولون مَنْ قام، ومَنْ يقوم، ومَنْ القائم، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فَعَل ويَفْعلُ. قال النحاس[٣]: ويدل على خلاف هذا قول الشاعر[٤]:

مَـنْ رسـولـي إلـى الـثُّـريـا فـإنّـي ... ضـقـتُ ذرعـاً بـهـجـرِهـا والـكـتـابِ

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾؛ أي: انتظروا إني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ أي: لما جاء عذابُنا، أو أمرنا بعذابهم، نجينا شعيباً وأتباعه الذين آمنوا به ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم، وهي هدايتهم للإيمان ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ غيرَهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجهٍ، وظلموا أنفسَهم بالتصميم على الكفر ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، وفي الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨ و٩١] وكذا في العنكبوت.

وقد قدّمنا أنَّ الرجفة: الزلْزلة، وأنها تكون تابعة للصيحة لتموّج الهوى المفضي إليها ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ميتين، وقد تقدّم تفسيره وتفسير ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ قريباً، وكذا تفسير ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وحكى الكسائي[٥] أن أبا عبد الرحمٰن السلمي قرأ: ﴿كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ﴾ بضم العين[٦].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٨٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ٨١).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦). (٣) في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٠).

(٤) هو: عمر بن أبي ربيعة. انظر: «ديوانه» (ص٣٠).

(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٠).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٠٤). وهي قراءة شاذة.

قال المهدوي[١]: مَنْ ضم العين من «بَعُدتْ» فهي لغة يستعمل في الخير والشرّ، و«بَعِدت» بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل في الشرّ خاصة، وهي هنا بمعنى اللعنة.

وقد أخرج ابنُ جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٢]، في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ قال: رُخْص السِّعْر ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ قال: غلاء السعر.

وأخرج ابن جرير[٣]، عنه ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال: رزق الله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، [٢/٥٨] وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٤] ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يقول: حظكم مِنْ ربكم خير لكم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٥] قال: طاعة الله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الأعمش[٦] في قوله: ﴿تَأۡمُرُكَ أَن﴾ قال: أقِراءتُك.

وأخرج ابن عساكر[٧]، عن الأحنف: أن شعيباً كان أكثر الأنبياء صلاة.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[٨]، في قوله: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ قال: نهاهم عَنْ قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا: إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء، إنْ شئنا قطعناها، وإن شئنا أحرقناها، وإن شئنا طرحناها.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٢/٨٦)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣٠٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٣٨) من طريق عبد الله بن داود الواسطيِّ، به.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٣٤) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٧٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣١١) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٤٢ ـ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٧٢) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٤٦ ـ ٥٤٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٧١) من طرق سفيان الثوري، به.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٦٦).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٤٦).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب[١] نحوه.

وأخرجا[٢] عن زيد بن أسلم نحوه أيضاً.

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وعبد بن حميد، عن سعيد بن المسيب[٣]، نحوه أيضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قال: يقولون: إنّك لست بحليمٍ ولا رشيد.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، وأبو الشيخ، عن قتادة قال: استهزاء به.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦]، عن الضحاك، في قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ قال: الحلال.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٧]، في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ قال: يقول: لم أكنْ لأنهاكم عن أمرٍ وأركبه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٨]، في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ قال: إليه أرجع.

وأخرج أبو نُعيم[٩] في «الحلية»، عن عليّ، قال: «قلت: يا رسول الله أوصني، قال: قُل: الله ربّي ثُم استقم، قلت: ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٦) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٤٥٩٥)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ١٣٥، ١٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٣) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٣) بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير، به.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٣) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٩) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٤) بسند صحيح.

(٩) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٥) بسند ضعيف جدّاً.

• فيه محمد بن يونس الكديمي كان يضع على الثقات الحديث وضعاً. قاله ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٣١٣).

توكلت وإليه أنيب، قال: ليهنك العلم أبَا الحسن، لقد شربتَ العلم شرباً ونهلته نهلاً» وفي إسناده محمد بن يونس الكُديمي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[1] ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾: لا يحملنّكم فراقي.

وأخرج ابن المنذر[2]، عن مجاهد، قال: شقاقي: عداوتي.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[3] قال: لا تحملنكم عداوتي.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة[4]، في قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ قال: إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود.

وأخرج أبو الشيخ، وابن عساكر، عن سعيد بن جبير[5] ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ قال: كان أعمى، وإنما عَمِي مِنْ بكائه من حبّ الله ﷻ.

وأخرج الواحدي، وابن عساكر، عن شدّاد بن أوس[6]، قال: قال رسول الله ﷺ: «بكى شعيب عليه السلام مِنْ حبّ الله حتى عَمِي».

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والخطيب، وابن عساكر من طرق، عن ابن عباس[7]، في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ قال: كان ضرير البصر.

وأخرج أبو الشيخ[8]، عن أبي صالح، مثله.

وأخرج أبو الشيخ[8]، عن سفيان في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ قال: كان أعمى، وكان يقال له: خطيب الأنبياء.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٥) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٥) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٥١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٠، ٣١١) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٢٣/ ٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٥٣) من طريق عباد بن العوام، به.

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٢٣/ ٧٣). وهو حديث ضعيف جدّاً. قاله الألباني في «الضعيفة» رقم (٩٩٨).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٦)، والخطيب (١٠/ ٤٢٣)، والحاكم (٢/ ٥٦٨)، وابن عساكر (٢٣/ ٧١) من طريق موسى بن عمير، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧١).

وأخرج أبو الشيخ[(١)]، عن السديّ، قال: معناه: إنما أنت واحد.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)]، عن عليّ بن أبي طالب، أنه خطب فتلا هذه الآية في شُعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: كان مكفوفاً، فنسبوه إلى الضعف ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ قال عليّ: فوالله الذي لا إلٰه غيره ما هابوا جلالَ ربِّهم ما هابوا إلا العشيرة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[(٣)]، في قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ قال: نبذتم أمرَه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة[(٤)]، قال في الآية: لا تخافونه.

وأخرج أبو الشيخ[(٥)] عن الضحاك قال: تهاونتم به.

[قصة موسى مع فرعون..]:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ
فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ
أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ
فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ
غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ
﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ
فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٠).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٧) من طريق سفيان به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١١، ٣١٢) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧١).

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

المراد بالآيات[١]: التوراة، والسلطان المبين: المُعْجزات؛ وقيل: المراد بالآيات: هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع، والسلطان المبين: العصا، وهي وإنْ كانت مِنْ التسع لكنّها لما كانت أبهرها أُفرِدت[٢] بالذكر.

وقيل: المراد بالآيات: ما يفيد الظنّ، والسلطان المبين: ما يفيد القطع بما جاء به موسى.

وقيل: هما جميعاً عبارة عَنْ شيء واحد؛ أي: أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية، وكونه سلطاناً مبيناً؛ وقيل: إنّ السلطان المبين: ما أورده موسى على فرعون في المحاورة بينهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾؛ أي: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء.

وقد تقدّم أنّ الملأ أشراف القوم، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم؛ لأنّهم أَتباع لهم في الإصدار والإيراد، وخَصّ هؤلاءِ الملأ دون فرعون بقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: أمرُه لهم بالكفر؛ لأنّ حال فرعون في الكفر أمرٌ واضح، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره، ويجوز أن يراد بأمر فرعون: شأنه وطريقته، فيعمّ الكفرَ وغيرَه.

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: ليس فيه رشد قط؛ بل هو: غيّ وضلال، والرشيد بمعنى: المرشد، والإسناد مجازي، أو بمعنى: ذي رَشَدٍ، وفيه تعريض بأنّ الرشد في أمر موسى.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مِنْ قدّمه بمعنى: تقدّمه؛ أي: يصير متقدّماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار، كما كان يتقدّمهم[٣] في الدنيا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٥٦١).

(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٩٠)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٨١).

(٣) «المحرر الوجيز» (٩/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢).

﴿ٱلنَّارَ﴾؛ أي: إنّه لا يزال متقدّماً لهم، وهم يتبعونه حتى يوردهم النار، وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، ثم ذمّ الورد الذي أوردهم إليه، فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ لأن الوارد إلى الماء الذي يقال له: الوِرْد، إنما يرده ليطفئ حرّ العطش، ويذهب ظمأه، والنار على ضدّ ذلك.

ثم ذمّهم بعد ذمّ المكان الذي يَرِدونَه، فقال: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾؛ أي: أتبع قوم فرعون مُطلقاً، أو الملأ خاصةً، أو هم وفرعون في هذه الدنيا لعنة عظيمة؛ أي: طَرْداً وإبعاداً ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: وأتبعوا لعنة يوم القيامة، يلعنهم أهل المحشر جميعاً، ثم إنّه جعل اللعنة رِفْداً لهم على طريقة التهكم، فقال: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

قال الكسائي(١) وأبو عبيدة(٢): رفدتُه أرفده رَفْداً: أعنته وأعطيته، واسم العطية الرِّفْد؛ أي: بئس العطاء والإعانة ما أعطوهم إياه، وأعانوهم به، والمخصوص(٣) بالذمّ محذوف؛ أي: رفدُهم، وهو: اللَّعنة التي أتبعوها في الدنيا والآخرة؛ كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى وتؤبدها.

وذكر الماوردي(٤) حكاية عَنْ الأصمعي أن الرَّفد بالفتح: القَدَح، وبالكسر: ما فيه مِنْ الشراب فكأنه ذمّ ما يستقونه في النار، وهذا أنسب بالمقام؛ وقيل: إن الرفد: الزيادة؛ أي: بئس ما يرفدون به بعد الغرق، وهو الزيادة. قاله الكلبي(٥).

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾؛ أي: ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من أخبار الأمم السالفة، وما فعلوه مع أنبيائهم؛ أي: هو مقصوص عليك خبرٌ بعد خبر، وقد تقدّم تحقيق معنى القَصَص، والضمير(٦) في ﴿مِنْهَا﴾ عائد إلى القرى؛ أي: مِنْ القرى قائم، ومنها حصيد، والقائم: ما كان قائماً على عروشه، والحصيد(٦): ما لا أثرَ له.

وقيل: القائم: العامر، والحصيد: الخراب.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٠).
(٢) في «مجاز القرآن» (١/ ٢٩٨).
(٣) «الفريد» (٢/ ٦٦٤)، و«التبيان» (٢/ ٧١٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٠٦).
(٤) في «النكت والعيون» (٢/ ٥٠٢).
(٥) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢٠٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٠٥).
(٦) «الفريد» (٢/ ٦٦٥)، و«التبيان» (٢/ ٧١٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٠٦).

وقيل: القائم: القرى الخاوية[١] على عروشها، والحصيد: المُسْتأصَل[٢] بمعنى: محصود، شبّه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع. قال الشاعر:

والناس في قسم المنيّة بينهم كالزرع منه قائمٌ وحصيدُ[٣]

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾؛ أي: فما دفعت عنهم أصنامُهم التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ أي: لما جاء عذابه ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: الهلاك [٢/٥٩] والخسران؛ أي: ما زادتهم الأصنام التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد كانوا يعتقدون أنّها تعينهم على تحصيل المنافع.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ قرأ الجَحْدري وطلحة بن مصرف «أَخَذَ» على أنه فَعَل[٤]. وقرأ غيرهما «أَخْذُ» على المصدر[٥] ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾؛ أي: أهلها وهم ظالمون ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾؛ أي: عقوبته للكافرين ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: مُوجِع غليظ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾؛ أي: في أخذ الله سبحانه لأهل القرى، أو في القصص الذي قصه على رسوله لعبرةً وموعظة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنّهم الذين يعتبرون بالعبر، ويتعظون بالمواعظ، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: يشهده أهلُ المحشر، أو مشهود فيه الخلائق، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى[٦] المفعول ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾؛ أي: وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء أجلٍ معدود معلوم بالعدد، قد عيّن الله سبحانه وقوعَ الجزاء بعدَه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٨٢) بسند ضعيف.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١/٢٠٦)، و«جامع البيان» (١٢/٥٦٧).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٢٠٦)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٦/٢٠٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/٥٠٣).

(٤) «جامع البيان» (١٢/٥٧٢)، و«روح المعاني» (١١/١٠٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٢٠٧)، و«البحر المحيط» (٦/٢٠٨). قراءة الجحدري وطلحة بن مصرّف شاذّة.

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) «الفريد» (٢/٦٦٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٣٠١).

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عَمرو، والكسائي بإثبات الياء(١) في الدرج، وحذفها في الوقف.

وقرأ أُبيّ، وابن مسعود بإثباتها(٢) وصلاً ووقفاً.

وقرأ الأعمش بحذفها(٣) فيهما، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي(٤) إنْ الفعل السالم يُوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة.

ووجه قراءة مَنْ قرأ بحذف الياء مع الوصل: أنهم رأوا رسم المصحف كذلك.

وحكى الخليل(٥) وسيبويه أن العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفرّاء(٦) في حذف الياء:

كفَّاك كفٌ ما تُليقُ دِرْهماً ... جُوداً وأخرى تُعط بالسيف الدَّما

قال الزجاج(٧): والأجود في النحو إثبات الياء، والمعنى: حين يأتي يوم القيامة ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾؛ أي: لا تتكلم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام.

وقيل: لا تكلّم بحجة ولا شفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ سبحانه لها في التكلم بذلك، وقد جمع بين هذا وبين قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة.

وقد تكرّر مثل هذا الجمع في مواضع ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾؛ أي: من الأنفس شقيّ، ومنهم سعيد؛ فالشقيّ: مَنْ كتبت عليه الشقاوة، والسعيد: مَنْ كتبت له السعادة، وتقديم الشقيّ على السعيد لأن المقام مقام تحذير ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٩٢)، و«التيسير» (ص١٢٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٧٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٠٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢١٠).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. هي ثلاث قراءات متواترة، فالأولى: بحذف الياء وصلاً ووقفاً وقرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف. والثانية: إثبات الياء وصلاً ووقفاً وقرأ بها ابن كثير ويعقوب. والثالثة: بإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً، وهم الباقون. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» ص(١٧٣).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٠٦)، و«التيسير» (ص١٢٧).

(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٢).

(٥) ذكره عنهما القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٠٩)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٢).

(٦) في «معاني القرآن» (٢/ ٢٧).

(٧) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٧).

﴿ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾؛ أي: فأما الذين سبقت لهم الشقاوة، فمستقرّون في النار لهم فيها زفير وشهيق.

قال الزجاج[١]: الزفير مِنْ شدّة الأنين، وهو المرتفع جدّاً.

قال[٢]: وزعم أهل اللغة من البصريين[٣] والكوفيين: أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير، والشهيق: بمنزلة آخره.

وقيل: الزفير: الصوت الشديد[٤]، والشهيق: الصوت الضعيف؛ وقيل: الزفير: إخراج النّفَس[٥]، والشهيق: ردّ النّفَس.

وقيل[٦]: الزفير مِنْ الصدر، والشهيق: مِنْ الحلق، وقيل: الزفير: ترديد النّفَس مِنْ شدّة الخوف، والشهيق: النّفَس الطويل الممتد.

والجملة إما مستأنفة كأنّه قيل: ما حالهم فيها؟ أو في محل نصب[٧] على الحال ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: مدّة دوامهما.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت؛ لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيّد عذاب الكفار في النار، وعدم انقطاعه عنهم.

وثبت أيضاً أن السمٰوات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا.

فقالت طائفة: إن هذا الإخبارَ جارٍ على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء، قالوا: هو دائم ما دامت السمٰوات والأرض، ومنه قولهم: لا آتيك ما جنّ ليل، وما اختلف الليل والنهار، وما نَاح الحَمَامُ ونحو ذلك.

فيكون معنى الآية: أنهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له.

وقيل: إن المراد: سمٰوات الآخرة وأرضها، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سمٰوات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا، وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بدّ لهم من موضع يقلّهم وآخر يظلّهم، وهما أرض وسماء.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٧). (٢) انظر: المصدر المتقدم.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١١١).
(٤) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٠٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢١١).
(٥) انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٩٣)، و«مجمل اللغة» (١/ ٥١٤).
(٦) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٠٣)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٧٧).
(٧) «الفريد» (٢/ ٦٦٨)، و«التبيان» (٢/ ٧١٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢١١)، و«روح المعاني» (١٢/ ١١١).

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال:

(الأوّل): أنّه من قوله: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك. روى هذا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري[١].

(الثاني): أن الاستثناء إنما هو للعُصاة من الموحدين، وأنهم يخرجون بعد مدّة مِنْ النار، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ عامّاً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء مِنْ خالدين، وتكون «ما» بمعنى «مَنْ»، وبهذا[٢] قال قتادة، والضحاك، وأبو سنان، وغيرهم.

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأنَّه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصاً لكل عموم.

(الثالث): أن الاستثناء مِنْ الزفير والشهيق؛ أي: لهم فيها زفير وشهيق ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الأنباري[٣].

(الرابع): أن معنى الاستثناء: أنّهم خالدون فيها ما دامت السمٰوات والأرض، لا يموتون إلا ما شاء ربك، فإنّه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا، ثم يجدّد الله خلقهم؛ روي ذلك عن ابن مسعود.

(الخامس): أنّ «إلَّا» بمعنى: سوى. والمعنى: ما دامت السمٰوات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك مِنْ الخلود؛ كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاه الزجاج[٤].

(السادس): ما روي عن الفراء[٥] وابن الأنباري[٦] وابن قتيبة[٦] من أن هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنّه إلا أن أرى غير ذلك.

ونوقش هذا بأن معنى الآية: الحكم بخلودهم إلا المدة التي شاء الله، فالمشيئة قد حصلت جزماً؛ وقد حكى هذا القول الزجاج[٧] أيضاً.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٨١) عن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله بسند صحيح.

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٥٨٠ ـ ٥٨١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٠).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢١٣). (٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٠).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٢١٥).

(٧) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٠).

(**السابع**): أن المعنى: خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك مِنْ مقدار موقفهم في قبورهم وللحساب، حكاه الزجاج[١] أيضاً.

(**الثامن**): أنّ المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم؛ حكاه أيضاً الزجاج[١]، واختاره الحكيم الترمذي[٢].

(**التاسع**): أن «إِلَّا» بمعنى الواو قاله الفراء[٣]؛ والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة؛ قال مكي[٤]: وهذا القول بَعيد عند البصريين أن تكون إِلَّا بمعنى الواو.

(**العاشر**): أن «إلا» بمعنى الكاف[٥]، والتقدير: كما شاء ربُّك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ [النساء: ٢٢]؛ أي: كما قد سلف.

(**الحادي عشر**): أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب إليه الشارع في كلِّ كلامٍ، فهو على حدّ قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] روى نحو هذا عن أبي عُبيد[٦].

وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه مِنْ أقوال أهل العلم.

وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت بدفوعات.

وقد أوضحتُ ذلك في رسالةٍ مستقلةٍ[٧] جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قرأ الأعمش، وحَفْص، وحمزة، والكسائي «سُعدوا» بضم السين[٨].

---

(١) في المصدر المتقدم.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢١٥).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢١٧).
(٥) نسبه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٦١) إلى الثعلبي.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢١٧).
(٧) في «الفتح البراني من فتاوى الشوكاني» (٢/ ٧٧٧ الرسالة رقم ١٨) ط. الجيل الجديد، صنعاء، بعنوان: «كشف الأستار في إبطال قول من قال بفناء النار».
(٨) «روح المعاني» (١٢/ ١٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢١٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٨٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢١٣ ـ ٢١٤).

وقرأ الباقون بفتح السين[١]، واختار هذه القراءة أَبو عُبيد[٢] وأبو حاتم.

قال سيبويه[٣]: لا يقال سُعِد فلان، كما لا يقال شُقِي فلان؛ لكونه مما لا يتعدى.

قال النحاس: ورأيتُ عليّ بن سليمان يتعجب مِنْ قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية، وهذا لحنٌ لا يجوز.

ومعنى الآية كما مرّ في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدّمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ، والمجذوذ: المقطوع، من جذه يجذّه إذا قطعه، والمعنى: أنّه ممتدّ إلى غير نهاية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٤]، في قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يقول: أضلّهم فأوردهم النار.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن [٢/٦٠] قتادة[٥]، في الآية قال: فرعون يُمضي بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[٦]، في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ قال: الورود: الدخول.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٧]، في قوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢١٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٢٠)، و«التيسير» (ص١٢٦) قرأ الكوفيون عدا أَبي بكر عن عاصم بضم السين، والباقون بفتح السين وهما متواترتان.

(٢) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٤٧).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢١٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٧٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٢) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٢) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٣) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨١) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه[١] ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ يعني: قرى عامرة وقرى خامدة.

وأخرج أبو الشيخ، عن قتادة[٢]: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ يرى مكانه، ﴿وَحَصِيدٞ﴾ لا يرى له أثر.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن جريج[٣]: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ خاوٍ على عروشه، ﴿وَحَصِيدٞ﴾ لصق بالأرض.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن أبي عاصم ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ قال: ما نفعت.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن عمر[٥]، في قوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾؛ أي: هلكة.

وأخرج أبو الشيخ[٤]، عن ابن زيد قال: تخسير.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٦] معناه.

وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾».

وأخرج ابن جرير[٨]، عن ابن زيد، في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٨) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠) من طريق سعيد بن سلّام أبو الحسن البصري، به.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٣) من طريق سعيد بن بشير، به. بسند ضعيف.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٠) من طريق سعيد بن أبي عروبة، به. بسند صحيح.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٢) من طريق معمر، به. بسند صحيح.

(٧) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٦٨٦)، ومسلم رقم (٦٦/ ٢٥٨٣).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٣) بسند صحيح.

﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ يقول: إنا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، عن ابن عباس(١)، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ قال: يوم القيامة.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد(٢)، مثله.

وأخرج أبو الشيخ(٣)، عن ابن جريج، في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ قال: ذلك اليوم.

وأخرج الترمذيُّ وحسّنه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عمر بن الخطاب(٤)، قال: «لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قلتُ: يا رسولَ الله، فعلام نعمل: على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شيء قد فرغ منه، وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كلّ مُيسّر لما خُلِق له».

وأخرجَ ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابنُ مردويه، عن ابن عباس(٥) قال: هاتان من المخبآت قول الله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ و﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩] أما قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فهم قوم مِنْ أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن في الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة، فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ حين أذن في الشفاعة لهم وأخرجهم مِنْ النار وأدخلهم الجنة وهم هم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾؛ يعني: بعد الشقاء

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٤) من طريق وكيع، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤) من طريق أبي بشر، به.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٥).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٣١١١)، وأبو يعلى رقم (٥٤٦٣، ٥٥٧١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٧، ٥٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٤). وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٥، ٢٠٨٧) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.

الذي كانوا فيه ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ يعني: الذين كانوا في النار.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن قتادة[1] أنّه تلا هذه الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ فقال: حدّثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء: إنَّ من دخلها بقي فيها».

وأخرج ابن مردويه[2]، عن جابر، قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن شاء الله أن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فَعَل».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن خالد بن معدان[3] في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: إنها في التوحيد من أهل القبلة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله[4]، أو عن أبي سعيد الخدري، أو رجل من أصحاب النبيّ ﷺ، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: هذه الآية قاضية على القرآن كلِّه، يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي عن أبي نضرة[5]، قال: ينتهي القرآن كله إلى هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس[6]، في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٨٠)، وأحمد رقم (١٣٨٣٩)، والبخاري في «صحيحه» رقم (٦٥٥٩).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٧) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٣٨١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٢٣٧) من طرق.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٣٣٦)، وفي «الاعتقاد» (ص١٨٤ ـ ١٨٥).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٥) من طريق مجاهد، عن ابن عباس.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ[١]، نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن[٢]، نحوه أيضاً.

وأخرج البيهقي في «البعث والنشور»، عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: فقد شاء ربك أن يخلّد هؤلاء في النار، وأَنْ يخلد هؤلاء في الجنة.

وأخرج ابن جرير[٤]، عنه، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: استثنى الله من النار أن تأكلهم.

وأخرج أبو الشيخ[٥]، عن السديّ، في الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨] إلى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها، وأوجب لهم خلود الأبد. وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ الآية. قال: فجاء بعد ذلك مِنْ مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] فأوجب لهم خلود الأبد.

وأخرج ابن المنذر[٦]، عن الحسن، قال: قال عمر: لو لبث أهل النار في النار كقَدْر رَمْل عالجٍ، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه.

وأخرج إسحاق بن راهويه[٧] عن أبي هريرة قال: «سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ الآية».

وأخرج ابن المنذر[٧]، وأبو الشيخ، عن إبراهيم، قال: «ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾» قال: وقال ابن مسعود: «ليأتينّ عليها زمان تخفق أبوابها».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٦) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٦) من طريق مبارك بن فضالة، به.

(٣) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» (ص٦٦٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٨٢) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٧).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٨).

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٨).

وأخرج ابن جرير[١] عن الشعبي قال: «جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعهما خراباً».

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٢]، في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ قال: الله أعلم بثُنْيَنه على ما وقعتْ.

وقد روي عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر، وأبو هريرة، وابن مسعود؛ كابن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر، وأبي سعيد من الصحابة، وعن أبي مِجْلَز وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، وغيرهما من التابعين.

وورد في ذلك حديث في «معجم الطبراني[٣] الكبير» عن أبي أمامة[٤] صُدي بن عجلان الباهلي، وإسناده ضعيف.

ولقد تكلّم صاحب «الكشاف»[٥] في هذا الموضع بما كان له في تركه سعةٌ، وفي السكوت عنه غنى، فقال: ولا يخدعنك قول المُجْبِرة[٦]: إنَّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر[٧] مِنْ النار، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتابَ الله لما روي لهم بعض النوابت عَنْ ابن عمرو: ليأتينّ على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، ثم قال[٨]: وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عَنْ تسيير هذا الحديث[٩]. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٨٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (ج٨ رقم ٧٩٦٩). وهو حديث ضعيف جدّاً.
في إسناده: عبد الله بن مسعر وجعفر بن الزبير وكلاهما متروك. «الضعيفة» رقم (٦٠٦، ٦٠٧).

(٤) بلفظ: «ليأتين على جهنم يوم كأنها زرع هاج واحمر تخفق أبوابها».

(٥) في «الكشاف» (٣/ ٢٣٨).

(٦) يريد الزمخشري بهذا القول: أهل السُّنَّة.

(٧) انظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٤٨٠ ـ ٤٨٤)، و«الشريعة» للآجري (٢/ ١٣٧١ ـ ١٣٨٢).

(٨) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٣٨).

(٩) أخرجه البزار كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٤٨) من طريق الطيالسي، ثنا شعبة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً.
• وأخرجه ابن عدي في «الكامل» كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٣٨ ـ ١٤٩) من طريق العلاء بن زيد الثقفي عن أنس مرفوعاً.
وأعله بالعلاء بن زيد وقال: منكر الحديث. =

وأقول: أمَّا الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار، فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ، كما صح عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السُّنَّة المطهرة، وكما صحّ عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر؛ فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأيّ مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة، كما ذهب إلى ذلك.

وقال به جمهور العلماء(١) من السلف والخلف؛ وأما ما ظننته من أن الاستثناء

= قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: «الحديث أخرجه البزار قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد»؛ يعني: من الموحدين؟ كذا فيه، ورجاله ثقات. والتفسير لا أدري ممن هو، وهو أولى من تفسير المصنف، ويؤيده ما رواه ابن عدي عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ليأتين على جهنم يوماً ما فيها من بني آدم أحد، تخفق أبوابها، يعني: من الموحدين».

وأمَّا الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أمامة في «مسنده» من طريق الحسن، عن عمرو رفعه: «إن جهنم تخلو حتى ينبت فيها الجرجير» فهو منقطع، ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد، فإن كان محفوظاً فعلى التأويل الأول، والله أعلم.

(١) **الخلاصة**: الإيمان بأن أهل الجنة خالدون فيها أبداً، وأن أهل النار من الكفار والمنافقين خالدون فيها أبداً.

انقسم الناس في هذه المسألة إلى ثلاثة أقسام:

القائلون بأن الجنة والنار دائمتان لا تفنيان ولا تبيدان، وهذا قول الجمهور من الأئمة من السلف والخلف، وهو الراجح الذي يدل عليه الكتاب والسُّنَّة وأقوال الأئمة.

ـ الأدلة من الكتاب:

قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]. فقد أخبر عن أبديتهم.

• ونفى تعالى خروجهم منها: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

• ونفى تعالى انقطاعها عنهم: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥].

• ونفى ﷻ فناءهم فيها: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فقد أخبرنا الله ﷻ في هذه الآيات وأمثالها أن أهل النار الذين هم أهلها خلقت لهم وخلقوا لها وأنهم خالدون فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا فكاك لهم منها ولا خلاص، ولات حين مناص.

انظر: «معارج القبول» (٣/١٠٤٢) ط. ابن الجوزي.

= **الأدلة من السُّنَّة:**

١ ـ ما أخرجه البخاري رقم (٤٧٣٠)، ومسلم في «صحيحه» رقم (٤٠/ ٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى الموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ بأهل الجنة، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

• وأخرج مسلم في «صحيحه» رقم (٤٢/ ٢٨٥٠) من حديث ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الله أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النارِ النارَ، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنةِ لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه».

• وأخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٦٥٤٨) من حديث ابن عمر دون قوله: (كل خالدٌ. . .).

• وأخرجه البخاري رقم (٦٥٤٨)، ومسلم رقم (٤٣/ ٢٨٥٠) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهلُ الجنةِ إلى الجنةِ، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنةِ والنار ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنةِ لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم».

٢ ـ القائلون بفناء الجنة والنار: وهذا قول الجهم بن صفوان ـ إمام المعطلة ـ وأتباعه، وقد أنكر عليه هذا القول وكفروه به.

• قال شارح «العقيدة الطحاوية» (ص٤٨٠): «وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان ـ إمام المعطلة ـ وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السُّنَّة، وأنكره عليه عامة أهل السُّنَّة، وكفّروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم».

٣ ـ القائلون بفناء النار دون الجنة:

قال «شارح الطحاوية» (ص٤٨٣ ـ ٤٨٤): «أما أبدية النار ودوامها فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

الثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى فقال عزّ من قائل: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ =

الثاني ينادي على تكذيبهم، ويسجل بافترائهم، فلا مناداة ولا مخالفة، وأيّ مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة.

فالاستثناء الأوّل: يحمل على معنى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من خروج العصاة من هذه الأمة من النار.

والاستثناء الثاني: يحمل على معنى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ﴾ ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدّة التي لبثوا فيها في النار؛ وقد قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة.

= عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه! وهذا قول الجهم وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً، ولا يحسّون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلّاف.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه، ومن أدلتهم قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

ولم يأت بعد هذيه الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السُّنَّة، ويبقى فيها الكفار بقاءً لا انقضاء له.

وقد تقدم ذكر الآيات التي تشير إلى ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [البيّنة: ٨]».

● وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان. وهذان القولان لأهل السُّنَّة ينظر في أدلتهما.

انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٨٠ ـ ٤٨٤)، و«معارج القبول» (٣/ ١٠٤٠ ـ ١٠٤٦) بتحقيقنا، و«الشريعة» للآجري (٣/ ١٣٧١ ـ ١٣٨٢).

وأما الطعن على صاحب رسول الله ﷺ، وحافظ سُنَّته، وعابد الصحابة، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، [٢/٦١] فإلى أين يا محمود، أتدري ما صنعت، وفي أيّ واد وقعتَ، وعلى أي جَنْب سقطتَ؟ ومَنْ أنت حتى تصعد إلى هذا المكان؟! وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة، ورجلك العرجاء، أَما كان لك في مكسري طلبتك مِنْ أهل النحو واللّغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف، والتكلم بما لا تدري، فيالله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية! والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه!! ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة، وبيان حال السعداء والأشقياء، سلَّى رسولَه ﷺ بشرح أحوال الكفرة مِنْ قومه في ضمن النهي له عن الامتراء في أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار، ولا تأثير له في شيء.

وحذف النون[١] في «لا تك» لكثرة الاستعمال، والمِرْية: الشك، والإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره ﷺ؛ وقيل: المعنى: لا تكُ في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء؛ وقيل: لا تك في شك مِنْ سوء عاقبتهم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٢١٨).

ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك. فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً. ثم بيّن له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل، وفي هذا استثناء تعليل للنهي عن الشك.

والمعنى: أنَّهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره. فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك. فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، وجاء بالمضارع في ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾ لاستحضار الصورة.

ثم بيّن له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من العذاب كما وفينا آباءهم، لا ينقص من ذلك شيء، وانتصاب (غير)[(١)] «على» الحال، والتوفية لا تستلزم عدم النقص، فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص، كما يجوز أن يوفى وهو كامل، وقيل: المراد نصيبهم مِنْ الرزق[(٢)].

وقيل: ما هو أعمّ من الخير والشرّ[(٣)].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾؛ أي: في شأنه وتفاصيل أحكامه، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، وعمل بأحكامه قوم، وترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح لقضى بينهم؛ أي: بين قومك، أو بين قومِ موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأُثيب المحقّ وعُذِّب المبطل؛ أو الكلمة هي أن رحمته سبحانه سبقت غضبَه، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك.

وقيل: إنّ الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، وهذا من جملة التسلية له ﷺ، ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

---

(١) «روح المعاني» (١٢/١٢٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٧٠)، و«التبيان» (٢/ ٧١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩) عن أبي العالية بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩) عن ابن عباس بسند ضعيف؛ لضعف جابر الجعفي.

مُرِيبٍ﴾؛ أي: من القرآن، إنْ حمل على قوم محمد ﷺ، أو من التوراة، إن حمل على قوم موسى عليه السلام.

والمريب: الموقع في الريبة. ثم جمع الأوّلين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم، أو هو والثواب فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر «وإنْ» بالتخفيف(١) على أنها إنْ المخففة من الثقيلة وعملت في «كُلاً»(٢) النصب.

وقد جوّز عملها الخليل(٣) وسيبويه(٤)، وقد جوّز البصريون تخفيف إنْ مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائي(٥) وقال: ما أدري على أيّ شيء قرئ «وإنْ كلاً»؟ وزعم الفراء(٦) أن انتصاب كلّاً بقوله: ليوفينّهم، والتقدير وإن ليوفينهم كلّاً، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين.

وقرأ الباقون بتشديد(٧) «إنَّ» ونصبوا بها «كلّاً». وعلى كلا القراءتين فالتنوين في «كلّاً» عوض عَنْ المضاف إليه؛ أي: وإن كل المختلفين. وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر «لمّا» بالتشديد(٨)، وخففها الباقون.

قال الزجاج(٩): لام لمّا لام إنْ، وما زائدة مؤكدة، وقال الفراء(١٠): ما بمعنى من كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] أي: وإن كلّاً لمن ليوفينّهم.

وقيل: ليست بزائدة بل هي اسم دخلت عليها لام التوكيد، والتقدير: وإن كلّاً لمن خلق.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٥٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢١٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٢٩).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ١٣٢)، و«الفريد» (٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣)، و«التبيان» (٢/ ٧١٧).
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٥).
(٤) في «الكتاب» (٢/ ١٤٠).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٢٠).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩).
(٧) «روح المعاني» (١٢/ ١٣٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٢٠)، و«جامع البيان» (١٢/ ٥٩٤).
(٨) «التيسير» (ص١٢٦)، و«التبيان» (٢/ ٧١٧ ـ ٧١٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٢٠).
(٩) في «معاني القرآن» له (٣/ ٨١).
(١٠) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).

قيل: وهي مركبة، وأصلها لمَنْ[١] ما، فقلبت النون ميماً واجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس[٢] عن النحويين.

وزيف الزجّاج[٣] هذا وقال: مَنْ «اسم» على حرفين فلا يجوز حذف النون.

وذهب بعض النحويين إلى أن (لمّا) هذه بمعنى إلّا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤].

وقال المازني: الأصل لما المخففة ثم ثُقّلت.

قال الزجاج[٤]: وهذا خطأ، إنما يخفف المثقل ولا يثقل المخفف.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام[٥]: يجوز أن يكون التشديد مِنْ قولهم: لَمَمْتُ الشيء أَلُمّه: إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى كما قرئ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية. وقد روي ذلك عن الخليل[٦]، وسيبويه[٧]، وجميع البصريين، ورجحه الزجاج[٨] ويؤيده أن في حرف أبيّ «وإنْ كلاً إلا ليوفينهم» كما حكاه أبو حاتم عنه.

وقرئ بالتنوين؛ أي: جميعاً.

وقرأ الأعمش[٩] «وإنْ كلٌّ لمّا» بتخفيف إنْ ورفع كلٌّ وتشديد لمّا، وتكون إنْ على هذه القراءة نافية.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أيُّها المختلفون ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه مِنْه شيء.

والجملة تعليل[١٠] لما قبلَها، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمةٍ جامعة لأنواع

---

(١) انظر: «الفريد» (٢/ ٦٧٣)، و«التبيان» (ص٧١٧ ـ ٧١٨).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٦). (٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١).
(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١).
(٥) «إعراب القرآن» للنّحاس (٢/ ٣٠٦).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٦).
(٧) في «الكتاب» (٢/ ١٤٠).
(٨) في «معاني القرآن» له (٣/ ٨١). وقراءة أُبيّ: شاذة.
(٩) «المحتسب» (١/ ٣٢٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٢٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٣٤)، و«القراءات الشاذة» (ص٦١). وهي قراءة شاذة.
(١٠) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٨٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٣٨).

الطاعة له سبحانه، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ أي: كما أمرك الله، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه؛ لأنّه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، وأمته أسوته في ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ أي: رجع من الكفر إلى الإسلام، وشاركك في الإيمان، وهو معطوف[(١)] على الضمير في ﴿فَاسْتَقِمْ﴾؛ لأنّ الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد؛ أي: وليستقم مَنْ تاب معك.

وما أعظم موقع هذه الآية وأشدّ أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة، والذوات المقدّسة، ولهذا يقول المصطفى: «شيبتني هود»[(٢)] كما تقدّم.

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزةُ الحد، لمّا أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلوّ في العبادة، والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حدّه، والمقدار الذي قدّره ممنوع منه منهيّ عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء؛ فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني».

والخطاب للنبي ﷺ ولأمته تغليباً لحالهم على حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل[(٣)] لما قبلها.

قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ الجمهور بفتح[(٤)] الكاف، وقرأ طلحة بن مصرّف، وقتادة، وغيرهما ﴿تَرْكُنُوا﴾ بضم الكاف[(٥)].

قال الفراء[(٦)]: وهي لغة تميم وقيس، قال أبو عَمْرو[(٧)]: وقراءة الجمهور هي

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ١٣٨)، و«التبيان» (٢/ ٧١٧)، و«الفريد» (٢/ ٦٧٤).
(٢) تقدم نصه وتخريجه.
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ١٣٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٩١).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢١)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٤٢).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢١).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٠٦).
(٧) «روح المعاني» (١٢/ ١٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢١).

لغة أهل الحجاز، قال: ولغة تميم بكسر التاء[١] وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كلِّ ما كان مِنْ باب عَلِم يعلَم.

وقرأ ابن أبي عَبْلة بضم[٢] التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول مِنْ أركنَه.

قال في «الصحاح»[٣]: ركنَ إليه يركُن بالضم.

وحكى أبو زيد[٤]: ركِن إليه بالكسر، يركِن ركوناً فيهما؛ أي: مال إليه وسكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركَنُ بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللّغتين. انتهى.

وقال في «شمس العلوم»[٥]: الركون: السكون. يقال: ركنَ إليه ركوناً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ انتهى.

وقال في «القاموس»[٦]: ركنَ إليه؛ كنَصر وعَلِم، ومنَع، ركوناً: مال وسكن انتهى، [٢/٦٢] فهؤلاء الأئمة مِنْ رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب «الكشّاف»[٧] حيث قال: فإنّ الركون هو الميل اليسير، وهكذا فسّره المفسرون، بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم يذكرها أئمة اللغة.

قال القرطبي[٨] في «تفسيره»: الركون حقيقتُه: الاستنادُ والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به.

ومِنْ أئمة التابعين مَنْ فسّر الركون بما هو أخصّ من معناه اللغوي. فروي عن قتادة[٩]، وعكرمة[١٠] في تفسير الآية أن معناها: لا تودّهم ولا تطيعوهم.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٩). قراءة الجمهور هي المتواترة، وغيرها شاذ.
(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦١)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢١).
(٣) «الصحاح» (٥/ ٢١٢٦).
(٤) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).
(٥) «شمس العلوم» (٤/ ٢٦١٧).
(٦) «القاموس المحيط» (ص١٥٥٠).
(٧) في «الكشاف» (٣/ ٢٤١).
(٨) في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٢٥).
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٢٥).
(١٠) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٨٥).

وقال عبد الرحمٰن[١] بن زيد بن أسلم في تفسير الآية: الركون هنا: الإدهان، وذلك أنّ لا ينكر عليهم كفرهم: وقال أبو العالية[٢]: معناه لا ترضوا أعمالهم.

وقد اختلف أيضاً الأئمة مِنْ المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة؟

فقيل: خاصة، وإنّ معنى الآية: النهي عَنْ الركون إلى المشركين، وأنهم المرادون بالذين ظلموا، وقد روي ذلك عن ابن عباس[٣].

وقيل: إنّها عامة في الظلمة مِنْ غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون، لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإن قلتَ: وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتاً لا يخفى على مَنْ له أدنى تمسك بالسُّنَّة المطهرة، بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ «الصحيح»[٤]: «أطيعوا السلطان وإنْ كان عبداً حبشيّاً رأسه كالزبيبة».

وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة، وما لم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية الله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٩٠) بسند ضعيف.

(٤) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة». [أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١١٤)، والبخاري في «صحيحه» رقم (٧١٣٢)].

• وعن أم الحصين الأحمسيَّة أنَّها سمعت النبي يقول: «اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّر عليكم عبد حبشي، ما أقام فيكم كتاب الله ﷻ». [أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٤/ ٦٩، ٤٠٢)، ومسلم رقم (٣٧/ ١٨٣٨)، والترمذي رقم (١٧٠٦)، والنسائي رقم (٤١٩٢)، وابن ماجه رقم (٢٨٦١).

وظاهر ذلك أَنَّهم وإنْ بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به مِنْ معصية الله.

ومن جملة ما يأمرون به تولّي الأعمال لهم، والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله؛ ومِنْ جملة ما يأمرون به: الجهاد، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم، وإقامة الحدود على من وجبت عليه.

وبالجملة، فطاعتهمُ واجبة على كلِّ مَنْ صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن مِنْ معصية الله، ولا بدّ في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم، ونحو ذلك مما لا بدّ منه، ولا محيص عن هذا الذي ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة، لتواتر الأدلة الواردة به.

بل قد ورد به الكتاب العزيز: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم، واسألوا الله الذي لكم».

بل ورد الأمر بطاعة السلطان، وبالغ في ذلك النبي ﷺ حتى قال: «وإنْ أخذَ مالكَ، وضربَ ظهَرك». فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون، فمجرّد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون؛ وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية مَنْ مال إليهم في الظاهر، لأمرٍ يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن، ولا محبة، ولا رضا بأفعالهم.

قلتُ: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله، فهي على فرض صدق مُسمّى الركون عليها، مخصّصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدّمنا الإشارة إليها، ولا شك في هذا ولا ريب، فكلُّ مَنْ أمروه ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله؛ كالمناصب الدينية، ونحوها إذا وَثق مِنْ نفسه بالقيام بما وكل إليه، فذلك واجب عليه فضلاً عن أن يقال جائز له.

وأمّا ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممّن تجب طاعته مِنْ الأئمة والسلاطين والأمراء جمعاً بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، وأمّا مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، مع كراهة ما هم عليه من الظلم، وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة، فعلى فرض صدق مُسمّى الركون على هذا، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى(١)، ولا تخفى على الله خافية.

وبالجملة فمَنْ ابتلي بمخالطة مَنْ فيه ظلم، فعليه أَنْ يزنَ أقوالَه وأفعاله، وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإنْ زاغ عن ذلك: «فعلى نفسها براقش تجني» ومَنْ قدر على الفرار منهم قبل أَنْ يؤمر مِنْ جهتهم بأمر يجب عليه طاعته، فهو الأولى له والأليق به.

يا مالكَ يومِ الدين إيّاك نعبد وإياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وقوّنا على ذلك ويسره لنا، وأعنا عليه.

قال القرطبي(٢) في «تفسيره»: وصحبةُ الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. انتهى.

وقال النيسابوري(٣) في تفسيره: قال المحققّون: الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة. أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب؛ فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخلة في الركون، قال: وأقول هذا مِنْ طريق المعاش والرخصة، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. انتهى.

(١) تقدم نصه وتخريجه. وهو حديث صحيح.
(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٢٦).
(٣) انظر: «الوسيط» (٢/ ٥٩٣).

قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بسبب الركون إليهم، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار، أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مسّ النار.

وجملةُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ في محل(١) نصب على الحال من قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾. والمعنى: أنّها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم، وينقذكم مِنْها ﴿ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣] من جهة الله سبحانه، إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذي نُهيتم عنه، فلم تنتهوا عناداً وتمرّداً. [٢/٦٣]

قولُه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خصّ من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان، وانتصاب طرفَي النهار(٢) على الظرفية، والمراد: صلاة الغداة والعشيّ، وهما: الفجرُ والعصرُ؛ وقيل: الظهر موضع العصر، وقيل: الطرفان الصبح والمغرب، وقيل: هما الظهر والعصر. ورجح ابن جرير(٣): أنهما الصبح والمغرب، قال: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب.

﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾؛ أي: في زُلفٍ من الليل، والزلف: الساعات القريبة بعضها مِنْ بعض، ومنه سُمّيت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة.

وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما «زُلُفاً» بضم اللام(٤) جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة. وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام(٥).

وقرأ مجاهد «زُلْفى» مثل فعلى(٦). وقرأ الباقون «زُلَفاً» بفتح اللام(٧) كغرفة وغرف.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ١٤٣)، و«الفريد» (٢/ ٦٧٥).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٤٤)، و«التبيان» (٢/ ٧١٨)، و«الفريد» (٢/ ٦٢٥).

(٣) في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٥).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٢٩٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٤٥). قراءة يزيد بن القعقاع (زُلُفا) وباقي العشرة (زُلَفا) والباقي شاذ.

(٥) «المحتسب» (١/ ٣٣٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٤٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢٢).

(٦) «روح المعاني» (١٢/ ١٤٦).

(٧) «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٩٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٤٦).

قال ابن الأعرابي[١]: الزُلف الساعات واحدتها زُلْفة.

وقال قوم: الزلفة أوّل ساعة مِنْ الليل بعد مغيب الشمس.

قال الأخفش[٢]: معنى زلفاً من الليل: صلاةُ الليل.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: إنّ الحسنات على العموم، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم؛ وقيل: المراد بالسيئات: الصغائر، ومعنى يذهبن السيئات: يُكفّرنها حتى كأنّها لم تكن، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ وما بعده.

وقيل: إلى القرآن ذكرى للذاكرين؛ أي: موعظة للمتعظين ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما أُمرت به مِنْ الاستقامة وعدم الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا.

وقيل: إنّ المراد الصبر على ما أُمر به دون ما نُهي عنه؛ لأنّه لا مشقة في اجتنابه، وفيه نظرٌ، فإن المشقة في اجتناب المنهيّ عنه كائنة، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر، فذلك لا يخرجها عَنْ مطلق المشقة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يهمله ولا يبخسه بنقص.

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٣]، في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قال: ما قُدّر لهم مِنْ خير أو شرّ.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن زيد[٤]، في الآية قال: من العذاب.

وأخرجا عن أبي العالية[٥]. قال: من الرزق.

---

(١) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٣/ ٢١٤).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٢٩).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩) بسند ضعيف؛ لضعف جابر الجعفي.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩) من طريق أصبغ بن الفرج، به.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٥٩٢) بسند صحيح، من طريق ابن وهب، به.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩) بسند صحيح.

وأخرجا[١] أيضاً عن قتادة في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ قال: أمر الله نبيّه أن يستقيم على أمره، ولا يطغى في نعمته.

وأخرج أبو الشيخ[٢]، عَنْ سفيان، في الآية قال: استقم على القرآن.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الحسن[٣]، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ قال: شمّروا شمّروا فما رؤي ضاحكاً.

وأخرج ابن المنذر[٣]، عن ابن جريج ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ قال: آمن.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن العلاء بن عبد الله بن بدر[٤]، في قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ قال: لم يرد أصحاب النبي ﷺ إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم.

وأخرج أبو الشيخ[٣]، عن ابن عباس ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ يقول: لا تظلموا.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، عن ابن زيد، قال: الطغيان: خلاف أمره وارتكاب معصيته.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٦]، في قوله: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال: يعني الركون إلى الشرك.

وأخرج ابن جرير[٧]، وابن المنذر عنه ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ قال: لا تميلوا.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم[٨]، عنه، أيضاً قال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾: لا تدهنوا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩) بسند ضعيف، من طريق بشير بن سعيد، به.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٠).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٠).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٠).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٣٠٨٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠١) بسند ضعيف. ابن جريج لم يلق ابن عباس.
• قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٤٧٩) وهذا القول حسن؛ أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٠) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ[١]، عن عكرمة، في الآية قال: أَنْ تطيعوهم أو تودّوهم أو تصطنعوهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٢]، في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قال: صلاة المغرب والغداة ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ قال[٣]: صلاة العتمة.

وأخرجا عن الحسن[٤] قال: الفجر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ قال: هما زلفتان: صلاة المغرب وصلاة العشاء. قال: وقال رسول الله ﷺ: «هما زلفتا الليل».

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٥] في الطرفين قال: صلاة الفجر، وصلاتي العشيّ: يعني الظهر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ قال: المغرب والعشاء.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن مجاهد[٦]، في قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ قال: ساعةً بعد ساعة، يعني: صلاة العشاء الآخرة.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»، عن ابن عباس[٧] أنه كان يستحبّ تأخير العشاء، ويقرأ: «زُلفاً من الليل».

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٨) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩١) بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩١) من طريق الثوري، عن مجاهد.

(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨١).

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٠٣ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٤٥١) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن مردويه، عن ابن مسعود[١]، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، ومحمد بن نصر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس[٢] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال: الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس.

وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود[٣]: أن رجلاً أصاب مِنْ امرأة قُبْلة، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال: «هي لمن عمل بها مِنْ أمتي».

وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة[٤]: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم فيّ حدّ الله مرّة أو مرّتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ قال: أينَ الرجلُ؟ قال: أنا ذا، قال: أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟ قال: نعم. قال: فإنّك مِنْ خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد، وأنزل الله حينئذ على رسوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾».

في الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة، ووردت أحاديث أيضاً: «إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهنّ»[٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦١٢)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ١٥٧ رقم ٩٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣١٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٢)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٩٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦١٢، ٦١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٢٦، ٤٦٨٧)، ومسلم رقم (٣٩/ ٢٧٦٣)، وأحمد رقم (٣٦٥٣)، والترمذي رقم (٣١١٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٤٧)، وابن ماجه رقم (١٣٩٨، ٤٢٥٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩١)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (١٧٢٩).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٢١٦٣، ٢٢٢٨٦)، ومسلم رقم (٢٧٦٥)، وأبو دود رقم (٤٣٨١)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٧٣١٣ ـ ٧٣١٦)، وابن خزيمة رقم (٣١١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٢٣)، والطبراني رقم (٧٦٧٥).

(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٣٣)، والترمذي رقم (٢١٤)، وابن ماجه رقم (١٠٨٦)، وأحمد رقم (٨٧٠٠) كلهم من حديث أبي هريرة ﵁. وهو حديث صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[١]، عن الحسن، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال: هم الذين يذكرون الله في السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، والعافية والبلاء.

وأخرج ابن المنذر[٢]، عن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبَّل المرأة تذكر، فذلك قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أنَّ سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنّه ما كان فيهم مَنْ ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾؛ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ مِنْ الرأي والعقل والدين ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويمنعونهم مِنْ ذلك، لكونهم ممّن جمع الله له بين جودة العقل، وقوّة الدين، وفي هذا من التوبيخ[٣] للكفار ما لا يخفى، والبقية في الأصل لما يستبقيه الرجل ممّا يُخْرجه، وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله، فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٣) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٠).

(٣) «روح المعاني» (١٢/ ١٥٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٩٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢٤).

والاستثناء[١] في ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منقطع؛ أي: لكن قليلاً ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ يَنهون عن الفساد في الأرض.

وقيل: هو متصل[٢] لأنّ في حرف التحضيض معنى النفي، فكأنه قال: ما كان في القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممّن أنجينا منهم.

و«مِنْ» في ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾ بيانية[٣] لأنّه لم ينج إلا الناهون؛ قيل: هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ معطوف[٤] على مقدّر يقتضيه الكلام، تقديره: إلَّا قليلاً ممن أنجينا منهم نَهوا عن الفساد.

والمعنى: أنّه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أُترفوا فيه. والمترف: الذي أبطرته النعمةُ، يقال: صبيّ مُتْرَف: مُنّعم البدن؛ أي: صاروا تابعين للنِّعم التي صاروا بها مترفين من خَصْب العيش، ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا[٥] ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية.

وقيل: المراد بالذين ظلموا: تاركو النّهي. وُردّ بأنّه يستلزم خروج مباشري الفساد عَنْ الذين ظلموا وهم أشدّ ظلماً ممن لم يباشر، وكان ذنبه ترك النهي.

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: «وأُتْبع الذين ظلموا» على البناء للمفعول[٦]، ومعناه: [٢/٦٤] أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «الفريد» (٢/ ٦٧٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٣٤).

(٣) «روح المعاني» (١٢/ ١٥٦)، و«الفريد» (٢/ ٦٧٨).

(٤) «الفريد» (٢/ ٦٧٨).

(٥) «روح المعاني» (١٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٥٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٣١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٩٤)، و«القراءات الشاذة» (ص٦١). هي رواية شاذة عن أبي عمرو.

وجملة: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ متضمنة[١] لبيان سبب إهلاكهم، وهي معطوفة على أُترفوا؛ أي: وكانَ هؤلاء الذين أتبعوا ما أُترفوا فيه مجرمين، والإجرام: الآثام.

والمعنى: أَنَّهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها، ويجوز أَنْ تكون جملة: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ معطوفة على ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: اتبعوا شهواتهم، وكانوا بذلك الاتباع مجرمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: ما صحّ ولا استقام أَنْ يُهلكَ الله سبحانه أهلَ القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك، والحال أنّ أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئاً. والمعنى: أنّه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده[٢] حتى ينضمّ إليه الفساد في الأرض، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء.

وقيل: إن قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال مِنْ الفاعل[٣]. والمعنى: وما كان الله ليهلك القرى ظالماً لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين في الأرض، ويكون المراد بالآية تنزيهه ﷻ عَنْ صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه، على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد.

قال الزجاج[٤]: يجوز أن يكون المعنى: وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه، وإنْ كان على نهاية الصلاح لأنّ تصرفه في ملكه، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤].

وقيل: المعنى[٥]: وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي: مخلصون في الإيمان، فالظلم المعاصي على هذا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: أهل دين واحد، إما أهل ضلالة، أو أهل هدى.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٥٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٩٤).
(٢) «جامع البيان» (١٢/ ٦٣١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).
(٣) «الفريد» (٢/ ٦٧٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٦٠).
(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٣).
(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

وقيل: معناه: جعلهم مجتمعين على الحقِّ غير مختلفين فيه، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان، ولكنّه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في ذات بينهم على أديان شتى، أو لا يزالون مختلفين في الحق أو دين الإسلام.

وقيل[١]: مختلفين في الرزق: فهذا غنيّ. وهذا فقير ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلّا مَنْ رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام، بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله، وهو الحق الذي لا حق غيره، أو إلّا مَنْ رحم ربك بالقناعة.

والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحقِّ حتى يكون معنى الاستثناء[١] في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ واضحاً غير محتاج إلى تكلف ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾؛ أي: لما ذكر من الاختلاف ﴿خَلَقَهُمْ﴾ أو ولرحمته خلقهم. وصحّ تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي، والضمير[٢] في خلقهم راجع إلى الناس، أو إلى «مَنْ» في من رحم ربك.

وقيل: الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة[٣]، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى تمت: ثبَتَتَ، كما قدّره في أزله، وإذا تمت امتنعت مِنْ التغيير والتبديل، وقيل: الكلمة هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ممّن يستحقها من الطائفتين، والتنوين في ﴿وَكُلًّا﴾ للتعويض[٤] عن المضاف إليه، وهو منصوب بـ﴿نَقُصُّ﴾. والمعنى: وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقصُّ عليك؛ أي: نُخْبرك به.

وقال الأخفش[٥]: ﴿وَكُلًّا﴾ حال مقدّمة كقولك: كلّاً ضربت القوم، والأنباء:

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٣٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٦٢).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٩٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٦٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٢٧).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ١٦٣)، و«الوسيط» (٢/ ٥٩٧)، و«جامع البيان» (١٢/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٨)، و«الفريد» (٢/ ٦٨٠)، و«التبيان» (٢/ ٧١٩).
(٥) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٨٥).

الأخبار ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾؛ أي: ما نجعل به فؤادك مثبتاً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور[١] طمأنينته؛ لأنّ تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم.

وجملة: ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾ بدل مِنْ أنباء[٢] الرسل، وهو بيان لكلا، ويجوز أن يكون ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾ مفعولاً لنقصّ، ويكون «كُلاً» مفعولاً مطلقاً.

والتقدير: كلّ أسلوب مِنْ أساليب الاقتصاص نقصّ عليك ما نثبت به فؤادك ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: جاءك في هذه السورة، أو في هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها مَنْ تفكر فيها مِنْهم، وخصّ المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر؛ وقيل: المعنى: وجاءك في هذه الدنيا الحق، وهو النبوّة؛ وعلى التفسير الأوّل، يكون تخصيص هذه السورة[٣] بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور، لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون، ولا يتذكرون ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم، وقد تقدّم تحقيقه ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق، والاتعاظ، والتذكر، وفي هذا تشديد للوعيد[٤] والتهديد لهم، وكذلك قوله: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

والمعنى: انتظروا عاقبة أمرِنا فإنَّا منتظرون عاقبة أمركم وما يحلّ بكم من عذاب الله وعقوبته.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما،

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧٣).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٢٨)، و«الفريد» (٢/ ٦٨٠)، و«التبيان» (٢/ ٧١٩).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ١٦٨).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٩٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٦٩).

وخصّ الغيب(١) مع كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره.

وقيل: إنّ غيب السمٰوات والأرض: نزول العذاب(٢) مِنْ السماء وطلوعه من الأرض، والأوّل: أولى، وبه قال أبو عليّ الفارسي(٣) وغيره، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعاً.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾؛ أي: يوم القيامة فيجازى كلّاً بعمله.

وقرأ نافع وحفص «يُرجْعُ» على البناء للمفعول(٤).

وقرأ الباقون على البناء(٥) للفاعل.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنّه كافيك كلَّ ما تكره، ومعطيك كلَّ ما تحبّ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل عالم بجميع ذلك، ومجاز عليه إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب(٦). وقرأ الباقون(٧) بالتحتية.

وقد أخرج ابن أبي حاتم(٨)، عن أبي مالك، في قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ قال: فهلّا.

وأخرج ابن مردويه(٩)، عن أُبيّ بن كعب، قال: أقرأني رسول الله ﷺ: فلولا كان مِنْ القرون من قبلكم أولوا بقية، وأحلام، ينهون عن الفساد في الأرض.

وأخرج أبو الشيخ(٩)، عن ابن جريج ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ يستقلهم الله من كل قوم.

---

(١) «جامع البيان» (١٢/٦٤٧ ـ ٦٤٨)، و«مجمع البيان» (١٢/٢٣٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/٢٣٩). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٢٣٩).

(٤) «روح المعاني» (١٢/١٦٩)، و«التيسير» (ص١٢٦)، و«النشر» (٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٥٣٨).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) «التيسير» (ص١٢٦)، و«النشر» (٢/٩٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٥٣٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/٣٠٨).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٠).

(٩) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٠).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد[١] ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ قال: في ملكهم وتجبرهم، وتركهم الحق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ من طريق ابن جريج، قال: قال ابن عباس[٢]: ﴿أُتْرِفُوا فِيهِ﴾: أبطروا فيه.

وأخرج الطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن جرير[٣]، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يسأل عن تفسير هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً».

وأخرجه ابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوي الأخلاق» موقوفاً على جرير[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم[٥]، عن الضحاك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: أهل دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هدى.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦]، عن ابن عباس ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قال: أهل الحق وأهل الباطل ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: أهل الحق ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرحمة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر[٧]، عنه ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨]، عنه، قال: لا يزالون مختلفين في الأهواء.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عطاء بن أبي رباح[٩]

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٠) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٠) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه الطبراني رقم (٢٢٨١) موقوفاً، والديلمي رقم (٧٤٠٠). وفي سنده عبيد بن القاسم الكوفي «متروك».
(٤) أخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» رقم (٦٥٦).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٣) تعليقاً.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٥) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٦).
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٣) بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٤) بسند ضعيف.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية. وهم الذين رَحم ربُّك الحنيفية.

وأخرج[1] هؤلاء عَنْ الحسن في الآية قال: الناس مختلفون على أديان شتى إلا مَنْ رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للاختلاف.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن مجاهد[2] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قال: أهل الباطل ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: أهل الحق ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرحمة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة[3] نحوه.

وأخرجا عن الحسن[4] قال: لا يزالون مختلفين في الرزق.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[5]، ولذلك [٢/٦٥] خلقهم قال: خلقهم فريقين فريقاً يرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يُرحم يختلف، فذلك قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[6]، في قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيتْ الرسلُ قبلك مِنْ أممهم.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس[7]، قال: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ قال: في هذه السورة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٥) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٤) من طريق عطاء الخراساني.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٥) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٥) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٤٣) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» رقم (١٠/٣١٦)، وسعيد بن منصور رقم (١١٠٨ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٩٦) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي موسى الأشعري[١] مثلهَ.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ، عن سعيد بن جبير[٢] مثله أيضاً.

وأخرج أبو الشيخ[٣] عن الحسن مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٤]، قال: في هذه الدنيا.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة[٥] ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: منازلكم.

وأخرجَ ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن جريج[٦] ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ قال: يقول انتظروا مواعيدَ الشيطان إيّاكم على ما يُزيّن لكم، وفي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ قال: فيقضي بينهم بحكم العدل.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابنُ الضريس في «فضائل القرآن»، وابن جرير، وأبو الشيخ، عَنْ كعب[٧] قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة «هود» ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٤٣ ـ ٦٤٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٤٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣١٦) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٩٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٩٦) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٢١٣) من طريق سعيد بن أبي عروبة به. بسند صحيح.

● وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٠٩٧) بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير، به.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٤٨ ـ ٦٤٩) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/٦٤٩)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (١٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٣٧٨) بسند حسن لغيره.

فهرس موضوعات الجزء الرابع

الموضوع | الصفحة

فهرس سورة الأنفال

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❁ ❁ ❁

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 298749